

السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر الأمير غزالي للفكر القرآني

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في تاريخ الجزيرة العربية

وبلدان الخليج

رقم (٢)

حياة تيموتسجين (بنكير فان)

الذي فكر في السيطرة على العالم

الشخصية والعصر

تأليف: ي. إ. كيتشانوف

تقديم ومراجعة

قسم الدراسات والنشر بالمركز



معهد الدراسات الشرقية
المجمع العلمي الروسي
(فرع سان بطرسبورغ)



مركز جامعة الماجد
للثقافة والتراث
دبي

حياة تيموتشجين (جنكيز خان) الذي فكر في السيطرة على العالم

الشخصية والعصر

ي.إ. كيتشانوف

تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر بالمركز

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
197446
1250104
اصراع
2005-3-21

حقوق الطبع محفوظة
لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبي
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

السلسلة المشتركة

البحوث والمصادر في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج

هيئة التحرير:

يوري بيتروسيان، يقيم ريزفان

أنس خالدوف

حياة تيموتشجين (جنكيز خان) الذي فكر في السيطرة على العالم

الشخصية والعصر

ترجمة: د. طلحة الطيب

فورمة: أوليغ شاكروف

First Publication: Dubai, Juma al Majid Center for Culture and Heritage, 2004.

All rights reserved. No. part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior permission of the copyright holders.



الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وبعد:

في إطار التعاون العلمي والثقافي القائم بين مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ومعهد الدراسات الشرقية للمجمع العلمي الروسي فرع سان بطرسبورغ، قررت المؤسسات الاشتراك في ترجمة سلسلة من البحوث والدراسات الروسية المتعلقة بالجزيرة العربية، وبلدان الخليج ونشرها، ومن بينها هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للباحث العربي والمسلم في جميع أنحاء المعمورة، والموسوم بـ: **حياة تيموتشجين (جنكيز خان) الذي فكر في السيطرة على العالم - الشخصية والعصر - تأليف: ي. إ. كتشانوف.**

وينبغي أن نشير هنا إلى أن ما يرد من الآراء في هذه البحوث والدراسات، لا يعبر عن رأي المركز، ولا اتجاهه، وإنما القصد من التعاون في نشرها تمكين الباحث العربي والمسلم من الاطلاع على وجهة النظر الروسية في تقييمها وتحليلها للقضايا محل الدراسة والبحث، إضافة إلى وجهة النظر الغربية التي يدركها من قبل.

ومثل هذا العمل نعتقد أن له أثراً كبيراً في إثراء الفكر، وتوسيع مجال التفكير والاستنباط، والتمكن من فهم الأمور بشمولية أكبر من ذي قبل، والوصول إلى تفاصيل ما كان لها أن تظهر لولا الله ثم الرأي الآخر المعاكس.

ونحن نأمل أن يتحقق من إصدار هذه السلسلة الغاية والأثر الذي قصده المركز، والمشار إليه أعلاه، خدمة للأمة والإنسانية، وتقريبها من الحقيقة أقصى ما يمكن.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

قسم الدراسات والنشر

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

«في غضون ذلك كان بعيداً يحارب
 بضراوة وعدم استعجال أذفت ساعة
 الميلاد وهبه الإله ابناً بطول ذراع»
 أ. بوشكين

يقال إن إيسوغاي باتور، والد تيموتشيجين - الذي صار فيما بعد جنكيز خان -
 كان لديه عدة زوجات من قبائل مختلفة، وأكبر زوجاته ويلون، والدة
 تيموتشيجين، التي فاز بها قسراً من إكي تشيلدو الميركيتي.

واليكم تفاصيل الواقعة:

«عندما كان إيسوغاي يصطاد الطير على ضفاف نهر أنبون، التقى بغتة إكي
 تشيلدو الميركيتي، الذي كان عائداً من حفلة زفاف إحدى فتيات قبيلة أولوخون،
 وعندما نظر إيسوغاي إلى العربة راعه حسن جمال الفتاة النادر، فأسرع عائداً إلى
 المنزل للاستعانة بشقيقه الأكبر نيكون تاي تشجي، والأصغر داريباي أوتشيغين،
 عندها تملك الخوف إكي تشيلدو، فأسرع يضرب بفخذه فرسه خوردون خوياً
 محاولاً الاختفاء بين التلال. ولكن الأشقاء الثلاثة اقتفوا أثره من غير توقف، ولما
 بلغ تشيلدو قمة التل، عاد ثانية إلى عربته، فخاطبته ويلون سائلة:

- ألم تدرك مرام هؤلاء الرجال؟ إن سماتهم تدل على أن الأمر يدور حول
 حياتك، فإذا ظللت على قيد الحياة معافى فإن النساء في كل عربة لموجودات،
 والزوجات في كل دار قابعات، ومن الواضح سيكون عليك أن تطلق اسمي
 «ويلون» على فتاة أخرى، أنقذ نفسك وارحل.

وحينها برز الأشقاء الثلاثة من خلف الأكمة ، ساعتها انطلق تشيلدو واخراً
بمهمازيه حصانه خوردون خوبا مبتعداً عن مطارديه على مجرى نهر أونون ، فاقتفى
الأشقاء الثلاثة أثره إلى مسافة سبعة فراسخ ، وبعدها عادوا لويلون فأخذ يسوغاي
بعنان فرسها ، بينما تقدمهم الأخ الأكبر نيكون ، أما الأصغر داريتاي فكان يسير
ملاصقاً لهم ، وساعتها قالت ويلون :

- يا أبتاه تشيلدو لم يداعب الهواء خصلات شعرك المتجمعد ، ولم تجع يوماً
بالأرض اليباب ، ماذا جرى لك الآن؟

بصوت عال لدرجة أن :

نهر الأونون انفعل

وطار الصدى على الجبل

وقريباً من المنزل أخذ داريتاي يهدئ من روعها :

سارق قلبك عبر الفيافي والقفار

والذي تبكيه قطع الحقول والأنهار

فمهما صوت فلن يعيرك نظرة

ومهما بحثت فلن تجدي أثره ، فكفى حسرة!

وهكذا هدأ من روعها داريتاي ، ثم أخذ يسوغاي ويلون إلى داره ، وهكذا تم
اختطاف ويلون أوتشجيني . [السيرة المكنونة ، ص ٨٤-٨٥].

لم يكن للفتيات المغوليات في قديم الزمان الحق في اختيار أزواجهن ، بل كان
وليد المصادفة أو من اختيار الوالدين . لم يكن في العرف المغولي الزواج من ذوي
القربى ، بمعنى أن المغولي لا يحق له الزواج من ذوات القربى .

عاشت العشائر المغولية على أراضي رعوية مشتركة ، وعندما يريد المغولي
الزواج من فتاة كانت عشيرته تهاجر من أجلها إلى مسافات بعيدة ، وهذا في الغالب

الأعم يخص الأسر المتميزة، التي تلتزم بالمحافظة على العادات والتقاليد الزوجية، ومن أجل الزوجات كانوا يرحلون إلى أبعد المسافات لاختطافهن، كان تشيلدو ينتمي لنبلأ الميركيت (وهذا ما ينفي قول إيساي كالأشنيكوف في روايته «القرن القاسي» حيث جعل من تشيلدو أجيراً فلاحاً شبه حر. نحن نعرف على وجه الحق كيف حصل تشيلدو على ويلون. أعن طريق التأمير مع والديها أم اختطفها عنوة، ولكن من الواضح أن ويلون كانت معجبة به، وإلا ما كانت تهديه قميصها في ساعة الوداع، ولم تبك عليه ولا على مصيرها، وعندما أخذوها باكية للمربط لم تكن تعرف أن الذي نظر إليها في عربتها وخاطفها من حبيب قلبها تشيلدو بيد سيد قومه، أخذاً بعنان فرسها إنه يسوغاي باتور، وأنه قد كتب عليها أن تكون أما لابن ذكر. اسمه فقط بيث الذعر في شعوب بأكملها من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي . . .



الهجرة غرباً

«داكنة هنا مراتعنا على السفوح صيفاً
تغطيها الأغنام بأبيض الألوان وتشعلها
الشمس بلون أحمر قان شتاء يكسوها
الجليد بالضياء حيث تجاذب الحديد ثلاثة
فتية عن الألوان»
أ. ن. مايكوف

من هم المغول ومن أين جاؤوا؟ سؤال ليس بالسهل الإجابة عنه . من المؤكد علمياً أن المساحة التي تشغلها الآن جمهورية منغوليا الشعبية ، حيث تدور أحداث روايتنا، فعلى مشارف عهدنا الحديث عاشت شعوب الغون الذين ينتمون عرقياً لشعوب (الترك؟ المنغول؟ الصاموديين؟) وسيطروا عليها، وهذا غير مؤكد، تلاهم مباشرة في السيادة على المنطقة الجونجوانيون ذوو الانتماء (الأفاري، الأوبوريون ذوو الأصول الروسية) والسيانيون، ثم تلاهم في السيادة عليها الكاغانات التركية والأويغورية والقرغيزية ، في المدة من القرن السادس إلى العاشر الميلادي .

أصل كلمة «مغول» كما ورد في الطبعة الأخيرة من كتاب تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية في التفسير الحديث، تحتل عدة شروح، كما أن علم التاريخ الحديث حتى يومنا هذا لا يمتلك تفسيراً موحداً لمعنى كلمة «مغول». «إن الاقتراح الأقرب للواقع أن أصل كلمة «مغول» - التي كانت تعني في البداية قبيلة واحدة - أصبحت اسماً جامعاً يحمل في ثناياه الشعوب والقبائل المغولية كافة» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية ١٢٤].

يرى رشيد الدين أن أصل كلمة «مغول» كانت تعني «الواسن»، أو «الضعيف»، أو «بسيط السريرة»، أو «صافي القلب» [رشيد الدين، المجلد الأول، ص ١٥٤].

يعتقد الأكاديمي ي. شميدت - عضو أكاديمية العلوم الروسية أن «مغول» تعني «شجاع»، أو «متفاني»، أو «غير هياب»، ويرى ب. راتشنيفسكي في تفسير هذه الكلمة تقليلاً من الشأن، فيورد كلمة «مونغوو» بمعنى «غبي»، وعليه يصبح بودونشار مونغاككا «بودونشار الغبي»، أو «بودونشار العبيط». [راتشنيفسكي، ص ٥].

ويورد راتشنيفسكي وجهة نظر جذابة في مونوغرافيته: إن من المعلوم أن أسرة لياو الكيدانية - التي حكمت في أواسط آسيا وشمال الصين في بداية القرن العاشر، وسميت بـ «الحديدية» - في الغالب أنها أبيتد وقامت دولة خاماغ منغول أولوس^(١) في منتصف القرن الحادي عشر، ولقد أسماها المغول بـ «مونغو»؛ أي «القضية». وقد استتب لهم الحكم في أواسط مانتشوريا عقب إسقاطهم سلطة الكيدانيين وقضائهم على دولة لياو تشجور تشجينية، ثم أسموا دولتهم تسيزين أي «الذهبية» [المصدر نفسه] إن في هذا الرأي لشيء من المنطق.

إن المصادر الصينية تقدم الدلائل المقنعة، التي تسمح بتتبع تاريخ المغول القديم حتى قبائل السيابي، إن صلة القرى المباشرة بين المغول الأوائل والغون - التي يكتب عنها أحياناً - لا تعدو أن تكون أمنية مجردة، وذلك على ضوء الدلائل العلمية التي بحوزتنا اليوم.

ورد اسم المغول أول مرة باسم مينيو أو مينو في القصص التاريخية القديمة والحديثة لأسرة «تان» الصينية (٦١٨-٩٠٨ م) باسم «تسزيو تان شو» وسط قبائل

(١) أولوس: وتعني دولة. المغرب.

«الشيواي». في صياغات التاريخ القديمة لأسرة «تان» «تسزيو تان شو» ورد أن «الشيواي مجموعة خاصة داخل أسرة كيدان، الواقعة دولتهم على بعد سبعة آلاف «لي»^(١). لا يوجد فيها ملك ولا أولياء، بل يوجد سبعة عشر من كبار الحكام المسمين بـ«مخيفو»، ويتوارثون الحكم على الرغم من أنهم يعتمدون على الترك. كانوا يستخدمون الأقواس القرنية والسهام الخشبية «خو» (تالئك؟ من أنواع العتاد الحربي)، وبلغوا في ذلك شأنًا^(٢)، وأحياناً يخرجون إلى الصيد بالحراب^(٣). وبعد انتهاء الأمر يتفرقون، كما كانوا يفلحون الأرض أيضاً ولا يدفعون عليها ضرائب، ويشيدون منازلهم ويسقفونها بالجلود، كانت المجموعة السكنية تضم عشرات العائلات وأحياناً تصل إلى المئات.

تصنع المحاريث عندهم من جذوع الأشجار التي يدببون رؤوسها، ويحرثون بها الأرض من غير أن يضعوا لها رؤوساً معدنية، ولفلاحة الأرض تستخدم القوة البشرية عوضاً عن الثيران، التي لا يسمح باستعمالها لحرث الأرض. في الصيف يكثر الضباب والأمطار، وفي الشتاء الجليد والصقيع.

يربون الكلاب من الحيوانات الأليفة والخنازير للأكل، أما الجلود فيتم دبعها ويحيكون منها أزياءهم. وإذا نظرنا إلى مظهرهم نلاحظ أن الشعر منكوش، وأن ملابسهم تزرر على الجانب الأيسر، أما الأسر الغنية فكانت تستعمل أنواع اللؤلؤ المختلفة ذات الألوان الخمسة للزينة.

القوانين التي تنظم الزواج هي: قبل دخول بيت الزوجية ينبغي على الخطيب العمل في بيت أهل خطيبته ثلاثة أعوام ليتعرف خطيبته عن كسب، وبانقضاء مدة (١) لي: وحدة قياس صينية قدرها ٦٠٠ متر. المغرب.

(٢) إن المصادر اللاحقة تشير إلى أن المغول كانوا يصنعون سهاماً من أعواد الصفصاف، أما الباحثون المعاصرون فيسمون المغول «رماة السهام المهرج».

(٣) إن الحرية ظلت واحدة من الأسلحة الأساسية عند المغول في منتصف القرن الثاني عشر.

العمل تحمل أسرة العروس الزوجين نصيبهم من الممتلكات على عربة مصحوبين
بالرقص وضرب الطبول إلى بيت الزوج.

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURĀNIC THOUGHT

يقولون إنه في عهد أسرة تان الحاكمة توجد تسع قبائل من «الشيواي»، وشمال
الجبال الكبرى تعيش قبائل الشيواي الكبرى قرب نهر «فانتسزيانخي»، تقع منابع
هذا النهر على الحدود الشمالية الشرقية من المناطق التي يسيطر عليها الترك في
بحيرة تسزيويلون، ومنها ينطلق متعرجاً إلى الشرق عبر الشيواي الغربية، ويواصل
جريانه مجدداً نحو الشرق مخترقاً الشيواي الكبرى، وفي أقصى الشرق يجري
شمال بحيرة مانو شيواي [شيواي المغول]، ومن ثم يواصل جريانه شرقاً إلى
البحر». [تسزيو تان شو، تسزيوان (وتعني حرفياً «الفصل» ١١٩٦، ص ١٦٧٣].

توجد مفارقات وإضافات في أصول مخطوطات التاريخ الحديث لأسرة تان
«سين تان شو» على الرغم من أن مكان استيطان الشيواي ومركز انطلاقهم يسمى
«خوانلون»، المنطقة التي تبعد شمالاً من المدينتين الحديثتين شانيان وكايوان
الواقعتين في مركز مانتشجوريا، التي تحتل كل مساحة جيرينيا إلى الشرق حتى
الحدود الداخلية لمنغوليا.

لا يسمّى حكام الشيواي «موخيفو» بل «موخيدو»، يضاف إلى ذلك أن
الضعفاء منهم، قرابة ألف عائلة، يقومون بخدمة العائلات الأكبر قوة، الذين يفوق
عددهم الآلاف من العائلات.

«يعيشون مشتتين على ضفاف الأنهر باحثين عن الماء والكلأ»، ولم يخضعوا
بعضهم لبعض «على الرغم من أنهم كانوا مقدامين وغير هيايين ويحبون الحرب،
إلا أن قواتهم لم تكن بالكفاءة المواتية لإنشاء دولة قوية»، بينما يضيف «تسزيو تان
شو» أن فلاحتهم الأرض لا تعود عليهم إلا بمحصول قليل. أما عن العادات
والتقاليد الأسرية فيؤكد أنه في حالة موت الزوج لا يحق للزوجة الزواج مرة

أخرى، وفي طقوس الدفن لكل مجموعة من الشيواي مقابر جماعية معدة على شكل سقائف، وعليها يضعون جثث موتاهم ويلبسون ثياب الحداد عليها ثلاثة أعوام، أما في حالة موت الحاكم فإن ابنه يرث الحكم من بعده، وإذا لم يكن للحاكم ابن يرثه يؤول الحكم إلى الشجاع والحاسم.

تنتقل قبائل الشيواي على عربات تجرها الثيران، يصنعون منازلهم من الضفائر التي تغطي بالجلود، أو يحنون جذوع الأشجار ويسقفونها بالضفائر، ولعبور الأنهار كانوا يعدون طوافات وقوارب جلدية.

أما الخيول فيرعونها بصحبة شخص، يضاف إلى ذلك أن النعاج تفتقد في عداد الحيوانات المنزلية، ويلاحظ قلة اهتمامهم بالخيول. يسمي الشيواي ملابسهم المحاكاة من الجلود «موخا»، يقال إن هناك أكثر من عشرين قبيلة من الشيواي بدلاً من التسع المذكورة عند تسزيو تان شو، إن النص الذي يهمننا عن قدماء المغول ورد كما يأتي: «في الشمال جبال كبيرة وخلفها يعيش الشيواي الكبار، الذين يقطنون على ضفاف نهر شيتسزيانخا؛ (أي أعالي أمور الاسم الذي بقي في تسمية نهر شيلكا)، هذا النهر ينبع من بحيرة تسزيلولون، ويجري شرقاً، وجنوبه تعيش قبيلة مينوا، وشمالها قبيلة لوتان» [تسين تان شو، الفصل ٢١٩ ص ١٦٧١].

تسمى الشيواي في المصدرين سلالة خاصو من الكيدانيين، ومن اسم هذا الشعب كلمة «الصين» (كيتاي بالروسية). إن صلة القرى بين قبيلة الشيواي والكيدانيين ذكرت بشكل واضح في المصادر الأكثر قدماً، وبخاصة عند «سوي شو» الذي قال: «الشيواي والكيدانيين من أصل واحد، فالذين كونوا الجزء الجنوبي أسموهم بالكيدانيين، أما الشمالي فأسموهم الشيواي» [سوي شو، الفصل ٨٤، ص ٦٠٢].

إن مجموعة من الباحثين، ولعلمهم محقون في ذلك، يرون أن أول ذكر لكلمة شيواي كان من أصل الكلمة المعروفة لدينا (سيبيريا). إن الباحثين في تاريخ الصين في أعمالهم الأخيرة يصنفون كل الشيواي كنتار، كما ورد عند [يوان تشاو شي المجلد الأول، ص ٦] (١). في عهد مملكة لياو، وبالأحرى في القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر أطلق على التتار - الشيواي في المصادر الصينية - تسمية تسزويو. إن قبائل الشيواي التي ينتمي إليها المغول - كما يبدو لنا جلياً - تربطهم صلة القربى بالكيدانيين، وفي بعض المصادر كونوا القسم الشمالي منهم، بما أن صلة العلاقة بين اللغة المغولية والكيدانية في الوقت الراهن لا تخضع للشك من قبل العلم الحديث إنما تسمع بالتأثير الواضح للغات التونغوتو المانتشوجورية، فمن المحق لنا أن نعدّ الشيواي مجموعة قبائل متكلمة في الأساس باللغة المغولية، يتبقي لنا سؤال حول أماكن وجود المغول القدماء.

توصل كوماي يوسياكي إلى أن مجموعة قبائل الشيواي التي تسمى المغولية عاشت على الضفة الجنوبية لنهر أمور، غرباً من مصب نهر سونغاري في أمور، وشرقاً من سلسلة جبال خينغان الصغرى. [كوماي يوسياكي، ص ٣٢٩-٣٣٠].

توصل العالم الياباني تامورا دزيتسودزو أيضاً إلى أن «المغول آنذاك عاشوا حياة تنقل على السهول الواقعة جنوب نهر أرغون». [تامورا دزيتسودزو، ص ٣-٤].

توصل ل. غامبيس على ضوء المصادر نفسها إلى أن المصادر القديمة تذكر أن المغول توطنوا في الغرب من المجرى العلوي لنهر نوتّي، ومن الجائز في الجزء (١) إن تسمية التتار قد وردت في الاستعمال الأوربي عند الراهب يولييان سفير الملك المجرى بيلي الرابع. وكان يطلق هذه التسمية على البولوفيين في الأعوام ١٢٣٥-١٢٣٧، وفي محاولته لفهم هذه أو «دار الحشر». لفظ التتار في معنى بلاد التتار استعمالها أيضاً أ. مايكوف (انظر العبارة المتبسة في مقدمة هذا الفصل).

الشمالي من المقاطعة الواقعة بين بحيرة ونهر كيوليون حيث ينبع نهر أرغون المكون الأساسي للجزء الأعلى لنهر أمور وجنوبه [ل. عاميس، التاريخ، ص ١٣٠].

بناءً على ما سبق توحدت آراء المتخصصين على أن المغول القدماء عاشوا جنوباً في أواسط مجرى نهر أمور بين خينغان الصغرى والمجرى الأسفل لنهر سونغاري، أو على الضفة الجنوبية للمجرى الأسفل لنهر أرغون، والأعلى لنهر أمور. أما رشيد الدين فيسمى المكان الذي عاش فيه قدماء المغول أرغونا كون، لماذا، كيف ومتى غادرها المغول للاستيطان غرباً على الأراضي التي تقع عليها حالياً جمهورية منغوليا الشعبية الحديثة؟ يبدو جلياً أن الأسباب هي الحروب الداخلية، وهجمات الجيران.

يربط الباحثون الصينيون الهجرات بقضاء القييرغيزين على الكاغان الأريغوري، ويعتقدون أن من اسم الأويغور جاء اسم التتار (الترك الشيواي)، ومن ثم دخل التتار إلى المناطق الصينية إثر سقوط سلطة الأويغورين في منتصف القرن التاسع الميلادي وهجرتهم من غرب وجنوب الشيواي مستفيدين من ضعف دولة القييرغيزين وسلطتها السياسية في منطقة وسط آسيا، فبدأوا في استيطان «الأماكن الشاغرة»؛ ومن المعلوم أن الشيواي قد هوجموا من قبل القييرغيزين عام ٨٤٧م والكيدانيين بين الأعوام ٨٨٥-٨٨٧م، إذا كان مذكوراً في النصوص التركية (نقوش في ذكرى كيول تيغين) أن التتار قد ورد ذكرهم أول مرة في الأعوام ٧٣١-٧٣٢ فقد ورد في النصوص الصينية في أعوام أقرب لهجرتهم أي ٨٤٢م.

إن واقع هجرة المغول تجدها قبل كل شيء في الأساطير المغولية الشفوية، «كان جد جنكيز خان بورتيتشينو مولوداً بإرادة السماء العليا، زوجته كانت غوامارال، وقد ظهروا إلى الوجود عابرين تيغيس (بحر داخلي)، مارسوا الرعي في منابع نهر أنون، على بورخان خالدون، ومن أنجالهم كان باتا تشيغان. [الأحاديث المقدسة، ص ٧٩].

تنسب المصادر المغولية الحديثة المترجمة بتقاليد التدوين البوذي سلالة جنكيز خان بورتشي تشينغو إلى التبت، تلك الدولة التي جاءتهم منها الديانة البوذية.

من الجائز أن بداية حركة المغول إلى الغرب بدأت في منتصف القرن الثامن^(١)، ومن الجائز أن تكون الحروب مع الكيدانيين هي الدوافع إلى الهجرة، كتب في ذلك رشيد الدين: «لقد تعرض المغول لبطش ومذابح على أيدي القبائل الأخرى التي انتصرت عليهم، ولم يبق منهم غير رجلين وامرأتين، ومن الهلع والخوف هربت هاتان الأسرتان من مطارديهم، سالكين الأماكن الوعرة غير المطروقة التي تحدها الجبال والغابات، ولا يمكن الوصول إليها، ولا توجد فيها طرق، عدا درب ضيق المسلك، لا يمكن عبوره إلا بصعوبة جمّة، وسط هذه الجبال سهل مليء بالأعشاب، وذو مناخ طيب، وتسمى هذه المنطقة ارغوني كون، ويرجع معنى كلمة «كون» منحدر صخري، وكلمة «ارغوني» حاد، أي بمعنى آخر الهضبة الجبلية ذات الانحدار الشديد، أما اسما هذين الشخصين فهما نوكوز وكيان اللذان سكنا تلك المنطقة، ومن بعدهم أنجالهم الذين بقوا مدة طويلة وتكاثروا. [رشيد الدين. الجزء الأول، الكتاب الأول، ص ١٥٣].

من الممكن أن هذا قد تم قبل هجوم الكيدانيين، فمنذ هروب المغول من الأعداء استقطنوا في ارغوني، كون منطقة على خنغان الأكبر ونهر أرغوني، إن المغول ظلوا ضعفاء إلى وقت ما. «كلمة "مغول" كانت تلفظ "مونغول"؛ أي بمعنى الضعيف والمغفل».

(١) افترض رشيد الدين أنه عندما حانت ولادة جنكيز خان (يناير - فبراير عام ١١٥٥) كانت سلالته قد بلغت من العمر «قرابة الأربعمئة عاماً» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٨] أي إنه بدأ تقريباً من منتصف القرن الثامن، والسبب في بداية هجرة التتار، فلقد رأى رشيد الدين «الصراع مع القبائل الأخرى».

تكاثر المغول في منطقة أرغوني كون، وأصبحوا ذوي مهارة عالية في صهر الحديد وأعمال الحدادة، وحسبما تذكر الروايات القديمة كان الفضل في خروجهم من قبضة الجبال الضيقة إلى السهوب المغولية الفسيحة، حيث يجري نهر كيرولين الأزرق، وأوتون الذهبي يعود إلى مهارتهم في صهر الحديد، «وهكذا وجدوا منطقة غنية بخام الحديد، حيث مارسوا صهره بشكل دائم، لممارسة الصهر كانوا يلتقون مع بعض لجمع الأخشاب والفحم الذي تبلغ أوزانه قناطر، ثم يذبحون سبعين رأساً من الثيران والخيول، ويتم سلخها، صانعين من جلودها منافخ للحدادة (أكوار)، وبعد إعداد المكان توضع الأخشاب والفحم على سفح المنحدر الجبلي حيث إن المنافخ السبعين عندما تعمل تحت الخشب والفحم توججها بالثيران إلى أن ينصهر السفح الجبلي، وهكذا تم الحصول على كميات غير محدودة من الحديد، ومن ثم شق ممر للعبور استغلوه للانتقال من المكان الضيق الذي عاشوا فيه إلى السهوب الرحبة». [رشيد الدين . المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٥٤].

من المؤكد أن سلف جنكيز خان بورتي تشينو كان من هؤلاء الذين خرجوا من مضائق أرغوني كون، ومن الواضح أن الجبل الذي تحتم صهره كان من الممكن تجاوزه بالمرور من حوله، وهذا بالفعل ما قام به الخونغيراتيون وبعض القبائل المغولية الأخرى، وفي عهد جنكيز خان صارت أسطورة «صهر الجبل» مشكوك فيها. يقول رشيد الدين: «إن مجموعة المغول التي عاشت في ذلك الوقت وعاصرت أسطورة أرغوني كون تؤكد أنه على الرغم من صعوبة المكان للمعيشة إلا أنه ليس إلى ذلك الحد الذي يقولون عنه، والهدف الوحيد من صهر الجبل فتح طريق آخر للمجد» [المصدر نفسه].

على كل الأحوال إن أسلاف جنكيز خان ينحدرون من أصول صناع المعادن المشهورين، عبر القرون عاشت أحداث هذه الحبكة الروائية وتطورت، التي

نصادفها عند السيانبيين في المدة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين . إن الترابط بين أساطير المغول والسيانبيين أيضاً يلاحظ في رواية أخرى ، ومغزاها يعود إلى أن كل غصن على حدة يسهل كسره ، ويستحيل ذلك وهي مجتمعة (١) .

كانت لدى دويون ميرغان - سلف جنكيز خان - زوجة تدعى آلان غوا «جميلة جداً، ومن أصل نبيل وعندما وطأت أقدامها دار دويون ميرغان ولدت ابنتين يدعيان بوغونوتاي وبيلغونوتاي عاجلاً أم آجلاً وافت المنية دويون ميرغاي»، وبعد موته ولدت أرملة من غير زواج ثلاثة أولاد، هم بوغو خاداغي، وبوخاتو سالتشجي، وبودونتشار الأهل، أما بيلغونوتاي وبوغونوتاي الأبناء الكبار المولودون من دويون ميرغان فصارا يتحدثان خفية عن أمهم قائلين: «ما أمر والدتنا قد أنجبت ثلاثة أبناء ولم يكن لديها لا إخوة أبائنا ولا أبناء عمومته ولا حتى زواج (٢)»، والرجل الوحيد في الدار الذي يفترض أن يكون من صلبه هؤلاء الأولاد الثلاثة هو ما أليخ باياوديتس» .

بلغ هذا القول سمع أمهم، وفي يوم ربيعي أعدت آلان غوا لأبنائها طعاماً من لحم الضأن المجفف، الذي بلغ لونه الإصفرار، وأجلست حولها أبناءها الخمسة: بيلغونوتاي، وبوغونوتاي، وبوغو خاداغي، وبوخاتو سالتشجي، وبودونتشار الأهل، وأعطت كلاً منهم غصناً جافاً، وطلبت من كل واحد أن يكسر غصنه، ففعل كل واحد منهم ذلك بسهولة، عند ذلك أعطت كل واحد منهم حزمة من خمسة أغصان جافة ومربوطة ببعضها، وطلبت منهم كسرها، فهبوا في لحظة واحدة ضاغطين بقبضاتهم لكسر الحزمة الغصنية، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك،

(١) كما قال الشاعر العربي:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت أحاداً . المعرب .

(٢) مورست عند قدماء المغول عادة توارث الزوجات، فإن الشقيق كان يرث زوجة شقيقه

المتوفى، بل من الواجب عليه أن يتزوجها .

عندها قالت آلان غوا: «أبنائي يبلغونوتاي وبوغونوتاي، حكمتما علي، وفيما بينكما تقولان إنني قد أنجبت ثلاثة أبناء، فمن هو والدهم؟ ولعلكما محققان في شككما، ولكن كل ليلة عندما تظلم ويضاء السراج داخل بورتا^(١) يدخل علي رجل أشقر عبر مخرج الدخان، فيمسح علي جوفي، وحينها يلج نوره إلى جوفي، ويخرج عند التقاء القمر والشمس مخربشاً كأنه كلب أصفر، فما هذا الهراء الذي تقولاه يا أبنائي؟ فإذا حكمتنا العقل في كل ما جرى فإن أبنائي موسومون بختم سماوي، فكيف تجرأتما علي التقول عليهم كما تحدثون عن البسطاء الزائلين؟ فعندما يصبحون قياصرة القياصرة وخانات علي الجميع، عندها سيدرك البسطاء الحقيقة».

واصلت آلان غوا في وعظ أبنائها قائلة: «يا أبنائي الخمسة! كلكم خرجتم من رحمي كمثل الأغصان من تلك الحزمة، فإذا انفرد كل منكم بفعله وقراره سهل كسره كالأغصان الخمسة على الانفراد، أما إذا عشتم في وئام وتوحدتم كتلك الحزمة من الأغصان فكيف يتأني أن تكونوا لقمة سائغة؟». [السيرة المكنونة، ص ٨٠-٨١] (٢).

يرجع نسب جنكيز خان إلى بودونتشار الابن الأصغر لآلان غوا. ويتقسم المغول إلى قبائل نيروانية وبورجيجينية (دارليكينية) إلى الابنين الأولين لآلان غوا

(١) بورتا: خيمة من الشعر عند القبائل المغولية، لها فتحة لمخرج الدخان في قمته. العرب.
(٢) حسب ما ورد عند رشيد الدين إن آلان غوا قد حبلت من أشعة النور «عبر فتحة الدخان في اليورتا دخل شعاع وتغلغل في أحشائها، لقد اندهشت لهذه الواقعة وروعت منها، ولم تخبر كائناً من كان بذلك، وبعد مرور مدة من الزمان فهمت بأنها حبلت» عللت لأبنائها الذين أخذوها على ذلك بقولها: «في كل ليلة أرى في الحلم شخصاً أشقر الشعر وأزرق العينين بطيشاً بطيشاً يقترب مني وبهدوء يرجع إلى الخلف، إنني أراه بأمر عيني». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٤].

ودبون ميرغانا. ويرجع نسل النيروانيين (الأنقياء) الذين هم أجداد السلجوقيين والختاكينيين (الأنقياء)، تميز نسل بودونتشار البورجوغيون بشعرهم الأغر وعيونهم الصافية (الزرقاء واللازوردية)^(١).

إن أسطورة الميلاد العجيب ليست بالغريبة ولا النادرة في تلك المنطقة، إننا نعلم بوجودها عند مجموعة من الشعوب، مثلاً أقرباء المغول من الكيدانيين لديهم أسطورة مماثلة.

في ذات ليلة وفوق ذلك المكان الذي نام فيه أبواتسزي مؤسس أسرة لياو الكيدانية «بزغ نور أفزع وأدهش جميع من حوله»، وعند مخاض شوليوي بابنها - الذي صار فيما بعد الإمبراطور تاي تسوزون - «غطت سحابة سوداء خيمة الشعر (يورتا) ولمعت نار، وصارت أصوات مسموعة كهزيم الرعد».

«ذات يوم عندما خرج تاي تسوزون مصطحباً تاي تسزو، وعند وصولهما إلى منطقة سيلاو ظهر فوقهما نور أحمر وسحب أرجوانية اللون، الشيء الذي حير جميع من كان حولهم». [ي لون لي، ص ٤١-٥٤].

في «التاريخ السري» تختلط الأسطورة والواقع بشكل إعجازي، فالحكاية التي تروى عن أسلاف المغول ذوي العجائب مربوطة بالأساطير التركية القديمة التي تستعملها في الوقت الراهن جنكيز أيتماتوف في عملية الروائيين «الباخرة البيضاء» و«المنطق»، فإننا نجد من بين أسلاف جنكيز خان أن دوفنا سوخور كان متصل

(١) في عام ٨٤٠م كسر القيزغيزيون شوكة منعة الكاغانات الأويغور، وسط القيرغيزيون عدد لا يستهان به من ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، وأكثر من مرة ذكرت فرضية أن ألان غوا جدة جنكيز خان قد ولدت أبناءها الثلاثة الأخيرين من رجل قيرغيزي، ففي الوقت الراهن مثل هذه الفرضية يؤيدها ب. راتشيفسكي الذي يفترض أن مألخ بابادوتس من الترك هو الأب الفعلي لسلالة جنكيز بودونتشار. [راتشيفسكي، ص ١٣].

العينين، كما نجد بوندوننتشار الابن الأصغر لآلان غوا أنه ليس إلا «إيفاد الأهبل»^(١) المغولي، الذي كان في واقع الأمر أكثرهم ذكاء ووجد في نفسه المهارة الكافية لتكوين قبيلة قوية، ونصب أشقاه كمؤسسين للقبائل المغولية، وفي الأسطورة المغولية تصادفنا أقصوصة شائعة عن الابن الأصغر الذكي الذي نعتة أشقاؤه الكبار بالغباء، وبعد وفاة أمه (والدته) خدعه أشقاؤه في الميراث، «أبعد عمر طويل أو قصير ماتت آلان غوا ولكن بعد وفاتها شرع الاخوة الخمسة في تقسيم الميراث فيما بينهم، ولكن حصيلة القسمة أن أخذ الاخوة الأربعة كل الميراث ولم يتركوا لأخيهم بوندوننتشار حصته؛ لأنه غبي وغير مؤهل، ولا يمت لهم بصلة رحم»، عاش بوندوننتشار فقيراً بعد أن ترك إخوته «حتى صار يقات من فضلات أكل الذئب، ولكن على الرغم من ذلك إلا أنه أشار على إخوته على أن يأسروا «الهاملين» من البشر، «ويتم استخدامهم كخدم لقطعان الخيول وفي المطبخ». [السيرة المكنونة، ص ٨١-٨٢].

إن أبناء بوندوننتشار أضحوا مؤسسين للقبائل المغولية، وإن عهد آلان غوا يمكن أن ينسب إلى نهاية القرن العاشر أو بداية القرن الحادي عشر^(٢). كان للهجرة نتيجتان مهمتان: دخل المغول في علاقة اتصال مباشرة أكثر التصاقاً مع القبائل التركية، وأصبحوا يمارسون الرعي المتنقل^(٣) على السهوب والسهول الغابية.

(١) إيفان الأهبل: بطل من الحكايات الشعبية الروسية. العرب.

(٢) أشار رشيد الدين إلى أن آلان غوا عاشت قبل ثلاثمئة عام قبل أن يكتب مؤلفه. لرشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٠٣، وحسب إفادة أثنان توبتشي في القرن الثامن عشر ولد بوندوننتشار ابن آلان غوا الذي هو الجد المباشر لجنكيز خان في عام ٩٧٠م. [المدونة التاريخية المغولية، القرن الثامن عشر، ص ١٣٨].

(٣) يشير ل. ر. كيزلاسوف إلى أن عند المغول مصطلحاتهم الخاصة التي تدل على الكلاب والخيول والخنازير، أي بصورة أدق تلك الحيوانات المعروفة عند الشيبوي، أما المصطلحات الرعوية وتسمية الأغنام والثيران والجمال والبغال فإن المغول قد اقتبسوها بكاملها من الترك، =

بعد أن تأسست دولة لياو، وضع الكيدانون سكان نهر خالخي تحت سيطرتهم في عام ١٠٠٤، ثم تكوين إدارة حدودية سيبايلو تشجاوتاوسي ومركزها المدينة التي تسمى بالصينية تشنتشجاو، وبالتركية كيدون (أي خاتون)، الواقعة جنوباً من المجرى الأسفل لنهر خالخي، وفي عهد أسرة تسيزين التشجور تشجينية كانت مدينة سيبايلو تشجاوتاوسي تقع خارج المنطقة التي استوطنها التتار المغول، كانت تحكم القبائل الحدودية بوساطة زعمائها بقيادة إمبراطورية تسيزين وجلبت المواشي عندئذ تعد حارسه لحدود الإمبراطورية وتعمل لخدمتها.



وقاموا بدورهم جالين معهم من منطقة منتشجوريا النمط المستقر للعيش، وذلك مثل المنازل المربعة من غير أساس، وذات حوائط هيكلية ومدافى، ويبدو أنه خلال القرن العاشر والحادي عشر تم استيعاب ما تبقى في خالنا أو ما يسمى بجمهورية منغوليا حالياً من السكان الترك، واختلاطهم بالمغول، انظر: ل. ر. كيزلاسوف المغول القدماء في سيبيريا وآسيا الوسطى والشرقية في القرون الوسطى، التاريخ والثقافة لشرق آسيا، المجلد الثالث، نوفوسيبيرسك، ١٩٧٥، ص ١٧٠-١٧٧.

الدولة المغولية الأولى

«كل منا خالد سرمدى

كل منا بلا حدود

كل منا له الحق على هذه الأرض»

أويتمان

يرجع تأسيس الدولة المغولية الأولى «خاماغ منغول أولوس» إلى منتصف القرن الثاني عشر، وفي زمن أسرة لياو الكيدانية - جزء من أعيان المغول - منحوا مناصب وألقاب شرف من الكيدانيين، مثل لينفسين^(١) أو سياوفين^(٢)، إن المغول التتر بشكل عام كانوا يدينون بالولاء لأسرة لياو، التي تربطهم بها صلات قرى اثنية، على الرغم من أن بعض القبائل المغولية - مثل جاجيرات وميركيت - كانت تحارب الكيدانيين حروباً دامية، إلى أن تم إنهاكهم في عام ١٠٩٤م، بعد سقوط دولة لياو ساندد المغول يليوي داشي تمثل أسرة حاكمة بعد أن فقدت دولتها ودعمه بجيش يزيد عدده عن عشرة آلاف مقاتل، على الرغم من عدم تمكن يليوي داشي من إعادة السلطة لأسرة يليوي، إلا أن هذا الدعم شكل خطراً لتشجور تشيجينيين، وأدى بدوره إلى صدام بينه وبين المغول.

في الأعوام من ١١٣٥ حتى ١١٤٧ خاض المغول حرباً مع تسييزين بسبب محاولة قتل التشجور تشيجينيون لقائد المغول خابول خان. يروي رشيد الدين أن خابول خان شخصياً وأبناءه كافة «كانوا موهوبين وذوي شجاعة منقطعة النظير» حباً

(١) لينفين: قائد الحرس الحدودي.

(٢) سياوفين: منصب يعادل منصب الوزير.

في تطبيع العلاقة مع المغول «وتعبيد الطريق الواسع للمصداقة والوحدة» دعا الإمبراطور التسيزيني خابول خان إلى مقره، ولكن في أثناء الضيافة «ساور خابول خان الخوف من أنهم دسوا له السم في الأكل . . . فكان يخرج بين الفينة والأخرى . . . حينها كان الطقس حاراً . . . كان خابول خان يغطس في الماء باستمرار بحجة الانتعاش»، وبما أنه قد تمرن على البقاء تحت الماء - مصداقاً لقول بعض المصادر - «اكتسب تحمل البقاء تحت الماء لزمان يكفي لأكل حروف بكامله»، وهكذا كان خابول خان في أثناء فترة الضيافة يخرج باستمرار للترويح، فيغوص في الماء للتخلص من الأكل والشرب، ويعود للمائدة من جديد، «لقد خلقه الإله العلي قوياً وسعيداً، إن أكل لا يشبع، وإذا شرب لا يسكر ولا يتقيأ»، ولكن على الرغم من محاولته عدم السكر إلا أن النبيذ فعل فعله، فينتهي الأمر بأن تقدم إلى الإمبراطور التسيزيني «ألتان خان راقصاً ومصفقاً ثم قبضه من لحيته فأذله»، حينها أمسك بعض الحراس به فتلاشت نشوة السكر، ثم تقدم باعتذاره للإمبراطور منتظراً عقابه الحتمي، ولكن إمبراطور تسيزين قرر أنه لهذا السبب التافه لا يمكن قطع العلاقة مع المغول، «فكظم غيظه وعفى عنه» محملاً إياه بالهدايا، وأطلق سراحه. [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٣٥].

لكن تم بعث إرسالتين مؤخراً لخابول خان الواحدة تلو الأخرى طالبين منه المشول أمام قيادة دولة تسيزين، ولكنه رفض وقضى على رسل الإرسالية الثانية، الشيء الذي - بالإضافة للأسباب السابقة - ساعد على نشوب الحرب بين المغول ودولة تسيزين، إضافة إلى الأسباب السابقة. ولقد كانت الحرب ناجحة بالنسبة للمغول، ففي عام ١١٤٧ عقد صلح سلام بين المغول والتسيزينيين، تم بموجبه التنازل عن سبع عشرة محمية شمال نهر سينينخا، الذي أصبح حداً فاصلاً بين الدولتين.

تنسب المصادر الصينية هذه الحقبة إلى تولي الخان المغولي أولو بوتسزيلي (أولون بابلي) الحكم لدولة مينفو؛ (أي مينفو غو تشجو)؛ ولكن أولو غالباً لم يتمتع بلقب الحاكم في حدود محمياته، وإنما نال اللقب الإمبراطوري تسزويوان خواندي؛ أي الإمبراطور المؤسس للأسرة الحاكمة، الذي رفع شعار تيان سين بمعنى «الفجر المهدى من السماء»، ورد أولو بالرفض على اقتراح الأسرة التسيينية للتمتع بلقب غوفان. كثير من الباحثين يطابقون بين أولو بوتسزيلي وخابول خان. [كوماي يوسياكي، ص ٣٣٦-٣٣٨] (١).

ورد في «التاريخ السري» لخابول خان «أن خابول كاغان قاد كل المغول، ومن بعده آلت قيادته إلى أمباغاي كاغان»، الذي تمتع بلقب «الكاغان الشعبي وحاكم كل الأولوس» (٢). [السيرة المكنونة، ص ٨٤]. إن عبارة أولوس أون إيجين المغولية التي تعني «حاكم الأولوس» إذا لم تطابق الكلمة الصينية خواندي؛ أي «الإمبراطور» فلعلها في إطلاقها تماثل لقب غو تشجو، أي «حاكم الدولة». يسمى رشيد الدين خابول خان (الخان المغولي) «الحاكم والقائد لقبائله كافة والخاضعين له» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٣٥]. نلاحظ أن الحكام المغول القدامى كانوا يحملون اللقب السياني الجوانجواني التركي وهو كاغان (خاغان). أما اللقب «خان» - الذي يماثل اللقب كاغان - فقد ظهر مؤخراً.

لقد كان خابول خان ابناً لخايدو، الذي كان له ابن آخر يدعى باي شينكور دو كشين «الذي ينحدر من سلالة جنكيز خان نفسها، ومنه تنحدر قبيلة الكيات الذين برز منهم جنكيز خان، كما كان لدى خايدو ابن ثالث يدعى تشاراكا ي لينكو، الذي

(١) يورد ف. "فرانكي" أن إيسوغاي كان أحد حكام خاماغ منغول أولوس، أي أولو بوتسزيلي هو إيسوغاي [فرانكي، ص ٩٢]، ولكن هذا من غير الممكن، لأن إيسوغاي كان فارساً فقط؛ أي باتور، ولم يحمل في حياته لقب خان.
(٢) أولوس: الدولة.

انحدر منه تايتشويتيون، وكما كتب ل. غامبيس «أن المؤسس للمملكة المغولية الأولى» خاماغ لمنغول أولوس كان خابول خان، لهذا إن أجداد جنكيز خان كانوا ينتمون إلى سلالة الخان بشكل مباشر، لكن بصورة فرعية [غامبيس، ص ١٤]. إن «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية» يعترف بأن خاماغ مغول أولوس تعدّ اتحاداً حكومياً بدائياً. [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص ١٣].

بعد استتباب العلاقات الأمنية مع دولة تسييزين - حسب بعض المصادر - استطاعت خاماغ منغول أولوس أن تورد سنوياً خمسين ألف رأس من الماشية إلى دولة تشجور تشجيينين، التي قامت بدورها بتصدير خمسين ألف كيس من الجوب، وثلاثمائة ألف قطعة من الحرير الناعم، ومثيلها من الحرير الخشن.

لم يدم حكم خاماغ منغول أولوس وتفكك في حوالي عام ١١٦٠، إن العداوة والحرب مع التتار تعدان من أهم أسباب التفكك، وساهم في تذكية أوراها التشجور تشجيينين، والسبب المباشر للحرب مرض حاكم الخونغراتيين ساين تيغن شقيق زوجة خابول خان، فلعلاج المريض استدعي طبيب تيري، ولكن لم يأت العلاج بنتائج إيجابية، ومات ساين تيغن، ووقتها قتل أقرباء ساين تيغن الطبيب، وفي غمار المعارك الحربية أسر التتار أو كين باركاكا الابن الأكبر لخابول خان، وتم تسليمه لإمبراطور تسييزين، الذي أعدمه على «البغل الخشبي». يبدو أن الحديث يدور عن نوع القصاص «لين تشي» الذي ظهر في شمال الصين في عهد أسرة لياو الكيدانية، التي تلتخص في أن المصلوب على العمود «البغل الخشبي» كان لمدة طويلة أو لأيام عديدة تنهش القطع الهشة من لحمه، حتى المفاصل والأطراف.

سلالة تيموتشجين - جنكيز خان - يمكن سردها كالاتي:

آلان غوا وزوجها المعجزة المختار

بودونشار المغفل

باي شينكور دو كشين

تومينيائي سيتش (الجد الثالث لجنكيز خان)

خابول خان (الجد الثاني لجنكيز خان)

بارتان باتور (جد جنكيز خان)

إسو غاي باتور (والد جنكيز خان)

لا نعلم شيئاً ذا بال عن جد جنكيز خان بارتان باتور غير أنه كان جداً لفاتح العالم في المستقبل في دولة خاماغ منغول أولوس . «بعد وفاة خابول خان، لم تؤل السلطة كالمعتاد لأبنائه، إنما آلت لأمباغاي كاغان حفيد خايدو وابن أخ الجد الثاني لأمباغاي كاغان، على الرغم من أن لخابول كاغان سبعة أبناء من صلبه» [السيرة المكونة، ص ٨٤]. بينما يرى رشيد الدين أن أمباغاي كاغان فقط «حاكم لقبيلة تايجيوت» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٤٢]. إن «التاريخ السري» يرى أن أمباغاي كاغان كان «حاكماً شعيباً وحاكماً للدولة» لمدة طويلة .

خرج أمباغاي كاغان ذات يوم مودعاً ابنته إلى زوجها التتري المنتمي لقبيلة أيرود بويروود القاطنين على نهر أورشيون بين بحيرتي بويور تاور وكولين ناور، وفي هذه اللحظة اختطفه التتار التشجونيون، وأخذوه إلى ألتان كاغان الكيتادي، على يد بالاغاتشي رسوله من السلالة البيسودية . أوصى خاتولي للأوسط من أبناء خابول كاغان السبعة أن يقوم بتوصية الذي يليه خادان تاي تشجي . . . من بين أبنائه العشرة: «انتقموا لشخص الذي قام بنفسه مودعاً ابنته ككاغان شعبي وحاكم الشعب، وانتقموا بلا انقطاع مشخين العدو بالجراح، وواصلوا الطعن حتى لو تفقدوا الأظافر الخمسة، بل حتى إن لم تبق حتى الأصابع العشرة». [السيرة المكونة، ص ٨٤].

إن رواية رشيد الدين تختلف عن رواية «التاريخ السري». حسب معلوماته أن أمباغاي كاغان «سافر ليختار لنفسه زوجة»، حينها أسره التتار وأخذوه إلى إمبراطور تسيزين، الذي «حسب العادات المتعارف عليها عند الخيتاي أمر بصلبه على "البغل الخشبي"»، وقبل الموت طلب أمباغاي كاغان أن يبلغوا إمبراطور تسيزين ما فحواه أنه بقتله له سيجلب على نفسه نقمة «القبائل ودولة المغول»، «ولا شك في أنهم سينهضون من أجل القصاص والانتقام منك، فلذا ليس من المعقول إعدامي».

إن نبأ موت أنباغاي كاغان أوصله بالأغاشي إلى المغول مرسلًا من قبل الإمبراطور التسيزيني، «عند وصوله أخذ يتحدث بإسهاب عن أمباغاي كأن والملابس التي صاحبت اغتياله لابنه كادان تايشي، وكذلك لابن هذا الأخير توداي، ولكوتولا كأن الذي كان حاكماً لتلك القبيلة، ولإيسوغاي باخادورو الذي كان ابن عم والد خامباغاي كأن». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٤٢-٤٣].

مرة أخرى نريد أن نلفت الانتباه إلى أن رشيد الدين لا يخبرنا عن أن أمباغاي كاغان كان حاكماً للمغول كافة، بل يسميه حاكم التايشيوتيين، فلعل من الجائز أن بقية المغول من خاماغ منغول أولوس السابق كان يحكمهم خوتولا، لعله على الرغم من ذلك بعد موت خابول كاغان تقسم الخاماغ منغول أولوس على إدارتين، لكن رشيد الدين يناقض نفسه، حيث ذكر في بداية سرده أن خاتولا «تم تنصيبه بمرتبة خان» وذلك بعد اغتيال أمباغاي كاغان في مجلس الشعوب الذي ناقش كيفية الانتقام للكاغان المقتول. [المصدر نفسه، ص ٩٣].

تميز خاتولا كاغان بقوة بدنية غير عادية «صوته أشبه بالصوت البالغ السموات العليا، وكفه كبرثن دب بلغ من العمر ثلاثة أعوام، ترأس خاتولا الحملة الانتقامية

على إمبراطورية تسيزين، وعند عودته بعد الانتصار تعرض في طريق العودة إلى داره للهجوم، ولم تنقذه إلاقوته ومراوغته - عند عبور بحيرة صغيرة مليئة بالقاذورات - تمكن من القفز من على صهوة حصانه إلى الشاطئ، ثم انتشل فرسه من الأوساخ ممسكاً به من عرفه، قاذفاً به إلى «الأرض المستوية واعتلى ظهره من فوره وركض تاركاً العدو بالجانب الآخر من البركة». [المصدر نفسه، ص ٤٤].
ليس هناك شيء واضح عن مشاركة إيسوغاي باتور والد تيموتشجين في الحملة على تسيزين.



والد تيموتشجين

«فيه اجتمعت

قوة ألف مارد

وجبهة غر، وقلب من حجر»

ماناس

إن كلمة «يسوغاي» تعني بالمنغولية «التاسع»، ولعله كان ابناً تاسعاً لبارتان باتور، ولكنه الولد الثالث، «الابن الثالث كان يسوغاي باخادور والد جنكيز خان، تأخذ قبيلة كيات بورجيغين أصلها من سلالته، وتعني كلمة "بورجيغين" "ذو العيون الزرقاء" ولعله من الغريب، وإلى يومنا هذا أن سلالة يسوغاي باخادور والذكور من أبنائه في الغالب الأعم ذوو شعر أشقر وعيون زرقاء، حسب أبناء [المغول] هذه علامات تدل على السلطة القيصرية». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٤٨].

على الرغم من أن رشيد الدين يدل على أن يسوغاي باتور كان «حاكماً لغالبية القبائل المغولية» إلا أن في ذلك ضرباً من المبالغة، فلقد كان لديه أولوس، وكان محارباً جسوراً، «امتاز بالإقدام والشجاعة»، «وكثيراً ما حارب وعارك». المصدر نفسه ص ٥٠] ولا سيما مع التتار، وفي الأولوس التابع لإيسوغاي بعد موت أمباغاي كاغان كان السواد الأعظم من قبيلة التايتشيوتيين إذ لم يكونوا كلهم، يسوغاي لم يكن خاناً، في «التاريخ السري» سمي خاناً مرة واحدة فقط. [السيرة المكنونة، ص ٩٥]، في عام ١٢٦٠ منح إمبراطور أسرة يوان خويلاي

إيسوغاي لقب لي تسزو شين يوان خسواندي (أي «الإمبراطور الإلهي أو السماوي»، لقد كان إيسوغاي متأخياً مع حاكم الكيريتين ولعله كان تابعاً له .

كان لدى إيسوغاي العديد من الزوجات، وأكبرهن ويلون، والدة تيموتشجين كما ذكر سابقاً لـ . غاميس، جزء على اختطاف أيسوغاي لويلون من تشيلدو، فإن انتقام الميركيتين طارد تيموتشجين طيلة شبابه، ولم يقف هذا الأمر إلى أن أباد تيموتشجين كل العائلة الميركيتية الحاكمة التي ينتمي إليها تشيلدو، الذي تأذى من والد تيموتشجين . [غاميس، ص ٢١].

أما خواتين - التي صنفها إيساي كالأشنيكوف في روايته كخادمة وشبه مربية من الصين - فمن النتائج التي توصل إليها بـ . راتشيفسكي، أنها من الأقرب أن تكون الزوجة الثالثة لإيسوغاي، وأما لبيكتير وبيلغوتاي فليست خادمة عندهم . [راتشيفسكي، ص ١٥].

ولد تيموتشجين في وقت عاد فيه والده من إحدى غزواته المعتادة على التتار . «عندما صار خوتلا كاغان قاد خادآن تايشجي حملات ضد كل التتار، ثلاث عشرة مرة عند كوتون باراخ وتشجيلي بوخ، ولكنه لم يقدر أن ينتقم لأبغاياي كاغان، ولم يرد الصاع صاعين، وحين آب إيسوغاي باتور أسراً تيموتشجين أوغي وخري بوخا وآخرين من التتار ويلون فوتشجين في أواخر أيام حملها وفعالاً في ذلك الوقت ولدت ابنها جنكيز خان في كثيف ديلون بالداخ على نهر أونون، وكما شاء له القدر أن يولد فقد ولد قابضاً في يده اليمنى بعلقة في حجم عظمة الظلف، صادف يوم ولادته أسر تيموتشجين أوغي التتري، فلذا سمي بتيموتشجين» . [السيرة المقدسة، ص ٨٥-٨٦].

عند رؤية إيسوغاي للمولود قابضاً عند ولادته نقطة الدم المتخثرة عد هذا بمنزلة إشارة بالرسالة العليا الملقاة عليه في الحياة كقاتل، ومصيره في الحياة كفاتح، ولهذا أطلق عليه الأعداء اسم الأسير .

يفترض بعض العلماء أن مدلول اسم تيموتشجين في اللغة المغولية القديمة يحمل معنى «الحداد» .

الطفل المولود وفي قبضة يده علقمة من الدم المتخثر رواية شعبية شائعة عن الهند البوذية، وفي إيران ميلاد كهذا يعني ظهور فاتح لا يرحم، من الصعب بدقة تحديد موقع ديلون بولدك حيث ولد جنكيز خان، البعض يفترض أنها ديلون بولدك الحديثة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر أوتون، وبالتقريب على بعد ٢٥٠ كيلو متر من نيرتشينسك الواقعة على مقربة من مصب نهر بالجى .

يرى كل من ب. بيليو، ول. غامبيس أن هذا تل («ديلون بولدك» حرفياً «التل الشبيه بالطحال»)، الواقع على ضفة نهر أوتون بالجوار لإيخي أرال «الجزيرة الكبرى». [بيليو وغامبيس، ص ١١]. هذا المكان يقع في محافظة تشيتا الحالية. أو في منطقة بورخان خالدون حيث انقضت سنوات طفولة تيموتشجين وشبابه، وهذا يقع أكثر جنوباً في خينتاي الحديثة على مقربة من الجبال التي تعدّ منبعاً لنهر أوتون وتول وكيرولين، ومن الصعب الجزم القاطع أيهما الأصح. كذلك يصعب على وجه الدقة ذكر تاريخ ميلاد تيموتشجين جنكيز خان. حسب رواية رشيد الدين أنه ولد عام ١١٥٥، و«ديوان شي» يورد تاريخ ميلاد تيموتشجين عام ١١٦٢، هذا التاريخ نفسه يرد عند «شين أوتسين تشجين أو»، عدد آخر من المصادر الصينية بشكل غير مباشر يشير إلى عام ١١٦٧، ويأخذ بول بيليو التاريخ الأخير عاداً إياه من أفضل ما يتفق مع السيرة الذاتية لجنكيز خان.

ويرى مؤلف هذه السطور أنه سياقاً مع طريق تيموتشجين الصعب لتوحيد منغوليا واعتلائه كرسي العرش كخان لجميع المغول، التاريخ الأقرب احتمالاً هو عام ١١٥٥ .

كتب كي شاو مين كاتب المؤلفات الأكثر حداثة «سين يوان شي» (أي «التاريخ الحديث لأسرة يوان الحاكمة») قائلاً: «تاي تسزو الذي ولد قابضاً بيده اليمنى على كتلة دم متخثرة كالحجر الصلب، والوجه كان مشعاً، كان هذا العام عام إخاي أي العام الثالث من حكم تشجين يوان التسزيني الحاكم على منطقة لان؛ أي العام ١١٥٥. [نقل عن السيرة الكاملة، ص ١١٧].

كتب ن. ت. مونكوييف: يبدو أن عام ١١٥٥ أقرب احتمالاً لكونه عام ميلاد الخان المغولي، لا ننسى أن نضع في الحسبان أن تشاو خون زار المغول وجمع معلوماته في أثناء حياة جنكيز خان في عام ١٢٢١، في الوقت الذي كان فيه مقاتلو هذا الأخير يتمتعون بمعلومات كافية عن حياة قائدهم، ولا سيما عن عمره [السيرة الكاملة، ص ١١٧].

من المعلوم أن ١٨ آب عام ١٢٢٧ يعدّ التاريخ المؤكد لوفاة جنكيز خان، وتختلف المصادر عن عدد سنوات عمر جنكيز خان حينما مات. «يوان شي» و«شين أو تسين تشجين لو» و«ألتان توبتشي» والمصادر المغولية المتأخرة كافة انطلاقاً من أن جنكيز خان تبعاً لمعطيات «يوان شي» قد قضى نحبه عن عمر يناهز ٦٦ (٦٥) عاماً، إن المغول مثل الصينيين يحسبون عام الميلاد من بداية الحمل، وليس من لحظة الميلاد، فلذلك يرجعون تاريخ ميلاد جنكيز خان لعام ١١٦٢.

«كان معروفاً للقياصرة والأمراء كافة وذوي الرتب الرفيعة وما تعدى حدود العلنية أن عمره قد بلغ الاثنتين والسبعين عاماً، ومات بعد دخوله في العام الثالث والسبعين من عمره». [المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٧٤]. ولعلم رشيد الدين بهذه المعلومات فقد توصل عن طريق الحساب إلى أن تاريخ ميلاد جنكيز خان يصبح ١١٥٥.

شك ب . بيليو في كلا التاريخين، والشيء الذي أثار ريبه أن تيموتشجين صار أباً في الثلاثين من عمره (أوغيداي ولد عام ١١٨٦ وتشاغاتاي عام ١١٨٥، أما تاريخ ميلاد تشجوتشي فمشكوك فيه)، أخضع شعوب وسط آسيا في الخمسين، ولم يقم بحملاته على الدول المجاورة إلا في الستين، وعندما بلغ الثانية والسبعين قاد حملة على التانغوتيين، وعلى ضوء ما ذكر صغر عمر تيموتشجين وعدّ عام ميلاده العام نفسه حسب التقويم الحيواني (الذي يعتمد على الدورة الحيوانية قوامها إثنا عشر عاماً) ولكن بتأخير دورة أي عام ١١٦٧ بدلاً من عام ١١٥٥ . [بيليو، ملاحظات، ص ٢٨٥-٢٨٧].

هذا السؤال يبقى معلقاً مثل التواريخ كافة المتعلقة بأحداث حياة جنكيز خان قبل بداية القرن الثالث عشر، وأيضاً نود أن نضيف رأي راتشيفسكي القائل إن جنكيز خان نفسه لم يعلم بالتحديد تاريخ ميلاده . [راتشيفسكي، ص ١٧].

ومن روايات المصادر المغولية المتأثرة بالبوذية المتأخرة نأخذ أن تيموتشجين عندما ولد كان ممسكاً بيده ليس علقة إنما خاتم دولة . إن جنكيز تيموتشجين كحداد باقٍ في الذاكرة الشعبية، ولا يزال اعتقاد المغول في القرن الماضي بأن سندان جنكيز خان مصنوع من معدن قان، الذي يحمل صفات النحاس والحديد الموجودين في جبل دارخان إلى أعلى من قرية نوفوسيلينغينسك، على الضفة الشمالية لنهر تشيكوي يوجد جبل أجرد من غير غابات ذو قمة مسطحة، يقال إنها سندان جنكيز خان، وهنا كان العملاق الحداد يطرق الحديد واقفاً برجله على الضفة اليمنى وأخرى على اليسرى .

لقد ذكرنا سابقاً أن إيسوغاي باتور كان زعيماً للأولوس وموحد جزء كبير من القبائل المغولية، ومن ضمنها القبائل التايشيوتية، لقد قضى حياته في الحروب والغزوات، «وخوفاً من جسارته وقوته خضع له معظم أصدقائه وأعدائه حفاظاً

على أرواحهم، فلذا كان وضعه وأعماله على ما يرام وفي أحسن الأحوال». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٧٥]. في الواقع يمكن أن نتخيل أن طفولة تيموتشجين في ظل حماية والده كانت مستتبة ومستقرة، وعندما بلغ تيموتشجين التاسعة من عمره أراد والده - حسب التقاليد المغولية القديمة - أن يخطب له عروساً من القبيلة الألوخونوتية نفسها التي تنتمي إليها والدته ويلون، توجه مسافراً مصطحباً الغلام، وفي الطريق قابلهم داي سيتشين من قبيلة أو تغيرات سائلاً:

- إلى أين تتجه يا أيها النسب يسوغاي؟

- إنني مسافر لأخطب لابني عروساً.

ناظرًا لتيموتشجين قال داي ستشين:

- لابنك نظرة كالنهار، ووجه مضيء كالفجر، حلمت في هذه الليلة أيها النسب يسوغاي كأنما طار وهبط على يدي صقر أبيض قابض في محالبه الشمس والقمر، فسألت نفسي عندما رأيتكما: بأي شيء يبشر هذا؟ إن قبيلة أو تغيرات منذ أمد بعيد بلا منازع مشهورة بجمال فتياتها ولطفهن، فخرج علينا أيها النسب يسوغاي، ابنتي صغيرة فلا بد لك أن تراها.

حين نظر يسوغاي إلى بورتى ابنة داي سيتشين التي في العاشرة من عمرها ووجهها كالفجر، وعيونها كالنار، بات الضيفان ليلتهما، وعند الصبح بدأت الخطبة، جادل داي سيتشين بقدر ما تطلبه الأعراف السائدة آنذاك مقرباً الخاطب الوجيه ورغبة في الوصال مع يسوغاي بعد المساومة، فقال:

- ليس مصير الأنثى أن تعمر على عتبة دار أبيها، إنني موافق على منح ابنتي كزوجة، اترك ابنكم في كفي كصهر وخطيب.

وهكذا تم الاتفاق فقدم إيسوغاي فرسه الجامح هدية لداي سيتشين، وطلب

منه مراعاة ابنه :

- إنني هلع يخاف الكلاب ، فأنت النسيب احمه منها .

ومن ثم ارتحل تاركاً تيموتشجين ابن التاسعة عند خطيبته ابنة العاشرة حسب العادات المغولية القديمة عند نسيبه داي سيتشين المنحدر من قبيلة أو تغيرات . (هكذا ورد في «السيرة المكنونة» ص ٨٦-٨٧).

وفي طريق عودته التقى إيسوغاي بمجموعة من التتار يحتفلون ، كان منهكاً من العطش ومعتقداً أن التتار لا يعرفونه من وجهه ، فقرر أن يشاركهم الاحتفال من أجل أن يرتاح ، فعرف أحد التتار أطفالاً صغاراً ، ولكنهم لم يغامروا بقتله علناً ، فوضعوا له السم في الشراب ، وفي الطريق أحس إيسوغاي بشيء غير مألوف ، وبعد ثلاثة أيام من بلوغه داره مرض ولزم الفراش ، قبل الموت نادى على المقرب له مونليك وقال :

- ابني العزيز مونليك ! إنك تعلم أن لدي أطفالاً صغاراً ، وقد أهلكني التتار سرراً واحسرتاه ! خذ في كنفك أقربائي كافة بما فيهم الصغار والأيتام من إخوتي الصغار ، وأرملتي وزوجة ابني . ابني العزيز مونليك ! أسرع بإحضار صغيري تيموتشجين ! (هكذا ورد في السيرة المكنونة ، ص ٨٧).

بهذه الكلمات أسلم إيسوغاي الروح ، إذا كان جنكيز خان قد ولد في عام ١١٥٥ ، فإن إيسوغاي بارح الحياة في عام ١١٦٣ ، إذا أخذنا في الحسبان ميلاده عام ١١٦٢ ، فإن هذا سيكون في عام ١١٦٥ ، وإذا أخذنا عام ١١٦٧ ، فإن هذا حدث في عام ١١٦٥ ، وإذا أخذنا في الحسبان ما ذكره المصدر من أن عمر تيموتشجين كان تسع سنوات ، فعليه بحسابات يكون ثمانية أعوام ، أما بحساب رشيد الدين فإن موت إيسوغاي حدث عندما بلغ تيموتشجين الثالثة عشرة (أي بحسابنا الثانية

عشرة) تبعاً لذلك كل التواريخ يجب أن ترجع بثلاثة أعوام: ١١٦٦-

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURĀNIC THOUGHT

١١٧٤-١١٧٨ .

كان مونليك من أنصار إيسوغاي المخلصين، فنفذ وصيته، وخوفاً على تيموتشجين لم يعلن حينها عن وفاة إيسوغاي، وإنما قال لداي سيتشين:

- إن الأخ الأكبر إيسوغاي باتور تتعذب نفسه ويحترق شوقاً لرؤية تيموتشجين، وقد حضرت في طلبه .

فرد داي ستشين:

- إذا كان نسيبي ملتاعاً بصغيرة، فاذهب يا تيموتشجين وقابل والدك، ثم ارجع على جناح السرعة .

وفي هذا الوقت العصيب أوصل مونليك تيموتشجين إلى خيمة والده الخاوية، التي انفض من حولها رجال إيسوغاي باتور، وهكذا كان كل شيء يوحى بمستقبل باهر لتيموتشجين، الذي ولد «قابضاً في كفه اليمنى قطعة متخثرة من الدم أشبه بكبد جافة، ومكتوبة على جبينه الدلائل التي تشير إلى أنه منقذ الدنيا وزعيم العالم، ومن هامته تنبثق شعاعات السعادة والقوة». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٧٥]. وهكذا انقضت ثمانية أعوام أو اثنا عشر عاماً، وبحساب رشيد الدين قضى فاتح العالم الأعوام السبعة والعشرين التالية من عمره «في ضياع»، «فخاض المعارك والغزوات»، «وتم أسرُه وتصفيده بالأغلال من قبل الأعداء أكثر من مرة»، وبشكل عام حلت حقبة غامضة عندما صارت وقائع حياته «غير متسلسلة ومجهولة التفاصيل»، لذلك استنتج المؤرخ العظيم «أنها كتبت باختصار». [المصدر نفسه، ص ٨٤].

قبل الدخول في الحديث عن الحقبة العصبية سنتحدث عن تركيبه القبائل المغولية وجيرانها وتوزيعهم السكاني في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وعن عادات المغول القدماء .

شعب مجهول وغريب

«وهكذا عندما هبطنا بيثثة هؤلاء

البرابرة - كما ذكرت سابقاً - خيل إلي

أنني أدخل في عالم آخر» .

غ . روبروك

انتشرت القبائل المغولية خلف نهر كيرولين في اتجاهات مختلفة، وهنا يهب

لنجدتنا رشيد الدين بمؤلفه الخالد حقاً، عاش خاماغ منغول - أسلاف جنكيز خان

وأقرباؤه - على أودية أنهر أونون وكيرولين وطولاً، إن قبائل أوريانخات^(١)

الزاعمين بمشاركتهم في صهر الحديد عاشوا في شمال الشرق من أقاليم منغوليا وما

وراء بحيرة بايكال، وقاموا مؤخراً بتشكيل فوج قوامه ألف فارس لحماية رفات

جنكيز خان في جبل بورخان خالدون، ومن صلب قبيلة أوريانخات برز القائد

سوييتاي باتور . [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٥٦-١٦٠] .

أول من غادر أورغوني^(٢) - الكونغيراتيون المتصهرون، لقد كانت لديهم

أسطورة خاصة عن أصولهم - أجدادهم «الأبناء الثلاثة خرجوا إلى الدنيا من وعاء

ذهبي»، «وقد تزوج معظمهم وأبناؤهم أيضاً من فتيات ينحدرون من سلالة جنكيز

(١) في هذه الحالة يقصد المغول الأوريانخان وليس الأوريانخات الذين ظهروا لاحقاً وأصبحوا

أجداداً للتوفيتسين، إن ف . تشيفيلخين - الذي علم سوييتاي باتور من الأورينخات - زعم

أنه ليس مغولياً، فلذا خلط في الفهم .

(٢) ما يشير الفضول أنهم أنجزوا هذا العمل من غير أي صهر للجبل، وفي الواقع حسب

الأسطورة عند خروجهم دنسوا منبت أبناء قومهم، ولهذا منوا على ما ارتكبه بمرض وراثي

للأرجل .

خان مقابل تزويجهم من فتياتهم»، إن ويلون أم جنكيز خان وبورتتي زوجته الأولى منحدرتان من قبيلة كونغرات. [المصدر نفسه، ص ١٦٠-١٦٦] عاش الكونغرات في منغوليا على الحدود مع الدولة الكيدانية، يرى كوماي يوسياكي أن الكونغرات - وفقاً للمصادر الصينية في القرن العاشر - كانوا يسمون يوتسيويلوي: «في الغرب الترك والإيغور، والشمال الغربي نصل إلى يوتسيويلوي، هؤلاء القوم طوال القامة ذوو رؤوس شعشاء الشعر، والشيوخ منهم إذا طال شعرهم يطبقونه في أكياس بنفسجية، الطبيعة هناك قاسية وباردة، وفي الأنهر تعيش الأسماك الكبيرة التي يحب أكلها الكيدانيون، وأيضاً يوجد كثير من جلود السممامير السوداء والصفراء والبيضاء، التي تكفي حاجة كل دويلات الشمال، إنهم قوم مقدمون، ولم تتجرأ الدول المجاورة بالهجوم عليهم» [كوماي يوسياكي، ص ٣٥٩].

انحدر أنصار إيسوغاي وجنكيز خان نفسه من قبيلة أورياوت بقيادة موناليك المعروف لنا، إن ابن موناليك كوكوتشو المفضل لساكني السماء طب تينغري أوحى لجنكيز خان فكرة السيادة الكونية، وخلع عليه لقبه «كان دائماً يتردد على جنكيز خان قائلاً: "أراد الله أن تصبح حاكماً للكون!" وخلع عليك الرسالة الجنكيز خانية قائلاً: "ومشيئة الله أن يكون اسمك هكذا"». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٦٦-١٦٧].

عاش الباياوتيون على طول نهر سيلينغا ورافده نهر جيدا في حدود ما وراء بحيرة بايكال، وعلى طول نهر أونون التايتشيوتيون، ولعل من الواضح أن أقرباء جنكيز خان كانوا من أقوى القبائل المغولية، وعاش الجلايريون على ضفاف نهر كيرولين وعدد خيامهم يقارب سبعين ألف، «فكان أتون جزءاً من محط ترحالهم» وفيه منوا بهزائم نكراء، إما على أيدي الكيدانيين وإما على أيدي التشجورتشجينيين، «في قديم الزمان ارتكب المحاربون الخيتانيون مجازر بحق هذه

المجموعة من الجلاريين حيث استطاعت قلة منهم الفرار» [المصدر نفسه، ص ٩٢].
 «قام الخيتانيون بالقضاء على القبائل الجيلارية، وأبادوهم حتى الأطفال الذين لم يشبوا عن الطوق، ونهبوا متاعهم وماشيتهم» [المصدر نفسه، الكتاب الثاني، ص ١٨-١٩]، فلنحتفظ في ذاكرتنا بهذه الوقائع عندما نطرقوا إلى الحديث عن قسوة جنكيز خان، يرد ذكر الجلاريين في «قصة أسرة لياو الحاكمة» (لياو شي) باسم «تسزويو تشجالا بو» ومعناها «قبيلة تشجالا وسط تسزويو». حسب تقدير يوان تشاو شي، عاشوا جنوباً من نهر أونون حتى منتصف مجرى كيرولين وأعالیه. يرى هؤلاء الباحثون أن الهجوم القاسي على الجلاريين قام به الكيدانيون في المدة ما بين ٩٨٣-١٠١٢. [يوان تشاو شي، المجلد الأول، ص ٢١].

يرى الباحثون أن «التتار الحقيقيون كانوا يتكلمون بالمغولية». ويرد ذكر التتار لأول مرة في المدونات التركية في الأعوام ٧٣١-٧٣٢، أما في المصادر الصينية فمنذ عام ٨٤٢، بالتحديد عرف التتار في عهد أسرة لياو وتسيزين بالتسزويو، مع العلم أن الباحث تو تسزي يرى أن هذه التسمية ترجع إلى الكلمة المغولية «حيبا»، ومعناها نوع من السهام، وكانوا يعيشون في الأقاليم الواقعة بالقرب من بحيرات بوير نور وكيولون نور بين النهرين كيرولين وخينغان الأوسط، وهي مناطق غنية بالفضة، وتعدّ مناطق حدودية جنوبية شرقية على مشارف لياو وتسيزين، وتقطنها القبائل الناطقة بالمغولية. «ويسكنون في خيام من الشعر في منطقة بوير ناور» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٠١].

كان التتار أقوياء وجريئين؛ إذ كان بينهم الوثام وليس الخصام، إضافة إلى عددهم الكبير، لم يكن باستطاعة القبائل الأخرى كالصينيين وغيرهم الصمود أمامهم». تميز التتار بين قبائل التتار المغولية «منذ القدم وكانوا دائماً مسيطرين

وحاكمين للسواد الأعظم من القبائل المغولية وأقاليمها ومحتلين من بينهم مركز
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURANIC THOUGHT
الصدارة بعزتهم وقوتهم». [المصدر نفسه، ص ١٠٢].

إن المرادف الإثنوغرافي لكلمة التتار «أصبح الاسم الجامع لقبائل التتار المغولية
كافة». كتب رشيد الدين «بفضل السمو والمكانة الاجتماعية غير العاديةين بقية
السلالة^(١) التركية الأخرى بتباينها ومستوياتها كافة أصبحت تعرف باسمهم أي
التتار، أما السلالات المتباينة فعدوا سموهم وعزتهم في انتسابهم للتتار، وصاروا
يعرفون باسمهم، كما هي الحال في الوقت الراهن، وبفضل جنكيز خان وسلالته
ونسبه؛ لأنهم والمغول يعدون قبائل تركية متباينة كالجلايين والتتار والأونغوتيين
والكيريتيين والنايمانين والتانغوتيين وخلافهم، التي يحمل كل منها اسمها وكنيتها
الخاصة بها، وكل أعضاء القبائل المذكورة من أجل التفاخر سموا أنفسهم بالمغول
على الرغم من أنهم في قديم الزمان لم يعترفوا بهذا الاسم إلى درجة أن خلفهم
الخالين يخيّل إليهم أنهم منذ القدم يتسبون لاسم المغول «ويسمون أنفسهم به»،
وفي الواقع أن الأمر ليس كذلك، حيث إن المغول كانوا في القدم قبيلة واحدة من
مجموعة القبائل التركية. [المصدر نفسه، ص ١٠٢-١٠٣].

إن اسم التتار أصبح يطلق على القبائل التركية فقط «نتاجاً لقوتهم
وجبروتهم»، لهذا السبب وإلى يومنا هذا . . . في مناطق القيرغيزيين والكيلاريين
والبشكيريين في منطقة ديشت إكيبتشاك^(٢) والنواحي الشمالية منها . . . كل
القبائل تسمى بالتتار [المصدر نفسه، ص ١٠٣].

كانت ميركيت أقوى قبيلة مغولية «من بطون القبائل المغولية»، «قبيلة . . .
كثيرة العدد»، كان لها «جيش قوي وعارم» [المصدر نفسه، ص ١١٤]. ذكرت
(١) من المعلوم جيداً أن رشيد الدين كان يسمي كل القبائل التتار المغولية «بالقبائل التركية، التي
تعرف الآن بالقبائل المغولية».

(٢) أي جمهورية قازاخستان الحالية. المغرب.

ميركيت عدة مرات كقبيلة في شكل ميليتسزي في «لياو شي»، في الأعوام ١٠٩٣-١٠٩٦ قاد القائد الكيداني فوتيلا غزوة على ميركيت وهزمها، في ربيع ١٠٩٤ ترجى الحاكم الميركيتي خابولا أن ترد إليه الأراضي القديمة التي سلبها منه الكيدانيون مقدماً لهم الهدايا، وفي عام ١١٠٢ أيضاً تعرضت ميركيت للغزو الكيداني. [كوماي يوسياكي، ص ٣٥٤]، عاشت قبيلة ميركيت في المجرى الأسفل لنهر أورخون وسيلينغ وعلى بورخان خالدون أيضاً، إن مؤلفي «يوان تشاو شي» يعدّون ميركيت من أوائل القادمين، و«تجري في عروقهم دماء أويغورية». [يوان تشاو شي، المجلد الأول، ص ٢٢]. يعدّ ب. راتشيفسكي أن جزءاً من ميركيت، بعد سقوط دولة لياو، ذهبوا غرباً مع بليوي داشي؛ لأنهم في عداد ثماني عشرة قبيلة، التي ساعدت هذا المحارب في استعادة السلطة للأسرة الكيدانية الحاكمة. [راتشيفسكي، ص ٥].

حسب رأي مؤلفي «يوان تشاو شي» أن أقوى قبيلة وسط القبائل المغولية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر قبيلة الكريت، التي عاشت إلى الجنوب من نهر كيرولين، وشرقاً حتى جبال خانغاي في الغرب، على طول المجرى الأسفل لنهري طولاً وأورخون على الشمال حتى صحراء غربي على الجنوب، إن أماكن توقف الخان الكيريتي فان صيفاً كانت تقع على دالان دابا عند منابع أورخون، وعند بحيرة غوسي نور جنوباً من نهر طولاً، أما في الشتاء فعلى نهر أونغين غول في منطقة مدينة أرباي خيري (في جمهورية منغوليا الشعبية). يرى رشيد الدين أن الكيريت يمثلون «أصل المغول»، كانوا من الأوائل من الشيواي الذين هاجروا غرباً ولعدة قرون عاشوا في جوار واختلاط مع الترك، ولذا تعرضوا لتأثير قوي من قبلهم، وبين الأعوام ١٠٩٢-١١٠٠ ورد في سيرة «لياو شي» ثورة الحاكم الكيريتي موغوسي (ماركوس) ضد الكيدانيين، إن أولوس الكيريت تمتع بجهاز دولة

متطور، واعتنق الكيريت المسيحية على المذهب النسطرياني، عد راتشيفسكي أن الكيريت بشكل ملحوظ قد زادت من قوتها بعد انهيار خاماغ منغول أولوس في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، إنه يعد الكيريت من البداية من الترك وليس من المغول (بيلة كيرية وسط القيرغيزين والكازاخستانيين). كانوا يعيشون قبل طردهم من نهر إرتيش وجبال ألطاي بين النايمايين والقيرغيزين^(١)، وبعد ذلك تراجع الكيريت إلى الشرق تحت وطأة ضغط النايمايان، واتصلوا بالمغول، وسرعان ما صاروا مغولاً، كان الكيريت في عداء قديم مع النايمايان والتتار، وجزء من المغول دخلوا معهم في تركيبة أولوس. [راتشيفسكي، ص ٣]. يؤكد ل. غامبيس أن التشورتشجين كانوا دائماً يؤججون أوار الخلاف بين التتار والكيريت. [غامبيس، ١١-١٢].

قطن النايمايان الجزء الغربي من منغوليا، [رشيد الدين. المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٣٧] يتحدثون عن الانتماء الاثني النايمايان بشيء من الحذر: «كانوا في تقاليدهم وأدهم أشبه بالمغول». في سيادة لياو وتسزين عرف النايمايان باسم ناباغي وناباسي، كانوا في عهد سيادة أسرة تسزين خاضعين لدولة قارة كيتاي الواقعة غرباً من لياو، إن منطقة ألطاي كانت مركز استيطان نايمايان، تمتد مراعيهم في الغرب حتى إرتيش وألبا وأعاللي نهر أوب، من الشمال كانوا يحدون القيرغيزيين، ومن الشرق يجاورهم الكيريت، أما في الجنوب فتنسبط حتى إرتيش الأسود، إن مؤلفي «يوان تشاو شي» مطوري فكرة «خان حولين» يفترضون أن النايمايان من المحتمل أن يكونوا جزءاً من القيرغيزين الذين هاجروا إلى الجنوب بعد أسرة «تان». [يوان تشاو شي، المجلد الأول، ص ٣٣]. يعتقد ب. راتشيفسكي أيضاً أن النايمايان من الترك. ويؤيدهم أن النايمايان تسمية مغولية تركية «شكيز أفوز» (أي

(١) إن المؤرخ الصيني خان جولين يعد النايمايان جزءاً من القبائل القيرغيزية.

«ثمانية أفرز»، ويقطنون في منطقة الطاي بعد قضاء القيرغيزين على الكاتخان الأويغوري في عام ١٨٤٠م. أبعاد النايان القيرغيزين إلى نهر بنيساي وأيضاً أزاحوا الكيريتيين أيضاً من ألتاي وإرتيش إلى الشرق [ب. راتشيفسكي، ص ٢]. وقع النايان تحت وطأة التأثير الثقافي الأويغوري، إنهم - كما يرى الباحثون - كانوا يتمتعون بنظام دولة متطورة جداً، وسط المجموعات التي كانت تقطن مناطق الطاي وخانخين، ويرد ذكر حاكمهم في مولف «لياو شي» قبل عام ١٠٩٧، ينسب العالم المنغولي المعاصر تشولوني دالاي النايان «إلى القبائل المتجولة أويرات المغولية»، ويواصل كاتباً «أن النايان العائشين في نهاية القرن الثامن عشر بجوار القبائل الأويغورية والتركية الأخرى الواقعين تحت التأثير الثقافي لهم، يبدو أنهم منذ القدم كانوا يستعملون حروف الهجاء المغولية الأويغورية، ولكننا نعتقد أنه ليست هنالك مسوغات تدعو للموافقة على نتائج الباحثين الذين يرون أن النايان من أصول تركية أويغورية»، «أو أنها قبيلة مغولية تتحدث باللغات التركية»، وأبجدية ألفباء التي كانوا يستخدمونها «كانت كتابة أويغورية بحتة». [تشولوني دالاي، ص ١٥١] والنايان أيضاً كانوا مثل الكيريتيين يدينون بالمذهب المسيحي النسترياني.

على الأنهر الثمانية (أي سيكيز مورين) المكونة حوض نهر بنيساي عاش «أوي أرات» التي تعني «رجال الغابات»، وفي مرحلة صبا جنكيز خان ورجولته عاشوا بين نهري أنغارا وبنيساي يرى مؤلفو «يوان تشاو شي» أن القبائل الأربعة الويراتية الأساسية منذ القدم عاشت على المجرى الأعلى لنهر بنيساي، وعلى أعالي نهر أولوك كيم الحالي، رأبهم يثير التعجب؛ إذ كان قدماء القيرغيزين (الساغاسيون) في عهد يوان يسمون تسزيلي تسزيسي بينما كان المكان الذي عاش فيه الأويرات يسمى شيسي تسزيسي. [يوان تشاو شي، المجلد الأول، ص ٢٤].

هذه معلومات عامة عن شعوب خالصي وألطاوي في الأعوام التي سبقت توحيد منغولي، نود أن نختتمها مسترشدين بمؤلف «يوان تشاوشي»: «في الحقبة من القرن العاشر حتى الثالث عشر على الهضبة المغولية الواقعة شرق سلسلة جبال خانغاي إلى جبل خينغان الأكبر برزت إلى الوجود مساحة سكنتها القبائل الناطقة بالمغولية، إلا أن هجرتها إلى الغرب بلا شك جعلتها تضم في تركيبها القبائل الناطقة باللغات التركية المتبقية في المكان نفسه، وهذا أثر بشكل فعال في اللغة المغولية والعادات والمنظومة الإدارية، وأدى بدوره أيضاً إلى تحولات عميقة عند المغول» [يوان تشاوشي، المجلد الأول، ص ٣٢].

حظيت هذه المعلومات بالاعتراف العلمي في غضون عشرين السنة.



نجد الإشارة إلى المغول في عهد لياو ١١٨٠ في المصدر «تسيدان غوتشجي» بي لون لي، حيث يقول: «شمالاً تمتد الأراضي الكيدانية حتى الممتلكات المنغولية، لا يوجد على هذه الأراضي حاكم يدير شؤون الشعب، والسكان لا يمارسون فلاحه الأرض، بينما يمثل نشاطهم الأساسي الصيد، ولا يقيمون بصفة دائمة في مكان واحد، بل يتجولون على حسب فصول السنة الأربعة سعياً وراء الماء والكلأ الجيد، وغذاؤهم من اللحم ولبن الخيل المتخثر، إنهم لا يتحاربون مع الكيدانيين، بل يتاجرون معهم بالسلع المصنوعة من الجلود وشعر الأبقار والخيل والجمال». [بي لون لي، ص ٣٠٥]. إن الباحثين الصينيين لا يتوانون في أن ينسبوا لأنفسهم التطور السريع ونجاحات المغول في القرن الثاني عشر، وخير مثال في هذا الصدد النص الآتي: «منذ قيادة تيان تسزيوان (١١٣٨-١١٤٠) بدأ المغول امتعاضهم، فلذا أرسل عليهم القائد العام تسزون بي جيوشه عدة مرات، ولكنه لم يتمكن من

إخضاعهم، وحينها وزع جيوشه التي سيطرت على المواقع الاستراتيجية الأكثر أهمية، ومن جانب آخر أسبغوا عليهم العطايا الثمينة، وسمي والي ولايتهم تسزويون خواندي، أي بمعنى "الإمبراطور مؤسس الأسرة الحاكمة". كانوا يثرون الشغب على الحدود، فإذا أهدي إليهم الشباب والفتيات حجار اليشب والدباج، فإنهم يتذكرون واجباتهم المنزلية ثم يسحبون قواتهم عائدين، وبما أنهم كانوا يهجمون على مملكة تسزين فإنهم كانوا يسبون ويختطفون الفتيات والأطفال الصينيين والكيدانيين ويجعلون من [الفتيات] زوجات وخليلات. منذ تلك الأزمنة أصبح الأبناء المولودون [من هذه الزيجات والعلاقات] لا يشبهون المغول بتاتاً، وتدرجياً صار [المغول] يأكلون الطعام المسلوق، وعند مجيئهم لحاشية الحاكم كانوا يسمون دولتهم دا مينغو غو، أي دولة المغول العظماء، (مقتبس من [كوماي يوسياكي، ص ٣٣١]. في هذه الحالة، وبناء على ما ورد سابقاً، نصادف الفكرة الصينية عن دور الزيجات المختلطة في انصهار الغرباء.

إن المعلومات عن حياة المغول في القرن الثاني عشر وما قبله شحيحة، فإذا لم يتسن لنا الأمر بشكل فاحص فدعونا ننظر إلى حياتهم في النصف الأول من القرن الثالث عشر بأعين معاصريهم، مثل: القس الدواسي تشان تشون، الذي حاول جنكيز خان الحصول منه على سر الخلود، كذلك الدبلوماسيون الصينيون أمثال تشان تشون الذي زار منغوليا في الأعوام ١٢٢٠-١٢٢٤، وتشجاو خون السوني في عام ١٢٢١، وكذلك الدبلوماسي السوني بان دايا ١٢٣٣، والدبلوماسي سوي تين في الأعوام ١٢٣٥-١٢٣٦، والدبلوماسي السوني تشجان ديخوي في عام ١٢٤٨، وكذلك الروس والأوروبيون مثل القس الإيطالي بلانو كاريني، الذي زار منغوليا في الأعوام ١٢٤٦-١٢٤٧، والقس المينوريتي الفلاماندي غيليوم روبروك في الأعوام ١٢٥٣-١٢٥٥ المرسل من قبل الملك الفرنسي لويس التاسع، وكذلك

زارهم أيضاً عطا مالك جويني الفارسي ابن أحد حاشية قصر خراسان، الذي حضر برفقة والده لانتخاب الخان الجديد في عام ١٢٥١، وأخيراً ابن الرحالة الشهير ماركو بولو التاجر من البندقية في عام ١٢٤٧.

زار كل هذا الحشد العظيم منغوليا وكتب عنها في أوج مجدها وجبروتها، وبهذا فإنهم ومعاصروهم فقط من الذين كتبوا عن حياة المغول نقلاً عن الآخرين، واحتكوا بهم كغزاة فاتحين، فشاهدوا هذه البلاد عن كثب كما كانت في سنوات شباب تيموتشجين، فتحت أبواب عالم جديد، «عالم مجهول وغريب»، كل منهم تطلع إلى أن يعكس ما رآه لأبناء جلدته (وطنه)، لكنهم كلهم حسب وجهة نظره الخاصة اتفقوا على إقناع الآخرين، مثل بلانو كارييني «الواجب عليكم التصديق من أجل منفعتكم وأن تأخذوا حذرکم مما نكتب، لأن في هذا أكثر أمناً لكم، وما نكتبه شاهدناه بأمر أعيننا، متجولين لديهم، أو معهم، أو منغمسين في بيثتهم».

[الرحلات، ص ٢٤].

جذبت منغوليا خيال الغرباء الوافدين إليها. كتب تشان تشون: «بقدر ما جال البصر لا ترى حداً للجبال والأنهر، الريح والضباب لا ينقطعان، والأنهر دائمة الجريان، لأي سبب سطر الخالق عند صنعه الكون على هؤلاء البشر بأن يرعوا البقر والخيول؟» [سي يوي تسزي، ص ٢٨٩]. وكتب جويني أن «بيت التتار، ومنشأهم ومكان ميلادهم واد عملاق أبعاده سبعة أو ثمانية أشهر من المسير طولاً وعرضاً، شرق هذا الوادي يحد أرض الصين، وفي الغرب الإيغور، شمالاً القيروغيزين ونهر سيلينغا، وفي الجنوب التانغوت والتبتيين». [جويني، المجلد الأول، ص ٢١-٢٢].

قسم الجيران المغول إلى سكان الغابات وسكان السهوب إلى بيض وسود أيضاً أو متوحشين، سكن الأجزاء الشمالية لسكن القبائل المغولية السيان الشرقية

وسلسلة تانو أولاً وألطي الجنوبي ما يسمى بقبائل الغابات، ومارسوا الصيد واصطياد السمك، عاشوا في عشش من لحاء شجرة البتولا والأشجار الأخرى، وروضوا الحيوانات المتوحشة وبخاصة الأيائل الآسيوية، متغذين من لحومها وألبانها، واستخدموها وسيلة لنقل متاعهم داخل الغابات، وكذلك كانوا يستخدمون الخيول، أما في الشتاء فكانوا يصطادون على الزلاقات الجليدية ويخيطون الملابس من جلود الحيوانات، وقضوا على كثير من السمامير والسناجب التي يشتهر إقليمهم بكثرتها.

يمكن تصنيف كثير من المغول كرجال غابات تبعاً لنمط حياتهم وطرق إدارتهم في مناطق شمال منغوليا قبل انتقالهم إلى نظام الرعي.

كانت أعالي نهر أنون وكيرولين وطولاً في سنوات شباب تيموتشجين جبلية وكثيفة الغابات، ولكن في هذا الوقت عاشت قبائل الغابات على الأطراف الشمالية البعيدة، ولم يلعبوا دوراً ذا أهمية في الأحداث العاصفة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، هذه الأحداث تصاعدت ونضجت في السهوب الفسيحة، حيث عاشت القبائل السهوية والكتلة الرئيسة للقبائل التتار المغولية التي مارست رعي الماشية.

قسم الصينيون التتار المغول إلى بيض وسود أو متوحشين، التتار البيض (الأونغوتيون) تنقلوا على طول سور الصين العظيم، ممارسين الرعي، وكانوا بيضاً لأنهم بشكل ملحوظ تشربوا بمنجزات الحضارة الصينية، بينما عاش التتار المغول السود في أواسط منغوليا. كتب تشجاءو خون «الذين أسموهم بالتتار المتوحشين عاشوا حياة فقيرة جداً وإضافة إلى كونهم بدائيين لا يحظون بأي مواهب [والشيء الوحيد الذي يجيدونه الركوب على ظهور خيولهم يتبعون الآخرين]. [التدوين

الكامل، ص ٤٨]. «إن جنكيز خان الحالي وكذلك قواده ووزراؤه وأصحاب
الرتب ما هم إلا تثار سود [المصدر نفسه، ص ٤٩].

أذهل مظهر المغول الخارجي كل الرحالة وبخاصة الأوروبيون، كتب بلانو
كاربيني: «مظهر الوجه الخارجي يختلف عن البشر كافة، تحديداً ما بين العينين وما
بين الخدين أوسع عما هو عند سائر الناس، الحدود تبرز بشكل ملحوظ عن عظام
الوجنة، الأنف مفلطح وصغير، العيون صغيرة، الأهداب مرفوعة حتى الحاجبين،
في الخصر عموماً نحافة ما عدا القلة النادرة، فجميعهم تقريباً غير طوال القامة،
اللحية عندهم تنمو صغيرة جداً، عند بعضهم تنمو شعيرات قصيرة على الشفة
العليا واللحية التي لا يحلقونها، ويصفرون شعر الرأس جديلتين ويعقدون كل
واحدة منهما خلف الأذن، وأيضاً الأرجل عندهم ليست بالكبيرة». [الرحلات،
ص ٢٦].

أخبرنا ألبيريك (المتوفى في عام ١٢٤١). أن «الرأس عندهم كبير والعنق قصير
والصدر عريض جداً، والأيدي كبيرة، والأرجل صغيرة، ولديهم قوة مدهشة،
ليست لديهم عقيدة، إنهم لا يهابون أي شيء، ولا يؤمنون بأي شيء، ولا
يقدمون شيئاً، وملكهم يسمى ملك الملوك» [المصدر نفسه، ص ٤]. حسب أقوال
المؤلف الأرمني أنهم عريضو المنكبين ذوو أيدي مفتولة العضلات، كبيرو الرؤوس،
ذوو شعور ناعمة شعناء، ضيقو الأعين، عريضو الجباه، مسطحو الأنوف، خفيفو
اللحي، أما علاقاتهم مع البشر فأشد قسوة من الحيوانات المتوحشة، واسمهم
الحقيقي كان قاراتار» [المصادر الأرمنية، ص ٤٤]. كتب تشجاو خون أن «التار في
أغلب الأحيان ليسوا طوال القامة، وطولهم لا يتعدى خمسة أقدام وبوصتين أو
ثلاث بوصات، لا يوجد بينهم السمين أو الممتلئ، عريضو الأوجه، وكبيرو
الوجنات، العيون بلا أهداب عليا، واللحي خفيفة جداً، المظهر الخارجي ليس

بالجميل إلى حد بعيد». [التدوين الكامل، ص ٤٨]. وبهذا فإن طول قامة المغول - حسب رواية تشجاو خون - يتراوح ما بين ١٦٢-١٦٥ سم.

ينبغي أن نتوقف بصورة خاصة على طريقة تصفيف شعر قدماء المغول من الرجال «إنهم يحلقون رؤوسهم تاركين ثلاث نواصي . . . عندما تنمو النواصي التي بالمقدمة قليلاً فإنهم يشذبونها قليلاً، أما الاثنان الأخریان فيربطونهما على شكل حزام، ويسدلونهما على الأكتاف» [المصدر نفسه، ص ٧٥]. كتب تشان تشون «الرجال يجدلون شعرهم ويسدلونه حتى أذانهم». يذكر مصدر صيني آخر: «أنهم يحلقون دائرة يافوخهم وما تبقى في الأمام من الشعر يقص قصيراً ويهدل بغير ترتيب، ولكن الشعر على كلا جانبي الرأس يقسمونه على عقدتين منسدلتين حتى الملابس من اليمين والشمال، وبعضهم يجمع الشعر من كلا الجهتين في جديلة واحدة مسدولة فوق الملابس مباشرة». أما في «كوريو سا» (أي «تاريخ دولة كوريو») فوصفت تصفيفة الشعر عند المغول كما يأتي: «عند المغول عادة حلاقة اليافوخ حتى الجبهة». [المصدر نفسه، ص ٧٦].

يخبرنا ن. ت. مونكوييف أن الشعر المسدل على الجبين يسمى كيغيول، والحزم المتدلّية من على جانبي الرأس تسمى شيبيلغير، ويرى أن هذا النوع من تصفيف الشعر مارسه رجال المغول القدماء، ويرجع «لسكان سيبيريا القديمة» [المصدر نفسه، ص ١٨٦]. بينما في الواقع ليس الأمر كذلك، يحتمل أن وا من شعوب سيبيريا مارس هذا النوع من تصفيف الشعر بعد العهد الكيداني خاصة، ولكن من الواضح أن هذا النوع من التصفيف قد آل إليهم من الكيدانيين، من المعروف أن هذه الطريقة لتصفيف الشعر المسماة عند الصينيين «توفا»؛ أي الرأس المحلوق من أعلاه وقفاه والحصل المتروكة والجديلتين المتروكتين بالأطراف غالباً من الأصداع مارسها الكيدانيون، يوجد كثير من النقوش الكيدانية على هذه الشاكلة في

ضرائح الأباطرة الكيدانيين خاصة ، التي تعد المصادر الأولية لهذه النقوش الملونة ، اقتبس تانغوت دولة سي سيا هذا النوع من التصنيف من الكيدانيين وأدخله يوان خاو إمبراطور التانغوت في عام ١٠٣٦ كتصنيف شعرة حكومية ، ويمكننا القول أيضاً مع التأكيد إن المغول أيضاً اقتبسوا هذا التصنيف من الكيدانيين ، أما التغيير الذي صاحب الضفيرة فيعد من تأثير تشجور تشجيني ؛ لأن الضفيرة كانت زينة الرجال الثمور تشجيين ، في عهد أسرة تسين المانتشجوريون تزين بها أنسألهم ، وفرضت على كل الصينيين أيضاً حيث أصبح الشكل الموحد لتصنيف الشعر ذا مغزى حكومي ، ويعني الولاء والخضوع للسلطة ، إذ لم يتزين المغول قبل توحيد منغوليا بتصنيف «توفا» ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن جنكيز خان فرضها كإجراء يؤدي إلى توحيد وخضوع وفرض هوية واحدة لكل البلاد .

يستعرض تشان تشون ، كواحد من أوائل من زاروا منغوليا ، انطباعاته في كتاب «يوميات رحالة» فيقول : «السكان كثيرون بشكل ملحوظ ، ولكنهم يعيشون في مركبات سوداء ، وخيام شعر بيضاء ، رعي الماشية وصيد الوحوش واحد من عملهم العادي ، يرتدون ملابس من الجلود والفرو ، أكلهم مكون من اللحم واللبن . . . السكان ينتقلون من مكان لآخر جرياً وراء الماء والكأ للرعى» [سي يوي تسزي ، ص ٢٨٨-٢٨٦] . أكتب فيما بعد تشجان دىخوي «أن المغول عامة مع حلول الصيف ينتقلون إلى الأماكن العالية والباردة ، أما عند قدوم الشتاء فيرحلون إلى أماكن أكثر دفئاً ، مكشوفة عند منتصف النهار ، حيث يمكن بسهولة الحصول على الماء والوقود ، بعد انقضاء هذه الفصول ينتقلون من مكان إلى آخر ، اليوم يسيرون وغداً يتوقفون ، حيث الماء والعشب ، هذه حوائج وعادات البلد» . [تشجان دىخوي ، ص ٥٨٦] . «الأراضي غنية بالماء والكأ وطيبة لرعي الخراف والخيل [التدوين الكامل ، ص ٦٨] . تحدد الظروف الطبيعية للمنطقة وحجم القطيع

البعد الأقصى لمسارهم، ولم يعتد المغول على تخزين العشب للشتاء، ولكنهم كانوا يحاولون قدر جهدهم العيش في مكان يغطيه جليد خفيف حيث تتمكن الماشية من أن تطعم نفسها بنفسها بالأعشاب النامية في حقولها.

تقدم خيمة الشعر عند المغول على البيت سواء أكانت مقامة على الأرض أو على مركبة، فلننظر ما كتب بلانو كاربيني عن الخيمة المغولية: «الدعائم مصنوعة على شكل دائري، كما تصنع الخيمة العادية، وهي معدة من الأغصان والأعواد الرقيقة، في منتصفها الأعلى توجد نافذة مستديرة، عبرها يسقط الضوء، وأيضاً يخرج الدخان؛ لأن النار توقد دائماً في وسط الخيمة، الحيطان والسقف مكسوة باللباد، وأيضاً الأبواب مصنوعة منه». [الرحلات، ص ٢٧].

وفق معلومات تشان تشون الهيكل الخشبي (الدعائم) لخيمة الشعر تصنع في العادة من خشب الصفصاف [سي يوي تسزي، ص ٢٨٨]. خيام المغول موضوعة على المركبات (بيروت على عجالات) كتب عنها بشكل جيد غ. روبروك قائلاً: «البيت الذي ينامون فيه يضعونه على عجالات مصنوعة من الأغصان المضفورة، أعمدته تصنع من الأغصان المتجهة إلى أعلى مكونة في أعلاها دائرة صغيرة، ومنها تخرج مدخنة الموقد على شكل عنق، وتغطي بلباد أبيض، وغالباً يشبع اللباد بالجير المطفأ، أو التراب الأبيض، ومسحوق العظام، وذلك لكي يلمع بشدة، وأحياناً يستعملون اللباد الأسود، يزينونه برسوم جميلة ومتنوعة، أما عند المدخل فيعلقون لبداً متنوع النسيج مرقش، يقومون بحيافته مكونين فيه دوال عنية وشجرية، طيور وحيوانات، إنهم يصنعون بيوتاً كبيرة إلى درجة أنها تبلغ ثلاثين قدماً في العرض . . . ويقول: لقد عددت في إحدى المركبات اثنين وعشرين ثوراً يجرون بيتاً، أحد عشر في صف، وأحد عشر أمامهم، ومحور المركبة كان بحجم سارية المركب الشرعي، وشخص واقف بباب البيت يهش الثيران [الرحلات، ص ٩١]. يخبرنا

ماركو بولو أن هذه الخيام القائمة على المركبات تحمي المغول من رداءة الطقس بشكل آمن «المركبات مغطاة بلباد أسود بشكل جيد إلى درجة أن المطر لو استمر هطوله طوال اليوم ما استطاع أن يبلل شيئاً في داخلها، ويشدونها بالثيران المخصصة والجمال، ويركب عليها النساء والأطفال» [ماركو بولو، ص ٨٨]. تفكيك الخيام وإعادة نصب غير المشيدة على المركبات من صميم عمل النساء فقط، تنصب في كل مكان جديد ودائماً تكون مداخلها متجهة نحو الجنوب، في حالة السير تسير القافلة صفوفاً من خمس مركبات.

الخيام المغولية القديمة تختلف عن الحديثة، أما الخيام المقامة على العجلات (المركبات) فلا يستعملونها حالياً بتاتاً، لا يوجد في منغوليا الحديثة النوع القديم من الخيام ذات الرقبة، ولكن يوجد عند المغول الأفغانيين الخازارين، وأيضاً في أورودوس وإيدجين خورو، حيث مات جنكيز خان، وتم تشييد ضريحه من خيام اللباد، ترى ل. ل. فيكتوروفا أن الفرق بين خيام الترك والخيام المغولية في أن سقف خيام الترك قبابية، أما المغولية فمخروطية، ومداخل خيامهم شرقية أما المغول فجنوبية [فيكتوروفا، ص ٥١-٥٤]. إن الاختلافات الأخيرة لا يمكن أن تكون نهائية، وذلك لأن للمغول القدماء وجهتي الشرق والجنوب، وذلك لأن يدهم اليمنى تعني الجنوب والغرب، أما اليسرى فتعني الشمال والشرق.

عندما يتوقف المغول في أثناء ترحالهم كانوا يضعون خيامهم على شكل دائري، مكونين معسكراً؛ أي «كورين» تتوسطه خيمة (يورتا) زعيمهم. يمثل المعسكر (أي كورين) حماية قوية من الهجمات المباغته للأعداء، ولكن ملاك القطعان الكبيرة يستحسن لهم أن يرعوا أنعامهم، وينتقلون إلى المراعي الجيدة بشكل منفصل، لذلك كان بإمكانهم أن يعيشوا مع المعسكر، ويترحلوا معه، بحكم الرابطة التي تجمعهم على شكل علاقات أسرية أولية أو «ثانوية». إن الماشية ترعى

بشكل منفصل، والأسر متجمعة في المعسكر، حسب رأي فلاديمير تسوف: «إن اتحاد العلاقات الاقتصادية التي عمادها المعسكر مع الأسرة أصبحت عند المغول في القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر أمثل علاقة» [التركيبة الاجتماعية، ص ٣٧-٣٨]. ثم بدأ عصر انحلال المعسكر (كورين) مؤخراً بانفصال العائلة عن المعسكر، وبعد أن تكونت الدولة المغولية الموحدة بدأ نظام المعسكر (كورين) يمثل وسيلة اجتماعية للعيش في الخفاء، مع العلم أن نظام المعسكر (كورين) كان يوفر الأمان.

وفقاً لقوانين التانغوت في القرن الثاني عشر الميلادي؛ أي في عهد شباب جنكيز خان، لم يكن لدى الفرد المترحل مع الجماعة أو المحسوب عليهم أن يتركهم، فإذا تركهم أصبح من غير حماية، فيتعرض للنهب، وبذلك يتحمل عقوبة جنائية لتركه إياهم.

بقي المعسكر (كورين) وقتاً طويلاً عند المغول نظاماً لتوزيع الجنود خلال الراحة والمبيت.

كانت المراعي الصيفية والشتوية لكل قبيلة محددة، وفي داخل القبيلة الواحدة أيضاً محددة الأفخاذ والبطون. إذا كانت الماشية مملوكة للعائلة فإن المرعى يستعمل بشكل جماعي، وتمثلت أحقية ملكية أي مجموعة للمرعى في اعتراف المجموعات الأخرى بهذه الحقوق، وليس في وضع المجموعة يدها عليه. نظم رؤساء هذه المجموعات تنقل الأشخاص الذين يخضعون لهم.

قام المغول بتربية الخيول والأبقار والثيران والأغنام والضأن، وبقدر أقل الجمال. وفرة الماشية التي وجدها المعاصرون عند الرعاة المترحلين قد بهرتهم. كتب بلانو كاريني أنهم «أغنياء جداً بالمواشي، من جمال وثيران وخراف وأبقار وخيول ودواب الحمل عندهم، ولا يوجد لها مثيل في العالم» [الرحلات، ص ٢٨].

«ولذلك فإن الشخص الذي يمتلك في بلادهم حصاناً واحداً لديه ستة أو سبعة خراف تبعاً لما يملك، فإذا كان الفرد يملك مائة حصان، فلا بد أن يكون لديه قطع من ستمائة أو سبعمائة من الخراف» [التدوين الكامل، ص ٦٩]. «الرجال والنساء مع بعض يرعون الشياه والأغنام وأحياناً يحلبها الرجال وأخرى النساء» [الرحلات، ص ١٠١]. يضيف ماركو بولو إلى هذه المعلومات أن «الشيخ، أو من يملك كثيراً من الماشية، يسم الخيل والأفراس والجمال والثيران والأبقار والماشية كافة بعلامته، وبهذا الوسم يطلقها للرعي من غير حراسة في السهول والجبال، فإذا ما اختلفت الماشية فإنهم يعطونها لصاحب العلامة الذي ترعى أغنامه وشياهه. الماشية عندهم سمينة وفخمة وممازة». [ماركو بولو، ص ٩١]. الوسم أو الدمغة (تامغا) الذي يوسم بها الحيوان تعد العلامة الشاهدة على الحق في تملكه.

أثارت قوة تحمل الخيول المغولية وسلاسة قيادتها إعجاب المعاصرين، كتب تشجاو خون يقول: «إن الخيول في عامها الثاني أو الثالث تروض بقوة وتدرّب في السهول، ثم تترك لتنمو ثلاثة أعوام، وبعد ذلك يعيدون تدريبها مرة أخرى»، الخيول عندهم لا تصهل ولا تهرب «لا يطعمونها خلال اليوم الحشيش الجاف، ولكن يطلقونها في الليل للمرعى . . . وعند الفجر يسرجونها للسير . . . وكلما تأهب التتار للمسير يأخذ معه عدة خيول يركبها بالتناوب كل يوم، ولهذا فإن الخيول لا تنهك» [التدوين الكامل، ص ٦٨-٦٩]. كما قال قدماء المغول: «إذالم يكن بالإمكان ركوب الخيل والرمي من القوس، فليست هناك متعة أخرى»، استعمل المغول الأفراس الخصية للركوب في أكثر الأحوال.

الحرفة الثانية عند المغول بعد الرعي هي الصيد المغولي، حسب تعريف ب. فلاديميرتسوف «راعٍ متنقل وصيد». الصيد يعد وسيلة بقاء ومدرسة جيدة للفروسية، «التتار يولدون وينشؤون على سرج الخيل، ويعلمون أنفسهم بأنفسهم

فنون القتال، من الربيع حتى الشتاء يطاردون ويصطادون، وهذه تعد وسيلة للبقاء، وذلك لأنه ليس لديهم قوات مشاة، فكلهم فرسان أو قوات خيالة» [التدوين الكامل، ص ٦٦-٦٧]. ويجانب الصيد العادي الفردي كانوا يقومون بصيد المطاردة الذي يشارك فيه العديد من العائلات والكورين، ومن عاداتهم الرمي بالأقواس والصيد، وعندما يقوم الحاكم بصيد المطاردة فلا بد أن يجتمع عدد كبير من الناس، إنهم يحفرون حفراً ويدفنون فيها أوتاداً متصلة مع بعضها بحبال من الشعر، وعلى الحبال يربطون قصاصات من اللباد والريش، الحبال تمتد في دائرة بمسافة ١٠٠-٢٠٠ لي (٥٠-١٠٠ كم) وبما أن الرياح تحرك قصاصات اللباد والريش لا تجرؤ الحيوانات الخائفة على العبور، وبعد هذا يأخذون في إحاطة المسافة الكبيرة، ويأخذون في تضيق الخناق على الحيوانات، دافعين بها نحو قلب الدائرة؛ ليمسكوا بها» [بين دايا، سيوي تين، ص ١٣٩-١٤٠].

من المعروف جيداً أن الرعي المتنقل بشكل خالص عملياً لا يعرفونه، ولكنهم عرفوا فلاحه الأرض أيضاً «في دولتهم يوجد مكانان أو ثلاثة ينمو فيها دخن أسود لزج يصنعون منه العصيدة» [التدوين الكامل، ص ٦٩-٧٠]. يورد المعلقون الصينيون، بناء على مقطوعة من مؤلفات تشجاو خون، معلومات من مصادر أخرى عن شعوب تمت بصلة القربى لهم، وتقوم «بطبخ العصيدة في أوعية ذات قعر مسطح، ويشربونها بإضافة الماء البارد» [المصدر نفسه، ص ٧٠].

يقوم الرجال والنساء في العائلة المغولية بأعمالهم، «الرجال يصنعون الأقواس والسهام، ويعدون الركاب واللجيمات ويصنعون السروج، وينون البيوت والمركبات، ويقومون بحراسة الخيول وحلب الإناث، ويخضضون (الكوميس) أي لبن الخيل الرائب، يصنعون وعاء يحفظون فيها الروب، ويقومون بحراسة الجمال ويحملونها بهذه الأوعية»، «أما مهام النساء فتتلخص في قيادة المركبات وتحميلها

باليوت وإنزالها، وحلب البقر وتحضير السمن والخوزات (اللبن المجفف)، وإعداد الجلود وحياتها بخيوط العصب» [الرحلات، ص ١٠١]. «يقدمون على المسير آخذين معهم الأطفال والنساء، وهم يقولون إن النساء مهمات للاهتمام بأشياء مثل المتاع والملابس والنقود والأغراض الأخرى. ونساؤهم يقمن بشد الخيام اللبادية وتركيبتها ويستقبلن أحمال خيول الركوب لإنزالها وإخراجها وأشياء أخرى، إنهن موهوبات في ركوب الخيل» [التدريس الكامل، ص ٧٩-٨٠]. كل الباحثين في عادات المجتمع المغولي القديم يؤكدون على أن النساء يتمتعن باستقلالية وبمكانة عالية في المجتمع. اعتمد المغولي القديم على الماشية والصيد اللذين وفرانه الأكل والشرب والكساء «المغولي الصائد والراعي المتجول»، ومن جلود الحيوانات خاط المغول لأنفسهم الملابس كالقمصان والسراويل الجلدية والمعاطف، حسب أقوال غ. روبروك: «الأغنياء يبطنون لأنفسهم الملابس بنسيج ناعم جداً، خفيف ودافئ، أما الفقراء فيبطنونها بالصوف الخشن» [الرحلات، ص ٩٩]. ولكن يبدو أن هذه الدلائل تعكس حقبة أكثر حداثة بعد أن ظهر عند المغول كثير من المنسوجات عقب فتوحاتهم. إن ملابس المغول الشتوية أكثر قرباً، إن صح التعبير، لأسلافهم. يخبرنا غ. روبروك «أنهم يقومون بصنع ردائين على الأقل، أحدهم يصنع بحيث يكون الصوف للداخل والآخر للخارج، مواجهاً الريح والثلوج، وغالبية المعاطف الفرائية تحاك من جلود الذئاب والثعالب، أما معاطف الفقراء فتحاك من جلود الكلاب والأغنام» [الرحلات، ص ٩٨-٩٩]. يقول تشجاو خون إن «المغول لا ينزعون ملابسهم ولا يغسلونها حتى تهترئ» [التدوين الكامل، ص ٧٥]. ويضيف غ. روبروك على ما يبدو قائلاً: «إنهم [يعتقدون] لو نشروها (أي الملابس). تعليق المؤلف) لتجف فالرب يغضب وسيأتي الرعد» [الرحلات، ص ١٠١].

تصنع الأغطية الواقية من المطر والقبعات من اللباد، حسب إعادة التصميم الذي قام به الباحثون الإثنوغرافيون للزري الأساسي للمغول القدماء، كان رداءاً بدون خياطة على الكتف، ويلفح على الجانب الأيمن. تميز شعوب المغول القدماء لمنطقة آسيا الوسطى أيضاً بلفحة الرداء، أما عند المغول والشعوب التونغوسية المانتشجورية يلفح الرداء الأعلى على اليمين، والشعوب التركية يلفحونه على الأيسر، ويحزم بحزام خفيف، كتب بين دايا واصفاً ألبيسة المغول في عام ١٢٣٣ «إن عراهم في الجزء الأعلى يلفح على اليمين، والجوانب مربعة، حاكوها سابقاً من الجوخ الرديء والجلد، أما حالياً فتحاك من النسيج والحري، اللون يختارونه أحمر وبنفسجياً وأرجوانياً وأخضر، رسومات هذه الأنسجة تعكس الشمس والقمر والتين وطائر الفضاء»، «وبخلاف هذا يفتل التتار شريطاً أحمر وبنفسجياً من الحري ويحزمون به القميص حول الخصر ويسمونهم حزام». [بين دايا سيوي تين، ص ١٤٠].

حملت الأحذية عند الرجال والنساء التفصيلة نفسها، ولكن اختلفت في المقاس والتزيين فقط. الحذاء المغولي كان مهيباً لركوب الخيل، ساقى الحذاء كانت ذات مقياس واحد في الجزء العلوي والسفلي، وتقص من جزئين، وتقص أيضاً ابطنان اللتان تحاطان بشكل محكم على الساقين، كل هذه الأجزاء تثبت على قاعدة سميكة مفروشة بطبقة من اللباد، أما أنف الحذاء فرفيق ومرفوع إلى أعلى.

إننا لا نزال لا نملك صورة واضحة عن لباس الرأس عند قدماء المغول، يورد غ. روبروك ذكر أغطية الرأس من اللباد، المتزوجات من النساء يلبسن غطاء رأس خاصاً (بوغتات)، هيكل الغطاء مصنوع من السلك «ويزينونه بتطريز بارز بني غامق أو باللآلئ والذهب، يعلوه، أي غطاء الرأس، (بوغتات. تعليق المؤلف) ذوات راية رأسية تزينها قطعة من الجوخ البني الغامق» [التدوين الكامل، ص ٨٠]. حسب

رأي تشان تشون «هذه الذوايب تشبه في مظهرها الإوز أو البط، وتسمى غوغو، فإنهم يتخوفون من أن يصطدم أحدهم عرضاً بغطاء رأسه، ولذلك عند دخولهم أو خروجهم من الخيام راجعين بمؤخراتهم وحنين رؤوسهم». [سي يواي تسزي، ص ٢٨٨-٢٨٩].

يبدو أنه من ضمن ملابس النساء الزاهية يمكن أن يضاف قميص بأكمام كبيرة، وهو أقرب ما يكون للمناسبات من أن يكون لباساً عادياً. وحسب معلومات تشي جاو خون يوجد للنساء أيضاً قميص ذو أكمام كبيرة مثل الرداء الصيني المحشو بالريش، عريض وطويل، وتجرد أذياله على الأرض، وعندما تسير المرأة يكون بصحبتها خادمان يسكان ذيل ثوبها» [التدوين الكامل، ص ٨١] ترى ل. ل. فيكتوروفا، التي بحثت نصباً من الغرائب الأغر في مركز خالخين غول، الذي يرجع تاريخه إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، أن غطاء الرأس الخاص بالمناسبات عند الرجال «قبعة ذات حواف صغيرة، مائلات للأسفل قليلاً، وأعلىها أسطوانية، تثبت من الخلف على اليافوخ شرائط من الحرير متدلّية على الظهر» [فيكتوروفا، ص ٣٩-٤٠].

تغذى المغول القدماء باللحم ولبن الخيل المتخثر (كوميس)، «اللحم يشوونه على النار في تسع حالات من العشر، وفي حالتين أو ثلاث في دنان ذات أرجل ثلاثة» [بين دايا، سيوي تين، ص ١٣٩]. «يشربون لبن الأفراس إذا كان لديهم بكميات كبيرة، وكذلك يشربون لبن الشياه والأبقار والجمال، أما في الشتاء فينعدم لبن الأفراس إذا لم يكونوا من الأغنياء، إنهم أيضاً يسلقون الدخن مع الماء ويسحقونه إلى درجة أنه يمكن شربه عوضاً عن أكله؛ أي إن كلاً منهم يشرب في الصباح قدحاً أو اثنين، أما خلال اليوم فلا يأكلون شيئاً، وفي المساء يمنح كل منهم

قليلاً من اللحم والمرق، أما في الصيف، لو توفر لبن^(١) الخليل، فمن النادر أن يأكلوا اللحم، إلا إذا جاءهم هدية أو أمسكوا بحيوان أو طائر في الصيد» [الرحلات، ص ٣٦] «وهم أيضاً شديداً التحمل، ففي حالة الجوع يصبرون يوماً أو يومين دون تعاطي أي شيء، ولا تبدو عليهم مظاهر التبرم» [المصدر نفسه، ص ٣٤]. «عندما يسافرون في حملاتهم التأديبية إلى دولة التتار الوسطى يأكلون الشياه التي في طريقهم وكل ما يصطادون من الأرانب والخننازير بغرض الأكل» [التدوين الكامل، ص ٦٩]. «أحكي لكم يا أصحابي أن الأمر يتطلب العدو على ظهور الخيل عشرة أيام دون أكل وإيقاد نار، يتغذون من دماء خيولهم بوخز عرق الحصان ثم يشربون دمه» [ماركو بولو، ص ٩١]. يعدّ اقتسام المائدة مع ابن السبيل من الأشياء الطبيعية عند المغول، «وعندما يحين موعد الغداء فإنهم (المغول العابرين. تعليق المؤلف) يجلسون بلا حرج مع صاحب المائدة». [سي يوي تسزي، ص ٢٨٩]. يقول تشان تشون: إن هذه العادة كلفت والد تيموتشجين إيسوغاي حياته.

من المحتمل أنه في غابر الأزمان حمل الطعام رمزية الألوان والتعددية النوعية، فالأكل الأبيض هو اللبن ومشتقاته، أو الأصفر الدهون، والأحمر اللحم ومشتقاته، والأخضر جذور النباتات البرية والأعشاب والبصل وغيره، أما الأسود فحساء اللحم والماء، ويضاف إليها الشاي دون حليب، دم الحيوان يعد مأوى الروح، فالماشية عند ذبحها لا يتركون الدم يسفح منها، وذلك عن طريق فتحة أسفل الصدر وإدخال اليد عبرها، وبالإبهام المعقوف تقطع الشرايين، إذا لم تتم إراقة دم الحيوان فهذا يعني أنه نائم، «فإذا كان الحيوان نائماً مؤقتاً ينتقل إلى العالم

(١) كما أخبرنا الباحث تشجاو خون «أن لبن المهرة الواحدة يكفي لإشباع ثلاثة أشخاص».
[التدوين الكامل، ص ٦٩].

غير المرثي، ولكنه عالم حقيقي، وفيما بعد يمكن أن يعود إلى أسأله، وبهذا ينتفي
إمكان حدوث خسارة في عدد القطيع» [فيكتوروفا، ص ٢٦].

قام المغول بتقطير العرق من اللبن، وشرب الخمر لم يعد عندهم عادة سيئة بل
العكس، فإن الضيف الثمل يبعث السرور في نفس صاحب الدار «حسب عادات
التار يمك صاحب الدار في أثناء الاحتفال بيده طبقاً وكأساً ويستدرج الضيف إلى
الأكل والشرب . . . فإذا تبقى في كأسه ولو قطرة فإن صاحب الدار لا يأخذ منه
الكأس راجعة. عندما يرى التار أن الضيف قد احتسى الكأس إلى آخره يسرون»،
«في كل مرة عندما يشربون الخمر فإنهم قبل كل شيء يهرقون الخمر للإله، وفي كل
مرة عندما يرى التار أن ابن السبيل قد سكر وأخذ يحدث ضوضاء ويخرق قواعد
اللياقة، أو بدأ يتقيأ، أو داهمه النوم، فإنهم يكونون مسرورين ويقولون: إذا ما
ثمل الضيف فإن هذا يعني أنه معنا الروح بالروح» [التدوين الكامل،
ص ٨٢-٨٣]. وقع تشجاو خون، الذي أوردنا المقتطف أعلاه من مؤلفه، ضحية
للكرم المغولي، عندما أغرقه القائد موخالي بستة أقداح من الخمر؛ لعدم حضوره
للمشاركة في لعبة بولو الخيلية، «وعند نهاية اليوم كان سفيركم قد ثمل تماماً وهكذا
انقضى» [المصدر نفسه، ص ٨٢]. كان من الكرم المتبادل أن المحتفلين يتبادلون
أقداح الخمر، من الواجب القول، على رأي رشيد الدين إن جنكيز خان سعى للحد
من السكر وأصدر قراراً يقضي «إذا لم توجد وسائل للحد من الشرب فإن على
الشخص أن يتعاطاه ثلاث مرات في الشهر، فإذا ما تعدى الثلاثة يعد مذنباً
ويتوجب عقابه، إذا احتسى الشخص الخمر مرتين فقط فهذا أفضل، أما إذا تعاطاه
مرة واحدة فهذا يستحق الثناء، فإذا لم يشرب ألبتة فما الذي يكون أفضل من ذلك؟
ولكن أين نجد هذا الشخص الذي لا يشرب ألبتة؟» [رشيد الدين، المجلد الأول،
الكتاب الثاني، ص ٢٦٣].

اصطدم الأوروبيون ببعض التقاليد الغربية المرتبطة بتناول الطعام عند المغول، كتب غ. روبروك أنهم «لا يغسلون الأطباق مطلقاً، ليس ذلك فحسب، بل إن الطبق الذي يودون وضع اللحم فيه بعد سلقه يغسلونه بالمرق الساخن ثم يدلقونه مرة ثانية في الدن» [الرحلات، ص ١٠١]. الشيء الذي بدا للأوروبيين غير عادي على الإطلاق أنواع الأكل، مثل الكوميس، لم يكتف غ. روبروك بالكتابة عنه بالتفصيل وعن طريقة تحضيره، بل تعدى ذلك إلى الإحساس بمذاقه عند أول مرة: «في تلك الأمسية أعطانا الخادم الذي رافقنا قليلاً من الكوميس، عند الجرعة الأولى غطاني العرق نتيجة الخوف والإحساس الجديد؛ لأنني لم أتذوقه قبلاً قط، على الرغم من ذلك إلا أنه بدا لي لذيد الطعم جداً كما هو الأمر في واقع الحال» [المصدر نفسه، ص ١٠٤] لاحظ أن غ. روبروك بوصفه مخبراً متمكناً متمكناً أنه قد لاحظ خلال الاحتفالات يراعى ترتيب معين في الضيافة، «قبل تقديم لحم الشاه للضيوف يأخذ صاحب الدار لنفسه ما يطيب له من اللحم، فإذا وهب لأي كان قطعة خاصة فإن المتلقي يترتب عليه أن يأكلها وحده دون أن يمنحها لأي شخص آخر، وإذا تعذر عليه أكلها إلى النهاية فعليه أن يأخذها معه أو يهبها لخادمه» [المصدر نفسه، ص ٩٦].

من علامات الترحاب المغولية معانقة بعضهم بعضاً عند اللقاء، على رأي تشجاو خون أن طبائع المغول بسيطة «المغول يحتقرون الضعف ويحترمون القوة»، «إنهم يجدون المتعة في الشرب والاحتفالات»، «التتار بحكم عاداتهم لا يغسلون أيديهم، يأكلون اللحم والسمك بأيديهم المتسخة، وعندما يظهر الشحم على أيديهم فإنهم يمسخونه بملابسهم التي لا يخلعونها ولا يغسلونها إلى أن تبلى» [التدوين الكامل، ص ٧٥]. من ملاحظات المعاصرين أن المغول القدماء كانوا أقوياء ومصقولين وشرفاء «وحين يهبون كلمتهم لا ينكصون عنها» (شهادة تشان

تشون، انظر [سي يوي تسزي، ص ٢٨٩]، وكذلك «لا يرفعون الأشياء الضائعة الساقطة على الطريق» [بين دايا، سيوي تين، ص ١٤٤]، التقويم الزمني يبدو أنه تعداده آخذين في الحسبان ظواهر الطبيعة المحيطة «عندما تحضر الأعشاب يرون أنه قد مرّ عام كامل، وعند أول ظهور للهِلال يكون قد انقضى شهر كامل» [بين دايا، سيوي تين، ص ١٤١] (١).

إذا سئل المغولي عن عمره فإنه يجيب أن في حياته كذا وكذا ربيعاً وكم مرة اخضرت السهوب بالأعشاب. لم يعرف قدماء المغول الكتابة على وفق شهادة تشان تشون، الذي زار منغوليا آنذاك، ويذكر أن الاتفاق يتم شفاهة، ويتم عقده عن طريق حفر علامات في شجرة الأحكام تطبق كالآتي: «السارق حتى ولو شيئاً قليلاً عقابه سبع ضربات بالعصي أو سبع عشرة أو سبع وعشرون أو سبع وثلاثون أو سبع وأربعون، وهكذا حتى يبلغ العقاب الثلاثمئة وسبعة؛ أي بزيادة عشر ضربات حسب جسامة الجريمة، ومن هذه الضربات يموت الكثيرون، أما الذي يسرق حصاناً أو شيئاً من هذا القبيل فعقابه الموت بالسيف تمزيقاً، أما القادر على دفع الفدية مقابل المسروق بعشرة أمثاله فلا يقتل» [ماركو بولو، ص ٩١].

(١) يحيكي تشجاء خون أنهم «يحسبون مرور العام ببداية اخضرار الأعشاب»، «وعندما كان الناس يسألونهم عن أعمارهم، كانوا يردون: "بكم من مرة ظهرت الأعشاب" كانوا عندما كان تشجاء خون يسألهم عن أيام وأشهر ميلادهم كانوا دوماً يتسمون ويردون عليه بأنهم لا يعرفون هذا قطعاً، وحتى لم يكن يوسعهم أن يتذكروا أن هذا في الربيع أو الخريف، وفي كل وقت عندما يرون القمر قد استدار، يعدون شهراً كاملاً قد مر، وعندما يشعرون بأن اخضرار الأعشاب قد تأخر، يدركون أن في هذا العام ثلاثة عشر شهراً» [التدوين الكامل، ص ٤٩] قسم المغول القدماء الشهر إلى ثلاثة أقسام: الهلال والبدر وآخر الشهر، وفي التقويم السنوي كانوا يستخدمون نظام الاثني عشر عاماً وهو النظام التقليدي لآسيا الوسطى والذي يسمى فيه كل عام باسم حيوان، مثال: الفأر، الثور، النمر، الأرنب، التنين، الحية، الحصان، النعجة، القرن، الدجاجة، الكلب، الخنزير.

«أما عن الأعراس فمن المعروف أنها تتم بشراء الزوجة» [الرحلات، ص ١٠١]. «يتم الزواج بالصورة الآتية: كل رجل يحق له الزواج بأي عدد من النساء، إذا كان بإمكانه الإنفاق عليهن، حتى ولو مائة زوجة» [المصدر نفسه، ص ٢٦] «الصداق يعطى لأم العروس، أما الزوجة فلا تحضر لزوجها أي شيء بتاتاً، الزوجة الأولى - لو تعرفون - توفّر بصفقتها الكبرى والأكثر عزة» [ماركو بولو، ص ٨٨]، الأثرياء مالكو الماشية يقيمون حفلات أعراس فخمة، شاهد تشان تشون عرساً من هذا القبيل، فكتب واصفاً: «شيوخ الرعاة الرحل من محيط الجوار حتى خمسمائة لي (٢٥٠ كم) يقدون جالين معهم لبن الخيول للمساعدة، المركبات السوداء وخيام اللباد تقف على مقربة، ويبلغ عددها الآلاف» [سي يوي تسزي، ص ٢٨٧]، النساء يتزيّننّ ماسحات جباههنّ بمساحيق صفراء.

«عندهم الأرامل لا يتزوجن بناء على إيمانهم بأن من كان في خدمتهم في هذه الحياة سيخدمهم في الحياة القادمة، وعلى هذا الأساس فإن الأرملة - حسب اعتقادهم - بعد الموت ستعود لزوجها الأول، انطلاقاً من هذا المفهوم، انتشرت بينهم عادة أن الابن الأكبر أحياناً يرث كل زوجات والده ما عدا أمه، وهكذا يترتب عليه العناية الكافية بجميع زوجات والده، اللاتي يؤلن إليه ودار أبيه، وهكذا يمكنه معاشرتهن كزوجات، ولا يخامرهن الإحساس بالغبن بسبب عودة المرأة بعد وفاتها لزوجها، بحكم أنه والده» [الرحلات، ص ١٠١]، «إنهم لا يسمحون لأنفسهم البتة النوم مع نساء الآخرين، لأن هذا يعدّ عملاً قبيحاً ودينياً» [ماركو بولو، ص ٨٨].

كما رأينا سالفاً في حالة تيموتشجين، اتفاقات الزواج تعقد من قبل الآباء، في حين أن الأزواج المقبلين ما زالوا أطفالاً صغار السن، العلاقات من غير الزواج عدّ على ما يبدو عاراً وغير جائزة. على كل حال العادة التي وصفها ماركو بولو تشهد

على أن الآباء كانوا حريصين للحصول على اتفاقات الزواج حتى للأبناء الذين ماتوا. «إذا مات لدى شخصين طفلان، أحدهم ابن في الرابعة أو حوالي ذلك، والأخرى ابنة، فإنهم يزوجون البنت الميئة بالطفل الميت، ويكتبون اتفاقاً ثم يحرقونه، وعندما يتصاعد الدخان في الهواء يعني أن الاتفاق انتقل إلى العالم الآخر لأبنائهم؛ لكي يحترموا بعضهم كزوج وزوجة، ثم يقيمون حفل فرح وينشرون الأكل هنا وهناك، قائلين إن هذا لأبنائهم في العالم الآخر... وبنهاية هذا يحترمون بعضهم بعضاً كما لو كانوا متصاهرين وبينهم قرابة، ويحرصون على العلاقة كما لو أن أبناءهم أحياء» [المصدر نفسه، ص ٩٢].

في وقت الربيع يؤبن المغول موتاهم، يذبحون الخيول، ويقسم اللحم بين أفراد العائلة بحسب مدى القرابة، أما الجلود فتعلق على صار قرب مكان دفن الأسلاف. خلال نحر القرابين يقوم أكبر شيخ بين البكوات في ملابس بيضاء وعلى حصان أبيض يؤدي «الإنشاد العظيم» إلى الأسلاف ويناجيهم. توجد المقابر العائلية في أماكن مغولية غالباً تحت الجبل أو الصخرة، عندما مات قائد الجيش خويلدار أمر جنكيز خان بدفنه في منطقة خالختا تحت صخرة بارزة.

«من عاداتهم أنهم يوقرون الأرض والسماء بصورة خاصة، وفي كل صغيرة وكبيرة يرد ذكر السماء». [التدوين الكامل، ص ٧٩] فإضافة إلى تنغري «السماء الزرقاء الخالدة» وإيتوغين آلهة الأرض يوقر أيضاً الإله أوط روح النار. توجد التماثيل التي تعكس شكل الإله أونغون في كل خيمة، وقد حفظت أوصافهم في كتابات ماركو بولو: «كانوا يعتقدون في إله يسمى ناتشيغاي، ويقال إنه إله دنوي، يحفظ أبناءهم وماشيتهم، وخبزهم، يجعلونه ويصلون له كثيراً، وهو موجود عند كل فرد في داره، يصنعونه من اللباد والجوخ، ويحتفظون به في ديارهم، وأيضاً يصنعون له زوجة وأبناء، الزوجة توضع على شماله والأبناء أمامه، ويصلون

عليهم أيضاً. عند الأكل يمسحون فمه بقطعة من الأكل كثيرة الشحم، والزوجة والأبناء أيضاً، والعصارة المتبقية يدلقونها خارج باب الدار قائلين إن بعملهم هذا يكون الإله قد أكل وشرب مع خاصته، ثم يبدوون الأكل والشرب». [ماركو بولو، ص ٩٠].

يحمل التقديس الحربي للراية مغزى كبيراً، فمن أجلها قدمت التضحية، وفي عهد جنكيز خان من الجائز التضحية بأرواح بشرية. حسب رأي غ. بولا أحد المعلقين على «كتب ماركو بولو». التسمية المقدسة «ناتشيغاي» لها مرادفات في اللغة البورياتية «نوغايت»، «نوغوت»، هذه الكلمات تعني معنى «أنغوت» نفسه. عند التونغوس تعني الآلهة ذوي المراتب الدنيا (السفلى)، من مجموع هذه الأصنام الإلهية يبرز المغول بشكل خاص زياغتشى؛ أي حارس المصير والإله الذي يجلب السعادة، وكذلك إيميغلي حارس القطيع، الذي يصنع تمثاله من جلد كبش وينصب أمام باب الخيمة.

ارتبط كثير من الاعتقادات والتنبؤات عند قدماء المغول بالإيمان في الأرواح، فقد مارسوا التنبؤ على كتف كبش، يحرقونه على النار ومن ثم يضربونه بمطرقة حديدية إلى أن تظهر تصدعات، مفسرين إياه، وبعدها يتنبؤون «وفيما يخص تنبؤاتهم، فإنهم يحرقون كتف الكبش، ويحددون السعادة أو عدمها من كيفية توجه الشقوق عليها، إلى الأمام أو العكس، بهذه التنبؤات يتم تحديد كل شيء: شاءت السماء أن تعطي أم لا». [بين دا يا سيوي تين، ص ١٤٩].

من المعروف أن جنكيز خان قد مارس التنبؤ عن طريق رجل الكبش، يخبرنا غ. روبروك بأن «الشخص عندما يداخله الإحساس بالسقم يرقد على الفراش معلقاً علامة في أعلى داره، حتى يعلم الناس بوجود مريض؛ لكي لا يدخل أحد... إنهم يخشون دخول الناس خوفاً من دخول الأرواح الشريرة أو الريح»

[الرحلات، ص ١٠٣]. لعل الأمر كذلك، ولكن الأهم في الأمر أن العلامة الخاصة في أعلى اليورتا من أجل منع انتشار المرض. مارس المجتمع المغولي القديم عدداً من المحرمات المرتبطة بالاعتقاد في الأرواح كالاستحمام في النهر أو جلب الماء بإناء فضي أو ذهبي، أو ذبح الماشية بقطع عنقها أو طء عتبة الدار بالقدم، أو استخراج اللحم من الدن بالسكين، أو ضرب الحصان باللجام أو تدنيس النار، وهلم جراً.



من الصعب تحديد مستوى التطور الاجتماعي للقبائل المغولية في القرن الثاني عشر، وللفصل في هذه القضية لا يوجد اتفاق في وجهات النظر، ولكن يمكن القول إن هناك وجهة نظر آخذة في التطور، وعلى ضوءها يرفض الباحثون الاعتراف بأن المجتمع المغولي القديم مجتمع مشاعي بدائي وقبلي عشائري «حربي ديمقراطي».

إن مؤرخي جمهورية الصين الشعبية المعاصرين إلبتشجان وناميون يعدان المجتمع المغولي في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي؛ أي مجتمع عهد خابول كاغان، مجتمعاً طبقياً [إلبتشجان، ص ٧٢، ناميون، ص ٩٥-٩٧].

أما مؤرخو جمهورية منغوليا الشعبية والسوفييت في الطبعة الأخيرة لـ «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية» فيكتبون: أن «المجتمع الرعوي المتنقل للقبائل المغولية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي بلغ مرحلة تطور وسائل الإنتاج الاقطاعية» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص ١٢٣].

الكثير من باحثي التكوين القبلي العشائري «أوبوك» في القرن الثاني عشر الميلادي لا ينظرون إليه كقبائل وعشائر وما تحمله هذه الاصطلاحات من معاني،

إنما يتعاملون معه كعائلات «فاميليا» («سينشي»)، تقع تحت سيطرتها مجموعة من الأسر [ناميون، ص ٩٥-٩٧]. إن هذا التكون ليس بمجموعة بسيطة من الأقارب يتمون لجد واحد «إنما تكوين طبقي من عدة مجموعات اجتماعية» [سيباو تستسين، ص ٩] وفي الواقع أن «التاريخ السري» لا يخبرنا عن وقت تكوين المجتمع المشاعي البدائي عند قبائل التتار المغولية، إن عهد ألان غوا هو الحقبة الواضحة لسقوطها، مرحلة «النزاعات المتبادلة والشجار» حول استخدام أراضي وصيد الوحوش وانهيار أشكال العلاقات النسبية القبلية القديمة، وتبرعم تكوينات عشائرية جديدة «أوبوك»^(١) انتقل والد ألان غوا إلى يورخان خالدون من ضواحي أريخ أوسون الكائنة في أراضي خوري التوماتية بسبب «الخصام والشجار حول استغلال أراضي صيد الوحوش» [السيرة المقدسة، ص ٧٩]. والد ألان غوا خوريلارتاي ميرغين لهذا السبب «قرر الانعزال مكوناً جيلاً جديداً "أوبوك" تحت اسم خوريلار» [المصدر نفسه، ص ٨٠].

عرف المجتمع التتري آنذاك الفوارق الاجتماعية، بيع البشر كرقيق وكخدم، تسبب انهيار التكوينات العشائرية «أوبوك» القديمة في عدم الثقة بين الناس تجاه بعضهم، عندما تقاسم أبناء ألان غوا الخمسة الميراث وتفرقوا، أظهر الجيران عدم الثقة بالابن الأصغر بودونتشار، الذي ارتحل وحده بعد أن منع من نصيبه من الممتلكات ولا حتى اقطاع أرضي مستقل «خوبي»، «فقد عاشوا فيما بينهم حيث لم يسألوا عن هوية بودونتشار أو من أين أتى، وهو بدوره لم يحاول معرفة ماهية هؤلاء الناس» [المصدر نفسه، ص ٨٢]. نجد في مجتمع مغول القرن الثاني عشر الأغنياء وهم «بايان» (مثل والد بورتشو كان ثري جبل ناخو أي «ناخو بايان»)،

(١) «كل فرع من فروعه صار يشتهر باسم معين وتعريف محدد، وأصبح بدوره يشكل قبيلة منعزلة قائمة بذاتها، ومصطلح "أوبوك" يقصد به الذين يتمون لسلالة محددة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٥٣-١٥٤].

ياداغو خوفون هم الفقراء والأرقاء والأحرار بذواتهم، الأرقاء يتقسمون على الأرقاء الذكور «بوغول» والإماء «إندجي».

لقد سبق أن تحدثنا عن «أوبوك» في القرن الثاني عشر الميلادي كرابطة غير دموية، تضم الفقراء والأغنياء، السادة والخاضعين، والرقيق أيضاً، لا اتحاد يضم أبناء الدم الواحد (ذوي القربى). الأقرباء الذكور من جد واحد يشكلون «أوروك» يعني «الأنسال الذكور»، وأعضاؤه لا يحق لهم الدخول في علاقات زوجية فيما بينهم، ويعقدون زيجاتهم مع الغرباء فقط أي «جاد».

تسمى القبائل المغولية التابعة أوتاغو بوغولي «ومعناه - كما يحدثنا رشيد الدين - ترجع للدارليكين، الذين كانوا في الأصل أرقاء وأسلاف عبيد جنكيز خان» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٥].

إن علاقات العدالة الاجتماعية في القرن العاشر الميلادي أثارت التعجب والاحتقار، إذ يتحدث بودونتشار مخاطباً شقيقه الأكبر بوغو خاداغي: «ما بال هؤلاء القوم الذين يقطنون على نهر تونغيليك يعيشون كلهم متساوين، ليس بينهم فرسان ولا سادة، لا قواد ولا منفذين، إنهم لشعب حقير، دعنا نحتلهم!» «وهنا نهض الأشقاء الخمسة لسببهم، وتم ذلك، وأصبحوا عندهم خدماً للرعي والطبخ» [السيرة المقدسة، ص ٨٢].

يورد المؤرخ الصيني غاو فاندا معلومات تؤكد أن الرقيق كانوا بالفعل لدى جميع أسلاف جنكيز خان بدءاً من الجدل الثاني عشر [غاو فاندا، ص ٨٢]. إن العبودية عندهم كانت وراثية، وذلك بجانب الاسترقاق العادي للرجال والنساء يوجد أيضاً «جالاو» بمعنى نسل الأرقاء.

إن مصدر الرق الحروب والأسر والبيع والشراء، فبتم شراء الرقيق من خارج الحدود، من عام ١١٣٠ وفي أثناء ترتيب الأحوال في المقاطعات الشمالية من

البلاد، حيث قام التشجور تشجيبون باصطياد فلول الهارين وأحالوهم إلى رقيق الدولة، قسم منهم تم تصديره خارج الحدود، وبدلوهم بخيول عند المغول الآخرين .

ومن أجل مواصلة تكاثر الرقيق أرغمهم المغول على الزواج، يقال في إحدى المؤلفات الصينية: «جمع المغول في زوجين الرجال والنساء، وأرغموهم على أن يكونوا أزواجاً»، الأطفال المولودون صاروا أرقاء للأبد حسب اصطلاح كتاب «التاريخ السري»، ويعدّون من تبقى من الأسلاف أرقاء، وأيضاً في هذا الكتاب نفسه يذكر «عبيد على العتبة» كانوا يفتحون لسيدهم باب البورتا غيرا (أي الخيمة)، ويجهزون السرج، ويقومون بعمل كل شيء يخص المنزل وأفراد أسرته .

عندما أعطى جنكيز خان لعائلة خويلدار مائة أسرة من التشجور تشجيبين أمر أن يعطي الأرقاء من الرجال كل قواهم العضلية لأسرة خويلدار، أي أن يعملوا لديهم، والإماء أن يقمن بخدمة كل من هو «على اليمين أو اليسار». ويسمى الأرقاء الحرفيون المتمدون لأسر الأعيان والخانات غار إن كيويغبيود، أي بمعنى «أبناء الخيمة». أدى الرقيق الحرفيون إضافة إلى خدمة سيدهم وحرفتهم الأساسية العمل الرئيسي في المنطقة وهو رعي الماشية، فلنذكر بودونتشار الذي أرغم أسراه على رعي الخيول، فإن خان الكيريتي - الذي ستحدث عنه فيما بعد - أرسل الأسرى «لرعي الإبل والشاء»، كانوا يخضخضون الكوميس، ويجزون صوف الشياه، كما في مجتمعات العالم كافة. إن الرقيق لدى المغول يقارنون بالماشية .

هنالك رأي [غاو فاندا] يقول: إن الرقيق في أملاك المغول الغنية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين لم يكونوا أكثر من قوة مساعدة فحسب، بل القوة الأساسية العاملة، كان العبد ملكية خاصة لصاحبه، ويتطلب منه الطاعة العمياء، قال جنكيز: «إذا لم يخضع العبد لسيدته فاقتلوه»، حسب رأي غاو فاندا

«قبل أن يقول جنكيز خان بتوحيد المغول كان المجتمع المغولي عبودياً» [غاو فانداء، ص ٨٧]. هذه النتائج متفق عليها في الطبعة الأخيرة لـ «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية»، وتطالع «أن العبودية لم تشغل ذلك الحيز الكبير في منغوليا؛ لكي تكون تشكيلة اجتماعية اقتصادية أساسية، ولكنها وجدت كترسبات من المجتمع الإقطاعي المغولي في عهد تطوره الأولي». [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص ١٢٧].

الأحرار في المجتمع المغولي بذواتهم ليسوا بأرقاء، وينقسمون على: ساين خوفون؛ أي نبلاء، وكاراتشو أي عامة البسطاء، وسط النبلاء تبرز؛ «السلالات الذهبية» و«الحانات الطبيعيون»، وإلى السلالة الذهبية ينتسب جنكيز خان، كما هو حال السلالة الذهبية عند مجتمعات أخرى من المغول، مثل الخونغيرانيين والإكيريبيين، وغيرهم من النبلاء المسمون عمداً بالنويان أي (النبيل المغولي) منذ عهد لياو المغول الكاغان والتيون، حملوا الألقاباً حصلوا عليها من الكيدانيين والتشجور تشجينين^(١)، اللقب الأميري «فان» تقلده كل من فان كاغان وإيتانتش خان النايماي وبايوس خان التار البيض. تقلد جنكيز خان في أثناء حروبه مع التار لقب تشاوتخوري، أي «المثوي».

كان هذا باختصار غمط حياة قدامى المغول ومستوى تطورهم الاجتماعي الذي نقلته المصادر الأولية والحديثة، هكذا كان الشعب الذي خرج منه ابنهم تيموتشجين، هذه هي البيئة التي ضمنت يتيماً منبوذاً ليصير جنكيز خان القوي

(١) من الألقاب على سبيل المثال لقب سينغيون (من الكلمة الصينية تسزيانتسزيون، وتعني جنرال)، ولينغوم (من الكلمة الصينية لينغون، وتعني رئيس السكرتارية الحكومية تشجونشولين)، وتايشي (من الكلمة الصينية تايتسزي، وتعني وريث العرش)، وسيانفان (من الكلمة الصينية سيانغون، وتعني الوزير)، وغويان (من الكلمة الصينية غو فان، وتعني أمير)، وتايان (من الكلمة الصينية تاي فان، وتعني الأمير العظيم).

العظيم، لا يوجد خطأ أكبر من الجزم والتقدير بأن المجتمع المغولي بدائي ومتخلف ومتوحش ومنعزل عن العالم الخارجي، فإن هذا النمط من التفكير لا يساعد في فهم الظروف، وتلك البيئة التي أنجبت قوة قادرة على اجتياح الجزء الأعظم من أواسط آسيا والشرق الأقصى، وكذلك الشرق الأوسط وشرق أوروبا.



« غاضت ينابيع المياه »

« وتصدع أبيض الصوان »

« لا أصدقاء لنا تبصروا عدا ظلنا، ولا

جدائل لنا بقيت سوى ذبول خيلنا » .

السيرة المكنونة

بقي الأولوس متماسكاً بفضل قوة شخصية إيسوغاي، وعندما غاب عن مسرح الأحداث تغيرت علاقات المجتمع بشكل مفاجئ تجاه أسرته، وأصبحوا أقل احتراماً لويلون. في ذلك الربيع ذهبت زوجات أمباغاي - الذي ذاق العذاب على يد التشجوتشجينيين - لزيارة «أرض الأسلاف»؛ أي مقبرة العائلة، بغرض تقديم القرابين، بدون ويلون أرملته، التي تأخرت بغير إرادتها، ولم ينتظرها أحد، وبعد أكل اللحم وتوزيعه وشرب نبيذ الأضحية ونهاية طقوس تقديم القرابين فزع فؤاد ويلون التي تخلت عنها أبناء جلدتها، الذين لا يودون أن يذكروها أو حتى أبنائها أمام الأسلاف، عن لها خاطر رهيب، قد يصل الأمر إلى أن يرحلوا دونها ويتركوها وأبناءها في السهل، وحينها خاطبت أورباي وسوخاتاي أرملتي أمباغاي خان غاضبة:

- لماذا أرغمتوموني وفوتم علي التضحية والتأبين مع اللحم والنبيذ؟ هل لأنه قد

مات، إيسوغاي باتور قد مات فلا يحق لأبنائه أن يشوا؟ وبالفعل أراكما تستطيعان

أن تأكلا على مرأى من أعين الناس ولم تقاسموهم الزاد، وأن ترحلا دون إخطار؟

فكان ردهما المتعجرف يؤكد على تنبئها: فقد قرر أقارب زوجها هجرها حتى لا يشب أبناؤها، وتكون لهم فروع جديدة ذات أصول إيسوغائية.

- من الواضح، ولأن أمباغاي كاغان قد مات، تستطيع ويلون أن تضللنا، إنها تستطيع أن يدعواها ولا يعطوها شيئاً، وعليها أن تأكل ما تجده، حقاً أقول من الأفضل ترك هذه الأم وأبنائها في المرعى، ولا نسمح لها بالذهاب معنا! (هكذا ورد في «السيرة المقدسة»، ص ٨٨).

أصبح واضحاً لويلون أنه قد قضي الأمر، وأن التايتشيوتيين الطائعين للأولوس الإيسوغائي بدأوا يظهرن الحسد لسلطة إيسوغاي، الأقارب الآخرون والتوكير (الأصدقاء)، أو «أنصار الدفاع» رفضوا أيضاً الإنصياع لأرملة إيسوغاي، وانحازوا إلى جانب التايجوت، مما أدى مباشرة لتحول التايجوت إلى زعماء مستقلين لأولوس عظماء الباتور، بالطريقة السابقة نفسها، كما كان إيسوغاي، كان التايجوت الواقعون تحت أمر تارغوتاي كيريلتوخ وتودوين غيرتاي من ضمن الأولوس التابع لإيسوغاي، وتحت نفوذه، هجروا ويلون وأبناءها في اليوم الثاني للخصام الذي وقع في أرض الأسلاف، واتجهوا إلى الجنوب على مجرى نهر أنون، وحينها حاول الشيخ تشارخا بيوغين وحده إيقاظ ضمير المرتحلين، ولكن لم ينصاعوا إليه، بل قام تودوين غيرتاي بوخز العجوز في ظهره بالرمح حتى لا يبلبل أفكار القوم، ويلجأ لإحياء الضمائر النائمة:

غاضت ينابيع المياه

وتصدع أبيض الصوان

وهكذا تمزق الأولوس الذي بناه إيسوغاي أمام أعين ويلون.

وعندما ذهب تيموتشجين ليعود الشيخ الجريح تشارخا بيوغين، خاطبه الشيخ

قائلاً:

– لقد دفعت الثمن غالباً عندما حاولت أن أثني القوم المرتحلين عن عزمهم، في محاولة لاصطحاب جميع الأولوس الذي جمعه والدك النبيل. (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ٨٨).

غادره تيموتشجين غارقاً بالدموع، وهو ما زال يافعاً وعديم القوى، حتى يرث عمل والده ويواصله، إلا أن الأم الباسلة ويلون وجدت في نفسها القدرة على الكفاح حتى النهاية، وقد جمعت حولها كل ما تبقى من البشر، وسارعت في أثر المرتحلين، وبعد الصدام تمكنت من جمع الكثيرين في بداية الأمر، ولكنهم رجعوا للمظهر فقط، وسرعان ما ارتحلوا تاركين ويلون وأبناءها والزوجة الثالثة لإيسوغاي وذريتها وقليلاً من الخدم كانوا يوماً ما في خدمة أسرة باتور المجيد في السهل العريض.

يتحتم علينا لإدراك ما حدث الحديث باختصار عن الأولوس التتار المغولي في القرن الثاني عشر الميلادي، فإن الأولوس، الذي يعني «الشعب» يمكن أن يكون بغض النظر عن قوته وتأثيره، كمثل «أولوس الحياة» وأولوس الدولة أيضاً.

كتب ب. فلاديمير تسوف أن «الأولوس عند قدماء المغول عبارة عن تجمع قبائل وعشائر وأجيال، منظور له من زاوية ارتباطه بقائد (خان)، مشكلين بذلك "حكومة حياة"» [ب. فلاديمير تسوف: النظام الاجتماعي، ص ٩٧]. شكل البشر عند المغول أهمية كبرى من الأولوس وليس مساحته، وعلى رأسه يقف قائد من عداد النبلاء (نويون)، الذين تقلدوا من الألقاب المغولية الأصلية مثل (باتور، سيئتشين، ميرغين، بيلغي، بوكا وخلافهم . . .)، أو خلعوا عليهم رتبة أو لقباً صينياً.

حمل إيسوغاي والد تيموتشجين لقب باتور وامتلك أولوس الذي انهيار بعد وفاته إثر تفرق القوم الذين كانوا خاضعين له، وبهذا يكون الناس العامل الأهم.

كما يؤكد ب. فلاديمير تسوف - في تعريفه للأولوس بأنه كان قبل كل شيء «شعب موحد» وليس أي مساحة كائنة.

كان الأولوس بطبيعة ارتباطه بالحياة الرعوية متنقلاً، ولكنه كان يحتفظ لنفسه بمساحة رعوية محددة، تسمى «نونتوك»، النونتوك التي تتبع للقبائل المغولية الأسامية، ومساحات الأولوس التابعة لهم بكاملها في القرن الثاني عشر الميلادي كانوا بشكل نسبي ثابتين ومعروفين بصورة معلومة، من أجل استمرار الأولوس تبقى رعية الموحدين فيه أكثر أهمية من مساحته، إن تغير المساحة الرعوية المحددة «نونتوك» لم يؤد إلى نهاية الأولوس، ولكن خروج الناس يعني الانهيار، ولهذا كان الأولوس يشتت الرعية أو يجمعهم ويوحدهم، الأشخاص الذين لا يتوحدون تحت لواء الأولوس يسمونهم «يركين»؛ أي «ناس» ولا يطلق عليهم اسم أولوس وفق «التاريخ السري». سترى فيما بعد أن فان خان عندما أهداه تيموتشجين الفرو وعد الأخير قائلاً: «شكراً لك على فرو السمور الأسود، سأوحد أولوسك المتفرق، وشكراً على فرو السمور، سأجمع أولوسك المتشتت!» [السيرة المكنونة، ص ٩٦].

يشدد المؤرخ المغولي المعاصر من الصين نامويون أيضاً بشكل خاص على مفهوم «تجميع الشعب» (شووتسزي باسينين) لتكوين الأولوس [نامويون، ص ١٠٠] أساس الأولوس كان الذكور من أنجال قائده (الخان)، الذين يسمون أورو، وفي تركيبة الأولوس أيضاً يدخل الغرباء أي «جاد»، وبينهم تمايز أقارب زوجات الأورو الذين كانوا أصهارهم أي «خودا»، أدان بالطاعة للقبيلة القائدة كل من سقط سابقاً من القبائل أوتاغو بوغولي؛ أي القبائل التي تم استرقاقها، إن الأولوس لم يكن مؤسسة قبلية ولا اتحاد قبائل، ويمكن ملاحظة هذا من التركيبة الأولية لأولوس تيموتشجين الذي دخل في تركيبه ممثلون لقبائل جالبار وبارولاس

ومناخوت وأرولات وأوريانخات وأولخونوت وغيرها . . . وأصبح الارتباط الشخصي أكثر أهمية من الصلة القبيلة، من الأقرب للاحتمال أن الأولوس تكون في بنائه الداخلي على النظام الإداري الحربي، متوالي العشرات أي بالآف، ويسمون معسكرات «كورين»، يفسر رشيد الدين مصطلح «كورين»، ويعني المصطلح الآتي، «عندما تتوزع مجموعة من البيوت المقطعة في دائرة، ويصنعون حلقة في السهل، فإنهم يسمونها بالكورين، آنذاك " هنا يعني رشيد الدين القرن الثاني عشر الميلادي. تعليق المؤلف " أن الألف بيت التي تنظم بهذا الشكل تمثل كورينا واحداً» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٨].

ليس الأولوس مجموعة من البشر فقط بل أناس منظمون على أسس معينة، عكس أسلاف الحاكم الخان أو الأوروك، يعود الدور الأعظم في الألوس للتوكير (أي حراس وأصدقاء الخان) إن كبار الخانات كافة في سهوب منغوليا كان لديهم في القرن الثاني عشر الميلادي حراس أي نوكير، وكان لدى تارغوتاي كيريلتوخا التايشيوتي مجموعة من الحراس النهارين (أي تورخاوت)، ومن عهد فان الخان؛ أي من عام ١٢٠٣ بلغ عددهم آلاف الحراس النهاريين أي «التورخاوت». كتب ب. ي. فلاديمير تسوف أن «القادة المغول في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين كانوا لا يفترقون عن حراسهم (نوكيرهم)، الذين يأتمرون بأمرتهم، ودوماً بجوارهم مكونين حاشية. عندما يكون التوكير في معية قائده يقوم بدور الخادم، وفي حالة الحرب أو الغزوات محارب، أما في المطاردة فإنه مساعد، فهو دوماً على رأس كل مبادرة ومراقباً، وبعد جزءاً من تركيبة الحاشية، وبعد الصديق والمستشار لقائده» [ب. ي. فلاديمير تسوف، التركيبة الاجتماعية، ص ٩٣].

حسب رواية يوان شي إن من ضمن أوائل حرس جنكيز خان كان التوكير؛ أي أصدقاؤه المقربون «في عهد تاي تسزو إن موخالي وتشيلافان وبورخو وبور

تشجو كونوا مجلساً رباعياً لقيادة الحرس الدولي، الذي يقوم بالخدمة في حراسة الإمبراطور، وسمّ هؤلاء الأربعة دارين كولو (أي أربعة أبطال)، وأمر تا تسزو أن يمارس هؤلاء الأربعة هذه السلطة بالميراث، أي قيادة المجلس الرباعي "تسزي"، التي تعني الحرس الذي يؤدي خدمته بشكل دوري [يوان شي، الفصل ٩٩ ص ١].

إن الحرس والنوكير كانوا يمثلون جزءاً من الطبقة الحاكمة في المجتمع المغولي، فكان النوكير يتمثلون في المحاربين والحراس والإداريين والحاشية التابعة للخان الحاكم أيضاً. إن السلطة المغولية السابقة لم تعرف التقسيم الوظيفي، كحراسة مقر قيادة الخان، وإدارة البلاط الخاني، وإدارة الدولة، من وجهة نظرنا أن أولوس من قبائل التتار المغولية، التي تمثلت في خاماغ منغول أولوس وأولوس التتار والميركيت والتايجوت وأولوس الكيريت والتايغان، كانت عبارة عن شكل بدائي للدولة، على الرغم من أن وجهة النظر هذه لا يشاركنا فيها الكل.

من المحتمل أن أولوس إيسوغاي كان جزءاً من الخاماغ منغول أولوس الذي انهار، على كل إن إيسوغاي لم يكن خاناً للمغول كافة، وبعد وفاته آلت السلطة إلى التايجوت، تصدع أولوس إيسوغاي بعد خروج النوكير التابعين له، الذين لم يعد لديهم من يقومون بخدمته، وأيضاً لم يبق من يشاركهم الغزوات الجسورة، وأيضاً بعد خروج أقربائه من التايجوت ومن صحبهم من القوم الذين لم يدخلوا البتة في أولوس إيسوغاي. لقد ذكرنا سابقاً أن إيسوغاي الذي ينتمي للكيات من ضمن أجداد جنكيز خان، ذلك الفرق الذي يمثله أنسال ابن تومبينا سي تشينا؛ أي خابول خاغان وأنسال ابنه الأكبر ياكين باركاك، كما للكيات أحفاد خابول خاغان الكبار، إيسوغاي - حسب رأي خان جولين - كان زعيم الكيات. [خان جولين، ص ٩].

يرجع أصل التايجوت إلى تشارا كاي لينكو الابن الثالث لحايدو، حسب المصادر الصينية. إن تشار كاي لينكو وابنه سيانكو نبيلغي كانا ديوانيين رفيعي الدرجة بالوراثة في دولة لياو، تنازع التايجوت مع الكيات على السلطة، وحسب ما يرى خان جولين إنهم تاقوا إلى الاستغلال وبغضوهم سراً [المصدر نفسه، ص ٩] لذلك عندما قتل إيسوغاي لم يكتف التايجوت بالانتقام من التتار فقط بل هزموا رجال إيسوغاي وأخذوهم، تاركين أسرته تحت رحمة القدر.

كان لدى تيموتشجين الذي فقد والده ثلاثة أشقاء صغار، هم خاسار، وخاتشيون، وتاموغي، وشقيقة اسمها تامولين، إضافة إلى ذلك كان في الأسرة أخوان غير شقيقين من زوجة إيسوغاي من زوجة إيسوغاي الثانية، هما بيكتر ويبلغوتاي. إن زوجتي إيسوغاي (ومن المحتمل أكثر من الاثنين) قد تركتا لحال سبيلهما مع أطفالهما وحفنة من الرجال الذين احتفظوا بولائهم لهما، كانوا من السهل أن يكونوا لقمة سائغة لأي نبيل أو خان، إلا أن الأصل النبيل، الذي لا يزال يراعى تقديره على أسوأ الفروض، حتى لأقرب القريبين إضافة إلى المجد السابق للأب والزوج والفراس إيسوغاي، هما اللذان شكلا لهما الحماية.

حسب العادات المغولية بعد موت الزوج تكون الزوجة الأولى الرئيسة الراحية الوحيدة للأسرة وأملأها إلى أن يشب الأبناء ويتزوجون.

أصبحت ويلون وعائلتها في ميسيس الحاجة؛ لانعدام الماشية، وبديهيًا اللبن واللحم، فأخذت ويلون تركض على طول نهر أنون صعوداً ونزولاً جامعة التفاح البري وبطم الشمال والثوم البري، وأيضاً أحضرت الجذور الصالحة للأكل، كما قام أبناؤها بمساعدتها بصناراتهم وشباكهم لصيد السمك في نهر أنون «عندما ارتحل الأخوة التاييتشجون تاركين ويلون أو تشجين الأرملة وصغارها في المراعي صار الأمر كما يأتي:

زوجة حكيمة نشأت منذ ميلادها ويلون
وشب صغارها على ذلك الدأب ناشتون
وأحكمت رؤوسهم بالطواقي بشكل متين
وبالأحزمة شدت على قمصانهم
مهرولة صعوداً ونزولاً على ضفاف نهر الأونون
جامعة الحبيبات بطمة الشمال والتفاح البري
صباحاً ومساءً لصغارها مطعمة
أوتشجين أم قد ولدت جسورة
وهكذا أنشأت صغارها المبروكين
بحشفة بصلة في السهوب هائمة الجبين
لصغارها تجمع الجذور وتسلقها
من بطمة الشمال وبيصيلات لهم طاعمة
حتى بلغوا منزلة الخان
بحق إنهم أبناء أمهم
فصاروا حكماء وعادلين
وفقط بيصيلات ثوم عند أمهم مشبعين
فشيوا عند أمهم مقدامين
وكانوا بالشجاعة والإقدام متفردين
وأقسموا بأنهم لأهم لمطعمون
فعلى منحدر نهر أونون الرؤوم
جلس الأشقاء للسنانير يصلحون
بالأسماك الرديئة كطعمة يهيئون
وللأسماك الطيبة يصطادون

وللسمك النهري الكبير الشباك ينسجون
FOR QURANIC THOUGHT
ويحب البنين لأهمهم كانوا مطعمين
[السيرة المكنونة، ص ١١٨-١١٩].

يرى ب. راتشيفسكي أن «التاريخ السري» تعمداً يضخم من مأساة ما حدث لأسرة إيسوغاي؛ لكي يؤكد أن طريق تيموتشجين يمكن أن يوصف بأنه «من الجحور إلى القصور» [راتشيفسكي، ص ٢١]، كما يورد رشيد الدين كثيراً من التفاصيل التي تؤكد أن الأمر في الواقع لم يكن بتلك البساطة والعادية، التايشيوت الذين «حملوا البغضاء والحسد لإيسوغاي» تقاعسوا عنه، والبقية من المتمين لأولوسه تركوه «تدرجياً»: «لأن التايشيوت كانوا من أكبر الفروع المنتسبة لقبيلته، سار الأمر تدرجياً، حتى إن الأقرباء الآخرين والمحاربين الذين عارضوا إيسوغاي باخادورو واثمروا له أيضاً تخلوا عن أطفاله، وانحازوا إلى جانب التايجيوت، وبفضل الالتفاف حولهم ظهرت لهم قوة وعظمة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٨٤]. لم تحاول ويلون إعادة الخارجين عن طاعتها بمساعدة بضعة أشخاص فقط، بل دخلت في عراق ومطاردة أخذت طابع العمليات الحربية؛ لأن «ويلون بشخصها اعتلت ظهر المطايا رافعة الراية. أي بونتشوك (توك) وأركبت أيضاً المحاربين الخيول، وأرسلتهم لمطاردة المحاربين وإعادتهم، وعند التقاء الجمعين، وتبعاً للنظام الحربي، انتظموا وجهاً لوجه، وبدأ النزال» [المصدر نفسه، ص ٨٥]. فإذا احتكنا إلى ما كتبه رشيد الدين علمنا أن تيموتشجين كان حاضراً كل هذه المعارك، الشيء الذي يعد منطقياً إذا أخذنا في الاعتبار التسلسل التاريخي عند رشيد الدين الذي بموجبه كان تيموتشجين حين وفاة إيسوغاي قد بلغ الثالثة عشرة من عمره [المصدر نفسه، ص ٨٥].

يطرح ب. راتشيفسكي مزيداً من الأسئلة المنطقية «المحقة»، لماذا كانت عشيرة إيسوغاي واقفة ضد ويلون؟ ولماذا لم يقف أخوة إيسوغاي في صفها؟ ولماذا أيضاً لم يأخذ قانون ميراث الزوجات قوته؟ ويتم زواجها من أي من أشقاء إيسوغاي؟ [راتشيفسكي، ص ٢١]. فإذا تبعنا من جديد رشيد الدين يتضح لنا أن تيموتشجين الأخ الأصغر لإيسوغاي داريتاي أوتشيغين «في بادئ الأمر عندما انحاز جنكيز خان وجيشه وقبيلته إلى قبائل تايجوت وقف بجانب قوتهم المحاربة، ولكن اختلط مع قبائل تايجوت بعد مضي مدة من الوقت» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٤٨].

إن خاتشور ابن نيغون تايشي الأخ الأكبر لإيسوغاي وابن عم تيموتشجين كان بارعاً في رمي السهام، حتى صار مضرراً للمثل، فيقال: «إن سهم خوتشار ينطلق ومن سرعته لا يمكن رؤيته»، «في الوقت الذي فقد فيه جنكيز خان أباه وهو طفل وانحازت قبائله إلى جانب تايجوت حيث عقد مع جنكيز خان حلفاً لمدة ما، واثمر بأمره وخدمه بتفان» [المصدر نفسه، ص ٤٧]. من الواضح أنه كان لدى ويلون وتيموتشجين منذ البداية ما يعتمدان عليه، ليست لدينا الوثائق التي تسمح لنا بتفاصيل الحكم على انهيار أولوس إيسوغاي، كما كتب رشيد الدين «بسبب وفاة إيسوغاي باخادور تشابكت مصائيرهم، وتفصيل حياتهم وظروفها أصبحت غير معروفة في تلك الحقبة» [المصدر نفسه، ص ٧٦].

مهما كان الأمر فإن الأخوة من زوجات مختلفات لم يستطيعوا التفاهم، فقد كثرت الخصومات فيما بينهم، وغالباً لأسباب تافهة، أما ويلون التي لم يبارح ذهنها فكرة الانتقام من تايجوت لحياتهم، فعملت على تقوية الأسرة وتوحيد الأخوة الذين عليهم أن يأخذوا بالتأثر لأبيهم وللهموان الذي لحق بالأسرة، ولمعرفتها الجيدة - «القصص القديمة» كانت تحكي لهم جنسهم وعن جدتهم الحكيمة آلان غوا وجدهم

بودوتشار ، وعن مآثر أسلافهم المجيدة خابول كاغان وأمباغاي كاغان ، والعملاق خوتول كاغان ، والدهم العملاق إيسوغاي ، كان تيموتشجين حسب الأحقية في تسلسل الولادة الأكبر ، وكان من المفروض أن يرث الوضع الاجتماعي ولقب والده . على ما يبدو أن بيكتير الابن الأكبر للزوجة الثانية أفصح عن مطامعه ، ذات مرة اصطاد تيموتشجين في نهر أونون سمكة جميلة ، فأخذها بيكتير وبلغوتاي من تيموتشجين وأخيه خاسار ، جرى الأخوة شاكين لأهمهم ويلون ، ولكنها أحست ببادرة غير طيبة ، وأخذت تؤاخذهم قائلة :

- آه ما عساني أن أفعل معكم؟ ما لكم تعيشون مع أخوكم في غير وئام؟ علينا بالتفكير في رد إهانة تايجوت ، وأنتم منغمسون في الخصام بعضكم مع بعض .
ولكن حقد الأخوة كان أقوى من الكلمات العاقلة :

- ولكنهم قبل قليل انتزعوا مناقبرة ، والآن يكررون ذلك مرة ثانية ، فكيف نعيش معهم في وئام؟
خرج الأخوة غاضبين وصافقين الباب ، وكلهم مصمم على رد الإهانة [حسب ما ورد في السيرة المكنونة ، ص ٩٠] .

كان بيكتير ساعتها يرعى الخيول على التل ، وتسلك إليه أبناء ويلون بأقواسهم وسهامهم ، تيموتشجين من الخلف ، وخاسار من الأمام ، فأخذ الخوف وقال :
- هل فكرتم بمن ستستعينون لمساعدتكم في الانتقام من تايجوت ، الشيء الذي لا قدرة لكم عليه وحدكم؟ ما لكم تنظرون إلي كما لو كنت شظية في العين أو شظية في الأسنان؟

فهم من سيماء وجوههم أنه لا ترجى منهم الرأفة ، ناطقاً بالكلمات الآتية بعد أن جلس القرفصاء أمام أشقائه قائلاً : « لا تمزقوا عشيرتي ولا تقتلوا بيلغوتاي » ،

اخترقت سهام خاسار وتيموتشجين جسد بيكتير، ثم قفلاً راجعين تاركين جثة
شقيقهم الهامدة نازفة دماؤها ملقاة على التل، وأدركت ويلون من تعابير وجوه
أبنائها على التو ما حدث، فصرخت:

- سفاحون! لم يكن اعتباطاً خروج هذا من بدني قابضاً بيده على علقه! لقد
قتلموه كالكلاب المسعورة التي تمزق أجساد أمهاتها! من سيساعدكم في الانتقام من
تايجوت؟ ليس لديكم الآن من حل سوى ظلكم! وسوى الذيل. [كما ورد في
السيرة المكنونة، ص ٩١] فيما بعد تحدثت الأسطورة الشعبية بلسان ويلون قائلة:

هذا الذي خرج من بدني
قابضاً بيده على علقه،
قتلموه كالكلاب المسعورة
التي لأجسادها ناهشة،
كالطيور الجارحة
على القمم منقضية،
مثل أسماك الكراكي
في غمضة عين لكل ما حولها مبتلعة،
مثل ذكور الإبل
لما بين أفخاذ النياق ناهشة،
كالذئب في يوم ماطر هاجمة،
كالرخم آكلة صغارها
حين تعجز عن حملها،
كابن أوى في ثورة حماس
هاج على من انتهك عرينه،

ولمدة طويلة استمر غضب ويلون على أبنائها لقسوتهم الزائدة .

عاش بيلغوتاي شقيق بيكتير حتى بلغ مائة وعشرة أعوام، ومات في عام ١٢٢٥م^(١)، وعن مقتل تيموتشجين لأخيه يرد ذكره فقط في «التاريخ السري»، بينما لا نجد في «يوان شي»، ولا عند رشيد الدين، وأيضاً لا نجد في «شان أ تسين تشجان لو». حتى إن خان جولين لا يذكر هذه الحقيقة في مؤلفه «حياة جنكيز خان»، ففي المؤلفات الأخيرة التي صدرت عن حياة جنكيز خان في أوروبا لا يداخل مؤلفيها الشك حول مقتل جنكيز لأخيه، كتب ب. راتشيفسكي، : «نحن لا نملك أي أساس للشك في صحة واقعة قتل تيموتشجين لشقيقه» [ب. راتشيفسكي، ص ٢٢]. يلاحظ ل. غامبيس أن «كلمات الأم لم تحرك ساكناً عند تيموتشجين، ولم يداخله أي إحساس بوخز الضمير من جراء ما فعله، بل كان يرى أنه على صواب، حيث إنه لم يدع الفرصة تفلت من يده، فرصة الحياة على الشيء الذي يرى أن لديه حقاً عليه لا يجادل فيه، وهذه الصفة في طبعه تلقي الضوء على كل مسار حياته؛ لأنه لا يستوعب أي وجهة نظر تبث الشك في سلطته وإرادته، فلقد طبق هذا المبدأ طيلة حياته، لم يتنازل ولم يساوم، ومارسه بتطرف ظاهر، ولكن، على الرغم من ذلك، وفي واقع الأمر، لم يكن قاسياً وسفاكاً للدماء» .

(١) استناداً على هذه الحقيقة لاعتراضات بيكتير على الأقدمية، يسمح الباحث راتشيفسكي بفكره أن بيلغوتاي كان أكبر في عمره من تيموتشجين، وهذا يعني أن بيكتير أكبر منه بمراحل، لهذا القول لم تكن ويلون زوجة أولى لإيسوغاي [راتشيفسكي، ص ٢٤]، ولكن على الرغم من ذلك إلا أن غالبية الباحثين لا يشاطرونه الرأي، ويرون أن ويلون كانت الزوجة الأولى لإيسوغاي، وتيموتشجين يعد الابن الأول والأكبر من الزوجة الأولى .

يطلق ل. غامبيس فرضية حول قتل تيموتشجين لشقيقه بأن هذا «كان إظهاراً لغريزة
السيادة والسلطة» [غامبيس، ص ٢٧].

حتى في تلك الأعوام عندما كان النهب والغارات والقتل أمراً مألوفاً، كانت
حادثة مقتل الشقيق حدثاً فاق تصور الجميع، الأمر بالطبع لم يكن في السمكة التي
نزعت بقوة من تيموتشجين، إنما تيموتشجين رأى في شقيقه بيكتير منافساً، فلذا
أقصاه بمساعدة أخيه خاسار، الذي كان يوصف بضخامة جسده وقلة ذكائه.

من الواقع، وخلال عدة سنوات، بعد انهيار أولوس إيسوغاي، كبر الأخوة
وصاروا شباباً، وأن الأوان لأن يرث أحدهم مكان والدهم، وبيكتير أيضاً استوعب
الخصام حول السمكة، الذي يعدّ واقعاً لإقصائه، وحينها قبل أن يسلم زوجة طلب
من أشقائه أبناء ويلون أن لا يقتلوا أخاه الأصغر بيلغوتاي، وأن لا يمزقوا عشيرته،
وهكذا بلغ تيموتشجين مراده بعد قتل أخيه بيكتير، وأصبح رب الأسرة.

انتشر خبر القتل وعم السهوب، ومن الجائز أن أول من بلغهم الخبر تايجوت،
الذين كانوا على علم بما يدور بخلد ويلون، التي كان هاجسها الانتقام، والتي
كانت تغذي أبناءها بهذه الفكرة. إن تايجوت كانوا يتهيبون بتيموتشجين الذي نمي
وترعرع، وبهذا الحدث أتاحت لهم الفرصة إمكان التخلص منه (على الرغم من أن
هذا يبدو غير ممكن لدواعي آداب القربى وقواعدها) أو على الأقل بإخضاعه
لسيطرتهم بصورة أكثر أماناً، حضر تارغوتاي كيريلتوخ إلى دار ويلون بصحبة
حراسه (نو كير) طالباً تسليم تيموتشجين المذنب في حادثة القتل، ولكن
تيموتشجين تمكن من الهرب، واختبأ في الغاب في أعلى جبل وعر المسالك، ولكن
تايجوت أحاطوا بالغابة واستمروا ينتظرون ظهوره، ولكن بعد خمسة عشر يوماً لم
يحتمل تيموتشجين الجوع، فخرج من الغابة، فقبض عليه تايجوت، وأخذه
تارغوتاي معه لأولوسه، وأخضعه «للعقاب القانوني المستحق»، فوضعوا في عنق
تيموتشجين حلقة دائرية ثقيلة الوزن، وعينوا من يقوم بحراسته، وبما أنه لم يكن

بالأولوس مكان بمنزلة السجن فإنه كان يرحل من خيمة (يورتا) إلى أخرى لقضاء الليل، بدا كما لو أن تايجوت قد قاموا بحراسة عدوهم المستقبلي بشكل آمن، إلا أن رأس تيموتشجين كان مشغولاً بفكرة واحدة هي الهرب.

إن هذا المقطع من السنوات الأولى لحياة جنكيز خان لا يبدو واضحاً في «التاريخ السري»؛ أي أسر تيموتشجين الشاب [كما ورد في السيرة المكونة، ص ٩١-٩٢]. يحكى في بادئ الأمر عن قيام تارغوتاي كيريلتوخ بأسر تيموتشجين وعزيمه على إخضاعه «للعقوبة المستحقة»، ولكن يرد في المصدر نفسه فيما بعد كيف كان تارغوتاي كيريلتوخ واقعاً في الأسر لدى رعاياه راجياً إطلاق سراحه لأن الأمر سيان، فإن جنكيز خان ليس قاتله قائلاً: «أندرون أن تيموتشجين لا يمكن ولا ينبغي له أن يقتلني، فعندما كان طفلاً أرجعته لداره، عالماً بأنه يتيم بدون أب، ولا يملك سوى:

«نظرة كالنار

ووجه كمطلع الفجر

أرى أنه متمكن وقادر على الفهم إذا علموه، فلقد درسته ودربته كما تدرّب الخيول الأصيلة، فهل سيقتلني؟ لا، وأظن أنه لا يقدر على ذلك، ولا ينبغي له» [المصدر نفسه، ص ٢٠-٢١].

ولعله من الجائز أن علاقات قائد تايجوت مع تيموتشجين وأسرة المتوفى يسوغاي لم تكن عدائية بشكل قاطع^(١)، حسبما ورد عند رشيد الدين، فإن (١) يشكك الباحث ب. راتشيفسكي في الارتباط المباشر بين اختطاف التايجوت لتيموتشجين وقتله لأخيه بيكتير، بناءً على أن تيموتشجين وقع في الأسر أكثر من مرة في شبابه، ومن المحتمل ليس عند التايجوت فقط [راتشيفسكي، ص ٢٤]، ولكن نعتقد بأن المواد الموجودة تؤكد هذا الارتباط، إذا أخذ في الاعتبار أن هذا لم يكن أسراً فقط بل عقاباً على مقتل واحد من ذوي القربى.

تيموتشجين قد أسره ميركيت، بعض وقائع قصة أسر تيموتشجين على أيدي تايجوت وميركيت تتطابق، ففي «التاريخ السري» يحكى أنه بعد مقتل بيكتير «ظهر» على رأس حراسة تارغوتاي كيريلتوخ، الذي أدرك الأمر جيداً إنه:

قد كبرت إليهم

وكف سيلان لعابها من شدة الفهم

وحينها فرت الأم وأبناؤها فرعاً مختبئين في غابة التايغا، فقام حينئذ بيلغوتاي ببناء المتاريس من جذور الأشجار الساقطة، أما خاسار فقد تبادل تراشق^(١) السهام مع العدو، واختبأ كل من خاتشون وتيموغاي وتامولون في الأخدود، وبرزوا للنزال، عندها أخذ تايجوت يصيحون طالبين «تسليم تيموتشجين الأخ الأكبر لا سواه!»، هذه الكلمات كانت الدافع لتيموتشجين لأن يهرب، وعندما لمح تايجوت انطلاقه نحو الغابة هبوا في أثره، ولكنه تمكن من التوغل في دغل كثيف بأعلى قمة تيرغون، وعندما لم يستطع تايجوت التوغل إلى الداخل أحاطوا بالأجمة وطفقوا يحرسونه [كما ورد في السيرة المكنونة، ص ٩١-٩٢].

«أمضي تيموتشجين ثلاث ليال في التايغا، وبعدها قرر الخروج راحلاً وممسكاً بحصانه من لجامه، وفجأة حدث شيء أدى لتأخره، فقد تدحرج السرج من على ظهر حصانه، فأخذ يراقب ما حدث، فرأى أن السرج انزلق على الرغم من أن الحزام الذي يشد على الصدر لم يكن مرتخياً، أهذا هو سبب التأخير؟! وهنا أخذ يفكر فيما حدث مخاطباً نفسه: "الحزام يمكنه الانزلاق، ولكن الشجر الذي يشد الصدر، ما الذي يمكن أن يزحزحه؟ فإذاً إنها السماء التي أرادت تأخيرني، وقفل لاحقاً وأمضى ثلاث ليال أخرى، ولما قرر أن يخرج مرة أخرى رأى عند المخرج من الغابة جلموداً أبيض ضخماً بحجم اليورتا الراحلة قافلة المخرج، فقال في نفسه:

(١) هذه الحقيقة ولمرة إضافية تؤكد أنه كان عند أسرة ويلون محاربون وخدم.

"أليس من الواضح أن السماء تمسك بي؟! " وأمضى مرة أخرى في الغابة عشر ليالٍ من غير أكل ، مردداً في داخله : " لا أخالني أذفع نفسي إلى الهلاك المخزي؟ لأخرج الآن! ؛ وأخذ في قطع الجذوع والأغصان بسكينه معداً منها السهام ، وقاطعاً الأشجار التي تعترض طريقه ، ومحيطه بذلك الجلمود الأبيض بحجم اليورتا الذي سقط من حيث لا يدري أحد قافلاً إلى الطريق ، وبصعوبة قاد فرسه المتعثر شارعاً في الخروج إلى الفسحة خارج الدغل ، وحينها انقضض عليه تايجوت الذين كانوا على أهبة الاستعداد ، وتم أخذه" [السيرة المكنونة ، ص ٩٢].

لا نود أن نكثر من تركيز انتباه القارئ على الإيحاءات في السير الشعبية (الفولكلورية) : الغابة تحمي البطل ، السماء والقوى الخارقة تحذره من الخروج ، ولكنه يجرؤ على مخالفة إرادتهم ، ويقع في أيدي مطارديه . لنلق نظرة على ما كتبه رشيد الدين إنه - على ما نذكر - لم يذكر ولو كلمة واحدة عن مقتل بيكتير ، وفي الرواية عن ميركيت يقول : « ذات مرة في صبا جنكيز خان تمكنوا من الفوز عليه ، وأخذوه على حين غرة أسيراً ، وفي تلك الأيام لم تكن قد جرت العادة بقتل الأسرى فوراً ؛ إذ كان من المحتمل أن ينالوا مقابلهم شيئاً ما ، وعندها يخلون سبيلهم ، وفي هذه الحادثة جرى ما يلي : كان تيموتشجين مسافراً لغرض ما ، وعندما بلغ تلاً عالياً وتوجه نحو القمة انزلق السرج وجنكيز من على ظهر الحصان من غير أن يرتخي الحزام أو تنحل أحزمة الصدر (الثغر) ، وسقط جنكيز خان مندهشاً من هذه الحادثة مخاطباً نفسه : " من الجائر أن الحقيقة المطلقة لا تريد أن أسلك هذا الطريق ، وتعجزني من أمري " ، وكان يود الرجوع ، ولكن الشيطان تغلب عليه ، وسار بهدى قلبه ، وفجأة انقضضت عليه مجموعة من قبيلة ميركيت ، فقبضوا عليه وأخذوه معهم واضعينه تحت الحراسة ، وبعد مضي وقت غير محدد أرسلوا في طلبه من دار جنكيز خان ، وأخذوه عائداً إلى داره» [رشيد الدين ، المجلد الأول ، الكتاب الأول ، ص ١١٥].

كما نرى إن أحداث سقوط تيموتشجين في أسر تايجوت وميركيت متطابقة، إنما رشيد الدين يورد عن أسر تيموتشجين من قبل تايجوت الآتي: «في الوقت الذي سادت الخصومات والعداء، قام هؤلاء الأخيرون متحينون فرصة ملائمة لاختطاف جنكيز خان بغتة»، «ذات يوم سقط جنكيز خان في أيدي الأعداء . . . ولكن حرره سورغان شيرا من قبيلة سولدوس» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٨٦]، وتتطابق في التفاصيل الأساسية حكاية هروبه من الأسر في «التاريخ السري» مع حكاية رشيد الدين، كلا الحكايتين مليئتان بالإثارة، والمؤلف يسمح لنفسه إيرادهما بكاملهما، ويرجو أن لا يسبب هذا للقارئ أيّ مضايقة، وهكذا «التاريخ السري»: «في السادس عشر من أول شهر الصيف، بمناسبة احتفال بيوم اكتمال البدر، أقام تايجوت حفلاً مرحاً على ضفة شديدة الانحدار على نهر أونون، وتفرقوا عند زوال الشمس، وحينها أحضر رجل ضعيف البنية تيموتشجين إلى حيث الحفلة، وساعتها انتهز تيموتشجين فرصة تفرق المحتفلين، وانتزع نفسه من أيدي الشاب ضارباً إياه مرة واحدة بالطوق الخشبي على رأسه، وكان بإمكانه أن يرقد في دغل من شجر البلوط على نهر أونون، ولكنه خاف من أن يلحظه فغطس في الماء، رقد غاطساً في الماء تاركاً وجهه لأعلى، ومدلياً بالطوق الخشبي لكي يسبح مع التيار، وفي هذه الأثناء أخذ الرجل الذي أفلته بصيحه: "المعتقل هرب!" ، وعلى أثر صياحه أخذ تايجوت يتجمعون، ومن ثم شرعوا في البحث عنه في دغل البلوط على نهر أونون، حينها كان البدر مضيئاً كأنما الوقت كان نهاراً، وفي هذه اللحظة مر عبر ذلك المكان سورغان شيرا من قبيلة سولدوس، حيث كان تيموتشجين غاطساً في الماء، وعندما لمح مخاطبه قائلاً: "ما هذا الأمر؟ على ما يبدو أنك لست برؤوف تجاه أشقائك، وإنك لماكر، حتى إن:

في النظرة النار

أما الوجه فطلعة الفجر

لكن ارقد ولا تخف، فإنني لن أشي بك!" وسار مواصلاً طريقه، عندما أخذوا في التباحث حول مواصلة البحث نصحهم سورغان شيرا قائلاً: "دعونا نعاود البحث من جديد، كل في مساحته السابقة التي مر عليها"، وافق الجميع وقفلوا عائدين بطريقهم السابق نفسه منقبين بحرص شديد، وعندما مر عليه سورغان شيرا للمرة الثانية خاطبه قائلاً: "ارقد لحالك، اخوتك بالقرب يشحدون أسنانهم وألستهم، ولكن لا تخف!" وواصل سيره مبتعداً، ثم أخذوا في التباحث مرة أخرى، وللمرة الثالثة ينصحهم سورغان شيرا قائلاً: "يا صغاري تايجوت، لقد ضاع منكم شخص في وضح النهار، فكيف يمكن أن تجدوه في ظلام الليل؟ دعونا للمرة الأخيرة البحث جيداً، كل في مساحته السابقة على طريق العودة لمنازلنا، على أن نجتمع صباحاً لمواصلة البحث، فإلى أين سيهرب شخص وفي عنقه طوق خشبي؟"، وافق الجميع وتفرقوا معاودين البحث، ومجدداً قدم نحوه على حصانه قائلاً: "اقتنعوا بالتوقف عن البحث، وفي الصباح سنواصل، حالياً أنتظر حالماً تتفرق واهرب إلى البيت، وإذا ما شاهدك أي واحد كان، حذار من أن تفشي بأني رأيتك"، وبهذه الكلمات رحل عنه.

وبعد أن تأكد تيموتشجين من أن الجميع قد تفرقوا ذهب إلى أسفل نهر أونون باحثاً عن يورتا التابعة لسورغان شيرا، وفيما بينه كان يفكر "قبيل البارحة فقط... جاء علي الدور أن أقضي ليلتي ها هنا... أبناؤه (سورغان شيرا) تشيمباي وتشيلاون يعطفون علي، ليلاً ولمأهم لمعاناتي كانوا يرخون الطوق الخشبي على عنقي، ويمنحونني فرصة أن أستلقي، وها هو الآن سورغان شيرا على الرغم من أنه رأني واصل مسيرته ولم يش بي، أفلا يخلصونني من هذه الورطة؟".

كانت خيمة الشعر (يورتا) التابعة لسورغان شيرا ملحوظة، إذ إنهم كانوا طوال الليل يصبون الحليب ويخضون اللبن المخثر (الكوميس) علامات تسمعها الأذن،

وعلى صوت طرقات المخض أخذ تيموتشجين دربه إلى يورتا سورغان شيرا، وما أن وليج داخلها تطلع إليه سورغان شيرا قائلاً: "أو لم أطلب منك أن تغرب عن وجهي؟ لأي شيء حضرت؟" وقتها قال تشيمباي وتشيلاون: "عندما يطارد كاسر طيراً صغيراً ويدخل إلى أجمة، فإنها تنقذه، فكيف يتسنى لنا أن نقول مثل هذه الألفاظ لشخص التجأ إلينا؟"، قاما وهما غير راضيين عن كلمات ولدهما، نزعا الطوق الخشبي عن عنقه وأحرقوه، ووضعوه على المركبة المحملة بصوف الخراف الواقفة بالقرب من اليورتا، وأوكلوا أمره لأختهم الصغيرة خادان، مشددين عليها بأن لا تنبس بينت شفة لأي كائن.

وفي اليوم الثالث، وعندما تطرق الشك للقوم بأن أحداً قد خبأه، أخذوا يفتشون الجميع، ولكن عند سورغان شيرا بحثوا داخل المركبات وفي كل مكان حتى داخل المقاعد إلى أن بلغوا المركبة المحملة بصوف الخراف الواقفة خلف اليورتا، نبشوا الصوف العلوي وكادوا أن يبلغوا قاع المركبة، حينها قال سورغان شيرا "كيف يمكن لشخص في هذا القiez أن يبقى تحت هذا الصوف؟" وساعتها أوقف القائمون البحث وذهبوا، وما كاد البحث ينتهي حتى خاطب سورغان شيرا تيموتشجين قائلاً: "لقد كدت أن تزهق روحي، انطلق الآن، وابحث عن أمك وإخوتك!" معطياً تيموتشجين فرساً غراء مغراء اللون وطبخ له حملاً يبلغ سنتين من عمره، وجهاز له قرية وإناء، ولكنه لم يعطه سرجاً ولا حجر الصوان، بل أعطاه قوساً وزوجاً من السهام، بهذا العتاد أخلى سبيله... فقد عشر على ذويه [السيرة المكنونة، ص ٩٤-٩٦].

أما رشيد الدين فيروي أنه «حدث أن تارغوداي كيريلتوك حاكم قبيلة تاييجوت الذي كان من أعدائه، أدركه وقبض عليه ضارباً عليه القيد وحجزه، وحينها لم تكن عادة قتل الأسرى. فوراً قد جرت، كانت هناك عجوز من قبيلة تاييجو

إيغاثشي اسمها تايجو . . . هذه العجوز كانت تسرح شعر جنكيز خان كل الوقت وقائمة بخدمته، وكما كان الطوق الخشبي قد خدشه وأدمى عنقه وضعت عليه قطعة خفيفة من اللباد، عموماً أبدت نحوه كثيراً من العطف، بعد مرور بعض من الوقت وجد فرصة سانحة وهرب حاملاً في عنقه الطوق الخشبي، وفي تلك الأماكن بحيرة كبيرة، فغطس فيها بطوقه الخشبي، تاركاً أنفه فقط على سطح الماء، وفي أثره انطلقت فصيلة من تايجوت باحثين عنه، وكان بينهم سورغان شيرا من قبيلة السولدوس، الذي كانت خيمته المركبة على العجلات قريبة، وفجأة وقع نظره على الأنف المبروك لجنكيز خان الغاطس في الماء، فعرفه، وبطريقة غير ملحوظة أشار إليه بأن يغطس رأسه أكثر عمقاً، وقال للقوم (أي تايجوت): "واصلوا البحث في الأماكن المجاورة واطركوني لأكون على استعداد هنا!" وبهذه الطريقة تم توزيع القوم على أماكن مختلفة، وعندما أرخى الليل سدوله انتشل جنكيز خان من الماء، ونزع من عنقه الطوق الخشبي، وأخذه إلى منزله وخبأه في مركبة تحت الصوف، وعقب هذا الحادث تبعت مجموعة من الرجال آثار جنكيز خان حتى مخبأه، وحينها انتابهم الشك بأنه موجود في يورتا سورغان شيرا، فبدأوا يفتشون الخيمة تفتيشاً دقيقاً، حتى إنهم قاموا بطعن الصوف بالسفود عدة مرات، ولكنه لم يخرج من هناك، هكذا الحقيقة العليا أرادت له السعادة، ولم يصب بأذى ولا ألمه جسده المبروك، ولم يعثروا عليه وذهبوا، وبعدها منحه سورغان شيرا مهرة مغراء وقليلاً من اللحم وسيخا لشواته، وبعضاً من المتاع اللازم للسفر مثل سهام وقوس وغيرهما، بينما لم يعطه بعض الأشياء مثل حجر الصوان، وأخلى سبيله مودعاً [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص 172-173].

يواصل رشيد الدين روايته، فيحدثنا عن تولوي الابن الصغير الرابع لجنكيز خان، الذي تنبأ ببراعة بعودة والده من الأسر قائلاً: «ها هو والدي مقبل من الأسر

على ظهر مهرة مغراء، حاملاً جوزاً من السوالق مربوطين على سرجه!»، وخلال ساعة يصل الأب إلى الدار على فرسه المغراء، ومعه زوج من السوالق «وساعتها ذهل الجميع من كلمات تولوي» [المصدر نفسه، ص ١٧٣-١٧٤].

وهكذا تتطابق روايتا قصة هروب تيموتشجين من الأسر باستثناء بعض التفاصيل كما ورد في «التاريخ السري»، وكذلك عند رشيد الدين.

هل كان تيموتشجين أسيراً عند ميركيت؟ يبقى الأمر غير واضح. يؤكد ب. راتشيفسكي على أنه «من الواضح أن تيموتشجين قد وقع في الأسر أكثر من مرة» [ب. راتشيفسكي، ص ٢٤]. إنه ينطلق من أن الأسر آنذاك لم يكن نادراً، لقد أمضى فان كاغان ميركيت سبع سنوات في الأسر عند الكيريت، وعند التتار ثلاثة عشر عاماً، أما شقيقه جاكا غامبو فكان في الأسر أيضاً لدى التانغوت، أما جاموخا المتآخي مع تيموتشجين فكان أسيراً أيضاً عند ميركيت.

عن وقوع تيموتشجين في صباه في الأسر عرف تشجاو خون الذي كتب أن «جنكيز في صباه الباكر سقط في الأسر لدى تسزيتسيين وأخضعوه للعبودية أكثر من عشرة أعوام، وبعدها تمكن من الهرب» [التدوين الكامل، ص ٤٩] يرفض ف. ف. بارتولد الرواية التي تشير إلى سقوط تيموتشجين في أسر التشجور تشجينيين والصينيين: «إن معاصري جنكيز خان من الصينيين بالطبع الملازم لهم وكذبهم حاولوا تفسير نجاحات الفاتح المغولي بالتأثير الصيني، ولهذا السبب اختلقوا الذرائع، وهو أسلوب معروف، فإذا كان تيموتشجين من صغره قد وقع في الأسر لدى قوات تسيزين وقضى أكثر من عشر سنوات في الصين، من الصعب أن يكون ذلك ممكناً، أيجوز أن الأساطير المغولية لم تحفظ أي إشارة واحدة عن مدة عشر السنوات من حياة جنكيز» [بارتولد، نشأة الإمبراطورية، ص ٢٦١-٢٦٢]. يؤرخ جوز جاني في «طبقات الناصري» [مصدر القرن الثالث عشر] لأسر تايجوت

تيموتشجين ٥٨٤ هجرية، ١١٨٧-١١٨٨ ميلادية [راتشنيفسكي، ص ٢٤]. إذا أخذنا في الحسبان التواريخ المختلفة لميلاد تيموتشجين، الأعوام ١١٥٥-١١٦٢ و١١٦٧ وتبعاً للتاريخ الذي أورده جوزجاني فإن تيموتشجين يكون قد بلغ من العمر ٣٢ أو ٢٥ أو ٢٠ عاماً، على كل الأحوال إنه قد تعدى ليس مرحلة الطفولة فقط بل مرحلة الصبا، حسب رواية رشيد الدين فإنه عند موت إيسوغاي كان عمر تيموتشجين ثلاثة عشر عاماً (أي إن هذا حدث عام ١١٦٧). عاش تيموتشجين مع والدته حتى أسره من قبل تايجوت عشرين عاماً، فليس من قبيل المصادفة أن يكون لديه أربعة أبناء، فمن البديهي أن مثل هذا التسلسل للأحداث لا يمكن أن يكون على صواب وتشوبه الشوائب، يفترض ب. راتشنيفسكي أنه عند موت إيسوغاي بلغ تيموتشجين الثامنة أو التاسعة من عمره، وفي الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره قتل بيكتير، وبعد هذا وقع في أسر التايجوت [راتشنيفسكي، ص ٢٦].

مهتدون بأصل النص، فإن تيموتشجين عقب هروبه من أسر تايجوت عاش مع عائلته، معتمدين في غذائهم على صيد السواقي وفئران الجبال. كما يلاحظ ب. ي. فلاديمير تسوف «وهكذا عاش طفولته الشخص الذي فيما بعد ارتعدت أمامه فزعاً القيصريات الجبارة، والذي لم يقابل أي صعوبات لغاياته» [فلاديمير تسوف: جنكيز خان، ص ٨١].

هنا وفي عزلة كاملة ثوبت أسرة ويلون، وشب الأطفال تدريجياً، وصار تيموتشجين فتى قوياً، ولكنه اختلف عن أقربائه ليس بقوته الجسمانية، ولكن بذكائه ومكره، وهكذا تدريجياً صار رباً للعائلة، وظهرت لديه بوادر حرسه الخاص (نو كير).



« فليكونوا أقدانا عند عتباتكم »

« لأحطم أعداءكم

وأدرك طريدتكم وأحضرها »

الثان توبتشي

ذكر فيما مضى أن رجالاً من قبيلة غربية اختطفوا ثمانية أحصنة خصية من عائلة ويلون، يبدو أنهم كانوا على علم بأن ويلون كانت من غير حماية، فلذا تجرؤوا على ذلك بوقاحة أمام أعين الجميع، لقد شاهدت ويلون بأم عينيها الاختطاف، ولكنها لم تتمكن من عمل أي شيء، لم يبق في المربط أي حصان عدا فرس بيلغوتاي، الذي ذهب به لصيد السوالق، وعند عودته بدأ الجدال بين الأشقاء حول مطاردة اللصوص، حينها قال بيلغوتاي:

- أنا ذاهب للمطاردة.

فرد عليه أخوه خاسار:

- ليس بمقدورك، سأذهب أنا!

فرد تيموتشجين بحكمة الأخ الأكبر:

- ليس بمقدوركما، سأطاردهم أنا!

اعتلى تيموتشجين ظهر فرسه مقتفياً أثر الأحصنة المسروقة، وبعد ثلاث ليال مر بقطع من الخيل وشاب في مقتبل العمر كان يحلب فرسه، فقال الشاب:
- رأيت بالقرب عند الصباح الباكر وقبل طلوع الشمس رجالاً يطردون ثمانية أحصنة.

ثم استبدل لتيمو تشجين فرسه المتعب بأخر من قطيعه ، وقال :

- لقد أنهكك الطريق يا صاحبي ، وعند الفرسان النبلاء بلاء واحد ، سأرافك ، إن والدي يدعى ناخو بايان ، وأنا ابنه الوحيد ، واسمي بوورتشو .

فذهبا إلى مطاردة اللصوص وردا الأحصنة المسروقة ، وعند عودتهم تجمع الأصدقاء عند قطع بوورتشو ، وحينها عرض تيموتشجين على بوورتشو أجراً لعونه ، ولكنه رفض رفضاً قاطعاً ، بل أعد ناخو بايان له مستلزمات الطريق ، فذبح حملاً وملاً له قربة كاملة من المشروب ، وعند الوداع قال :

- إنكما يافعان ومتحابان ، فأرجو أن لا تهجرا بعضكما . [السيرة المكنون ، ص ٩٣-٩٥].

وهكذا وفق الأسطورة اكتسب تيموتشجين صديقه وحارسه الأول بوورتشو ، الذي صار أفضل قائد ونصير . هذه الأسطورة في قالبها الشعري^(١) تتحدث عن قوة تيموتشجين ووفود الحراس (نو كير) والأصدقاء لخدمته ، وهذا بالطبع لا يحتم أولية التحاق بوورتشو في خدمته .

ينتسب بوورتشو إلى قبائل أرولات التي كانت تربطها علاقات طيبة مع يسوغاي ، حسبما ورد في «يوان شي» أن بوورتشو التحق بالخدمة عند تيموتشجين عندما كان عمره ثلاثة عشر عاماً ، وتميز ببسالته ومعرفته لفنون الحرب وحب المعارك : «بوورتشو كأخ وشريك في الرأي لتيموتشجين ، شارك في الغزوات في الاتجاهات كافة ، ولم تكن هناك غزوة بدون مرافقته [لتيموتشجين]» ، «في الوقت الذي لم يتم فيه إخضاع كل القبائل وترويضها ، كان بوورتشو يقسم كل مرة بأن الإمبراطور ليلاً سينام بأمان واضعاً وسادته راقداً [بالقرب من مخدع تيموتشجين] ، وكانا يتحدثان في أهم الأمور في بعض الأحيان حتى بزوغ الفجر ، إن اتحاد الحاكم

(١) إن هذا المقطع مكتوم بصورة منمقة في كتاب «ألنان توبتشي» لوبسان دانزان .

وخادمه يشبه في جوهره ارتباط الماء والسّمك». يحكى أن تيموتشجين ذات مرة في أثناء المعركة أصدر أمراً لا يتقهقر أحد ولو خطوة واحدة، حينها قام بوورتشو بربط نفسه من الركبتين والوسط على فرسه، ولم يتراجع حتى لفيرشوك (٤، ٤ سم) من موضعه الأول. [يوان شي، الفصل ١٠٩، ص ١٠٦].

يورد رشيد الدين، بناء على كلمات تيموتشجين المشهد الآتي: «ذهبت وبوغورتشي إلى الجبل، وفي كمين في الاتجاه المعاكس تربص لنا اثنا عشر رجلاً، كان بوغورتشي يسير خلفي، فلم أقم بانتظاره معولاً على قوتي وبأسي مهاجماً، ولكنهم في مرة واحدة أطلقوا على سهامهم فتطايرت حولي، وأنا هاجم عليهم، وفجأة أصابني سهم في فمي، فوقعت فاقداً الوعي من حدة الألم، وفي اللحظة لمحني بوغوتشي متحركاً على الأرض بأرجلي ومدحرجاً كأنني كرة أو كرجل محتضر، حينها أسعفني بوغورتشي بماء ساخن، فمضمضت فمي، بصقت الدم الذي علق في حلقي، وعادت إلي الروح التي فارقتني وإمكانية الحركة والإحساس، فوقففت من جديد، وواصلت الهجوم عليهم، تدحرجوا من على الجبل لافظين أرواحهم من هيبتهم قوتي، السبب في إعفاء بوغورتشي نويون وأنجاله أي أوروغ من ربة الخان لإبدائه في تلك اللحظة تفان منقطع النظر جدير بالثناء» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٦٥] (١).

(١) توجد رواية أخرى أيضاً عن جرح تيموتشجين، إن بوغورتشي «منذ نعومة أظفاره . . . كان دوماً برفقة جنكيز خان، ولم يقف قط ضده، بل كان يقدم له خدمات يستحق الثناء عليها، يقولون إن جنكيز خان عندما كان شاباً ذهب في الغزو مع مجموعة من التايجوت، وهناك أصيب بجرح في فمه وحلقه، ورجع بصحبة بوغورتشين نويون وبوراغول نويون، وعندما احتد به الألم في الطريق أنزله من على صهوة فرسه، حينها كان الثلج يتساقط، فرأى بوراغول نويون المسك بلجام فرس جنكيز أن جنكيز قد ساءت حالته الصحية، فبدأ يحمي له حجراً، وبعد ذلك غمره بالماء، إلى أن تصاعد منه البخار وصلّى رأس جنكيز خان على حرارته، إلى أن أفرغ من حلقه الدم الذي تكور بشكل علقمة، حينها تحسنت حالة جنكيز =

سنعود مرة ثانية لحادثة جرح تيموتشجين في رقبتة، ولكن نلاحظ وفق ما ورد في «التاريخ السري» أن من ساعد تيموتشجين حين جرح ليس بوغورتشي وإنما تشجيلمي .

بعد ذكرنا، أكثر من مرة، أن التسلسل التدريجي للأحداث الأساسية لطفولة تيموتشجين ورجولته مشوشاً، إن الذي وقع مع بوورتشو وإعادة الأحصنة يمكن أن يكون قد حدث قبل الأسر التايجوتي، إذا أخذنا في الحسبان بعض المصادر التي تشير إلى أنه وقت الأسر التايجوتي كان تيموتشجين أباً لأربعة أبناء، فهل كان الأمر كذلك أم لا، كتاب «التاريخ السري» يربطه بزمان ظهور بوورتشو كحارس (نو كير) عند تيموتشجين في زواجه .

عندما حان وقت زواج تيموتشجين اصطحبه بيلغوتاي إلى حميه ونصيره داي سيتشين وتزوج بورتي الفتاة الموعود بها منذ طفولته، رافقت تسوتان والدة بورني صغيرتها مباشرة إلى أسرة زوجها حيث عائلة ويلون على نهر سونغور في منعزل غوليلغو الجبلي، وبعد زواجه وفق العادات أصبح تيموتشجين رب العائلة حقيقةً بدلاً عن أمه ويلون الأرملة، اصطحب بيلغوتاي حماة تيموتشجين في طريق عودتها وصاحبه وحارسه بوورتشو أيضاً .

دخل بوورتشو في عداد أربعة الأبطال العظماء لتيموتشجين (بوروخول وبوورتشو وموخالي وتشيلاون)، ومن واقع الأمر ويقدر معين كان شقيقاه بيلغوتاي وخاسار أيضاً من حراسه (نو كير)، وليس هراءً عندما يردد تيموتشجين قائلاً: «سيف بيلغوتاي وقوس خاسار نستطيع الاستيلاء على كل ما وسعته

الصحية، وتيسر تنفسه، وبحكم أن الثلج كان يتساقط فإن بوغورتشين النويون أمسك فروته بيده مغطياً رأس جنكيز لكي يحميه منه، وظل واقفاً هكذا إلى أن أدركه الصباح، وبلغ الثلج حزامه، دون أن يتحرك من مكانه، وفي الصباح أجلس جنكيز على فرسه وصاحبه إلى مراعيه [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٦٩].

السموات» [يوان شي، الفصل ١٠٧، ص ١١]. كان يبتلغاي دوماً يقاتل في الطليعة، هو وأسرته ورجاله كانوا يشغلون المنطقة الواقعة جنوباً لقر تيموتشجين، بينما خاسار كان «رجلاً قوياً ومدافعاً جداً»، «يقولون إنه كان عريض الصدر والكتفين، أما خصره فكان نحيلاً إلى درجة أنه عندما يرقد على جنبه يمر كلب من تحته، ومن قوته إذا قبض رجلاً بيده كان يطبقه نصفين كما القوس الخشبي، محطماً عظام ظهره، ولمدة طويلة كان متحداً مع أخيه جنكيز خان ومشاركاً إياه الرأي» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٥١].

والد موخالي «كان يعد أن له علاقة قريبي بجنكيز خان، وجاره أيضاً، ولهذا كان تحت إمرته» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص ١١]، ولقد أنقذ حياة تيموتشجين عندما طارده الأعداء بمنحه حصانه. عند ميلاد موخالي امتلأت اليورتا بالهواء الأبيض، وحينها أعلن الساحر أنه تم ميلاد طفل غير عادي، امتاز موخالي بذكائه ومثابته ولباقته وبراعته في رمي السهام، كان رجلاً مخلصاً لتيموتشجين. يحكى في مؤلف «يوان شي» أنه ذات مرة عندما مني تيموتشجين ورجاله بالمصائب الواحدة تلو الأخرى، وحين وقعوا في عاصفة جليدية ولم يستطيعوا العثور على اليورتا للمبيت، قضاوا ليلتهم في مستنقع، فرش موخالي ويورتشو لتيموتشجين الفرو واللباد ومن الأخير صنعوا له حماية من الجلد، فأخفياه مواصلين حمايته من الجلد باللباد حتى بزوغ الفجر دون حركة ولو مرة واحدة. ذات مرة عندما انقض قطاع الطرق على تيموتشجين ورجاله، أفلح موخالي بنجاح في تسديد السهام عليهم، ويقال إنه حينها نزع السرج من على ظهر فرسه حاجباً به تيموتشجين من سهام المهاجمين [يوان شي، الفصل ١١٩، ص ١١ - ١٢]، وعن بوروخول معلوم أنه كان في خدمة تيموتشجين، ويعدّ أحد ألبانيته الأولى، ومات على أيدي الأعداء، ساعد تشيلاون ابن سورغان شيرا تيموتشجين في الهروب من الأسر

التاييجوتي، ومن الواضح أن كل من تم ذكرهم قد أتوا لخدمة تيموتشجين، وأصبحوا حراساً له (نو كير) لأسباب مختلفة، والأوضح أنهم كانوا يبجلونه لنسبه العظيم وصفاته الذاتية، هؤلاء القوم مثلهم والكثيرون - الذين ستتحدث عنهم لاحقاً - انضموا لتيموتشجين في أثناء الحروب القبلية التي دارت على السهوب المغولية في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي، ولم يخطئوا في تقديرهم.

استناداً على نصوص المصادر أخذ تيموتشجين بعد زواجه يظهر نشاطه كشخص سياسي، قبل كل شيء عندما بدأ يفكر في البحث عن حلفاء للمعارك القادمة ضد الأعداء، عند قدوم بورتي لبيت بعلمها أهدت لحمايتها ويلون فروة من جلد السمور، ولكن تيموتشجين قرر إهداءها لفان كاغان حاكم الكيريت مسوغاً ذلك «بالتأخي الذي تم بين فان خان ووالده إيسوغاي خان في وقت ما، وبهذا أصبح فان خان مثله مثل والده إيسوغاي خان» [السيرة المكنونة، ص ٩٥].

كان تيموتشجين داهية وهو يافع، مدركاً لقيمة الألقاب، ولهذا يبدو أنه في البداية عدّ والده خاناً، فماذا يصير ابن الخان؟ يصبح خاناً أيضاً.

في الواقع أن إيسوغاي باتور تأخى مع فان كاغان ميركيت في وقت ما؛ لأنه قدم له المساعدة وأنقذه من المصائب عدة مرات، إن طريق الوصول إلى السلطة بالنسبة لفان كاغان كان كسائر الخانات التتيرية المغولية، التي لم يكن طريقها مفروشاً بالورود بل بالرؤوس، كان جده ماركوز أسير التتار الذين أسلموه لقبيلة التشجور تشجينييين، لقد بدأ فان خان طريقه إلى المستقبل بقتل شقيقه تاي تيمور تايشي وبولا ماغاسو، استغل عمه غور خان هذا الحدث وانقض عليه محتلاً أولوسه «دفع غور خان أون خان (أي فان. تعليق المؤلف) إلى الهروب، بعد أن نهبه مع مئات من رجاله مبتعداً عن مطاردة الأعداء، فانحاز إيسوغاي كأن إلى جانبه، وقال لأنصاره: "يجب علينا مصادقة هذا الرجل". وهكذا صار فان خان

أخاً (اندا بالمغولية) لإيسوغاي خان، إلا أن كوتولا كان أبدي اعتراضه على ماخاة فان خان قائلاً: "إن الصداقة معه لأمر مشين بحكم معرفتنا الجيدة له، فمن الأفضل أن نتأخى مع غور خان بحكم أنه ذو طبع لين وطيب المعشر، بينما فان خان قتل أشقاءهم وبدمهم دنس راية الشرف . . ." ، ولكن إيسوغاي باتور لم يقاسم كوتولا الرأي، وأصبح صديقاً وأخاً لفان خان، كما هجم برجاله على غور خان دافعاً إياه للهروب ومملكاً أولوسه لفان خان» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٣٠].

هرب غور خان إلى دولة سي سياتانغوتية، وقبل ذلك هرب أركي خارا شقيق فان خان إلى النايان، الذين انقضوا فيما بعد على فان خان، واحتلوا أولوسه، وسلموه لأركي خارا، «ولكن والد تيموتشجين للمرة الثانية قدم مساعدة لأون خان طارداً أركي خارا من أولوسه، منصباً مكانه أون خان الذي كان حاكمه سابقاً» [المصدر نفسه، ص ١٣١]. يمكن القول إن تيموتشجين عاش بعيداً تحت وطأة الأسر، إلا أنه على الرغم من ذلك كان على علم بما يجري في السهوب المغولية الكبيرة، فلهذا لم يكن اختياره للكيريت هراء.

إن الكيريت كانوا أقوى قبيلة، وحسب ما أورده رشيد الدين «في الأراضي المغولية آنذاك كانوا جبابرة وبواسل بالمقارنة مع القبائل الأخرى، ولقد بلغتهم رسالة سيدنا عيسى عليه السلام وآمنوا بها» [المصدر نفسه، ص ١٢٧]، وهكذا أصبح الكيريت مسيحيين على المذهب النسترياني. إن رعاية وصداقة أقوى خانات السهوب المنغولية مكن تيموتشجين من الدفاع عن نفسه وساعدته في القضاء على أعدائه واستعادة بناء أولوس والده. استقر تيموتشجين على نهر نولا بالقرب من المكان الذي كان فيه معسكر (أوردا) فان خان، قائلاً لفان خان:

- في وقت ما تأخيتم مع والدي، فلذا أصبحتم أيضاً أبي.

يبدو أن فان خان كان على علم بأفعال ابن أخيه يسوغاي ومقدراته، والأهم من ذلك أهدافه، قائلاً لتيمو تشجين هذا ما كان يرجوه :

- وفي العرفان على هذه الفروة سأجمع أولوسك المتشتت .

وبعد عودته من فان خان أقبل إليهم شيخ مغولي وأهدى لهم ابنه تشجيلمي لخدمتهم ، وقد كان هذا الشيخ حافظاً لمجد أسرة يسوغاي ، وسبق أن أهدى لهم قماطاً من جلد السمور عند ميلاد ابنهم تيمو تشجين ، وقال مهدياً ابنه :

مروه بسرج الخيل

مروه بفتح البيوت

وهكذا حصل تيمو تشجين على حارسه الثاني (نور كير) ، وبهذه العبارة أعطى المغول الآخرون أبناءهم كنو كير في خدمة تيمو تشجين ، غون فا مهدياً أخاه بوغو وأيضاً موخالي ، يزعمون أنه قال :

فليكونوا خدماً عند عتبة دياركم

فإذا ولوا ، فاقطعوا عراقبيهم

فليبقوا خدماً متوارثين عند عتبة دياركم قابعين

فإن حادوا عنها فانزع أكبادهم

وقد دبح تشيلاون خايتشي العبارة نفسها عندما أهدى ابنه تونغني وخاشي كنو

كير :

أهديكم إياهم

لكي يكونوا دوماً على عتبتكم الذهبية

فإن حادوا وولوا عن عتبتكم الذهبية

لكى يفتحوا خباءكم العريضة

فإن تركوها

فانتزع قلوبهم

(عن «السيرة المكنونة» ص ١١٤-١١٥)

من الواضح أن الالتحاق بالنوكيرية لدى الخان آنذاك كان يتم بمرسوم معين وبعبارات وكلمات معينة ومحددة ترمز إلى هبة الابن في الخدمة المخلصة الدائمة لدى الخان، وفي حالة النكوص أو الغدر كان العقاب الموت، كان تسجيلي من قبيلة أوريانخات، يذكر لنا اسمه الكامل رشيد الدين تسجيلي أوشي «وتعني "أوشي" سليط وقاطع طريق وجبار، وبحكم أنه كان يحمل تلك الصفات أطلقوا عليه هذا الاسم "أوشي"». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٥٧].

من الواضح أن قوة تيموتشجين أصبحت جلية، محادثاته مع فان خان لم تعجب الكثير، فلذا فكر ميركيت في الانتقام منه بسبب المشكلات القديمة التي قام بها والده إيسوغاي مع حفيدهم تشيلدو، عندما خطف منه خطيبته ويلون، كانت الغارات الجريئة العلنية في القرن الثاني عشر الميلادي في منغوليا شيئاً طبيعياً ومألوفاً، بينما كانت السرقة الخفية تعدّ عملاً مشيناً ووضيعاً، أما الأخذ بالقوة فيعدّ مآثرة رجولية، فلقد كتب جويني عن حياة القبائل التتيرية المغولية قبل ترقى تيموتشجين قائلاً: «إنهم لم يكونوا متحدين مع بعض، بل كان بينهم العداة والخصومات، ومنهم من كان يرى النهب واستعمال القوة أعمالاً غير أخلاقية، أما شرب الخمر فيعدّ مآثرة وشجاعة» [جويني، المجلد الأول، ص ٢١].

أغار ثلاثمائة فارس من ميركيت بقيادة تورخشوا بيكي الأخ الأكبر لتشيلدو على عائلة ويلون وابنها تيموتشجين الذين كانوا غير مستعدين، هناك من امتطى ظهر جواده على الفور، ومن كان على أهبة القفز عليه، ثم القبض على بورتى زوجة تيموتشجين والزوجة الثانية لإيسوغاي أم بيلغوتاي وأسرهن، فإذا كان تشيلدو حياً فلا بد أن يكون من نصيبه بدلاً عن ويلون، فلذا وهبوا بورتى زوجة تيموتشجين عشيقاً إلى الأخ الأصغر لتشيلدو المسمى تشيلتشير انتقاماً لخطف إيسوغاي لويلون، والواقع يبدو أن بورتى كانت حاملاً وفي انتظار ابنها الأول تشجوتشي.

ولحاجة الميركيت في العثور على تيموتشجين «قاموا بمطاردته مدة طويلة واقتفوا أثره حتى في المستنقعات والبقاع التي لا تتمكن الحية الشبعية الزحف عليها» [السيرة المكنونة، ص ٩٧]. كان تيموتشجين على علم بأنه إذا تم القبض عليه فسيقتله الميركيت، وبعد ذهابهم قال تيموتشجين: «حينها انتابني ذعر رهيب»، قالها بعد متابعة بيلغوتاي وبوورتشو وتشجيلمي للميركيت وتأكدهم من أنهم أبوا لأولوسهم، ولم ينصبوا كميناً للقبض على تيموتشجين.

خرج تيموتشجين ورمزاً للنجاة والتخلص من المصائب بالتضحية للشمس، فاكأ حزامه رابطاً به على رقبته، وخالغاً قبعته ضارباً بها على صدره، راکعاً تسع مرات، وأيضاً أهرق لبن الخيل المتخثر (الكوميس) [المصدر نفسه، ص ٩٨] «وهكذا كان المغول يجلسون مقدساتهم بفك الأحزمة وخلع القبعات، معبرين بذلك عن امثالهم الكامل للإرادة العليا؛ لأن إرادتهم بشكل معين تعني عندهم مظهر الحرية الشخصية لحاملها أي القبة والحزام» [فلاديمير تسوف: «جنكيز خان» ص ٣٧].

يرى رشيد الدين أن ميركيت لم يتركوا بورتى بحوزتهم بل وهبوا لفان خان الذي استقبلها بحفاوة «وتولى أمرها بحكم أنها زوجة ابنه»، وعندما اقترح عليه أن يتزوجها، قال:

- إنها زوجة ابني، ولا يحق له أن ينظر إليها بعين الخيانة.

بعث تيموتشجين رجاله لجلب بورتقي، وعند عودتهم ولدت ابنها تشجوتشي «وذلك لخطورة الطريق، فلذا لم يتمكنوا من الوقوف أو حتى من صنع أرجوحة للمولود، بل اكتفوا بصنع قالب طري من العجين، ولفوا به الطفل ثم ربطوه بطرف الثوب، وحملوه برفق، حتى لا تتحطم أعضاؤه، وسموه تشجوتشي بحكم أنه ظهر للوجود بغتة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ٩٨]. ولكن توجد مسوغات، على الرغم من ذلك، تجعلنا نؤمن بما ورد في «التاريخ السري» الذي يحتفظ بالولاء لهذا البطل، تلك المسوغات التي أصبحت أكثر حقيقة وواقعية، ومؤلفوها سمحوا لأنفسهم كتابة ما لم يجرؤ على ذكره رشيد الدين، أي إنه لا يمكن أن تكون زوجة مؤسس الأسرة المالكة عشيقة لكائن من كان، وترجع إلى زوجها بابتين قد يكون من غير صلبه!



«لأرنا الدموي لمنفذين

ولقبائل الميركيت أودويت وأوفاس لساحقين

ولبورتي العزيزة علينا لمرجعين»

السيرة المكنونة

مهما يكن من أمر فإن هجوم ميركيت قد تحول فجأة إلى التوفيق بالنسبة لتيموتشجين، الذي كانت زوجته في الأسر الميركيتي، وتعوزه القوة اللازمة لإنقاذها، فلذلك برز المسوخ القانوني لمطالبة الخان الكيريتي فان كاغان للتحول من الوعود إلى الأفعال، لقد سبق أن سافر خاسار ويبلغوتاي شقيقا تيموتشجين إلى ضفة نهر تولا في الحرش الأسود حيث مقر قيادة فان كاغان، الذي وافق على المشاركة في الغارة على ميركيت:

- لأجل فروة السمور السوداء لملق الميركيتيين كافة إلى الجحيم بلا استثناء، وسنعيد إليك بورتي .

وعد فان كاغان بأن يقدم جيشين عمر مرين طالباً أن يصطحبه في الغارة جاموخا المتأخي مع تيموتشجين ومن أقربائه البعيدين، الذي كان في يوم ما في أثناء حياة يسوغاي مشاركاً لتيموتشجين لهو وألعاب طفولته، جاموخا من قبيلة تشجاتشجيرات، وهو من أقرباء تيموتشجين ومتأخ معه، أي «أندا»، كان تحت إمرته عدد غير قليل من الرجال الذين كان من المفروض أن يتبعوا لتيموتشجين. يصف رشيد الدين جاموخا بأنه «رجل ذكي وماكر جداً»، ولذلك لقبوه بالحكيم؛ أي «ستشين»، «كان جنكيز خان يناديه دوماً بالشقيق (أندا) إلا أنه كان يعد لجنكيز

خان الدسانس ، ويدبر له المكائد والحياة والعش ، ودائماً كان يسعى لأن يأخذ زمام الحكم بيده". [رشيد الدين ، المجلد الأول ، الكتاب الأول ، ص ١٩٠] كان من المفروض على جاموخا أن يحدد المكان والزمان للالتقاء بالفصائل المغولية والكيريتية بناءً على إلحاح فان خان .

إن دعوة جاموخا للمشاركة في الهجوم لم تكن وليدة مصادفة ، من الواضح أن فان خان كان على علم بما يدور عند المغول ، المؤكد شيء واحد هو أن كثيراً من المغول كانوا يميلون لجاموخا ، إن جاموخا وتيموتشجين على حسب الاحتمال آنذاك قد يردا للجميع كمتنافسين لزعامة المغول كافة ، حتى فان خان المدان لوالد تيموتشجين لم يرغب من خلال صداقاته التوحيدية أن يفضل أحدهما على الآخر ليس بالقول وإنما بالفعل .

بالفعل رأى تيموتشجين في شخص جاموخا منافساً له ، هذا ما يؤكد أن تيموتشجين حفاظاً لكبريائه لم يذهب إلى جاموخا كما فعل سابقاً مع فان خان ، بل اكتفى بإرسال أخويه كما فعل مع فان خان طالباً منهم إبلاغ الكلمات الآتية :

- عرش قد تحول إلى هباء مشور ، أغرباء على بعض نحن أماذا؟ فكيف سنقوم بالثأر من العار الذي لحق بنا؟

وكما طلب أيضاً تيموتشجين بإبلاغ كلمات خان الكيريت الآتية : «متذكراً بأنني مدان في ذلك الوقت بأفضال والدكم يسوغاي خان سأحرص على الصداقة ، سأكون الجناح الأيمن بجيوشي الحاشدة الاثنين ، أرسل وحادث شقيقك الأصغر جاموخا ، أفلا يخرج هو أيضاً بجيشه الاثنين؟ مكان اللقاء وزمانه فليحدده الشقيق جاموخا بنفسه» [السيرة المكونة ، ص ٩٩-١٠٠] . حقاً تعين على جاموخا وليس تيموتشجين أن يحدد مكان اللقاء وزمانه ، وأيضاً كانت القوة الفعلية للجيشين المحتشدين في يده وليس بيد تيموتشجين ، وبعد أن سمع من إخوته رسالة تيموتشجين رد جاموخا قائلاً :

- سترون من على البعد رايتي التي على سارية طويلة، وعلى طبلي المشدود عليه جلد ثور مخصي، غليظ الدوي ضربت، وحصاني ذا الظهر الأسود أسرجت، ولدرعي المحاك بالسيور الجلدية لبست، ممسكاً بمقبض سيفي، ولسهامي ذات الندوب أعددت، وأنا مستعد للقتال حتى الموت ضد ميركيت، هكذا بلغوهم رسالتي.

ما دافع مشاركة جاموخا في الإغارة على ميركيت: جشعاً في الغنيمة؟ أم الرغبة في مساعدة تيموتشجين ووضع منافسه تحت سيطرته؟ أو من الجائز أن الاعتماد على فان خان الذي يحسب وفق الدبلوماسية المتبعة آنذاك بمنزلة أخ أكبر بحكم صغر سن جاموخا؟ الذي يعد نفسه أحياناً أصغر؟ من الصعب الرد برأي قاطع. من الجائز أن كل الاحتمالات واردة، وضع جاموخا وفق الاتفاق المبرم خطة الهجوم المباغة للقوات المتحدة، وحدد مكان التقائها في أعالي نهر أونون، أما خاسار وشقيقه بيلغوتاي فشأنهم كرسل يفترض عليهم أن يحفظا حرفياً الأسئلة والأجوبة والرسائل، وينقلوا النتائج والحلول التي توصل إليها ثلاثتهم: جاموخا وتيموتشجين وفان خان.

كانت تسود بين قيادة الحلفاء - الذين تعين عليهم أن يلعبوا دوراً مهماً في حياة السهوب المغولية في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي - منذ البداية، روح عدم الثقة، انتهز جاموخا وفان خان - اللذان بحوزتهما جيش مكون من عشرين ألف مقاتل - الفرصة لنهب الميركيتين، ومن الملاحظ قبل هذا أنه لم يعن بخاطر أحدهما مساعدة تيموتشجين إبان اعتقاله، بينما كان تيموتشجين يأمل في أن ينقذ شرفه ويعيد زوجته، وبالحصول على نصيبه من الغنيمة في ظل النصراء الأقوياء يمكنه إصلاح الأحوال وإعادة بعث أولوسه.

كان يفكر كل واحد منهم بخداع الآخر، وينظرون إلى بعض بتوجس، لما كان مقر قيادة تيموتشجين يقع على الطريق الذي يتحتم على فان خان وجيوشه المرور به إلى المكان المتفق عليه، وعند هجوم الجيش الميركيتي المفاجئ عليه من الخلف ابتعد تيموتشجين عن مقره، إلى أن تأكد من زوال خطر الانقراض عليه، فانضم إلى جيش فان خان الذي تأخر عن الموعد ثلاثة أيام، أما جاموخا الذي كان بانتظار الخلفاء عند اقترابهم فقام بتنظيم جنوده مستعداً للقتال، وفعل الميركيتيون الشيء نفسه، لم يبدأ الخلفاء هجومهم إلا بعد أن تبادلوا المهارات حول التأخير، حدث هذا في عام الأفعى الموافق لعام ٥٧٣ الهجري، أي في الأعوام ١١٧٧-١١٧٨ حسبما ورد عند رشيد الدين، وحينها بلغ تيموتشجين من العمر ٢٢-٢٣ عاماً، وبحساب آخر فقد تم الغزو في عام ١١٨٤ الميلادي، (أي انطلاقاً من عام ميلاد ابنه أوغاداي) يشير العالم المنغولي سانداغ إلى العام ١١٨٨ تبعاً للتاريخ الذي يفترض أن يكون قد ولد فيه تيموتشجين فإن عمره يكون ٢٩ (٣٣) أو ٢٢ (٢٦) أو ١٧ (٢١) عاماً.

الهدف الأساسي من خطة جاموخا الانقراض بغتة على الميركيتيين «وبالأخص على توختو بيكي الميركيتي مباشرة عبر فتحة الدخان في اليورتا، نحيل ما يعز عليه إلى هباء منثور، نسبي النساء والأطفال بكثافتهم، ونسحق كل مقدس عنده بأقدامنا، ونبيد الشعب عن آخره» [السيرة المكنونة، ص ١٠١]. إن المخطط كما نرى كان جاداً ومنذراً بالشؤم، ولقد نجح تقريباً. جيوش فان خان وجاموخا سيتشين «نفذوا عبر فتحة الدخان» كالمنطق في نهار سماء صافية، منقضين على الميركيتيين مبيدين أولوسهم «الذي كان يتبع لتوختو بيكي»، ولكن توختو بيكي الذي علم بالهجوم من خدمه الذين كانوا حينها يصطادون السمك والوحوش بالقرب من المعسكر، وهرب نفر قليل من خدمه متبعاً نهر سيلينغا باتجاه بحيرة

بايكال إلى «أرض بارغوتشجين»، كذلك سلك الطريق نفسها تقريباً كل رجال أولوسه مطاردين من قبل قوات تفوقهم في العدة والعتاد «المنتصرون تعقبوهم، قتلوا من قتلوا وأسروا البقية»، أما تيموتشجين فقد كان مشغولاً بأمر البحث عن بورتى «ملاقياً جموع الهارين كان يصيح بأعلى صوته: "بورتى، بورتى!" وعندما سمعت بورتى صوت بعلمها تيموتشجين قفزت من العربة وأمسكت بلجام جواده، وعندما تعرفا على بعض تحاضنا، وبعد ذلك سرعان ما أرسل تيموتشجين رجاله إلى فان خان وجاموخا ليلبغهما الآتى:

- لقد عثرت على ما أبحث، لنوقف المطاردة الليلية ونقضي ليلتنا هنا» [كما ورد في السيرة المكنونة، ص ١٠٢-١٠٣].

يرى ب. ي. فلاديمير تسوف أن تيموتشجين «كانت له الأسباب التي تجعله لا يريد أن يرى انسحاق الميركيتين الكامل»، لم يستطع وقتها يبلغوتاي العثور على والدته؛ أي زوجة إيسوغاي الثانية، وتهدد الميركيتين بالإبادة الكاملة، إذ ألم يرجعوها، المحاربون الميركيتيون الذين هاجموا مقر تيموتشجين وأسروا بورتى والدة يبلغوتاي تم إعدامهم، أما زوجاتهم «الملاح النافعات» فتم أخذهن كسبايا «واللائي يناسبن الوقوف بخدمة عتبات الديار» تم اعتمادهن كخدم؛ أي بمعنى آخر أحالوهن إلى رقيق [المصدر نفسه، ص ١٠٤].

ختم المنتصرون مسيرتهم عند ملتقى نهري أونون وسيلينغا، وبعد ذلك رجع فان خان إلى معسكره، أما تيموتشجين وجاموخا فبقيا للعيش معاً في معسكر واحد، ويسمى مقرهما خورخونوخوتشجوتور، فجمعت بينهما تلك القوة الرهيبية، أي الصداقة التي من خلالها لا يستطيع أحد أن يترك الآخر خوفاً من أن يصبح ضحية لها. على الرغم من أن تيموتشجين كان معارضاً للسحق الكامل للميركيتين عند هجوم الخلفاء الأول، إلا أنه يبدو أنه حاول الاحتفاظ بهم كقوة منفصلة من

أجل الصراع على السلطة في منغوليا، ولكنه لم ينس لهم الهجوم وأسر زوجته، حسب معلومات رشيد الدين «إنه أصدر أمراً ثانياً لا يترك في الأحياء منهم أحداً؛ لأنهم قبيلة متمردة ذات بأس حربي، وأكثر من مرة دخلوا معه في حروب» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١١٦].

من المحتمل أن أصل لفظ الاسم الذي أُسْمِيَ به تيموتشجين ابنه الأكبر تشجوتشي أي بمعنى «الضيف» كان نتيجة ذلك الإحساس الخفي الذي كان يداخل تيموتشجين بأن تشجوتشي من المحتمل أن يكون قد اكتسب نصفه الثاني من الميركيت.

توجد كل المسوغات للاعتقاد بأن خروج تيموتشجين من هذه الغزوة عارياً من كل متاع الدنيا وعتاها سوى قلة من الرجال من نوكيره وأقربائه، كان وحيداً ومطارداً، ولكن الهبة السماوية والمقدرة القيادية قد برزا عليه بشكل ملحوظ، وسرعان ما أوشك أن يصبح خاناً كما ذكر باستمرار في «التاريخ السري». إن ل. غامبيس يفترض، وبشكل مقبول للغاية، أنه إذا لم يكن لجنكيز خان في أثناء غزوة للميركيتين حشدان من الجيوش، فقد كان لديه جيش واحد كثير العدد، لقد كتب قائلاً: «حسبما هو وارد في المصادر، فإن هناك مشكلة غير قابلة للحل هي كيف تسنى لتيموتشجين في استعداده للغزو على الميركيتين أن يجمع جيشاً قادراً على التحدي بندية لاثنين من جيوش فان، وكذلك لاثنين من جيوش جاموخا» [غامبيس، ص ٣٦].

يؤكد ب. راتشيفسكي بحق أن تيموتشجين أثبت وجوده كجزء من المنظومة التي تحكم السهوب المغولية، التي تربط بينها أوامر الدم، كما كان دأب الحال آنذاك في مناطق آسيا الوسطى والصين:

تشاموخا الأخ الأصغر

وتيموتشجين الابن

بقدر ما كان الفرق بين الأجيال مهماً من خلال جيل واحد، كانت مكانة جاموخا بصفته أخواً أصغر لفان كاغان أعلى من مكانة تيموتشجين الابن الذي «يعدّ من أبناء جيل أصغر» [راتشنيفسكي، ص ٣٣].

من الواضح والجلي أن الأحداث الأكثر صدقاً مرتبطة بالغزو على الميركيتين، حتى ولو على الشكل الملحمي، قد وردت في «التاريخ السري»: أما عن الغزوة على الميركيتين وأسر بورتى زوجة مؤسس الأسرة الحاكمة، فإن «يوان شي» و «شان أ تسين تشجان لو»؛ أي مصادر العصر الإمبراطوري فتلزم الصمت على كل هذه الأحداث بشكل تام، كما سبق أن علمنا من كتابات رشيد الدين الذي سرد عن الغزوة وأسر بورتى، ولكن وجد طريقة لإخراج بورتى من أسرها، فإن إعادتها فوراً من قبل الميركيتين لفان كاغان (من المحتمل، والشيء الأقرب للواقع، أنهم كانوا مرتبطين به، أي بمعنى أنهم يعترفون له بوصفه أكبرهم في تلك المنظومة التي أشرنا إليها سابقاً في حديثنا)، ويقوم فان كاغان بإعادتها لتيموتشجين، فإذا افترضنا جدلاً أن تيموتشجين تسلم بورتى من فان كاغان فإن من المحتمل أيضاً أن الغزوة على الميركيتين تكون غير ذات معنى، وكيف يستطيع فان أن يضع هيبته بالمشاركة فيها؟ وبالمناسبة إذا أخذنا في الحسبان رواية «ألتان توبتشي» الأكثر حداثة، فإن زوجة إيسوغاي الثانية «وعندما توجه بيلغوتاي لإنقاذ أمه داخلاً عليها من اليورتا عبر بابها الأيمن خرجت والدته من الباب الأيسر لابسة أسماً من جلد النعاج وهي تقول لرجل ما: " قالوا لي إن أبنائي أصبحوا خانات وأنا هنا ارتبطت برجل رديء، فكيف يتسنى لنا أن أنظر لأبنائي في وجوههم؟ " [ألتان توبتشي، ص ٩٣].

وفي خانات هذا المصدر نفسه أن تشيلتشير شقيق تشيلدو ندم على تجرؤه بأخذ

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURĀNIC THOUGHT

بورتى جارية قائلاً:

الغراب الأسود

بحكم العادة يأكل فتات الجلود

ويقال إنه تمنى أن يأكل وزه أو غرنوقاً

يا لى من جلف رديء يا تشيلتشير!

ما أهون أن يكون عقابي بفقدان رأسي

رديء ذلك الطائر صائد الجرذان

كتب عليه أن يقتات بالجرذان والسوالق

ويقال إنه تمنى أن يتذوق غرنوقاً وحتى بجعة

رديء ووضع أنا يا تشيلتشير

بحماس رغبت

وصرت وبالأعلى الميركتيين كافة

[ألتان تويتشي، ص ٩٢]

تشيلتشير الذي أخذ بورتى جارية ثاراً لعار شقيقه تشيلدو بالطبع يتعامل مع

أسيرة غير عادية، التي ستصير يوماً ملكة بل إمبراطورة.



أولوسي الخاص

«ها أنا ذا أرى بأم عيني الشور الأجلح
الأرقط يجبر يورتا على عجلات،
وخلفها يسير تيموتشجين على
الدروب المطروقة، والشور يخور
ويخور ثم ينمّم: اتفقت الأرض
والسما وكتب على تيموتشجين أن
يكون قيصر القياصرة، فليأخذ بزمام
السلطة»

السيرة المكنونة

انتهى الغزو الميركيتي بالنصر، «وحينها انحنى تيموتشجين بوقار أمام فان
كاغان وتشاموخا قائلاً: "أيها الكاغان، الأب، وأيها الأخ المتأخي جاموخا، بعد
تصادقنا نلت من السماء والأرض القوة والبأس

بما هو في السماء مسطر

ويعون الأرض الأم

لدى الميركيتين الذين أسموا أنفسهم رجالاً

طاب لنا أن نتنفس الصعداء

ومزق أكبادهم

لقد أفرغنا أسرتهم

وقضينا على عشائهم وأنسابهم

وما تبقى أسرناهم
وشعب الميركيت حتى النخاع أبدانهم»
[التان توبتشي، ص ٩٣-٩٤].

لقد كان جاموخا صديق الصبي لتيموتشجين وقريبه، كان في ذلك الزمان الرأس الفعلي لذلك الجزء من القبائل التتيرية المغولية، التي سميت بالفعل بالمغول^(١)، لقد سبق أن ذكرنا أنه قد عاشت في أولوسه مجموعة كبيرة من الناس الذين كانوا يدينون بالولاء لأولوس إيسوغاي، والذين كانوا الأولى أن يدينوا لإمرة تيموتشجين.

وبعد انهزام الميركيت يبدو أن تيموتشجين قد حصل على قدر لا بأس به من الغنائم، ولكن بقي تيموتشجين ومحاربوه مع جاموخا لأسباب مجهلها، لعلها الخوف من البقاء مرة ثانية في الوحدة أو متتبعاً لخطة بعيدة المدى، لعل السنة ونيف التي قضوها مع بعض، عندما تقاسم المتأخون حتى الغطاء، لعبت دوراً مهماً، إذا لم يكونوا الفاصل في تعبيد طريق تيموتشجين مترقياً من تيموتشجين إلى جنكيز خان، وتحديداً من هذا الوقت استطاع أن يستميل كثيراً من أبناء جلدته، ووضعهم أمام الخيار بينه وبين جاموخا، واستطاع أن يعيد بناء أولوسه، ينسب ل. غامبيس هذه الأحداث إلى عام ١١٨٤ م، افترض أن تيموتشجين تصرف بكرم، وحسب كلمات المصدر «ألبس الناس ملابسهم الخاصة بهم» وأيضاً «أركبهم على خيولهم الخاصة»، وكان هذا «تكتيكاً ليبرالياً يبعث على الاحترام» [ل. غامبيس، ص ٣٦].

تأخى جاموخا مع تيموتشجين مرتين في طفولتهما «في تلك الآونة عندما تأخيا كان تيموتشجين قد بلغ الحادية عشرة، وحينها أهداه جاموخا عظمة من رسغ آيل (١) حسبما ورد عند رشيد الدين تقسم المغول في زمانه إلى منغول أصليين، الذين كانوا يسمون بالعزل، وآخرين أصبحوا فيما بعد يسمون بالمغول، وفي الوقت الراهن يعرفون بالمغول، أما المغول الحقيقيون فانقسموا إلى النيرونيين والدارليكيين، لقد ذكر هذا التقسيم سابقاً.

وهذه تيموتشجين بدوره عظيمة، وهكذا أصبحا أخوين، وفي ذلك الحين عندما كانا يلعبان بالعظام على جليد نهر أونون قد سميا بالأخوين، ولاحقاً، وفي وقت الربيع، عندما أصبحا يطلقان السهام من الأقواس الصغيرة وهب تشاموخا تيموتشجين سهمه ذا الصوت المذنب المصنوع من قرن الأيل، وبادله تيموتشجين بسهم مصنوع من كوز من العرعر، وهكذا للمرة الثانية أصبحا متأخين كما جرت العادة آنذاك.

قالا لبعضهما: "لقد سمعنا ما قاله عجائزنا عن التأخي، فإن لدى المتأخين حياة واحدة موحدة، لا يترك أحدهما الآخر، وفي الحياة كل واحد منكما يكون حارساً للآخر، هكذا ينص قانون التأخي، والآن فلنردد قسم التأخي: فلنعش في سلام".

منطق تيموتشجين جاموخا الحزام بحزام ذهبي الذي نزعه من التوغتاغ الميركيتي، وكذلك أهدها فرساً بيضاء عقماء ذات ذيل وعرف أسودين، والتي أيضاً نزعها من التوغتاغ، أما تشاموخا فقد منطق تيموتشجين أيضاً، بحزام ذهبي نزعه من داير أوسون. وهو من أونغ الميركيتي، وأجلس تيموتشجين على حصان أبيض ذي بروز في جبهته، الذي كان يؤول لداير أوسون، وعلى الجزء الجنوبي من سفح خولداغار الشديد الانحدار في خورخوغ جيبور، وتحت شجرة كثيفة الأغصان، أخوة أسميا نفسيهما وتبادلا الأنخاب والملاطفة والأنس واحتفلا، وقضيا ليلتهما في بيت واحد» [ألتان توبشي، ص ٩٥-٩٦].

هكذا تأخي تيموتشجين وجاموخا مرتين في الطفولة، والآن وبعد النصر على الميركيتيين عقدا اتفاق اتحاد المتأخين للمرة الثالثة، وحسبما جرت العادة تبادلا الأحزمة الذهبية والخيول، هنا يبرز سؤال: أين كان أندا (الشقيق) جاموخا من قبل؟ ولماذا لم يساعد تيموتشجين؟ نحن لا نجد رداً على هذا السؤال، ولكن سياق

الأحداث قبل الغزو على الميركيتين يضعنا بين خيارين ، إما أنه لم يستطع أو لم يود أداء المساعدة ، وهذا الشيء الأقرب للاحتمال . من المحتمل أن السبب المباشر المؤدي للاعتراف بالذنب كان الاتحاد الذي حدده تيموتشجين مع فان كاغان ، وساعتها كل من الأخوة المتأخين مرتين تذكر كيف أنهما لم يساندا بعضهما في ساعة الشدة ، ولذا رردا تأكيد التأخي للمرة الثالثة .

يسرد «التاريخ السري» أنهما عاشا في معسكر واحد مدة عام ونصف «وبرواية لوبسان دانزان عام «وجزاء من الذي يليه» ، وغير معلوم لماذا قررا فجأة ترك ذلك المكان ، لا بد أن لكل منهما أسبابه ، كان تيموتشجين ذكياً وماكراً ، ولكن جاموخا أيضاً لا يقل عنه ذكاءً ومكراً .

وهكذا اتجهت القافلة في طريقها ، على الرغم من أن المتأخين قد سارا متجاورين متقدمين ، ورجالهم من خلفهم ، فإن الأحداث المقبلة ستكشف لنا أن كل واحد منهما قد سار في طريق مختلف ، حسب الروايات المتوارثة ما أصبح سبباً لهذا الفراق المباغت هو الكلمات التي كانت تنم بلغز ، والتي قالها جاموخا لتيموتشجين :

- دعنا نرعى بقرب من الجبال حيث الاخصاص معدة لرعاة قطعاننا ، دعنا نرعى بالقرب من النهر حيث الأكل معد لرعاتنا أغنامهم [السيرة المكنونة ، ص ١٠٦] .

يورد لوبسان دانزان أن هذه الكلمات وردت في مؤلف «ألتان توبتشي» كالاتي :

قرب الجبال سترجل عن الخيول
عندئذ سيجد رعاة خيولنا النار والشرر
أليس كذلك؟

ما يسد الرmq

هذا غير ممنوع، أليس كذلك؟

[ألتان توبتشي، ص ٩٦].

لا أحد يدري ماذا عنى جاموخا بقوله، لعله ألمح إلى أنه لا يوجد ذلك المرعى الذي يمكن أن يطيب فيه الحال جيداً للجميع، تيموتشجين غير مدرك مغزى كلمات جاموخا، انذعر، تأخر قليلاً، وتقدم نحو أمه وزوجته للمشورة، زوجته بورتي أولت كلمات جاموخا على النحو الآتي:

- ليس هراءً أنهم يقولون عن أندو جاموخا إنه شخص سرعان ما ميل من أي شيء، والآن أصبح الأمر عبثاً بالنسبة له، ومن الواضح أن ما ذكره يحمل تعريضاً بنا، ولقد أصبح الوضع مضجراً له معنا، فإن كان الأمر كذلك فلا شيء يبقينا، فلنرحل سريعاً ولنبعد، سواصل المسير طوال الليل، هكذا يكون الأمر أفضل! [السيرة المكنونة، ص ١٠٦].

لا بد أن المتأخيين منذ مدة قد سئما بعضهما، إن تأويل بورتي كلمات جاموخا كان نتاج مسار حياة المتأخيين ورجالهم في الأشهر الأخيرة، لأن تيموتشجين بسرعة غير عادية وافق على رأي زوجته التي أولت بشكل سيئ أقوال أخيه، ولم يعترض على ذلك حتى نوكيره وأقرباؤه، بل أكثر من ذلك كما سنرى لاحقاً فإنه حتى بين رجال جاموخا الذين عاشوا العام والنصف تحت قيادة المتأخيين بدأ بينهم التذبذب، منع من منهم سيقبون؟ من الجائز أن جاموخا فعلاً لمح بقوله «دعنا نفترق، كل منا سيحس بالراحة»، كما ورد في تأويل دورونا تيب مؤلف الترجمة المختصرة لـ «التاريخ السري» باللغة الصينية [دورونا تيب، ص ٨٣].

ارتحل رجال تيموتشجين تاركين جاموخا مسافرين طوال الليل، واتضح أنه ليس هراء قضاء تيموتشجين العام والنصف مع الأخ (أندا)، وكثير من الحاشية (النويون) والحراس (نو كير) انضموا لتيموتشجين، وذهب معه أيضاً عدد من أقرباء جاموخا، أحدهم يدعى خورتشي الذي أعلن قائلاً: «نحن مع جاموخا ترجع أصولنا إلى زوجة كانت بعصمة رجل مبروك هو سلفنا بودونتشار، فصار الأمر لدينا كما يأتي:

الجسد واحد

والقميص واحد

ولا يتوجب بأي حال من الأحوال الانفصال عن جاموخا، ولكن في منامي تفتحت لي رؤية واضحة، أني أرى بقرة حمراء فاتحة اللون، تدور حول جاموخا، رامية بقرونها على خيمته القابعة على العجلات، ومحاولة نطح جاموخا نفسه، ولكن انكسر أحد قرنيها، فبدأت تحفر الأرض وتهيلها عليه جائرة وجائرة مرددة "أعطني قرني"، كما رأيت ثوراً أهلياً أرقط بلا قرنين يجري يورتا رئيسة بعجلات ويتعقبه تيموتشجين الذي يسير بطريق المعبد والثور يجأر ويجأر مردداً "الأرض والسماء اتفقنا على تنصيب تيموتشجين قيصراً للإمبراطورية، فليأخذ بزمام الإمبراطورية"، وهذه هي الرؤية التي تكشفت لي أمام ناظري! «السيرة المكنونة، ص ١٠٧».

هل شاهد خورتشي بالفعل رؤية بهذا الشكل بفضل نشاط تيموتشجين من خلال العام والنصف في أولوس أأوحى تشاموخا له بذلك أم أنه توفيق في رؤية جوهر الأحداث التي جرت أمامه، وعلى ضوء ذلك ابتدع^(١) الأمر مؤخراً، ليس

(١) أو مؤخراً ابتكره الذين كتبوا في التاريخ السري عن السنوات الأولى من حياة تيموتشجين ووصوله للسلطة.

كل هذا بالمهم، ولكن الأهم من ذلك هو أن خورتشي أصبح يساوم بدون حياء
برؤيته سائلاً تيموتشجين: 

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURĀNIC THOUGHT

- بأي مكافأة ستجزيني على الرؤية عندما تصبح قيصراً؟ [المصدر نفسه].

اتضح للجميع أنه لا يمكن أن يكون لبقرتين قرن واحد، فإن واحدة منهما
ستطالب بالقرنين لنفسها.

أولئك الذين قرروا أن الغلبة ستكون لتيموتشجين انضموا له، كيف تأتي كل
هذا لتيموتشجين من خلال عام ونصف فقط؟ الأمر غير واضح، ولكنه انفصل عن
تشاموخا، وهو ليس بالابن المطرود الذي لا يملك من حطام الدنيا سوى سابق مجد
والده الميت، ومزاعمه بما كان له من قوة وبأس، وإنما مالك أولوس وصاحب
مقدرة يكاد أن يحادث بنديه أي خان أو سيتشين أو باتور وغيرهم من رهط نبلاء
القوم وحكام القبائل المغولية التتارية.

كانت هذه مؤامرة بين تيموتشجين ومجموعة من نبلاء القوم (نويون) التابعين
لجاموخا، الذين رأوا في تيموتشجين القائد المنتظر، استطاع تيموتشجين أن
يستميلهم إلى جانبه، أترى بكرمه (يفترض غامبيس) أم طمعاً في الغنائم الموعودة،
أو تمجيداً لسلالة القائد «أوروك»، وأخيراً لصفاته الشخصية، لكن بحض إرادتهم
اختاروه بدلاً عن تشاموخا وأي شخص آخر، فتم اختيارهم لتيموتشجين، وقرروا
أن ينصبوه خاناً عليهم، وعقدوا معه اتفاقاً خاصاً - على ما يبدو وحسب العادات
المتبعة في ذلك الزمان - تحدد مهام وواجبات كل من الخاشية (نويون) والخان، ومن
المحتمل أن تيموتشجين منذ وقت سابق قد لفت انتباه النويون المغول، وآخرون ما
زالوا يتذكرون مجد أسلاف إيسوغاي وتيموتشجين «الخانات بالقطرة»، ويعدّ
تيموتشجين واحداً من نسلهم.

عندما كان تيموتشجين وجاموخا يحتفلان بالنصر على الميركيتين تحت شجرة فيحاء، قام موخالي أحد النويون ملمحاً لتيموتشجين بأنه تحت هذه الشجرة بالذات قد رقص وابتهج خوتولا كاغان القائد المغولي الباسل، في الوقت الحاضر فقدت قبائل المغول سابق قيمتها، ولكن لمدة مؤقتة، السماء الزرقاء الصافية التي رافقت تيموتشجين وساعدته في خطاه السابقة لا يجوز أن تحرم من عطفها قبيلتها المحبوبة، هل يخرج من وسط قبائل المغول كاغان جديد، الذي سيجمع في أولوسه الواحد المغول كافة، وعن هذا يدور الهمس بين الجميع، أو لم يكن هذا الخان الآتي هو تيموتشجين؟ [كما ورد في السيرة المكنونة، ص ١٦٦].

وقع الاختيار على تيموتشجين بفضل أصوله وبلا منازع لصفاته الشخصية الخاصة، لدهائه وذكائه، التي قدرها فيه معاصروه من النويون وعامة القوم (أرات) بكل جدارة، الذين تمنوا رؤية منغوليا موحدة في أولوس واحد وتحت سلطة قوية.

كانت شروط الاتفاق بسيطة بين الطرفين وخالية من التعقيد، النويون والنوكير المغول كانوا في حاجة لمن يجمع قوتهم في قبضة واحدة متينة، مثل التي يتمتع بها الكيريت والتتار والنايمان وشعوب منغوليا الأخرى، كما كانت دولة «خاماغ منغول أولوس» المجد والغنائم الثمينة لا يمكن الحصول عليها إلا بوجود خان عاقل وشجاع وموفق في الحروب، وأيضاً أرات كانوا بحاجة إلى خان ونوكيره للدفاع عنهم من هجمات الجيران، مثل ما رأينا في العقدين والنصف الأوائل من عمر تيموتشجين عندما ساد النهب والغزوات والمذابح التي كانت تهدد دوماً الضعفاء الذين لا يستطيعون رد الصاع صاعين.

تم اختيار تيموتشجين في منطقة خار تشجور كين على نهر سانغور بالقرب من بحيرة كوكو نور^(١)، وحسب الأسطورة الشعبية أقبل على تيموتشجين قادة نبلاء

(١) يجب عدم الخلط مع بحيرة كوكو نور في شمال شرق التبت.

بورجيين في شخص ألتان وخوتشار المتيمين إلى نسيه، وأيضاً أقبل قريه ساتشا بيكي من قبيلة تشجوركا، أي بمعنى أقبل إليه رجال من بطون «الخانات بالفطرة»، فكان تيموتشجين في انتظارهم متوقفاً قدومهم، فأعلنوا له الآتي: «لقد قررنا تنصيبك خاناً، وفي أثناء حروبنا مع الأعداء الكثيرين سنكون الأوائل المنتصرين، ومن يقع في أسرنا من جميلات النساء والفتيات والخيول الأصيلة، فإننا سنهبها إياكم، وفي مطاردة الصيد سنهجم قبل الآخرين، وسنهبكم نصف غنائمنا من الوحوش، وإذا ما تخطينا أو عصينا أو امرك في ميادين الوغي أو في وقت السلم، فألحقوا بنا الأذى وانزعوا نساءنا وأملكتنا، وأهجرنا في قفار بلا أناس» [السنة المكنونة، ص ١٠٨-١٠٩].

وهكذا قرر النويون والنوكير تنصيب تيموتشجين خاناً، بالطبع - نكرر مرة أخرى - من الصعب أن نبرهن بشكل مؤكد لماذا وقع الاختيار بالذات على تيموتشجين، فهو يرى أن السموات دائمة الزرقة قد اختارته بنفسها! لكن بالفعل هذا كان في الواقع اختياراً لاحقاً عندما أراد ألتان وخوتشار - اللذان كانا من ضمن الذين نصبوا تيموتشجين خاناً - الخروج من إمرته والانضمام لجاموخا من جديد، فذكر لهم تيموتشجين بعض القرائن المصاحبة لاختياره خاناً «هل قررتما أن تهجراني بوضوح أم أنكما رسمتما هذا بغدر ورياء؟ لقد عرضنا عليك يا خوتشار كابن نيكون تايتشجي أن تكون خاناً، ولكنك رفضت بنفسك، ولك يا ألتان قد عرضنا "لقد حكمنا كلنا خوتولا خان، لو صرت خاناً لحكمت مثل والدك تماماً"، ولكنك رفضت أيضاً، لا أستطيع أن أمر الآخرين من هم من ذوي أصول رفيعة قائلاً "كونا خانات يا ساتشا وتايتشو كأبناء بارتان باتور"، وهكذا لم يكن لدي حق أن أنصبكما خانات، فأنا المنصب والمعلن من قبلكما» [المصدر نفسه، ص ١٣٧]، وهكذا يتضح لنا أن تيموتشجين لم يكن من أفضل عليه النبلاء من قومه، حسب

نسبه تم اختياره لمنصب الخان بوساطة النويون المغول وأقربائه، وبصورة أدق من قبل جزء منهم، كما يبدو، وقبل كل شيء، بفضل جدارته الشخصية.

بحسابات ش. سانداغ وخان جولين حدث اختيار تيموتشجين خاناً في عام ١١٨٩ [سانداغ، ص ٢٧، جزلين، ص ١٣]، يشير ل. غامبيس إلى العام ١١٩٠ [غامبيس، ص ٦٠]، وفقاً لذلك، وإذا تتبعنا التسلسل التاريخي عند رشيد الدين فإن انتخاب تيموتشجين خاناً تم في العام ١١٨٠، ولو وضعنا في الحسبان أن غزو الميركيتيين تم في عام ١١٨٤ فإنه يكون في عام ١١٨٦، الاختلاف في التواريخ بشكل عام بفارق عشرة أعوام، والاختلاف في ميلاد تيموتشجين باثني عشر عاماً فإنه بلغ من العمر خمسة وعشرين (خمسة وثلاثين) عاماً، إذا ولد في عام ١١٥٥ فثمانية عشر (ثمانية وعشرون) عاماً. وثلاثة عشر وثلاثة وعشرون عاماً إذا حسبنا عام ميلاده ١١٦٢ و ١١٦٧.

إن تيموتشجين حسب معلومات «التاريخ السري» حصل على لقب جنكيز خان لأول مرة عندما اختارته مجموعة من المغول خاناً [السيرة المكنونة، ص ١٠٩].

إن مؤلفي سيرة تيموتشجين الذاتية يفضلون «التاريخ السري» على ما سواه من المصادر، ولكن فجأة نلاحظ أنهم يركزون الانتباه على تحيزه، ومعظمهم لا يعترف بواقعة تنصيب تيموتشجين قبل العام ١٢٠٦ وحصوله على لقب خان، يرى ل. غامبيس أن هذه المعلومة من أخطاء «التاريخ السري»، ويعدّ تيموتشجين خاناً أنه كان قبل العام ١٢٠٠، وحصل على لقب جنكيز خان عام ١٢٠٦ [ل. غامبيس، ص ٤٦] عذّب. راتشيفسكي العبارة من الفقرة ١٢٣ من مؤلف «التاريخ السري» التي تنص على أن «تيموتشجين أعلنوه جنكيز خان ونصبوه خاناً على أنفسهم» [السيرة المكنونة، ص ١٠٩] مفارقة تاريخية [راتشيفسكي، ص ٤٠] تجنب خان

جولين هذه المسألة، ولكن يبدو أنه عارض بصورة نقدية حقيقة نيل تيموتشجين للقب جنكيز خان، على كل، بعد إنشاء تيموتشجين لأولوسه الأول، بقي خان جولين في سيرة جنكيز خان الذاتية يسميه بتيموتشين.

تخبرنا الترجمة الجديدة المختصرة لمؤلف «التاريخ السري للمغول» عن إطلاق لقب جنكيز خان، ولكن دورونا تيب لا يعلن عن هذه المعلومة، [دورونا تيب، ص ٨٨]. يورد لوبسان دانزان إطلاق لقب جنكيز خان على تيموتشجين بشكل رائع: «ما أن أجاز ذلك القرار (اختيار تيموتشجين خاناً. تعليق المؤلف) فأقسموا ونحروا قرباناً للسماء العليا الخالدة، ثم رفعوا راية بيضاء ذات تسعة الألسن، قبل ولادة تيموتشجين، قام خاغان جميع اللووس (أرواح الأرض والماء. تعليق المؤلف) بنقش خاتم من الحجر يسمى «خاسبو»، طائر أسود جالساً على مخرج الدخان يغني بصوت: «جنكيز، جنكيز»، غناء هذا الطائر هو السبب في أن تيموتشجين منح اسم جنكيز عندما نصبوه خاغاناً، وعندما بلغ الخامسة والأربعين من العمر أي في عام بينغ (النمر) عند منابع نهر أونون رفع رايته البيضاء ذات الألسن التسعة، وترجع على العرش خاغان أعظم» [ألتان توبتشي، ص ١٠٠]. من الواضح هنا اختلاط أحداث العام ١٢٠٦ وما قبله.

على ما يبدو إذا لم تخبرنا المصادر الأخرى أن تيموتشجين أصبح جنكيز خاناً قبل العام ١٢٠٦، فإن من الصعب تصديق «التاريخ السري»، ولكن في واقع الأمر لماذا لا؟ فإن العلم على استعداد ليقبل أي حقيقة تذكرها هذه المصادر، وتصمت عنها مصادر أخرى لعهد الإمبراطورية، ولكن لماذا لا تصدق هذه المعلومات معترفين أنها كتبت لاحقاً، فليس هذا بمسوغ، وبالفعل لمجد تيموتشجين غير ذي أهمية، إنه أصبح خاناً لأولوس المغولي - الذي انضوى تحت لوائه جزء من المغول فقط - أو خاناً لدولة منغوليا الموحدة كافة.

يفترض مؤلف هذه السطور: إذا صدقنا قتل تيموتشجين لبيكتير وأسر بورتي وشككنا في أبوة تيموتشجين لتشجو تشجي، فإننا نسمح بحصول تيموتشجين على لقب جنكيز خان قبل عام ١٢٠٦، ولا سيما أن عليه الخانات كافة حملوا ألقاباً ليس خاغان (خان) فقط بل بإضافة ما، مثلاً أونغ (فان) خان، دايان (دا فان) خان إلخ . . . عند إعلان تنصيب تيموتشجين خاناً، يفترض أنه يمنح أيضاً لقباً ما مشابهاً، فإذا كان هذا اللقب يختلف عن جنكيز خان لعرفنا من «التاريخ السري»، فلذا لا ينبغي لنا سوى أن نصدق أن تيموتشجين أصبح خاناً أول مرة عندما حصل على لقب جنكيز خان، وفي سردنا القادم سيسمى تيموتشجين لا باسمه وإنما بلقبه المعروف بشكل أوسع جنكيز خان، أو بصورة أبسط: جنكيز.

يوجد عدد ليس بالقليل من الإيضاحات للقب جنكيز خان، ولكن لا يحمل واحد منها التعليل العلمي الدقيق، يشرح رشيد الدين هذا اللقب كالآتي: «معنى "جن" قوي ومتين، أما جنكيز فجمع للمفرد منه؛ أي بمعنى تسمية قور خان نفسها التي كانت لقباً لعظام حكام الصين السود "قاره كيتاي"، وبمعنى آخر حاكم قوي وعظيم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٥٠] ويشرح رشيد الدين أيضاً لقب جنكيز كمرادف للقب «شاهنشاه»، أي «قيصر القياصرة»: «واللفظ "جن" بالمغولية يعني "قوي" . . . و "جنكيز" جمع لمفردها، السبب آنذاك أن لقب قور خان كان عند كبار حكام الصين السود (قاره كيتاي) واللفظ "قور" يعني "متين"، فإذا لم يبلغ الحاكم شأواً من العظمة، فلا يمكن تلقيبه "قور خان"، أما في اللغة المغولية فلقب "جنكيز" يحمل المعنى نفسه ولكن بصورة أكثر تفخيماً؛ لأنه في حد ذاته صيغة الجمع، واستعماله مربوط باللفظة الفارسية شاهنشاه "قيصر القياصرة" [المصدر نفسه، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٦٧] يخبرنا رشيد الدين في مقطع معين من الجزء الذي يحكي عن قبيلة

أورباوت في مجلده «الذكريات» أن لقب جنكيز قد اقترحه الساحر تاب تانغري الذي «كان يزور جنكيز ويقول له: "الإله قضى بأن تصبح حاكماً للعالم" فأطلق عليه اسم جنكيز خان مواصلاً القول: "سيصبح اسمك هكذا بإرادة الإله!"» [المصدر نفسه].

إن هذا بالطبع يعدّ تأويلاً معمماً، وقد عمل بعد أن أبرز جنكيز للعالم «عظّمته». يؤكد كل العلماء المختصون بدراسة منغوليا على أن لفظه جنكيز خان لا يمكن أن تكون جمعاً لمفرد لفظه «جن» [بانزاروف، ص ١٧٥]. على ما يبدو أن المعقول ما يورده رشيد الدين أنه يسمح بإمكان حصول اللقب من الساحر، وجائر جداً من مخزونه اللغوي، الذي كان غير مفهوم لعمامة البشر، وذلك لأن الساحر عرف لغة الوحوش والطيور وأسماء الأرواح وما شابه ذلك.

افتراض د. بانزاروف سابقاً وفي القرن الماضي أن جنكيز اسم أحد قدامى الأرواح المغولية التتارية «تانغري» ذكراً أنه قد عُثِر في إحدى المخطوطات المغولية إشارة إلى وجود روح خاجر جنكيز تانغري [المصدر نفسه، ص ٣١١] يسمح ب. فلاديميرتسوف أيضاً بهذا التأويل للقب جنكيز خان قائلاً: «من الصعب تحديد معنى كلمة "جنكيز"، التي أصبحت لقباً لتيموتشجين، ولكن يمكن التخمين فقط أن تيموتشجين قد حصل على هذا اللقب من الروح النورانية، التي عبدها السحرة المغول آنذاك، هذا الافتراض يحمل ضمناً المفهوم السائد لدى الأغلبية، الذين يرون أن تيموتشجين مختار العناية الإلهية، وحتى تيموتشجين نفسه كثيراً ما ساوره الخاطر بأن السماء الأزلية "تسطر مساره"» [فلاديميرتسوف، جنكيز خان، ص ٤٥^(١)]. يسمي روبروك جنكيز في كتابه «ديموغين خينغاي» و«تيموتشجين

(١) «هناك فرضية تشير إلى أنه يوجد في السماء إله خالد واحد فقط، هو الإله الأزلي، وعلى الأرض يوجد حاكم واحد فقط هو جنكيز خان ابن الإله، ديموغين خينغاي (بمعنى "صوت الحديد") لأنهم يسمون جنكيز خان صوت الحديد، بحكم أنه كان حداداً، وعندما يريدون الافتخار به في الحاضر يسمونه ابن الرب» [الرحلات، ص ١٨٠].

جنكيز» مازجاً الاسم واللقب في قالب واحد [الرحلات، ص ١٨٠].

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR PROMOTING NIGRIC THOUGHT

أشار تشجاو خون إلى أن تيموتشجين اسم الطفولة لجنكيز، واللقب جنكيز خان ابتدعه له الموظفون التشجور تشجينيون، الذين فروا لاجئين إلى التتار المغول، ولذلك أصبح [الحاكم التتاري] يسمى تشان تسزي سي خوان دي [وهذا في ترجمة اللقب إلى اللغة الصينية]. البعض يقول الكلمتين تشان تسزي سي ليس سوى ترجمة صينية «تيان تسي» [التدوين الكامل، ص ٥٠]. التركيبة اللفظية لجملة «تيان تسي» تعني المصطفى من قبل السماء [ف. فاسيليف، ص ٢١٨]. استعمل تشجاو خون عند شرحه للقب «جنكيز» الكلمات الصينية «إي يوي» بمعنى «يناول»، وعلى ضوء هذا فقد اقترح ف. فاسيليف أن «تيان تسي» الصينية عبارة عن نقل أو تعبير بالرموز الصوتية لكلمة «جنكيز» [المصدر نفسه].

دارت صراعات علمية حول ما إذا كانت كلمة جنكيز في حد ذاتها لقباً، أم هي تعريف، أم نعت لكلمة «خان». كتب المؤرخ الألماني ف. أردمان في منتصف القرن الماضي إذا كانت كلمة «جنكيز» نفسها لقباً، فلا تحتاج إلى إضافة كلمة «خان»، ولكن عارضه الباحثون بتعقل، منبهين على كثرة الأمثلة التي تفسد الماء بالماء، أونغ خان، بويوروك خان، تايان خان، وهلم جرا. يشير العالم السوفييتي الراحل في المغوليات ن. مونكوف إلى أن «أي تمازج يكون فيه الجزء الأول نعتاً يصبح لقباً». يميل مونكوف متبعاً التقاليد المغولية القديمة إلى أن لقب جنكيز خان يحمل في طياته جذوراً من السحر، انظر [التدوين الكامل، ص ١٠٩-١١٤]. وحسب التقاليد المبينة بشكل خاص في مؤلف «إيردني بين توبتشي» يشير ساغان ساتشان إلى أنه في عام ١١٨٩ عندما تم انتخاب تيموتشجين خاناً «أمام الخيمة جلس طائر ذو خمسة ألوان يشبه طائر القبرة على حجر مربع، وكان يغرد "جنكيز، جنكيز" [بانزاروف، ص ٣١١، حاشية ٢٩٧].

عرض المترجم الألماني لكتاب «التاريخ السري» أ. هانيس في الكتاب الربط بين كلمة «جنكيز» والكلمة الصينية «تشجين»، التي تعني «قديم»، «عادل» (انظر [راتشيفسكي، ص ٨٢-٨٣])، ولكن هذه الفرضية لم تجد التأييد الواسع.

أكثر الروايات قبولاً في الوقت الراهن تلك الرواية التي اقترحها العالم الفرنسي المشهور ب. بيلو، فقد اقترح بيلو أن تؤخذ كلمة «جنكيز» المغولية كمرادف للتركيبية «تانغيس»، وتعني «بحر»، «محيط» [بيلو، المغول، ص ٢٣، الملاحظة ٢] (١)، وبهذا التأويل فإن لقب «جنكيز خان» يعني «خان المحيط» «الخان العريض والقوي بلا حدود كالمحيط»، والذي يعني مجازاً «حاكم الكون»، «تينغيز» «دينغيز» هو اسم أحد أبناء سلف الترك أو غور خان (٢).

من الواضح جلياً أنه توجد روايتان تفسران لقب «جنكيز» محلية وصينية، الصينية تتبع مصدر اللقب من الصين عبر التشجور تشجينيين وتفسره بمساعدة العبارة الصينية «تيان تسي»، أي «المصطفى من قبل السماء»، والحاصل على السلطة بإرادة السماء (الإله الأعلى)، أما الرواية المحلية فتربط اللقب بالمعتقدات السحرية حيث إن السماء أيضاً إله أعلى، وأبرزت إرادتها عبر الطائر الذي غرد بلقب الخاغان الجديد «جنكيز، جنكيز»، و«جنكيز» كلمة غير مغولية، وغير مفهومة لدى المغول، فهي اسم روح من الأرواح المغولية أو أنها تركية الأصل «تينغيز»؛ أي «البحر». على كل مثل هذه الاستعارة مقبولة تماماً.

(١) وبغض النظر عن ب. بيلو فإن شرح لقب جنكيز اقترحه أيضاً الباحث غ. إ. رامستيد (انظر [التدوين الكامل، ص ١١١]).

(٢) على حسب رأي رشيد الدين إن «أوعوز كان له ستة أبناء وأسماءهم على هذا الشكل من التقسيم والترتيب: كون وآي ويولدوز وكوك وتاك ودينغيز» وفي الترجمة الروسية تعني هذه الأسماء: «الشمس» و«القمر» و«النجمة» و«السماء» و«الجبل» و«البحر». [المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ٨٦] إن الاسم التركي تينغيز منتشر بشدة في الوقت الراهن.

المهم أنه في كلتا الحالين يعدّ تيموتشجين خاناً منصباً بإرادة السماء، أي إذا لجأنا لمقاييس الفهم الأوروبي أنه حاكم منصب بإرادة الرب ومعتمداً من قبله، مرة ثانية تؤكد أنه لا توجد لدينا أي مسوغات مؤكدة لكي نزعّم أن تيموتشجين لم يحمل لقب جنكيز خان قبل العام ١٢٠٦.

وهكذا عندما أصبح تيموتشجين جنكيز خان تبعاً للتقاليد رفع راية تمثل الروح التي تحمي الشعب والقوات، وشرع في بناء أولوسه، إذا ما عاودنا النظر إلى المؤلفات الأخيرة، فعلى رأي ل. غامبيس إن جنكيز خان شرع في وضع المراسم «التي يفترض أن تمثل الطور الجنيني لإدارة الدولة المغولية» [غامبيس، ص ٤٣]. يفترض ب. راتشيفسكي أن تيموتشجين «نظم» أتباعه «وكون جهاز خدمة»، وهذا يعني «إدخال نظام جديد من السهوب المغولية» [راتشيفسكي، ص ٨٢-٨٤]. يشير خان جولين إلى أن تيموتشجين أسس أولوسه الأول من نبلاء المغول من اليات «أحفاد قدماء المغول»، وكل تسلّم منصبه على أساس القسم بالاتحاد^(١).

ولضرورة قيام جهاز إداري، وحسب التقاليد المتبعة آنذاك يعين الأقارب والأنصار للخان الجديد، يتوجب علينا أن نذكر الذين هجروا تشاموخا وانضموا إلى تيموتشجين وأولوسه الجديد، وضع تيموتشجين عند التعيين نو كيره المخلصين والمجربين في رتب أعلى من إخوته، أدخل تيموتشجين في بادئ الأمر قرابة عشر وظائف.

قال الخان المنتخب جديداً:

- بإرادة السماء والأرض تضاعفت قوتي، بانضمامكم إلينا تاركين شقيق

(١) باستنتاج الباحث خان جولين إن كل الذين تم تصيبيهم باستثناء الأخ الأصغر كانوا من العبيد أو من القوم المستقلين الذين لا تربطهم علاقة بالنبلاء القدماء أبناء السلالة، إنهم كانوا دعامة حكم تيموتشجين الذي كانت نواته في معسكر التوكير (انظر [خان جولين، ص ١٣-١٤]).

المتأخري (أندا) تشاموخا، وانتظمتهم في حراستنا، أليس هذا القدر الذي سطر أن
تصيروا حراسنا القدماء السعداء؟ لذلك وضعت كلاً منكم في منصبه الذي
يستحقه!

تم تنصيب بوورتشو وتشجيلمي من أوائل نو كير تيموتشجين رؤساء على
الحراس والمسؤولين كافة، وأعلن جنكيز عند تنصيبهم كما تقول الأسطورة:

- لتكونا أتما من سويداء فؤادي؛ لأنه عندما لم يكن لدي صديق سوى ظلي
أصبحتما ظلي، وأنزلتما علي الطمأنينة، ولتكونا في حنايا صدري، لأنه عندما لم
أكن أملك سوطاً سوى ذيل فرسي، صرتما مكانه وهداً روعتي، لقد أتيتما إلي
وأقمتما معي قبل الآخرين، أليس لكما الحق أن تكونا رؤساء على الحاضرين هنا
الآن كافة! [حسب السيرة المكنونة، ص ١١٠-١١١].

كلف بقيادة الجيش وحماية المعسكر ثلاثة من رماة السهام، وحمل السهام^(١)
والأقواس يعدّ مظهرأ من مظاهر السلطة، وكان من بين المكلفين أوغولا تشيريري
الأخ الأصغر لبوورتشو، وثلاثة من حملة السيوف برئاسة خاسار الأخ الأصغر
لجنكيز، وأربعة من النوكير عينوا كمنخبرين وطلّاع لمهام الخان الخاصة، وكرسل
محملين بالأنباء والرسائل السهمية؛ أي الرسائل التي تنقل بالسهام.

سهام خوورتساخ بعيدة المدى

سهام أودورا قريبة المدى

[السيرة المكنونة، ص ١١٠]

اعتلى سوييتاي باتور منصب قيادة نو كير جنكيز خان، الذي صار أحد قواده،
ومن المحتمل أنه آلت إليه بالتحديد قيادة طلّاع جزء قليل من الجيش آنذاك في
معسكر (أوردا) جنكيز خان، تورد الأسطورة أن سوييتاي قد حدد مهامه بشكل
(١) التي أصبحت فيما بعد وظيفة خورتشي، أي «رامي السهام».

مجازي كالآتي: «سأصير جرداً يجمع ويخزن معك، وغباباً أسود أنظف كل ما حولك، وأتلف بلباد الخيمة كالعباءة وأتدثر معك، وأجرب افتراش لباد الخيمة بصحبتكم» [المصدر نفسه]. خاطب سوبيتاي جنكيز خان واعدأ إياه بأنه سيبني أولوسه وسيوسعه وسيحميه وسيغطيه باللباد الدافئ.

حسب ما ورد في «يوان شي» إن سوبيتاي من «منغول أوربانخات»، «عاش أسلافه ومارسوا الصيد من أعالي نهر أونون» كان مقداماً وفارساً لا يشق له غبار وبارعاً في رمي السهام، لا توضح لنا مؤلفة «يوان شي» متى ظهر سوبيتاي في معية تيموتشجين، بل يذكر أنه عندما كان تيموتشجين على نهر بانتشجوننا سقط خابان والد سوبيتاي في أيدي قطاع الطرق، متسلحين بالرماح، تمكن سوبيتاي وشقيقه الأكبر خولو خان من إنقاذ والدهم، أصبح خولو خان قائداً لمئة من الجند عند جنكيز، أما سوبيتاي في بادئ الأمر أعطي كرهين، ثم صار فيما بعد رأساً لمائة من الجند أيضاً [يوان شي، الفصل ١٢١، ص ١].

تحدث جنكيز خان عن نوكيره وقائد قواته سوبيتاي قائلاً: «سوبيتاي ركيزة وردع، يهب كل قواه في المعارك الدامية لخدمة أسرتي، إنني أقدره حق تقدير!» [المصدر نفسه، ص ١٢].

تم تعيين أشخاص لإدارة شؤون الأولوس رؤساء لقطعان الأغنام، وكذلك قطعان الخيول والمركبات التي تحمل اليورتات، وكذلك مجموعة أخرى من الأشخاص الذين توجب عليهم إدارة الشؤون المختلفة التي تخص الخان وقومه مباشرة، كان هؤلاء ثلاثة خدم للمائدة الذين أداروا شؤون الخان، وشعارهم: «الصباح لا نتركه ينتظر، ولا ننسى شراب الغداء»، وكان أيضاً تحت إدارتهم الاسطبل التابع للخان، ومنهم بيلغوتاي شقيق جنكيز من أبيه، وتشيربي المسؤول عن الخدم والشؤون المنزلية.

أسس جنكيز شريحة مميزة من الدارخات الذين تم إعفاؤهم من ربة خدمة الخان، ومن أي نوع من الضرائب وابتزاز الأموال، ويحق لهم أن لا يتقاسموا غنائم الحرب والصيد، ولا يجوز معاقبتهم عند ارتكابهم بعض الجرائم، وهم يتمتعون بحرية الاتصال الدائم بالخان، وهكذا يحق لنا أن نميز في تكوين أولوس جنكيز خان ثلاث مجموعات من الرتب الرسمية، الأولى إدارة المعسكر (أوردا) مقر الخان، أي بشكل غير مباشر أحواله الخاصة، وعائلته وأبناؤه الذكور وسلالتهم (أوروك)، وإدارة الحرس الخاص للخان وقومه (أوردا)، والمجموعة الثانية من الرتب الرسمية الإدارة الخاصة بشؤون الأولوس وماشيئها والمتقلون من الرعاة، واستغلال المساحات الرعية داخل حدود الأولوس، أما المجموعة الثالثة فإدارة الجيوش والحرس العسكري. يدير الأولوس الخان بالفطرة لأنه حصل على السلطة بشكل أو بآخر من لدن الهبة السماوية، ويوجد تحت تصرفه مجلس مكون من أقاربه وعلية القوم، كما لديه أصحاب وشركاء الرأي والتوكير، وهناك احتمال بأن الأولوس يتجزأ إلى أجزاء حسب التسلسل الاجتماعي الإداري الصاعد.

بعد الغزو على التتار أراد جنكيز خان البحث عن زوج الخانة الأسيرة يسوي، فأصدر أمره ليوورتشو وموخالي «بأن يوزعا جميع الموجودين في الأوردا على حسب التسلسل الاجتماعي الإداري الصاعد "أيماك"». كان الأولوس يتمتع بمساحته المحدودة وله حدوده المحروسة.

كانت هذه خطوة أولى في تأسيس أولوس جنكيز خان، أما التطورات التي حدثت لهذه الإصلاحات فتمت بعد توحيد كل منغوليا تحت سلطته.



الأخوة الأعداء

«أطال الزمن أيها الأعداء منذ

أن فرقكم التعطش للدماء»

أ. بوشكين

لا يسعنا إلا أن نوافق على رأي الكثرة الغالبة من الباحثين الذين يؤكدون أن تيموتشجين قد أسس أولوسه وجمعه في عام ١١٨٩ ، مهما كان قد بلغ من العمر يرى خان جولين أنه كان «أولوساً صغيراً» على أعالي نهر كيرولين ، الذي لم يكن مأهولاً بالسكان [خان جولين ، ص ١٤] . ولكن بأي مقاييس في القرن الثاني عشر تم تحديده أكان الأولوس صغيراً أو مكتظاً بالسكان؟

حسبما تورد بعض المعلومات أنه كان لدى جنكيز خان ثلاث عشرة فرقة «كورين» ، وثلاثة حشود من الجيش ، أو بمعنى آخر جيش مكون من ثلاثين ألف شخص ، أول كورين مكون من رجال أمه ويلون وأقربائها ، والثاني من رجاله وأقربائه شخصياً ، أما من الثالث إلى العاشر فمن رجال وأقرباء عليه القوم من الكيات ، الثاني عشر والثالث عشر مكونان من رجال ومحاربي النبلاء من النويون [خان جولين ، ص ١٥] ، على كل لم يكن جيش جنكيز خان بتلك القلة العددية .

وجه الخان الجديد رسله ناقلين خبر تنصيبه ، لم يكن قيام الأولوسات وازدهارها في السهوب المنغولية بالشيء النادر في ذلك العهد ، فحتى عندما انهار أولوس إيسوغاي لم ينهض أحد لنجدة أسرته ، ولم يتعجب لِمَا جرى ، حتى فان خان المدان لإيسوغاي بتنصيبه في عقر داره (أولوسه) الكيريتي ، وكأثما ظهور خان جديد لا يعكر صفو أحد ، تغير الحكام وإعادة توزيع السلطة والواقفون عليها عند

النايمان والقبائل الأخرى في تلك الأزمنة كان من البدهييات لدى العامة، الأمر سيان خلف من سيخرجون للحرب، أو لمن يراعون الماشية، حتى لمن يدفعون الضرائب، إذا علمنا أن الصراع يدور بين «الخانات بالفطرة».

بعد أن علم فان خان بتنصيب تيموتشجين خاناً رد على رسل جنكيز:

- إنه إنصاف إجلاس، ابني تيموتشجين على عرش الخان، أيجوز أن يكون المغول بلا خان؟ لا تهدموا وحدتكم، ولا تخرجوا عن إجماعكم، ولا تقطعوا ياقة قمصانكم! (حسبما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١١١).

من الواضح أنه لم ينظر لجنكيز خان كابن تابع بل كمنافس، ومن المحتمل أنه طمع في نيل مكاسب جمة من ترقية المطرود، وسرعان ما تحقق ذلك.

توجب على جنكيز خان تقديم دعم ملحوظ لفان، وفي الواقع كافأه على كل أفضاله السابقة عليه، فلقد حدث أن وقع خصام بين فان خان وشقيقه الأصغر إيركي خارا، فأراد أن يشنقه، ولكن الأخير فر إلى إينانتش خان النايماني، قام إينانتش خان بالهجوم على فان خان وسحقه، فهرب إلى «الأنهر السبعة» في دولة كارا كيتاي؛ أي (دولة الصين السوداء)، وعندما لم يطب له العيش هناك واصل فان خان المسير شرقاً عبر أراضي الأويغور والتانغوت، «عاش في فقر مدقع . . . تغذى طوال طريقه على ما كان يملك ولا شيء سوى خمسة من الماعز يحلبها عند الحاجة ونياقاً ينحرها محتسباً دماءها». أسرع جنكيز خان لنجدته بحكم أنه راعيه القديم، وقسى عليه الدهر بالعموز والضعف، فالتقاه عند منابع نهر كيرولين، فأخذه في كورينه، وجمع له ما تيسر من متاع الدنيا، معداً له أمر معيشته مدة من الزمن، ولما كانت حياة فان منذ طفولته محاطة بالخطر بسبب الحروب الداخلية فقد قضى سبعة أعوام في أسر الميركيت وثلاثة عشر عاماً عند التتار، وبجانب ذلك بلاه الدهر

بالصراع الدائم على السلطة، قاتلاً أو مقتولاً، قام فان خان - الذي عانى في حياته ما عانى - بمساعدة جنكيز خان من جديد بإخضاع أغلبية الكيريت تحت سيطرته .

من البديهي أن تكون لجامو خا ردة فعل على وصول رسل جنكيز خان، بعد أن أصبح من الضعف بحيث لا يقدر على الحيلولة دون انفصاله عنه وتنصيب نفسه خاناً، لم يجرؤ جامو خا، الذي فقد كثيراً من نوكيهه، أن يعلن إدانة جنكيز على مخاتلته، فلذا قام باتهام الرسل بالدس بينه وبين أخيه (أندا) .

حسبما ورد في نصوص «التاريخ السري» لم يستقبل جامو خا ألتان وخوتشار رسل جنكيز خان، اللذين كانا من علية نويون القبيلة، ولهم الباع في تصعيد جنكيز خان على كرسي الخانية، كما ذكرنا سابقاً كان ألتان ابناً لخوتولا، أما خوتشار فقد كان ابناً لنيكون تاي تشجي، والذي في الحسب يكون عمّاً لتيمو تشجين، تراهن ألتان وخوتشار على مستقبل تيمو تشجين، على حسب رأي ب. راشتنيفسكي بالتحديد: إن انفصال تيمو تشجين عن جامو خا وانحياز جزء من الخانات «بالفطرة» إلى جانب تيمو تشجين يعني بداية الصراع من أجل خان واحد للمغول، ومن أجل بعث الخاماغ منغول أولوس [راتشيفسكي، ص ٤١].

وهكذا لم يقم جامو خا باستقبال ألتان وخوتشار بل قال لرجاله:

- أبلغوا على لساني خوتشار وألتان: «لماذا فرقتم بيني وبين أخي (أندا)، ولماذا تزجون بأنفسكم في أمورنا

ناطحاً واحداً منهما في بطنه

وناطحاً الثاني في أضلعه

ولماذا لم تقوموا بتنصيب أخي المتأخي عندما كنا معاً لا نفرق؟ ومن أجل أي غاية قمتم بتنصيبه على الخانية الآن؟ التزما الآن يا ألتان وخوتشار، وحافظا بقوة

يؤكد تشاموخا أن علية القوم من أقربائه قاموا بتنصيب تيموتشجين خاناً بمحض إرادتهم، وكلماته الأخيرة ليست موجهة للرسول، بل كانت تعني جنكيز نفسه، ويزعم تذكير أندا بأن من لا يخدمه بإخلاص من المستبعد أن يكونوا من أتباعهم المخلصين، وكما نصبوك خاناً هم قادرون على خلعك من هذا المنصب، من الواضح أن الأمل كان يحدو جاموخا من بذر الشكوك في نفس جنكيز خان تجاه القوم الذين جعلوا منه خاناً، وتعكير صفو الجو في داخل أولوس جنكيز خان.

من الجدير بالذكر أن وجهة النظر العلمية قد تأصلت بشكل قاطع، التي تشير إلى أن جاموخا كان نصيراً لـ «النبلاء القبليين»، أما تيموتشجين فكان يعبر عن مصالح أولئك الذين تطلعوا للانعتاق من ربة الأواصر القبلية، ويشجع التفرد والصفات الشخصية، يلفت جام ليگران نظراً لواقع «أن الذين انضموا لتيموتشجين عند لحظة الانفصال عن تشاموخا لم يكونوا صفوفاً مترابطة بقدر ما كانوا مجموعات متفرقة، وليس وفقاً لنظام الانضباط القبلي العشائري بل على ضوء القناعات السياسية الذاتية» [ليگران، ص ١٦٨]. وفي الوقت نفسه رأى كل من ف. ف. بارتولد وب. فلاديمير تسوف في شخص جاموخا حاملاً للتوجه «الديموقراطي» و«جنكيز كممثل لـ «ارستقراطية السهوب»، هل كان بالفعل جاموخا مناضلاً من أجل «وضع القبيلة الاجتماعي»، أو «تضامن زعماء القبائل»، وهل كان تيموتشجين «مناهضاً للتدرج القبلي ونظامه... ومناصرراً للقوم الذين هجروا أسلافهم وقبائلهم منضوين تحت قيادة سيدهم الجديد من أجل حياة أفضل» [راتشيفسكي، ص ٣٥-٣٦]، ولكن يبدو لنا أن هذا الموضوع مفتعل، وذلك لأن كل من اتبعوا جاموخا وتيموتشجين لا يمثلون هذه أو تلك من الفئات المعبرين عن مصالحها.

كان جاموخا يتحرق شوقاً لإيجاد مسوغ لإعلان الخصومة، وليس بالمستغرب أنه وجدها أولاً، حسب إحدى الروايات إن تايشار الشقيق الأصغر لجاموخا سرق قطعاً من الخيول من أحد أنصار جنكيز، كان الهجوم استفزازياً إلى درجة أن الحاضرين لم يجروا على مطاردة تايشار، ما عدا صاحب القطيع تشجوتشي دارمال^(١)، الذي هب في أثره وأدركه بالليل، فأرداه قتيلاً قاصماً ظهره، وبرواية رشيد الدين لم يسمح تشجوتشي دارمال لتايشار حتى ينهب القطيع، بل اختبأ في وسط القطيع وعندما اقترب منه تايشار أرداه بسهم، منتزِعاً قطيعه ثم عاد منتصراً، ولكنه عاد «يحمل في أذنان خيوله» رائحة الحرب.

وحينها وجد جاموخا المسوغ المرتجى ثاراً لمقتل أخيه الأصغر، فانقض على جنكيز، شارك في المعركة من كل طرف قرابة ثلاثين ألف مقاتل، دارت المعركة في دالان بالتشجوت المنطقة الواقعة بالقرب من جبل غوليغو بين منابع نهر سينغور وأعالي نهر أونون، كان جنكيز على علم بهجوم جاموخا «بعد ذلك وصلت إلى جنكيز المقيم في دغل غوليغو أبناء من مولكي توتاخا وبورولداي من قبيلة إيكيريس: لأجل مقتل أخيه الأصغر قرر جاموخا شن الحرب ضد جنكيز خان، تشجادارون بقيادة جاموخا جمعوا حولهما ثلاث عشرة قبيلة، مكونين ثلاثة حشود من المقاتلين، الذين توجهوا عبر مضيق ألوت تورخوات للانقضاض على جنكيز» [السيرة المكنونة، ص ١١٢]. كما كانت لدى جنكيز خان ثلاث عشرة فرقة «كورين»، وأعد جيشاً من ثلاثة حشود أيضاً، وتقدم للالتقاء بجاموخا، دارت المعركة في دالان بالتشجوت، والجدير بالذكر أن جاموخا استطاع صد جنكيز خان بل مضايقته، فاحتسى الأخير في الفجح التسيزيني في أعالي نهر أونون، وحينها قال جاموخا: «ها قد أحكمنا إغلاقه في الفجح التسيزيني في أعالي نهر أنون، وقبل أن يؤوب لداره أمر بقلي الأمراء من سلالة تشونوس في سبعين قدراً، وأما تشاخان

(١) ببعض المعلومات أن القطيع لم يكن ملكه بل كان ملك جنكيز خان ذاته.

أوفى أحد قواد جنكيز خان فقد اجتث رأسه وربطه بذيل فرسه» [المصدر نفسه، ص ١١٢].

حسب رأي رشيد الدين إن التايجوت كانوا من ضمن الذين حاربوا مع تشاموखा ضد جنكيز خان، «وفقاً لذلك في جانب جنكيز تجمعت ثلاث عشرة فرقة (كورين) من المقاتلين، وإن جيوش قبيلة التايجوت عند خروجهم للغزو وعبورهم من خلال تلال ألاووت توراوت، وعند وصولهم إلى منطقة تالان بالجيش ووقفوا قبالة جنكيز خان من كلا الطرفين، وحينها بدأ النزال، وعند ذلك جادت السموات العليا بقوتها اللامتناهية على جنكيز خان، وبقوة قوامها ثلاث عشرة فرقة (كورين)، استطاع التغلب على ثلاثين ألف فارس من جيوش الأعداء، إن سطوع شمس جنكيز خان بددت الأعداء كالغبار في الهواء . . . في تلك المنطقة وعلى ضفة النهر كانت غابة كبيرة حيث استقر جنكيز خان وأمر بوضع سبعين قدراً على النار لكي يسلق فيها أعداءه المثيرين للشغب الذين أسرههم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ٨٨]. أما الرواية الثالثة عن نتيجة المعركة فيوردها «شان أو تسين تشجان له»: «كان جيش تيموتشجين معداً، وحينها بدأت المعركة الكبرى في سهوب تالان بالجيش، لحقت الهزيمة جاموखा فولى هارباً مع ما تبقى من جيشه عبر جبلين في البداية، وفي منتصف الطريق لسد رمقهم طبخوا الذئب في سبعين قدراً» [يليو وغامبيس، ص ٣٥-٣٧].

وهكذا حسبما يروي «التاريخ السري» أن جنكيز قد تجرع الهزيمة، ولكن وفق رواية رشيد الدين و «شان أو تسين تشجان لو» فإن الهزيمة كانت من نصيب جاموखा، واستناداً على «التاريخ السري» سلق تشاموखा الأسرى من قبيلة التشنونوس، أما رشيد الدين فيؤكد أن الأسرى سلقهم جنكيز خان أحياء، وحسب «شان أو تسين تشجان لو» إن أعقاب جيوش تشاموखा من شدة الجوع أكلوا الذئب المسلوقة في سبعين قدراً.

يميل كل الباحثين إلى أن الحقيقة تكمن في شهادة «التاريخ السري» وجنكيز خان قد خسر معركة الكبرى الأولى، كما كتب ب. بيليو ول. غامبيس أن جنكيز خان انهزم، ولاحقاً كتب ل. غامبيس أن رشيد الدين ومؤلف «شان أو تسين تشجان لو» لم يستطيعا إخبارنا بأن جنكيز خان مني بالهزيمة [غامبيس، ص ٥٦]. يفترض ب. راتشيفسكي أن رشيد الدين على علم بهزيمة جنكيز خان، ولكن كمؤرخ رسمي لم يقدر على كتابة الحقيقة [راتشيفسكي، ص ٤٣]، وبالمناسبة على سبيل المثال يفترض أن الهزيمة في موقعة دالان بالتشجوتاخ حدثت ليس قبل عام ١١٨٤، يشير ب. راتشيفسكي إلى أن الهزيمة التي مني بها جنكيز خان على يد تشاموخا وبين الغزو المؤكد تاريخه لجنكيز خان على التتار في العام ١١٩٦ يمتد فاصل زمني قدره عشر سنوات، لا يعرف عنه إلا القليل، يلمح رشيد الدين إلى قسوة الأعوام العشرة قائلاً: «تعرض جنكيز خان في خلال هذه الأعوام لأنواع الصعاب المختلفة بين أسره من قبل قبيلة التايجوت وأقربائهم الآخرين الصغار والكبار، وبالقدر نفسه من قبل قبائل الجوريات والميركيت والتار وغيرهم، فوقع في الأسر لدى القبائل المختلفة، وتحرر من بين أيديهم بطرق ووسائل شتى، وذلك يعزي إلى أن سعادته ونعمته كانتا مسطرتين، الشيء الذي أدى إلى تقوية موقفه تدريجياً . . .» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٤٨]. يشير ب. راتشيفسكي بوضوح إلى أن «شيئاً من حياة جنكيز خان أصبح سراً مغلقاً ومحظوراً لدى المعاصرين والسلالات المتأخرة، والذي ألحق الضرر بسمعته كمسيطر على الكون، . [راتشيفسكي، ص ٤٥].

كما يفترض راتشيفسكي احتمال أن تيموتشجين قضى عدة سنوات بموافقة السلطات التسرينية في الأراضي التابعة للدولة التشجور تشجينية، وفي هذه الأثناء ونتيجة لهزيمة جنكيز خان أصبح فان خان طريداً كما ذكرنا آنفاً، ولكن السلطات

التسزينية كانت لها المصلحة في عودة فان خان إلى السلطنة، فقد قاموا بإيواء تيموتشجين كنصيره المحتمل، وساعده في تقوية وضعه والعودة إلى منغوليا، حدث هذا عام ١١٩٥، يعلل ب. راتشينيفسكي هذا انطلاقاً من رواية تشجاو خون الذي يؤكد أن جنكيز خان قضى في الأسر التسزيني عشرة أعوام [المصدر نفسه، ص ٤٦].

يسمح ب. راتشينيفسكي بأن فرضيته تحتاج إلى مزيد من الأبحاث، ولكن على الرغم من ذلك إلا أنها تحمل في طياتها بذرة العقلانية، ولكن لماذا لا يسرد لنا «التاريخ السري» مصدرنا الصادق الوحيد، الذي لا يميل إلى التحامل؟ انطلاقاً من نصوص هذا المصدر لا يفترض بجنكيز خان أن يلجأ إلى التشجور تشجيينين خاصة، وأن روح العداة قائمة بينهم وفق رواية «التاريخ السري»: فقد رأينا التناقض والحقائق المتضاربة في بداية سيرة حياة تيموتشجين، من الصعب الإحساس بالأمل في أن تسود الحقيقة يوماً ما، يمكن تأكيد حقيقة واحدة هي أن هزيمة واحدة كانت مريرة لدرجة أنها أقصت جنكيز مدة عن عرش الانتصارات، وأصبح مضطراً لجمع قواه لمواصلة الكفاح، في هذه الأعوام انضم إلى تيموتشجين جنكيز خان جمع من الشخصيات المؤثرة، من ضمنهم مونليك مع ابنه الساحر المشهور كوكوتشو، الذي - حسب معلومات جويني - أعلن أنه كبشير للسماء الخالدة وهب تيموتشجين وأبناءه كافة ما هو على وجه الأرض، كما انضم وقتها إلى جنكيز خان القائد تشجايي الذي سيكون مشهوراً فيما بعد.

على الرغم من الهزيمة، إلا أن الأنصار الجدد واصلوا الانضمام إلى جنكيز خان رويداً، وعند انضمام مجموعة معينة تسببت في إحداث موجة من الفرح العام داخل معسكره، فدعا إلى إقامة حفل بهذه المناسبة الذي تخللته موجة من التذمر وسط أقرباء جنكيز خان، وبسبب طريقة توزيع اللين حدثت خصومة بين

زوجات الخانات، وحينها ضرب أحد خدم المائدة، ومن ثم نشبت مشاجرة بين بيلغوتاي وبوري اللذين يسوسان خيول ساتشا بيكي المتسمي لقبيلة تشجوركي، الذي كان يحتفل حينها مع جنكيز خان، قام بوري بشج كتف بيلغوتاي بالسيف، ومهما حاول بيلغوتاي أن يقنع جنكيز خان قائلاً: «شيء غير ذي بال، مجرد هراء، ولا شيء يدعو لخطورة شخصي، وأنا محتفظ برباطة جأشي وروحي متسامحة، ولكن ما أخشاه أن ينشب القتال بين الأخوة الصغار والكبار خاصة، وأنهم تصالحوا لتوهم وتوحدوا يا شقيقي!» [السيرة المكنونة، ص ١١٢]. ولكن جنكيز لم يتمالك نفسه وأخذ فرعاً ضخماً وانجرف في الشجار، حينها لم يلجأ المتشاجرون لاستخدام السلاح، ولكنهم أوسعوا بعضهم بعضاً ضرباً بالأغصان التي استخدمت لخص اللبن المخثر (الكوميس)، وكل ما وقع تحت اليد، ساعتها تغلب جنكيز على كل من عاركه، ترك التشجور كيون المهانون والغاضبون ورجالهم مقر جنكيز وأولوسه، ولكن بعد برهة من الزمن تسامح الأقرباء حين أتت ساعة الانتقام من أعدائهم التار الذين ألحقوا بهم الإهانة سابقاً، الشيء الذي ساعد جنكيز خان على الوقوف على رجليه بعد الهزيمة، إن الوحدة في صفوف جاموخا لم تسد على الرغم من النصر الذي أحرزوه، وأخذ أלוسه بالتصدع أيضاً تدريجياً.



غزوات التتار

«يقال بمهارة الإبهام

يتمكن الرامي الماهر من صيد بطنين في آن واحد

حتى ولو على شاطئ شديد الانحدار»

لويسان دانزان

يحكى أنه إبان حكم دا دين (١١٦١-١١٨٠) قال إمبراطور دولة تسزين «إن التتار بلا شك مصدر بلاء دولتنا!»، حينها قامت جيوش الإمبراطور تنفيذاً لإرادته بحرب إبادة ضد التتار، حيث تم تنفيذ ما سمي بسياسة «تقليص عدد البالغين». يكمن جوهر هذه السياسة في أنه، خلال كل ثلاثة أعوام في الأجزاء الشرقية من منغوليا حيث يعيش التتار، تتوجه التجريدة العسكرية لإبادة التتار، كتب جاو خون: «في شاندون وخاباي وفي أي منزل لكائن من كان حيث يعيش الأطفال التتار، الذين تم شراءهم وتحويلهم إلى أقنان صغار، كلهم بأكملهم تم أسرهم وجلبهم بوساطة المحاربين» [التدوين الكامل، ص ٧٠]. عانت القبائل الأخرى أيضاً من هجمات تسزين، والحملات التنكيلية في داخل السهول، التي تعاقبت بوتائر زمنية منتظمة خلال الآلاف من السنين.

في عام ١١٩٥ حسب معلومات المصادر الصينية، قام عدد من القبائل المغولية، وبالأحرى فرقة مختارة من ممثلين لعدة أولوسات وقبائل منغولية وللمرة الثانية بتخريب المناطق الحدودية لدولة تسزين، تمكن الفيلق الاستكشافي لدولة تسزين من اللجوء إلى حدود الدولة المنغولية، وتمكنت الجيوش الجورجينية من بلوغ خالخين وبحيرة خولون نور، تم الاستيلاء على كثير من الغنائم، وعند عودة المنتصرين

النهابين هاجمهم التتار، وانتزعوا منهم ما غنموه، قام قائد الفيلق الاستكشافي لدولة تسزين بأمر التتار أن يرجعوا ما نهبوه فوراً، لكن التتار رفضوا الانصياع للأوامر، وحسب ذلك العهد فقد «تمردوا».

توجه الإمبراطور تسزين في عام ١١٩٦ في حملة تأديبية ضد التتار بقيادة فانيان سيانا، الذي هزم التتار على ضفاف نهر كيرولين، هرب قسم من التتار في اتجاه نهر أولدزا، وتم تعيين فصيل بقيادة فانيان أنغو لمطاردتهم، حسب رواية ل. غامبيس صدرت المقترحات من البلاط التسزيني لفان خان بالالتحاق بهذا الفصيل، ولما كان فان خان منذ مدة قليلة قد تمكن من تكوين أولوسه طالب جنكيز بالسماح له بالمشاركة في هذه الحملة، سواء أكانت هذه مطالبة أم اقتراحاً غير ذي أهمية، ما إن علم جنكيز خان بذلك حتى أعلن:

- أن التتار هم أعداؤنا القديمون، إنهم قتلة آبائنا وأجدادنا، لذلك لا نستطيع الامتناع عن المشاركة في الحملة ضدهم.

وقام بإرسال إشعار إلى فان خان: «حسب المعلومات التي تمتلكها فإن أल्पين الخانات فانغين تشينسيان يتعقب بأعلي نهر أولتشجا جماعات من التتار وقائدهم ميغوتشجين سيلتو، فدعنا ننضم إليه، فإننا نحن أيضاً ضد التتار، هؤلاء قتلة آبائنا وأجدادنا، تعال بسرعة يا فان أيها الخان ووالدي!».

رد فان خان الكيريتي قائلاً: «الحق معك يا بني، فلنتحد!» (حسب «السيرة المكنونة» ص ١١٣).

تمت دعوة التشجوركيين للانضمام إلى هذه الحملة، الذين كان التتار قد اعتدوا عليهم وأغضبوهم منذ زمن ليس بالبعيد خلال الشجار الذي حدث في أثناء الاحتفال، ولكن بعد أن انتظروهم مدة ستة أيام لم يحضر التشجوركيون، وعندها تحركت القوة المتحدة لجنكيز خان وفان خان نحو جيوش تسزين، وساروا في الاتجاه

الأسفل لنهر أولتشجي، تحصن التتار الذين وجدوا أنفسهم بين شقي الرحي في دغلين، ولكن تم طردهم من هناك بواسطة المغول والكيريت، وقد لقي مغوتشجون سيلتو مصرعه، قام المنتصرون بنهب قطعان الماشية والأغراض التي تخص التتار، التي عثروا من ضمنها على مهد فضي وبطانية محاكاة باللآلي، كتب فيما بعد رشيد الدين: «بما أن وجود مثل هذه الأغراض وسط المغول كانت نادرة، فإن هذا الحدث عدّ مهما ولاقى شهرة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٩٣]. كانت هزيمة التتار على نهر أولدزا - كما يؤرخ ل. غامبيس في مايو أو يونيو عام ١١٩٦ [ل. غامبيس، ص ٥١] كان من بين الأسرى الذين تم جلبهم لجنكيز خان صبي يعرف باسم شيكي خوتوكتو، أصبح فيما بعد كبير قضاة دولة جنكيز.

تفضل فانيان سيان على جنكيز خان بلقب جاوتخوري، أي التي تعني اليوم «تشجاوتاو». لقب موظف قائد حربي، الذي يقع على عاتقه تجنيد السكان المحليين، (تشجاو) في خدمة البلاط التتار في حالات التمرد والفوضى على الحدود والتنكيل بالمذنبين والعصاة (تاو)، وتقلد جنكيز خان في الوقت نفسه منصب قائد لمجموعة جيوش «تسزو»، هذه كانت لدى الكيدانيين، كما كانت لدى التشجور تشجينين، جمعت هذه الجيوش في المناطق الحدودية من السكان المحليين من قبائل عدة، وعملت بشكل أساسي على حراسة الحدود، فإذا نظرنا إلى الأمر على النمط الأوروبي فإن رتبة جنكيز خان «جاوتخوري» من البديهي أن تعادل رتبة قائد.

يفترض ل. غامبيس [غامبيس، ص ٥١] أن فان خان منح لقب فان من يد فانيان سيان، إنما بشكل مباشر عن إمبراطور تسزين، من هنا ومستقبلاً برز اسمه فان خان (أونغ خان) الذي كان ذا شهرة طبقت الآفاق وتسلسل إلى أوروبا وأبرزت إلى الوجود «الحاكم الأكثر مسيحية في آسيا الوسطى يوحنا النوراني». من غرابة

هذا الاسم الجديد تم ذكره في «يوان شي»، «فان خان الذي اسمه تولي تم إسباغ لقب فان عليه من قبل تسزين، كلمة فان في اللهجة المحلية كانت صعبة النطق ولذلك من لقب فان تم تبديله إلى فان خان» [يوان شي، الفصل الأول، ص ٣] يفترض ب. راتشيفسكي أن لقب فان الأميري، الذي يخص البلاط التسزيني لم يكن قد منح لفان خان بسبب حملة ضد التتار، بل بفضل توطيده لسلطته في أوسه والاعتبار المتزايد لشخصيته في السهول المغولية [راتشيفسكي، ص ٤٩].

يعطي الكتاب المعاصرون الصينيون أهمية كبيرة لحصول جنكيز خان على اللقب التسزيني «مستخدماً لوضع الموظف المعتمد على قرار البلاط» فإن جنكيز، حسب رأيهم، قد تمكن من قيادة المغول ونبلاء القبائل الأخرى [يوان تشاو شي، ص ٧٢] كان الحصول على لقب من دولة مجاورة وقوية في ذلك الوقت شرفاً عظيماً للحاكم الذي يحصل عليه. مورست مثل هذه التشريفات من قبل الصينيين تجاه جيران من الأغراب، حسب النظرة السائدة في ذلك الحين برزت مثل هذه الاعترافات السياسية العليا» في أعين الكثيرين من أبناء جلدتهم مثل نوع من الطموح إلى السلطة، كان حصول جنكيز على ذلك اللقب في وقت موات للغاية، على الرغم من أننا نعلم جيداً أنه في ذلك الحين كان بعيداً من أن يكون المغول كافة قد خضعوا لسلطة جنكيز خان. قسم كبير منهم كان يتبع لتشاموخا، وحتى الذين كانوا يعيشون في أولوس جنكيز خان لم يستقروا على رأي لهم، ومن ضمنهم كان ساتشا بيكي والتشجوركية أي أبناء عمومة جنكيز خان.

إن السهم الذي أطلقته يد رام ماهر قد أصاب هدفه الأول التتار، وجلبت لجنكيز خان الرتبة التشجوتشجينية، وأصاب أيضاً الهدف الثاني وهو التشجوركيين، فإنهم وساتشا بيكي قد أعطوه المسوخ القانوني للقضاء عليهم بعدم خروجهم للغزو ضد التتار مع جنكيز خان، وكانت هذه خطوة مهمة في طريق

التخلص من أحد «الخانات الفطرين»، ويتعبير أدق أحد المنافسين الخطرين . إن الشجار الذي وقع في الاحتفال مع التشجوريك، وتدخل فيه تيموتشجين شخصياً، يحمل في طياته جذوراً عميقة، حسب الأسطورة. إن جنكيز أراد أن يبرز قوته ليس للتشجوريكين فقط بل لإخوته، تمكن بيلغوتاي، من خلال الشجار بيده الشمال من إجلال تيموتشجين على الفرس، عمل أي شيء باليد اليسرى وعلى سبيل المثال إعطاء شيء ما، يعد نوعاً من عدم الاحترام.

وجزاء على إبداء عدم الاحترام، حتى ولو كان في ظروف استثنائية كظرف الشجار، قدم وضعه في الحبس . تفاخر بيلغوتاي وخاسار أمام أخيهم بقوتهم ومهارتهم، حسب الرواية فإن جنكيز خان كي يضعهم في مكانهم الصحيح أعلن: «سأقمع كبرياءهم!» انتحل هيئة رجل عجوز بسيط ممسكاً بقوس طويل أصفر، واقترب منهم قائلاً: «سأبيع هذه القوس!» عندها سأل بيلغوتاي وخاسار:

- من هذا الشخص؟ من أين أتى؟ لم نر مثل هذا من قبل .

- أنا إنسان بسيط أتعيش من بيع الأقواس، وأود أن أعرف هل سيكون قوساً جيدة إذا ما تم شده؟

لم يستطع كل من بيلغوتاي وخاسار أن يشدا القوس، وهنا قام ذلك العجوز، الذي استحال إلى شخص شائب ركباً على بغل أغبر ذي غرة بيضاء على رأسه، بوضع سهمه الذهبي، وأطلقه بقوة، بحيث انفلقت الصخرة، «ألستم الأخوة الصغار للحاكم العملاق واللذان يطلق عليكمارامي السهام الماهر خاسار وبيلغوتاي القوي؟

يقولون إنه:

عوضاً عن الحديث الفضفاض

يكفي للسانك أن تعض

نطق بكلماته هذه ومضى لحال سبيله، عندها زعر الأخوان وقالوا لبعضهما: "لقد كان هذا بحق حاكم سلطان!" "ومن يومها" "عضا على لسانهما" [ألتان توبشي، ص ١٠٦].

جاء دور التشجوريك والذين هم أقرباء بالدم، وكان مؤسس فرع التشجوريكي سورخاتو تشجوريكي ابن أوكين بارخاخا الابن الأكبر لخابولا، أي ابن عم شقيق إيشوغاي، كان سورخاتو في زمانه قد قام بانتقاء أكثر الأشخاص المبرزين من المهرة، الذين التقى أحفادهم في ذلك الوقت جنكيز خان، لقد كانوا جميعهم أشخاصاً شجعان، يصعب ترويضهم، وذوي همة، لقد فرضوا على الآخرين إجلالهم، إنهم أنفسهم الذين ضربت نساؤهم خلال الاحتفال. سائس جنكيز خان وأحد رجالهم جرح بيلغوتاي، في بادئ الأمر تبدى كأثماً وجد طريقاً إلى المصالحة، وأكثر من مرة برز شعار «دعنا نعيش في اتفاق»، لكن التشجوريكي لم يوافقوا على المشاركة في غزو جنكيز خان التتار، بل أكثر من ذلك، وحسب رواية «التاريخ السري»، وخلال غياب جنكيز عندما كان مشغولاً بغزو التتار، هجموا على مقر قيادته (أوروك)، فقتلوا عشرة ونهبوا خمسين آخرين، فساءل جنكيز خان في ثورة من الغضب:

- هل يجوز أن نغفر للتشجوريكين أفعالهم؟ فمن المعروف أنهم هم المسؤولون عن ضرب شيكيورا السائس خلال الاحتفال في غابة البلوط على نهر أونون، أرجعنا إليهم لاحقاً بعد اعتذارهم بكل الود والتعقل كلنا السيدتين خوريتشجين خاتون وخوورتشين، وعندما عرضنا عليهم المشاركة في غزو التتار هؤلاء الأعداء القديمين قتلة آبائنا وأجدادنا، يحضروا للمشاركة، وقد انتظرناهم ستة أيام، وبهذا الأمر فإنهم، وعلى مرأى من الأعداء، صاروا لنا أعداء (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١١٤).

هكذا صار مصير التشجوركيين محتوماً، فإنهم وحدهم لن يستطيعوا مواجهة جنكيز، وحلفاؤهم تخلوا عنهم، وجاموخا الذي كان غاضباً عليهم لا يود مساعدتهم، ولذلك قام جنكيز وبكل قسوة بتصفية حسابه مع أقربائه «فقد صفى كل القبيلة وسلالتهم كافة» [المصدر نفسه، ص ١١٦] ومن تبقى منهم حياً «جعل منهم أرقاء بالتوارث».

نجد اختلافات في بعض التفاصيل المهمة بين «التاريخ السري» ورشيد الدين. طبقاً لـ «التاريخ السري» قام جنكيز بغزو التشجوركيين، هرب زعمائهم ساتشا بيكي وتايشو، لكن تم القبض عليهم وتسليمهم لجنكيز، الذي أمر بإعدامهم [السيرة المكونة، ص ١١٤]. أما حسب رواية رشيد الدين فإن جنكيز لم يغضب بتاتاً على التشجوركيين، بل نقل إليهم جزءاً من الغنائم الترية، وفي الطريق تعرض فريق من رجال جنكيز للهجوم من قبل التشجوركيين، حيث أدى إلى تعرضهم للغزو وقت هزيمتهم، ولكن تمكن ساتشا بيكي وتايشو من الفرار [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٩٣-٩٤] يفترض بـ راتشيفسكي لأسباب وجيهة أنه في البند ١٣٩ من «التاريخ السري» في جملة «هزم أشخاصاً مشهورين وصفى حتى اسمهم وسلالتهم». توجه إدانة مستترة لإبادة جنكيز لأهله الأقربين [راتشيفسكي، ص ٥١]. والجدير بالذكر أنه جاء في كتاب «يوان شي» ذكر أن رجال جنكيز لم يهاجموا على الإطلاق من قبل التشجوركيين، بل من قبل النايغان [يوان شي، الفصل الأول، ص ٣].

فيما بعد وحسب إفادات رشيد الدين صار جنكيز وفي محاولة للنيل من فان خان يؤكد مطلقاً بأنه قتل ساتشا بيكي وتايشو من أجل فان خان «لأجلك قد قتلت أخي الأكبر، وقضيت على الأصغر، فإذا سألوني من كانوا فإنهم ساتشا بيكي، الذي كان أخي الأكبر وتايشو كوري الذي كان أخي الأصغر» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٢٨].

كل هذا قصد منه المراهنة المطلقة . كان ساتشاي بيكي منافساً حقيقياً لجنكيز ، إضافة إلى أنه كان يعيش معه في أولوسه نفسه ، وتم العثور على مسوغ للتخلص منه ، وتم إبعاده . كل الباحثين في السيرة الذاتية لجنكيز خان يتفقون على أن «هذه كانت خطوة مهمة في طريق رفعة تيموتشجين» [يوان شي ، ص ٧٣] ، لأنه بهذا قد صفى أقوى فرع من سلالته ، يفترض ب . راتشيفسكي أن مقتل زعماء التشجوركيين كان «إجراءً سياسياً» القصد منه «التخلص من الأحقاد القديمة» [ب . راتشيفسكي ، ص ٥١] ودأب جنكيز خان دوماً على الحط من شأن النبلاء المغول القدماء وإحالتهم إلى رتبة التوكير العاديين .

في أواخر القرن الثاني عشر في منغوليا كانت حفنة من الزعماء الأقوياء موجودة ، الذين كانوا يطمحون إلى السلطة ، إضافة إلى أن جنكيز خان كان هناك فان خان الكيريتي^(١) ، وجاموخا مع بقية المغول ، الذين ما زالوا لم يعترفوا بزعامة تيموتشجين جنكيز خان ، كذلك البقية الباقية من حلفائهم من خانات النايان والتايتشجوت والميركيت ، إن ثلاثة من زعماء منغوليا الوسطى وهم جنكيز خان وفان خان وجاموخا على أقل تقدير كانوا طامعين بشكل واقعي بالسلطة ، حسب التقييم الذي يعطيه ل . غامبيس «فان خان كان حاكماً نشطاً ، ذا مزاج متقلب وغير حاسم ، لكنه كان مخاتلاً وقاسياً» [غامبيس ، ص ٣١] ، «لم تكن لديه المعطيات ليصبح زعيماً لإمبراطورية من الرحل» . هذا ما نعرفه الآن ، ولكن في ذلك الوقت بعد عام ١١٩٦ لم يكن ذلك ميسوراً .

علماً بأن جنكيز خان كان في ذلك الوقت من ضمن أتباع فان خان ، وحسب تقدير دولة تسزين فإن فان خان كان أكثر قادة منغوليا الشرقية قوة .

(١) يستتج ل . غامبيس أن الكيريت آنذاك كانوا القوة الأساسية في منغوليا الشرقية [غامبيس ،

في الأعوام ١١٩٧-١١٩٨ بالتقريب قام فان خان بغير صحبة جنكيز خان بغزو الميركيت وهزمهم، لم يعط أي شيء لتابعه (وابنه) جنكيز مما تم أخذه من الغنائم، لا بد أن هذه الواقعة وضعت بداية للفتور الجديد في العلاقة بينهم، في عام ١١٩٨ قامت جيوش التسزين بغزوة جديدة لمنغوليا الشرقية ضد الخونغيرات والقبائل المغولية الأخرى، ونهبت السكان المحليين، لكن بعد عام ١١٩٨ بدأت دولة تسزين، وبسرعة شديدة، تفقد سلطتها على تلك الأنحاء، وساعد هذا جنكيز خان في السيطرة على الأرجاء الشرقية من منغوليا.

بدأت في غرب منغوليا تحدث وقائع مهمة أيضاً فيما يختص بكونها ساعدت على انتصار جنكيز خان، بعد موت إينانتش خان النايمني تصدعت الدولة إلى أولوسين، فأصبح بويوروك خان يدير الجزء الجبلي من البلاد في ألتاي، أما تايان خان فقد أدار الأجزاء السهلية من البلاد على نهر إرتيش الأسود، في الأعوام ١١٩٨-١١٩٩ انهال فان خان و جنكيز خان وجاموخا بتوحيد قواهم على بويوروك خان، وكما يفترض ب. راتشيفسكي من المحتمل بالموافقة غير المعلنة من قبل تايان خان، تم القضاء على بويوروك بالقوة المشتركة للميركيين والمغول، وهرب إلى أعالي نهر ينيسي (على كام)^(١).

في هذه الغزوة يبدو أن فان خان، ولأول مرة، قرر الانفصال عن جنكيز، وعندما عاد المنتصرون تعرضت لهم إحدى فرق النايمن وسدت عليهم الطريق، هياً كلاً من جنكيز خان وفان خان للتأهب الحربي، لكن عندما حل الليل وقرروا

(١) حسب إفادة «يوان شي» أن بويوروك خان وجماعته من النايمن قبل بداية المعركة «استدعوا الساحر لكي يقدم قرباناً ويأتي بالرياح والثلوج حتى يستغلوا ذلك في مهاجمة [جنكيز خان وفان خان] لكن عندما هبت الرياح فإنها أخذت تهب في الاتجاه المعاكس وانقلبت عليهم» سقط ثلج كبير وانهمز النايمن [يوان شي، الفصل الأول، ص ٥؛ السيرة المكتونة، ص ١١٧].

المبيت دون أن يكسروا الصفوف، وذلك حتى يبدأوا الحرب في الصباح الباكر، في تلك الليلة قام المتآخون فان خان وجاموخا بخيانة جنكيز خان، لم يطفشوا النيران، وانسحبوا خفية من مواقعهم تاركين جنكيز وحده في مواجهة خصم قوي، مضميرين بذلك أن يقضوا عليه، وفي الصباح فقط علم جنكيز خان بذلك المكر الذي دبره له حلفاؤه.

- يبدو أنهم دبروا لإيقاعنا في مصيبة أكبر!

وبسرعة غادر المعسكر الحربي متراجعا قبل الدخول في حرب مع النايما.

عندما كان الحلفاء يتراجعون بعيداً أخذ جاموخا يوغر صدر فان خان على جنكيز خان:

- يبدو أن الأمر واضح، فإن شقيقي المتآخي (أندا) تيموتشجين منذ زمن يتبادل الرسل مع النايما، فلماذا لم يحاول اللحاق، أيها الخان! لقد أثبت أنني أهل الثقة، وشقيقي المتآخي صار مرتدًا!

لكن صار النايما في الصباح يتعقبون ليس جنكيز خان فحسب، بل فان خان، وبضربة مفاجئة خربوا معسكره المتنقل وأسروا عائلة ابنه سانغوم^(١)، وأخذوا كثيراً من الماشية والناس، استغل أبناء توختوبيكي الفوضى، فقاموا بالهرب، وهم الذين كان قد أخذهم على شكل رهائن، وأجبرهم على أن يسيروا معه بعد غزوته الناجحة على الميركيت في العام الماضي.

دخل الكيريت في صراع مرير مع النايما، أصبحت الحالة تستدعي وجود حلفاء، فأرسل فان خان على وجه السرعة رسله إلى جنكيز خان بالخبر الآتي: «لقد أسر النايما زوجاتي وأبنائي، ولذا فلنني أرسل إليك يا ابني طالباً منك

(١) في واقع الأمر أن هذا ليس باسم، وإنما، وتعني سيانغون بالصينية وزيراً أو وزيراً أولاً.

فرسانك ، فليعملوا على إنقاذ شعبي!»، وصل فرسان جنكيز (النوكير) في الوقت المناسب وتغلبوا على النايما والكيريت، جرح حصان سانغوم، وهو بنفسه كاد أن يقع في الأسر، لكن المغول هاجموا النايما والكيريت وهزموهم، وأعادوا إلى فان خان أمواله ورجاله، برز خلال المعركة بشكل واضح أربعة من فرسان جنكيز (النوكير) هم بوورتشو وموخالو وبوروخول وتشيلاون، قال جنكيز خان لفان خان: «لقد أرسلت أربعة من قادة جيشي، لقد حاربوا وخلصوا شعبك وأعادوه إليك، ومن جديد أعادوا تأسيس دولتك!». .

فهل يا ترى تحرك ضمير فان خان، أم أنه أضمر مكيدة جديدة وهذا أمر أكثر احتمالاً، فإنه قرر أن يورث أولوسه وإدارة الكيريت إلى جنكيز خان:

- وهكذا فإن أولوسي المفقود قد أعاده إلي مرة شقيقي المتأخي يسوغاي باتور، وفي المرة الأخرى فإن أولوس المحتضر أنقذه لي ابني تيموتشجين، الأب والابن أعادوا لي الأولوس المفقود، لأجل من كانوا يكدحون؟ ولمن أرادوا أن يهبوه؟ من الواضح أنني قد صرت هرماً، ولقد بلغت من الشيخوخة إلى حد أنه قد أن الأوان لأرتفع إلى القمة، وعندما ارتقي القمة في أرذل العمر، وحينما أصعد إلى الصخرة، فإلى من ستؤول إدارة أولوسي؟ أشقائي الأصغرون أشخاص عديمو الفائدة، أبنائي وجودهم كعدمهم، الوحيد فيهم هو سانغوم، فهل يا ترى أجعل من تيموتشجين أخصاً أكبر لسانغوم؟ هنا سيكون لدي ابنان، ومن بعد ذلك إلى الراحة!

وافق جنكيز على التبري، وعلى ضفاف نهر تولا تم أداء الطقوس المتبعة وأقسم بعضهم لبعض:

على العدو بسرعة ضارين

بجميع قوانا كاليد الواحدة

أو حيوان متوحش نحاصره

ستوكل فقط ، بعضنا على بعض ولذلك :

الحية ذات الأسنان

تتوعدنا بالزور

نحن لا نسمع قول الزور

مع الصديق سنلتقي

وللصديق نهب ثقتنا

الحية ذات الأنياب

تتوعدنا بالضرر

الضرر نرمي به

نستمع للصديق

وللصديق نهب إيماننا

[حسب «السيرة المكنونة»

ص ١٢٥-١٢٧].

لكن جنكيز خان الماكر لم يعد منذ زمن بعيد يؤمن بالكلمات ، فاقترح أن يؤكد على الحلف الجديد بالزواج ، أي بزواج ابنه الكبير تشجومشي بانية فان خان الأخت الصغرى لسانغوم تشاور بيكي ، وزواج سوساخو ابن سانغوم وحفيد فان خان بانيته خوتشجين بيكي ، لم يرق للكبيريت ، وبشكل خاص لسانغوم - الذي هو الأخ الجديد لجنكيز خان - هذه المصاهرة : إنهم لم يودوا أن يدخلوا في صلة قرىبي مع جنكيز خان ، حتى وإن كانت من أجل أهداف فان خان ، ولذلك بدأوا في إظهار معارضتهم ، إن جنكيز الذي منذ البداية لم يستطع أن يثق ثقة كاملة حتى بفان خان ، إن تبنيه من قبل الخان الكيريتي أمر لا قيمة له ، ولكن ظاهرياً لم يبد أي امتعاض

«وداخلياً بدأ يحس بالبرودة تجاهه فان خان ونبليخا سانغوم» [السيرة المكنونة، ص ١٢٧] من المحتمل أن هذه الأحداث جرت بعد ذلك بقليل، حسب إفادة «يوان شي»، فكرة الدخول «مع جنكيز خان في علاقة قريبي ومن ثم قتله» ترجع إلى عام ١٢٠٣ [يوان شي، ص ٧٦].

عدم التناسق في سيرة تيموتشجين جنكيز خان الراجعة لحقبة حياته الأولى كافة، تعود إلى نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر.

يرجع رشيد الدين هزيمة التشنجوريك إلى الأعوام ١١٩٦-١١٩٧. أما «التاريخ السري» فيرجعها إلى العام ١٢٠١، غزوة فان خان على الميركيت حسب رشيد الدين حدثت في عام ١١٩٨، وحسب «التاريخ السري» ترجع إلى ١٢٠٢، الغزوة المشتركة ضد بويوروك خان النايان يرجعها رشيد الدين إلى عام ١١٩٩، أما «التاريخ السري» فيرجعها أيضاً إلى عام ١٢٠٢.

هكذا من المحتمل أن فان خان وجنكيز خان قاما بغزوتهما المشتركة ضد التايتشجوت في عام ١٢٠٠، ولمساعدة تايتشجوت هب الميركيت لنصرتهم، حدثت المعركة على ضفاف نهر أونون، ويبدو من مجمل الأحداث أن جنكيز خان واجه التايتشجوت وحده، كان فان خان في هذا الوقت على ضفاف نهر أرغوني، حيث كان يحارب الميركيت، الذين تعقبوا جاموخا [غامبيس، ص ٦٠] في تلك الآونة التي كان فيها فان خان يحارب مطاردي جاموخا من الميركيت، قام جنكيز بتحريك قواته على التايتشجوت، مطارديه القدامى، الذين عرفوا ألا يتوقعوا خيراً من جنكيز، ولذلك تأهبوا للقتال، في هذه المعركة لم يستطع أي من الطرفين أن يهزم الآخر في قتال مرير حتى حلول الظلام، وقضى المقاتلون ليلتهم على أرض المعركة.

من المحتمل أن تكون الحرب مع التاييشجوت الواقعة الوحيدة التي شارك فيها جنكيز شخصياً، وكم كانت رغبته عظيمة للانتقام من التاييشجوت بسبب الظلم الذي ألحقه به خلال أسره في شبابه، أصيب بجرح في شريان عنقه وفقد الوعي، لم يقدر الذين كانوا حول جنكيز على إيقاف نزيف الدم، كان تشجيلي يمتص الدم المتخثر، وجلس بجوار الخان الجريح، ولم يدع أي واحد غيره يقوم بهذا العمل وفمه مخضب بالدماء، بعد منتصف الليل أفاق جنكيز خان أخيراً وطلب ماء للشرب، لم يجد تشجيلي أي شيء بالقرب، قام وحده خلسة بالتسلل إلى مقر التاييشجوت، وبصعوبة عثر على قليل من اللبن المحمض، عندما بدأ جنكيز في تقيعه لتركه له وحده والذهاب إلى معسكر العدو حيث كان بالإمكان القبض عليه ومن ثم معرفة حالة جنكيز خان المتردية، لكن تشجيلي المتفاني سوغ فعله بأنه ذهب خلسة، وذلك حتى في حالة القبض عليه يبدو لهم أنه مرتد فر إليهم:

- لقد كنت مؤمناً بأنهم سيصدقونني لو حدث ذلك، وأعطوني ملابس وقلوني في صفوفهم، ولكن ألم أرجع إليك على أول فرس وقعت في يدي؟

في الصباح اكتشف مقاتلو جنكيز خان أن التاييشجوت قد تراجعوا تاركين في معسكرهم كثيراً من الرجال، كان الطاعن في السن سورغان شيرا من بينهم، وهو الذي أنقذ حياة جنكيز خان الفتى يوماً ما، ورامي السهام الماهر تشجابي، الذي حامت حوله الشبهات بأنه هو الذي أصاب جنكيز، عند ذلك اعترف تشجابي بأنه من على ذلك الجبل، ومن الجهة التي أصيب منها جنكيز بالفعل كان هو الذي يرمي بالسهم، عندها قدر جنكيز صراحته وعفى عن تشجابي:

- العدو اللعين دائماً يضمّر في داخله نزعته الفتاكة وعداوته وليكتّم أقواله، فماذا نقول عن هذا؟ فإنه لا ينكر عداوته ولا نزعاته الفتاكة العدوانية فحسب، بل يسلم رأسه، فإنه جدير بأن يكون رقيقاً.

وهكذا ظهر واحد في معسكر جنكيز من الذين سيكونون في المستقبل من قادة

جيوشه المجيدين .

تم تنظيم مطاردة للتايتشجوت الفارين ، ومن أدركه نوكير جنكيز خان دفع الثمن غالباً لقاء الإهانات التي تلقاها الخان في صباه «قتلهم وذر رمادهم» ، «حتى أبناؤهم وأحفادهم» [المصدر نفسه ، ص ١٢٠] ، ومن عفى عنه أخذوه وضموه للأولوس ، قبض على تارغوتاي كيريلتوخا رجاله بأنفسهم ، وكادوا أن يسلموه لجنكيز ، لولا خوفهم من أن تسليمهم إياه للخان ؛ أي خيانة حاكمهم فيشرون الشك لدى جنكيز مستقبلاً في إخلاصهم ، وهذا ما دفع بهم إلى الاستسلام بدونه .

- لقد قبضنا على تارغوتاي كيريلتوخا وجلبناه معنا إلى هنا ، ولكن لم تقو على الغدر به وتسليمه إلى الموت ، فنحن نذكر أنه حاكمنا الفطري ، فلذلك أطلقنا سراحه ، وحضرنا لكي نهب قوتنا إلى جنكيز خان .

- حسناً فعلتم بعدم تسليمكم لخانكم ، ولم تخونوه ، وإلا لكان لزاماً علي أن أعدمكم مع كل جنسكم ، مثلكم مثل الحاشية التي رفعت يدها على خانها الفطري (حسب ما ورد في «السيرة المكونة» ص ١١٨-١١٩ ، ١٢١) .

هكذا أوقع أول هزيمة بالتايتشجوت ، ولكن لم يهزم نهائياً .

في عام ١٢٠١ حدثت واقعة مهمة ، فقد قررت القوى المغولية وغير المغولية الاتحاد للحرب ضد جنكيز خان ، حسبما ورد في «التاريخ السري» : «في عام الدجاجة (عام ١٢٠١) في حرش ألخوي بولاخ تجمعت القبائل الآتية في مؤتمر [سايم] . الخاداغيون والسالتشجوتيون مع بعض ؛ خاداغين بقيادة باخو تشوروشي ، وتشيرغيداي باتور على رأس قبيلة خاداغين سالتشجوت ، الذين اتفقوا مع دورين التتار ، خاتشجول بيكي على رأس قبيلته مع دورين ، التتري التشي والتتري تشجاليك بوخا مع رجالاتهم ، توغي ماخا على رأس قبيلة

إيكيريس، ديريك إميل ألخوي على رأس قبيلة أونغيرات، تشويك تشاخدان على رأس قبيلة غارلوس، غوتشوت وبويروخ خان من قبيلة النايان، خوتو بن توختو بيكي من قبيلة ميركيت، خودوخا بيكي من قبيلة أويرات، تارغوتاي كيريلتوخ من قبيلة التايتشجوت، خودون أورتشان وأورتشو باتور وغيرهم من قبيلة التايتشجوت، بعد أن تباحثوا اتفقوا على تنصيب جاموخا من قبيلة التشجاتشجوراد في مرتبة الخان، وقاموا بأداء القسم على ذلك، الذي يتم خلاله ضرب فرس ومهرة بالسيف وهما راكضان، ومن هناك ارتحلوا إلى أسفل نهر أوغوني وقاموا بطقوس تنصيب جاموخا في منصب غورخان على قمة الجبل النامي بالأشجار الكثيفة عند مصب نهر كان مورين في نهر أرغوني، بعد انتهاء طقوس التنصيب في رتبة غورخان تعاهد الجميع على الغزو ضد جنكيز خان وفان خان، في هذه الآونة كان جنكيز خان على جبل غوريلغو عندما حضر خوريداي من قبيلة غورلوس وأنبأه عن المعاهدة بالحرب، عندما علم جنكيز بهذا النبأ قام بإعلام فان خان، الذي حرك جيوشه على الفور، وحضر إلى جنكيز خان» [السيرة المكونة، ص ١١٦].

نقرأ في «يوان شي»: «في هذا الوقت أبدت قبيلة خوننتسزيبلا رغبتها في الخضوع [لجنكيز خان]، قام خاسار - وهو غير عالم بذلك - بتبهم، عندها قامت خوننتسزيبلا بالخضوع لجاموخا مع كل من قبائل دولوبان وأيتسللاس والتتار وسانتجيو وعقدوا مؤتمراً على نهر تسزيانخا وأقروا تنصيب جاموخا على العرش مجتمعين، وأسبغوا عليه لقب تسزيو أرخان» [يوان شي، الفصل الأول، ص ٣-٤أ] يكتب «شان أو تسين تشجان لو» تفاصيل هذه الواقعة كما يلي: «بعد ذلك قامت قبائل خاتا تسزين وسانتشجيو ودولوبان والتتار وخوننتسزيبلا بعقد مؤتمر عند منابع نهر ألابي، وفقاً لتقاليد طقوس القسم، فقد شطروا عند الخصر حصاناً أبيض، وأبدوا رغبتهم في مهاجمة جيشنا وفان خان» [بيلو وغامبيس، ص ٣٩٢-٣٩٣] ولم يرد ذكر أي شيء عن انتخاب جاموخا غورخاناً.

يخبرنا رشيد الدين عن تكوين تحالف في أكثر من مرة: «في ذلك الوقت الذي كانت فيه الغالبية من قبائل التايتشجوت للسبب الأنف الذكر مهزومة، وقسم منهم ولى هارباً، وهي قبائل كاتاكين وسالديجوت الذين اجتمعوا مع بعض، عقد معهم اتحاد قبائل دوربان والتتار والكونغرات، وأدوا قسماً، واعدن فيه بعضهم بعضاً بحلف لا يوجد أقوى منه وسط المغول، القسم يتلخص في الآتي: أن ينحروا بضربات السيف حصاناً وثوراً وكلباً ذكراً قائلين خلال ذلك: "يا إله السماء والأرض! استمع لأي قسم يؤدي هؤلاء الذكور، هم جذور والأصل لهؤلاء الحيوانات، فإذا جئتنا بكلمتنا ولم نبر بوعدنا فدعنا نكون حيوانات مثلها تماماً"، بهذه الطريقة يقسمون على أنهم عقدوا اتحاداً بعضهم مع بعض وسيحاربون ضد جنكيز خان وأون خان» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١١٧] يلي ذلك «في العام الذي يعدّ عام الدجاجة الذي يبدأ بشهر جمادى الأولى ٥٩٧ هجرية (فبراير ١٢٠١) عندما تعرضت قبيلة كونغيرات للهجوم فقدت قائدها، فانضمت إلى جاموكي ساتشان، وبعد أن تباحثوا مجتمعين مع قبائل إيكيراس وكورالاس ودوربان وكاتاكين وسالديجوت عقدوا اجتماعاً في منطقة على نهر غام، ونصبوا دجاموكي على عرش غورخان، لفظة غورخان تعني حاكم السلاطين والقياصرة، عندما أصبح غورخان عزموا على بدء الحرب ضد جنكيز خان» [المصدر نفسه، ص ١١٩-١٢٠].

وهكذا في عام ١٢٠١ (لأول مرة تتفق التواريخ في كل من «التاريخ السري» وعند رشيد الدين) حدث تحديد حاد لمجالات نشاط القوى في منغوليا، من جهة فإن خان كيريت وجنكيز خان من هذا الجزء من المغول الذي سار خلفه، أخذ تايبان خان النايمني موقف انتظار مقتنعاً بأن الكيريت وجنكيز خان ألحقوا الأذى بشقيقه بويوروك، ومن جهة أخرى اتحدت تلك القوى التي تقف مناهضة لفان خان

وجنكيز خان؛ أي المعارضين لجاموخا، ومن ضمنهم التايشجوت المهزومون والذين أضعفهم غزو فان خان والميركيت، والذين نهبهم خاسار والخونغيرات وغيرهم بلا تعقل.

دخل التتار الذين يذكرون ذلك الهوان الذي لحق بهم من قبل الكيريت وجنكيز خان في هذا الاتحاد، يرى ب. بيليو ول. غامبيس أن مفهوم دوربان (الأربعة) هم إما أنسال الأبناء الأربعة لدوف سوخور أو (مع كثير من الاحتراس) الأويرات الأربعة [بيليو وغامبيس، ص ٤٠٠-٤٠٢]. وهكذا على ضفاف نهر غان رافد نهر أورغوني اتحدت القوى التي أدت القسم بعدم السماح لفان خان وحليفه جنكيز خان بتقوية وضعهم، وليس هناك أدنى شك في أن هذا الحلف موجه في أول الأمر ضد فان خان الراعي والأب والمتآخي مع جنكيز خان.

توقعت منغوليا معارك حاسمة، كم كان عددها ومن فاز بها؟ نتوقف في الوقت الحالي على الحدث المؤكد والمؤرخ بشكل واضح، وهو غزوة جنكيز خان على التتار في خريف عام ١٢٠٢، وهزيمة لتشاغان تتار وأنتشي تتار، على الرغم من أن رشيد الدين في عرضه لهذه الأحداث بعد انتخاب جاموخا غورخانا يؤرخ لها بعام ١١٨٢. إن هذا عدم دقة على الرغم من أن ب. راتشيفسكي يؤكد أن أكثر الترتيبات دقة في تسلسل الأحداث بعد عام ١٢٠١ ذكر هذا تحديداً رشيد الدين [راتشيفسكي، ص ٥٢].



التار تلاب

ويموت الناس شعوباً

«مدح النيل»

ترجمة أنا أحماتوفا

لم ينس جنكيز خان دم أبيه يسوغاي باتور، وسلفه أمباغاي خاغان ومقتلها على يد التتار، الذين أسماهم بـ «قاتلي آبائه وأجداده»، وكانت تعيش في ذاكرة المغول تلك المعارك القديمة العنيفة، وعندهم يكتب رشيد الدين «إن اسمهم منذ القدم مشهور في العالم، ومنهم تفرعت فروع كثيرة، وقوام قبيلتهم سبعون ألف بيت»، كان التتار قبيلة محاربة «اشتهروا بالمناوشات بالمدى فيما بينهم لأسباب بسيطة ولسوء التفاهم، مشهرين السيوف والمدى بدون تقدير لما يترتب على ذلك، فإذا سادت بينهم روح الوئام بدل الخصام في ظل كثرة عددهم لما تمكن أحد من الشعوب الأخرى مثل الصينيين أو غيرهم من الصمود أمامهم، ولكن على الرغم من كل الخصومات، التي سادت، تمكن بعضهم من فرض سيطرته على عدد من القبائل الأخرى والنواحي لحقب طويلة، متفردين بقوتهم وعظمتهم وجلالهم الكامل على الآخرين، ولعظمتهم الخارقة للعادة ومكانتهم الجليلة تسمت القبائل التركية الأخرى على تباين مستوياتها بأسمائهم، وأصبحت تعرف بالتتار، وكل هذه العشائر عزت عظمتها ومكانتها من انتسابها لهم، وصارت تحمل اسمهم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٠٢].

إننا نعلم أن العداوة بين التتار والمغول ترجع بداياته إلى عهد الخان خابول، وذلك عندما لم يتمكن الساحر التتري من معالجة شقيق زوجة خابول خان، ولهذا

السبب تم قتله «وبعد هذا في الوقت الذي تخين فيه سانحة لأي من الطرفين، كانوا يتهبون، ويقتلون بعضهم بعضاً» [المصدر نفسه، ص ١٠٤]. هنالك معلومات تفيد أن التتار بخلاف أمباغاي خاغان سلموا أوكسين بارخاخ جد قبيلة تشجوركي إلى التشجور تشجيينين .

ضعف التتار في نهاية القرن الثاني عشر من جراء الحروب مع التشجور تشجيينين، وأسفرت عن ضعفهم الهزيمة التي نتجت عن الحرب التي اشترك فيها إلى جانب التشجور تشجيتيين مغول جنكيز خان والكيريت في عام ١١٩٦ خاصة، وبما أن الوضع عند التتار لم يكن على ما يرام، قرر جنكيز خان «في خريف عام الكلب ١٢٠٢ محاربتهم» [السيرة المكونة، ص ١٢٣]، يقرر جنكيز خان لأول مرة، بشكل انفرادي، الهجوم على أقوى وأقدم قبيلة من القبائل التتارية المغولية، ويبدو أنه بهذا الغزو فكر في بداية الحرب الفاصلة من أجل السلطة في منغوليا، مستخدماً للحرب ذرائع الانتقام الدموي وفق العادات .

وهكذا على وفق ما قال مؤلف «يوان شي»: «في عام ١٢٠٢ أرسل الإمبراطور جيوشه إلى نهر أولخوي شيليانتشجان وهجم على اتحاد القبائل التتارية القديمة المسماة بـ «أنتشي» وتشاغان، أدت الجيوش القسم قبل المعركة: بأنها بعد دحر العدو ستواصل مطاردة المهزومين، دون النظر للغنائم، مهما كان السبب، إلا بعد نهايتها وساعتها يمكن تقسيم الممتلكات! انتهت المعركة حينها بفوز الإمبراطور وأقربائه، ولكن ثلاثة من الرجال، وهم أندان وخوتشار وداليتاي، نقضوا القسم، الشيء الذي أثار غضب الإمبراطور، فنزع منهم ما جمعه من الغنائم، وقسمه بين أفراد الجيش» [يوان شي، الفصل الأول، ص ٥٥] يصف رشيد الدين هذا الحدث بالطريقة نفسها تقريباً، ولكن أضاف إليه ما تمخض من عواقب نتيجة حرق أمر جمع الغنائم لدى علية القوم والأقارب: «إن جنكيز خان بدأ الحرب من ضفاف

النهر المسمى بأولكاي سيلو جوليت ضد اتحاد القبائل المغولية القديمة أنتشي وتشغان التتية، ولقد أصدر أمراً (ياساك) بأن لا يجمع أحد الغنائم في أثناء المعركة إلا بعد نهايتها والقضاء التام على العدو، ومن ثم يمكن تقسيمها على الكل، وافق الجميع على هذا الأمر، إلا أن ألتان بن كوتولا خاغان وموتشار بن نيكون تايشي ودوريني أو تشغين عم جنكيز خان لم يوفوا بالعهد، وصاروا يجمعون الغنائم قبل نهاية العمليات الحربية، لم يطب لجنكيز خان فعلهم، فأرسل في طلبهم كوبلا وجي وسلب منهم الغنائم التي جمعوها، لذلك انتابهم الغضب على جنكيز خان، فخرجوا سراً عن إمرته، وذهبوا لخدمة أون خان، الشيء الذي أصبح فيما بعد جزءاً من الأسباب التي أدت لتوتر العلاقة بين جنكيز خان وأون خان، فخاض الخارجون الحرب مع أون خان ضد جنكيز خان، ولكن انتهت الحرب في نهاية الأمر بانتصار جنكيز خان والسحق الكامل للأعداء، وهكذا إلى النهاية!». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٢٠-١٢١].

لم تكن نهاية الأمر بتلك البساطة، ففي الخريف أصبحت السهوب داكنة سوداء، احمرت واصفرت أوراق الأشجار، وأصبحت أشجار الشوح داكنة، ومياه الأنهار والجدال الصافية فقدت هيجانها الربيعي، وصارت تسكب كالزيت شبعي وكسلى مثل القطعان البدنية التي قضت على صيفها، ومثل رجال مرحين نشيطين متعمين باللذيق من اللحوم، تحركت جيوش جنكيز خان على التتار جامحة، كقطع من الخيل أفزعت نازلة، مثيراً الغبار فوقه سحائب، وعلى أزيز العربات المحملة باليورات وهدير الحيوانات والنداءات الحربية للتوكير.

في ليلة صبيحة المعركة الفاصلة، اجتمع المجلس في يورتا جنكيز خان، وفي هذه المرة شرح لتوكيره وأقربائه أن هذا الغزو ليس من أجل الغنائم، ولا تهور من أجل المفاخرة بسلب القطعان والأسراب التتية، وليس أسراً لجميلات التتار،

وأيضاً ليس بحثاً عن خبايا الخيم التترية التي تم سلبها من الخانات الكيدانيين، أي (ألتان خان)، فهذه معركة لا من أجل الحياة، بل من أجل الموت، إنها معركة مع "قتلة آبائنا وأجدادنا" فلتذكروا وصية أمباغاي خاغان:

خذوا بثأري
حتى تمنحي أظافر أصابعكم الخمسة
وحتى تتأكل أصابع أياديكم العشرة
كما الأسود وهي عاجزة عن إخفاء فرحها
كما الحوت بالعلل ما هو حي
هاجمة كما السنقور هاجماً على ظله

إنها المعركة كان الهدف منها تحديد مصير عمل عظيم وهو مصير التتار، وبعد الإجماع العام حدد جنكيز خان خطة المعركة المرتقبة: «إذا أطبقنا الخناق على العدو، ولم نله أنفسنا بالغنائم، فحتماً بعد القضاء عليهم ستكون الغنائم بحوزتنا، وحينها يمكننا تقسيمها، أما في حالة التقهقر، فكل ملزم بالرجوع إلى موضعه الأول، أو فليطح برأس كل من لا يؤوب إلى مكانه الأول» [السياسة المكنونة، ص ١٢٣]. إن الهدف الخفي من هذه الخطة هو القضاء التام على التتار وليس جباية الغنائم.

أطل صباح اليوم الثاني مع بدء معركة عنيفة في منطقة دالان نامورغيس بالقرب من بحيرة بوير نور، قاتل التتار ببسالة، ولكن تمكن المغول من تطويقهم ودحرهم، وبعد محاصرة التتار من كل الجهات تمكن المغول من الوصول إلى مركز أولوسهم في غابات أولوخوي شيلوغيلتشي والقبض قسراً على كل من لم يكن بساحة المعركة.

في البداية تم سحق زعماء القبائل التترية من بين المأسورين أمثال قبائل تشاغات تبار وألتشي تبار ودوتاوت تبار وألوخاي تبار، بينما انتظر بقية الأسرى مصيرهم بفرع.

دعا جنكيز خان مجلسه من جديد في خيمته المفردة، ولكن هذه المرة كان مجلس أسري عظيم، مجلس من قتل التتار آباءهم وأجدادهم، والذين كان لهم الحق في محاسبة الشعب التتري، إن حكم جنكيز خان وأقربائه من نبلاء المغول كان قاسياً: «قبيلة التتار أصلاً هي القبيلة التي قتلت آباءنا وأجدادنا، فدعونا نقضي عليهم تماماً إلى أن نساويهم بمحور العربة ثأراً وعقاباً لأبنائنا وأجدادنا، فلنسحقهم تماماً وما تبقى منهم (أي الأطفال الصغار الذين يقل طولهم عن محور العربة. تعليق المؤلف) نجعلهم أبقانا ونوزعهم في أماكن مختلفة» [السيرة المكنونة، ص ١٢٣].

كان الأسرى التتار على علم بأنهم لا يمكن أن يرجوا خيراً من وراء المغول، وبنهاية مباحثات المجلس سأل يكي تسيارين التتري بيلغوتاي:

- بأي قرار خرج المجلس؟

أكان بيلغوتاي ثرثاراً أم أن الحكم كان قاسياً لدرجة فاقت تحمله، فأفشى قائلاً:

- تقرر منحكم لحد السيف ومساواتكم بنهاية محور العربة!

بسرعة أبلغ يكي تسيارين من معه من التتار بقرار المجلس، حينها اتفق التتار على المجابهة بما يملكون، وما يقع في أيديهم من الأسلحة إلى آخر شخص، أما المتبقون على قيد الحياة فعليهم عندما يريد المغول مساواة طولنا بمحور العربة، أن يخفوا المدى في أكمامهم؛ لكي يذبحوا المحاربين المغول، لينام التتار على وسائل

من أجساد الأعداء، وليس على الأرض العارية». [كما ورد في السيرة المكنونة، ص ١٢٣-١٢٤] وهكذا تصرف التتار.

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURĀNIC THOUGHT

جعل جنكيز خان من التتار «علفاً لسيفه» (رشيد الدين)، ولكن في أثناء ذلك تكبد المغول خسائر فادحة، ولكن حدثت المأساة الكبرى، وحقيقة تسرع المغول في مساواة التتار بمحور العربية، عملياً تم القضاء عليهم، أعلن جنكيز خان - كما يحدثنا رشيد الدين - عن النصر الساحق للخان المغولي وأمر «بالبطش العام بالتتار وبأن لا يترك أحد حياً يزيد طوله على الحد المتفق عليه، حتى النساء والأطفال، والحمل من النساء تقص أرحامهن من أجل القضاء التام عليهم . . . ولكي لا يكون لأي مخلوق إمكان مناصرة هذه القبيلة، أو حتى إخفاء أحد منها، يتوجب على المجموعة التي نجت أن يعثر عليها وتظهر» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٠٦]، لقد نجا من الموت عدد ليس بالكبير، يتمثل في أطفال زوجات نبلاء المغول من التتريات وأقربائهن، وكذلك من هرب أو من صار عبداً، إن خاسار شقيق جنكيز خان من أجل حبه لزوجته التترية أعدم خمسمائة شخص فقط من الألف الذين أوكلوا إليه للإعدام، ونتيجة لذلك ذكره جنكيز خان فيما بعد بإثمه، ففي فيلم «جنكيز خان» الذي صور في جمهورية الصين الشعبية نلاحظ أن جنكيز خان عند سحقه للتتار كان حزيناً تسيل على مقلتيه الدموع، ولكنها كانت دموعاً كاذبة، فقد تم القضاء على التتار ببرودة الأعصاب وحسابات دقيقة، بغية زرع الخوف في قلوب الآخرين

هكذا تم القضاء على قبيلة التتار قبل أن يترقى المغول الذين أطلقوا اسمهم كاسم عام لجميع القبائل التترية المغولية، عندما انطلقت في المساكن والقرى النائية في الغرب صرخات الاستنجد: «التتار!» بعد عشرين أو ثلاثين عاماً من المذبحة، كان بين الغزاة القادمين قليل من التتار الأصليين، فلم يتبق منهم إلا اسمهم

الرهيب، أما التتار الأصليون فقد توسدوا تراب ألسهم بعد أن بترتهم السيوف المغولية.

عرف هذا المعاصرون الأوروبيون بصورة لا بأس بها على التقريب، كتب روبروك: «إن جنكيز خان كان يرسل التتار دائماً في المقدمة، ومن هذا اشتهر اسمهم، بحكم أنهم دوماً يصرخون في كل الجهات: "التتار قادمون!" ولكن تم القضاء عليهم تقريباً في الحروب الحديثة» [الرحلات، ص ١١٦] على الرغم من أن روبروك خلط الأحداث؛ لأن التتار سُحقوا سابقاً في الحروب القبلية التتارية المنغولية الداخلية، لكنه محق في أن «التتار الأصليين في الجيش المغولي - الذي تدفق على شرق أوروبا - ليسوا بالكثير».

انطلاقاً من إقبال التتار على الموت، أدرك جنكيز خان شيئاً هو أن أحداً أفسى بقرار القضاء على التتار، عندما اتضحت الحقيقة بأن بيلغوتاي هو الذي أفسى بالسر، تم حرمانه من المشاركة في أعمال المجلس مدة طويلة:

- بما أن بيلغوتاي أذاع قرار مجلس قبيلتنا الأعظم، وهذا ما أدى لموت محاربينا، يمنع بيلغوتاي من الآن فصاعداً من حضور كوريلتاي العظيم! وليكن حارساً لنا من الخارج في أثناء عمل مجلسنا إلى أن ينقض، وليحكم الناهيين والمنافقين! وعندما ينقض المجلس، ويحتسى المشروب، يمكنه ومن معه الدخول!

حدثت قصة في تلك الأثناء مفادها أن جنكيز خان اتخذ لنفسه خلية تترية جميلة اسمها إيسوغان خاتون، وقد لاقت في نفسه هوى، وكان معجباً بها، وذات مرة قالت له:

- إن بمقدورك أيها الخان الخاغان أن تدخلني في كتفك، وتجعل مني خانة حقيقة إذا ما جاد عطفك الخاني، ولكن هناك من هي أحق مني لتكون خانة بمعنى

الكلمة، هي شقيقتي الكبرى يسوي التي تمت خطوبتها توأ، فما مصيرها وسط كل هذا الهرج والمرج؟

- إذا كانت شقيقتك أكثر حسناً وبهاء منك، سأمر بالبحث عنها، ولكن هل ستنازلين لها عن مكانك عند قدميها؟

- بعد إذن سموك الخاني، سأنازل لها في الحال عند ظهورها.

أمر جنكيز خان بالبحث عن يسوي، وتم القبض عليها وعلى خطيبها في الوقت الذي حاول فيه الاختباء في الأحرش، عندما رأت يسوغان شقيقتها الكبرى هبت مباشرة وأجلستها في موضعها، أعجب بها جنكيز خان واتخذها زوجة، بينما تمكن خطيبها من الفرار.

جلس جنكيز خان ذات مرة بعد الغزو على التتار في خيمته يشرب الكوميس بالقرب من الخانات أي زوجته، وفجأة زفرت يسوي بحزن وأسى، فانتاب الشك جنكيز خان وصار يردد في داخله «هل، يا ترى، رأيت محبوبها؟» ثم أمر:

- وزعوا كل الحاضرين بأماكن أعمالهم، واطهروا الغرباء على انفراد.

فتم توزيع الحاضرين، ولكن تبقى شاب غريب ذو شعر مصفور في جدلة واحدة إلى جانب في هيئة رجل نبيل، فسأله جنكيز خان:

- من أنت؟

فأجاب:

- أنا خطيب يسوي ابنة يكي تسييرين التتري، لقد بطش بنا الأعداء فهربت فزعاً، والآن يبدو أن الوضع قد هدأ، فحضرت إلى هنا معتقداً بأنه لا يمكن التعرف علي وسط هذا الخشد الغفير.

- لماذا يتحسس هنا هذا الصعلوك العدو؟ إن أمثاله تمت مساواتهم بمحور العربية! ليس هنالك حاجة تجعلنا نفكر طويلاً في مصيره، أبعده عن ناظري مسحوقاً! [كما ورد في السيرة المكنونة، ص ١٢٤-١٢٥].

هكذا في الحال قطع رأس الشاب التتري، الذي قاده حبه لعتاب يورتا جنكيز خان، فمات ضحية حبه، وليس بغضه، ولم تتمكن إيسوي من إنقاذه عدا أنها كانت خلصة تذرّف الدموع في بعض المرات في اليورتا عندما تذكره وتذكر وجهه الصبوح الناضر، وقوامه النحيل، وجديلتيه الحالكتي السواد، الفتيات التتريات المغفوليات يرين أخذ المرأة بالقوة أو شراءها من واجبات الأزواج، إن إيسوغان التي تقاسمت الفراش الخاني مع شقيقتها الكبرى - كانت تحب بإخلاص أختها وتفضلها، فلذا طلبت البحث عنها؛ لأنها كانت ترى أن سعادة أختها ليس في البقاء مع الشاب التتري في الأحراش، وإنما في النوم في المضجع الخاني، وأفسحت لها مكانها، هل أدركت الأخت خطأها؟ من يدري ذلك الآن.

والجدير بالذكر أن إيسوغان تمكنت مؤخرأ من إقناع جنكيز خان بالسماح لها بتجميع من نجا من التتار، كما تمكنت من توحيدهم تحت راية نبيلين من نبلاء التتار هما كولوي نويون ومينغي أوخو، اللذين أهداهما جنكيز خان وهما في صغرهما لشقيقاته، ورباهما في داره، وإلى هذا الوقت صارت إيسوغان أيضاً زوجة جنكيز خان.

هكذا انقضى مشروع جنكيز خان الخاص، الذي تكلم بالنصر، وبسفك دماء منقطع النظير، والقضاء على قبيلة تعدّ من أعنف وسط القبائل التترية المغولية وأقواها وأكثرها ثقافة، كما كتب غامبيس: «إن إبادة التتار نفذت بصورة محكمة، ولم يبق من الأحياء سوى النساء والأطفال» [غامبيس، ص ٧٣]. على الرغم من

أن إراقة الدماء في ذلك الوقت كانت تواكب روح الزمان والمكان إلا أن عنفوانها بث الرعب في نفوس المعاصرين ، وهكذا تحققت التنبؤات التي صاحبت ميلاد جنكيز خان القابض بيده علقه من الدم المخثر . إن منغوليا - كما يرى العلم الحديث على الأقل - كانت متعطشة للوحدة ، وكان يمكنها بأمر عينها رؤية الثمن الذي ستدفعه لأول مرة ، تولد المزاج الإباضي نتيجة الحروب الداخلية القبلية التتيرية المغولية ، «فلتذكر سبعين أميراً الذين سلقهم تشاموخا أحياء» ، ذلك الرجل الذي جعل كل العالم يرتعش عندما خرج المغول عن حدود منغوليا .

إن القضاء على التتار أدى إلى تثبيت سلطة جنكيز خان في شرق منغوليا ، وألحق الضرر بفان خان بحكم أنه زاد من قوة جنكيز ، إن فان خان - الذي فرح في بادئ الأمر بإبادة التتار - كما قال ل . غامبيس «لم يدر حينها بأن موازنة القوى من صالح تيموتشجين» [غامبيس ، ص ٧٤] ، نصر جنكيز خان دفع للائتلاف - الذي ترأسه جاموخا - والتحركات الحاسمة .



من يكون حاكم السهوب؟

«قتال أبدي، وبالسلام نحلم فقط
عبر الدماء والغبار
ولكن فرس السهوب يعدو ويعدو
ولعلفه مجترأ»
ألكسندر بلوك

إذا اقتنعنا بمؤلف «شان أو تسين تشجان لو» فإنه بعد الائتلاف مباشرة تحركت جيوش الائتلاف بقيادة جاموخا على جنكيز خان وفان خان، أنذر الخونغيرات جنكيز خان بتحرك جيوش الائتلاف، لقد استطاعت جيوش جنكيز خان وفان خان من القضاء على جيش الائتلاف، في عام ١٢٠٢. قام المنتصرون بهجوم، كل على حدة؛ فان خان على الميركيت، بينما انقض جنكيز خان على التتار، حسب ما قاله رشيد الدين: إن جنكيز خان أبلغه بهجوم جيوش الائتلاف داي تسيشين الخونغيراتي في عام ١٢٠١، التقت جيوش الائتلاف مع جنكيز خان وفان خان عند بحيرة بوير نور «وفي نهاية النهايات انتصر جنكيز خان أيضاً، وتم القضاء على الأعداء . . . وهكذا إلى النهاية» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١١٧]. يرى ب. راتشيفسكي أنها «الحرب الأولى» التي لا يشير إليها «التاريخ السري» [راتشيفسكي، ص ٥٧]، وهكذا يمكننا أن نقول إن ائتلاف تشاموخا مني بالهزيمة من قبل جنكيز خان وفان خان، وهكذا صار المنتصرون يقومون بالغزو الانفرادي على التتار والميركيت، إن النصر الساحق لجنكيز خان على التتار زاد من قوة نفوذه الذي حتماً سيؤدي إلى قطع العلاقة والحرب مع فان خان.

رأى غورخان جاموخا مصير التتار، أدرك ساعتها أنه لا يمكن أن ينال خيراً من وراء المغول، ولكسر شوكة جنكيز خان لا بد من زرع الفتنة بينه وبين فان خان، هكذا شرع جاموخا مع أنصاره وبرفقة نيلخا سانغوم ابن فان خان في استمالة الكيريت؛ لتكوين اتحاد ضد جنكيز خان.

- إن المتأخي (أندا) تيموتشجين دوماً، وبصورة علنية، يتبادل الرسل مع الخان النايماي تيايان خان، وعلى لسانه لا تنقطع كلمات «الأب» و«الابن»، لكن في نفسه شيء آخر، فهو حسن في لسانه، يا ترى هل تأتمنونه؟ إذا ثرتم عليه سأنضم إليكم وانقض على جناحه! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٢٧).

على حسب كلمات رشيد الدين «بنفس حار أدخل جاموخا هذه الفكرة في قلب سانغوم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٢٣]، فرد المتأخون: «الهجوم على أولوس تيموتشجين واستيلائه، وبعدها سيصبح بدون أولوس» [المصدر نفسه، ص ١٢٨].

أصبح مستقبل جنكيز خان مهدداً عندما أقبل أقرباء جنكيز وهما خوتشار وألتان اللذان ساعدها في اعتلاء العرش الخاني والآن حقداً عليه على عدم عدله في تقسيم الغنائم التتارية على حسب رأيهم، لمآزرة تشاموخا وسانغوم.

تبقى استمالة فان خان في ذاته إلى الحرب ضد ابنه المتبني وقبله تيموتشجين أي جنكيز خان، لم يوافق فان خان الحكيم الحذر - الذي كان على علم بحتمية الاصطدام مع جنكيز خان - في الحال، لأنه كان لا يأتمن جاموخا.

- كان جاموخا رجلاً ثرثاراً، لا يمكن التصديق على ما يروي أحقيقة أم هراء!

وجهاً لوجه تحدث فان خان وابنه سانغوم لفترة طويلة، وبعدها خرج سانغوم غاضباً على مشاكسة والده، خرج من البورتا راداً الباب، مما أثار خوف والده، الذي خشي تحالف تشاموخا وسانغوم، فأمر باللاحق بابنه قائلاً:

أونغيرات، وعلى كأس من الكوميس سبحا في الذكريات البعيدة، وتجادبا الحديث أيضاً عن الوضع الراهن، حينها انتاب مونليك الشك في صدق الكيريت:

- من قبل حين أذلونا ورفضوا لنا خطبة تشاور بيكي، والآن بأنفسهم يدعون لمأدبة خطوبة، كيف يمكن أن يحدث مثل هذا؟ وكيف يمكن أن يحدث أن القوم الذين تعجرفوا عليك قبل مدة أن يوافقوا فجأة على الخطوبة، ويدعوك بأنفسهم؟ هل ينم هذا الفعل عن خير؟

ومتحيراً في الأمر سأل:

- يا ترى يا بني، أنت ذاهب؟ من الأفضل دعنا نبعث لهم الاعتذار في صورة أن الخيول أصابها الهزال، فتوجب علينا علفها. (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٢٩).

أصاب الخوف جنكيز خان، ولم يذهب للمأدبة، ومن بيت مونليك مباشرة رجع إلى داره، ولكنه بعث للمأدبة بائنين من رجاله.

عندما رأى جاموخا وسانغوم ورجالهما إخفاق خطتهما، قرروا الهجوم بسرعة على مقر جنكيز خان وأسره، على الرغم من أن القلة القليلة كانت على علم، إلا أنه كان من بينهم رجل ثرثار، الذي حكى لزوجته كل شيء عند عودته لبيته لجمع عتاده للغزو، وأضاف أيضاً:

- ما الشيء الذي لا يمكن أن يعطيه تيموتشجين لمن يبلغه هذا النبأ!

حينها سمع الخدم حديثهم، ففطن اثنان منهم للحديث، وعلى خيل سيدهم المعدة للغزو في صبيحة اليوم القادم، ليلاً ذهباً لجنكيز خان عليها، وفي الليلة نفسها وفق العادات، واقفين خلف البيوتا أبلغاه كل الخبر، وخاتمين حديثهم بالكلمات الآتية:

- تكرموا حضرات جنكيز خان، فإن الأمر لا يتطلب التفكير أو الشك، إنهم
قرروا الإحاطة بكم وأسركم! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٢٩).

صدق جنكيز خان النبأ، وهنا يجب أن نقول كان الخبر مبالغاً، على الرغم من
أن المنتصر لتوه على التتار لم يكن في حاجة للبحث عن المساعدة، إلا أنه كان على
علم بأخلاقيات السهوب، وكانت حياته في خطر مرات عديدة، فلماذا أطلع
«أقرب المقربين إليه من رجاله» بالغزو الوشيك، وعلى عجلة وبدون عتاد «في الليلة
نفسها انطلق على صهوة فرسه» عند ذلك قام فان خان وحلفاؤه بمطاردته مقتفين
أثره، وفي أثناء إحدى وقفاته كادوا أن يقبضوا عليه، «وبمجرد أن لمح الغبار أسرج
فرسه وانطلق، ولو تأخر هنيهة لانقضى الأمر» [السيرة المكنونة، ص ١٣٠] ودنا
جاموخا إلى مكان وقوفه الذي - كما نعلم - كان بصحبة رجاله من ضمن جيوش
فان خان.

لكن كان معلوماً لدى الجميع أن جاموخا وفان خان لا يأتمنان بعضهما، تبين
ذلك في الوقت الذي جرى فيه الحديث عن التحضير للمعركة الفاصلة، أكان فان
خان مقتنعاً بمقدرات تشاموخا القيادية كما في المعركة السابقة ضد الميركيت، فلذا
طلب منه قيادة الجيوش؟، أم أنه حقيقة كان يريد مع حرسه الخاص الابتعاد عن
دائرة المعركة، ولكن جاموخا قيم عرض فان خان مؤامرةً ضده، فقرر تدبير أمر
مضاد له:

- فان خان يطلب مني قيادة جيشه، ولكن أنا لا أستطيع العراك مع أندنا، وهو
يأمرني أن أكون في قيادة جيشه، وعلى الرغم من نشاطه وهمته في المطاردة إلا أنه
تخلف عني، وهذا يعني أنه صديق لساعة، فالأفضل أن أبلغ الأندنا الخبر لكي أشد
من أزره.

وبسرعة أبلغ جنكيز عن خطة المعركة المقبلة، كانت المعركة عنيفة، أصيب ابن فان خان بجرح في خده، فأحاطه الكيريت بطوق متين، وحملوه معهم خارج دائرة المعركة، أصيب برمح قائد الكتيبة القيادية لجيش جنكيز خان خويلدار سبتشين، اختفت الشمس وراء الجبال، ولم يتمكن بعد أحد الطرفين من الانتصار، وبقدوم الليل قرر جنكيز خان إبعاد جيوشه عن دائرة المعركة إلى مكان جديد.

في الوقت الذي أعاد فيه جنكيز خان تجهيز جيوشه وإعدادها للهجمات القادمة اتضح أن فان خان تقهقر خوفاً على حياة ابنه الجريح، أملى قرار تراجع فان خان أنصاره المقربون، الذين أوحوا إليه بفكرة ضعف قوة جنكيز وحمية هزيمته.

- كن رحيماً بسانغوم؛ لأنه بفضل صلواتكم رأى النور، إضافة إلى ذلك معنا أيضاً غالبية المغول مثل جاموخا وألتان وخوتشار، وهؤلاء أنصار تيموتشجين الذين كانوا محاصرين في الغابات، انظر كيف حالهم الآن: يتحركون على خيولهم، متخذين الغابة غطاء، دع أعيننا تراهم جيداً، فسنجرهم من نصف أطراف أرويتهم كمثل روث الماشية، ونذيقهم الويل!

أجاب فان خان بعد سماعه هذه الدلائل بالموافقة قائلاً:

- فليكن الأمر كذلك، أرجو العناية بالمواظبة على صحة ابني فقط من أجل أن لا يتعب. (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٣١-١٣٣)، ولقد هجر الكيريت دائرة المعركة.

وفي واقع الأمر لم يكن كل المغول فقط في أولوس جنكيز خان، بل انضم قسم كبير منهم لجاموخا، كما هجر جنكيز خان ألتان وخوتشار، إضافة إلى المعركة العنيفة التي وقعت بين فان خان وجاموخا من جانب و جنكيز خان من الجانب الآخر كل هذه الأسباب أثرت في ضعف أولوس جنكيز خان، فإذا لم يشر «التاريخ السري» إلى أن جنكيز خان في معركته مع الكيريت تكبد الهزيمة - يتصور القارئ أن

الطرفين بعد المعركة القاسية ليلاً تفرقاً - وفي هذا الحدث يقول رشيد الدين إن جنكيز خان تكبد الهزيمة .

ترك المنتصر على التتار المعركة دائرة للكيريت، ولولا حادثة جرح سانغوم - حسب قول رشيد الدين - «التكبد جنكيز خان خسائر طائلة . . . لم يستطع الصمود (في وجه الكيريت . تعليق المؤلف)، فتقهقر، وعندما طلب الرجوع للوراء تخلى عنه قسم كبير من جيشه، فرجع إلى منطقة بالدجوننا» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٢٦]. تشير السيرة المكنونة إلى أن عدد الجنود الذين تبقوا مع جنكيز خان كان أربعة آلاف وستمائة، أما موقع منطقة بالجونا - التي لعبت دوراً مهماً في حياة جنكيز خان - فغير معلوم^(١).

شرب أنصار جنكيز خان، وبخاصة النبلاء منهم، رمزاً للولاء له ولأفعاله الماء العكر من البحيرة «إلى درجة أنهم استخلصوا الماء من الأوساخ وشربوه . . . إن المجموعة التي كانت معه في منطقة بالجونا حينها لم تكن كثيرة العدد، وأصبحت تسمى بمجموعة الجيونتو، أي بمعنى أنهم كانوا معه في هذه المنطقة، كانت لهم حقوق ثابتة، ومتميزين أمام الآخرين» [المصدر نفسه، ص ١٢٦]. شرب جنكيز خان أيضاً الماء رمزاً للقسم والولاء كما ذكر في مؤلف «يوان شي»: «في ذاك الوقت كان فان خان قوياً ومقتدراً، أما الإمبراطور فكان ضعيفاً وغير واثق من النصر، إن فرق جيشه كانت في حالة من الذعر، أما بخصوص الذين شربوا معه الماء العكر من البحيرة، فأسموهم بشاربي الماء العكر في منطقة بالجونا، وهذا يعني أنهم تقاسموا معه آنذاك كل الصعاب (تعليق من [كليفز، ص ٣٧١]).

(١) يرى بعضهم أنها بحيرة بالزينا التي ينبع منها نهر تورا، يطابق الباحث المغولي بيرلي بين بحيرة بالجونو وبحيرة بالاج بولاك، الواقعة عند مصب نهر موغويت في نهر خالغا، بينما يشير الباحث ن. بوبي إلى بحيرة باليزينو التي تبعد خمسين كيلو متراً غربي مدينة أغينسك في محافظة تشيتا (انظر [راتشيفسكي، ص ٦٦]).

وعن منطقة بالجونا تحدثنا سيرة جبار خوجا الذاتية، التحق جبار خوجا بعيش جنكيز خان في أثناء المعارك مع فان خان، واشتهر بشجاعته وهجومه ورمي السهام، وفي المعارك كان يمتطي الجمال بدل الخيل، وفي سيرته الذاتية يجري الحديث عن «الهجوم المباغت لفان خان ثم هزيمة جنكيز خان وهروبه مع تسعة عشر فقط من رجاله، وعند انتهاء المؤن عندهم اصطادوا فرساً برياً وطهوه ثم أكلوه، وحينها رفع جنكيز خان يديه إلى السماء ثم قال: "إذا تمكنت من إنجاز هذا العمل العظيم، فسأنتقاسم مع هؤلاء الرجال الحلو والمر، فإذا نقضت هذا العهد فليكن مصيري مثل هذا الماء" وحينها ذرف كل الحاضرين دموعهم» (تعليق من [المصدر نفسه، ص ٣٧٢]).

أعلن جنكيز خان مؤخراً قائلاً: «إن الذين شربوا معي الماء من هذه البحيرة، من جيل إلى جيل، سيكونون في خدمتي» يذكر في السيرة الذاتية لأتشجولو: أن «جنكيز خان (تاي تسزو) أمر أن ينضم الذين شربوا معه الماء من بحيرة بانتشجوناخا إلى حاشيته» [يوان شي، الفصل ١٣١، ص ٩ب] نلاحظ في السير الذاتية للعديد من أنصار جنكيز خان نلاحظ العبارة الآتية: «مع جنكيز خان (تاي تسزو) شرب الماء من النهر خايشوي» (أتشجولو) «صاحب جنكيز خان في معركته مع فان خان وشاركه أيضاً شرب الماء من بحيرة بانتشجان» (سيواليتسزيان نويون) [المصدر نفسه، الفصل ١٣٢، ص ٤أ].

يشير الباحث الأمريكي ف. كليفز - الذي نشر في عام ١٩٥٥ مثلاً خاصاً تحت عنوان «تاريخية معاهدة بالتشجون» - إلى أنه في مؤلف «يوان شي» يذكر أن أربعة عشر من أنصار جنكيز خان أقسموا اليمين عند بحيرة بالتشجون، والطريف في ذلك انتماءهم القبلي، من بينهم ثلاثة من المغول وهم جنكيز خان وشقيقه خاسار، الذي رجع في ذلك الوقت إلى أخيه، وأتشجولو، وكان برفقة جنكيز

أيضاً ثلاثة من الكيريت واثنان من الكيدانيين ومسلم واحد وميركيتي وممثلو القبائل الأخرى: إكيريس ومانغوت وتشبوتاي وسولدوس (انظر [كليفز]). إن أحداث بحيرة بالتشجون دخلت الأدب، وبخاصة الشعر اليوناني والأدب القديم لأسرة مين، ويقدر ثقلب الدهر، كان المنتصر على التتار في لحظة على وشك الوقوع في الهاوية. يفترض ب. راتشنيفسكي أن جنكيز خان تقهقر إلى حدود دولة تسزين «لم تكن هذه أول بادرة، فلمرات عديدة عند انهزامه يبحث دوماً عن مأوى على الحدود الصينية» [راتشنيفسكي، ص ٦٧]. كان من المفترض دوماً التنقل من منطقة إلى أخرى تجنباً للهجمات المباغثة من أعدائه، يبدو أن السماء الزرقاء الخالدة منعت مصطفاها من رحمتها.

بدأ جنكيز محادثاته مع فان خان وجاموخا عاجزاً عن القتال وطالباً توضيح أسباب العدا، وفي وصيته المطولة المرسلة لفان خان عدد كل خدماته التي قدمها وخدمات والده للخان الكيتي قائلاً: «إنني أدري بوضاعة أصلي ولا حيلة لي بقيادة قوم كثر، ولكن لكل عربة عريش ذو عمودين، ولا يمكن لأي ثور أن يجرها إذا انكسر أحدهما، ألم يكن هذان العمودان ونحن معاً؟ عندما تتحطم عجلة لدى عربة ذات عجلتين فمن المستحيل التنقل عليها، ولقد كنت العجلة الثانية! لأي سبب تملكك الغضب علي أيها الأب والخان؟» [السيرة المكنونة، ص ١٣٤-١٣٦].

نود أن نلفت الانتباه إلى أنه على الرغم من مستوى الكلمات، كان جنكيز خان مستعداً للاعتراف بحدائته زمالته، ويوقر فان خان كأب وخان أيضاً، وبهذا يصبح ابناً وطاعاً، ويبدو أن وضع فان خان لم يكن بأفضل الأفضلين، لقد انتصر على تيموتشجين، ولكنه لم يقض عليه، مدركاً أن تيموتشجين إذا تطلب الأمر سيتمكن من جمع قواه بسرعة وسيستقم، كان الأعداء يحيطون من الاتجاهات كافة: والنايمان وجاموخا وبقايا الميركيت والتايتشجوت، أما هو فقد أصبح وحيداً من غير حليف «في سماء بديعة وهو حاكم وتحت سماء جميلة ولكنه وحيد».

لهذا، وحسب ما ورد في «التاريخ السري» أثار خطاب جنكيز خان - الذي أبلغه لرسله، في نفس فان خان الإحساس بالندم ووخز الضمير، فقال:

«أواه سيدركني الموت!

فهل نسيت فقط ابني؟

بالحق لقد نسيت حقيقة القانون

فهل تبرأت فقط عن ابني؟

لا، بل نسيت سداد ديني

فإذا شاهدت ابني وتجرات على التفكير بأذيته فليهرقوا دمي بهذه الشاكلة!».

وإشارة للقسم طعن خنصره بالمدينة «وصب دم الجرح في وعاء من شجرة البتولا، وطلب تسليمه لابنه» [السيرة المكنونة، ص ١٣٦]. بعد أن كان يفكر قبل مدة وجيزة في حرمانه من أولوسه.

كما بعث رسالة شفوية حادة للأندا تشاموخا قائلاً: «بحسدك فرقت بيني وبين الخان والأب الخان، لقد كنا في السابق إن استيقظ أحدنا قبل الآخر حق له الشرب من الفنجان الأزرق للأب الخان والخان، ولنهوضي دوماً مبكراً كان يحق لي الشرب من هذا الفنجان، لهذا السبب صرت تبغضني من ذلك الحين، فأنت الآن تشرب الفنجان الأزرق للأب الخان بكامله، إنك بهذا تحرمني من الكثير!» [المصدر نفسه، ص ١٣٦-١٣٧].

إن الخصام بين جنكيز وجاموخا المتنافسين منذ نعومة أظافرهما غالباً ما كان ينشب لأسباب واهية، ولكنه كان عميقاً في مضمونه، ولهذا كان أكثر عداءً بحكم أنه موجه من أجل السلطة على كل المغول.

ذكر جنكيز خان ألتانوختشار، اللذين نصباه خاناً وخرجا الآن عن إمرته الخانية، بتاريخ انتخابه الذي كان في وقته من الممكن انتخاب أحدهما بدلاً منه

وتصبيه خاناً، وحينها كان من الممكن أن يكون جنكيز في خدمتهما بولاء وصدق «أبوضوح أردتما أن تهجراني، أم بمكر ونفاق؟» [المصدر نفسه، ص ١٣٧]. وجه لهما جنكيز خان أسئلة بيانية ليست حقيقية مباشرة، بحكم أنهما من النبلاء وانتخباه خاناً في وقت ما، والآن أصبحتا في عداد أعدائه، فإذا حكمنا بالكلمات التي وردت في الرسالة التي بعث بها لأحد الهارين «أتعلم أن ألتان وخوتشار لا يمكن أن يعطيا أولوسي لأي أحد مهما كان الأمر» [المصدر نفسه، ص ١٣٨]. كان جنكيز خان يرى في ألتان وخوتشار المنافسين الحقيقيين لمنصبه الخاني في ألبوس المغول.

وفي رواية رشيد الدين: إن جنكيز خان واجه مباشرة ألتان وخوتشار قائلاً: «أنتما الاثنان نويتما قتلي وتركي في مكان مظلم أو دفني تحت الأرض» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٢٩]. أصبح جوهر الخصام الذي وقع واضحاً، إنها كانت حرباً من أجل نزع السلطة من يد جنكيز خان في أولوسه المغولي والقضاء عليه؛ لأنه أصبح يشكل خطراً بعد انتصاره على التتار، إن جاموخا ومن انضم إليه من الخانات بالفطرة مثل ألتان وخوتشار لم تعجبهم النجاحات التي توصل إليها جنكيز خان في تقوية سلطته، فان خان وابنه سانغوم - كما لاحظنا - تم جذبهما للحرب ضد جنكيز خان والمغول منافسين.

إن تحركات جنكيز خان الدبلوماسية بلا شك كانت ذات مغزى لإبعاد شبهة المناورة، ولكنه في واقع الأمر أعاد تجميع قواته التي أصبحت في قبضة يده متحياً الفرصة للانقضاض على أعدائه.

أمر إبلاغ سانغوم الجريح أنه يريد أن يصبح خاناً بسرعة حتى في حياة والده فان خان، أراد جنكيز من ذلك زرع الفتنة بين الأب والابن، ورد عليه سانغوم الحائق معلناً أن جنكيز لم يسم والده بغير اللص العجوز، وأمر بعلف الخيل والاستعداد

للمعركة الجديدة معه [السيرة المكنونة، ص ١٣٨]. في مؤلف «يوان شي» وفي مقتطفات عهد قيصريّة جنكيز خان (تاي تسزو) قال سانغوم العبارة الآتية: «إذا انتصرنا، فعلينا أن نقضي عليه، أما إذا انتصر فسيقضي علينا، ولهذا لا داعي للجمعجة» [يوان شي، الفصل الأول، ص ٦ب]، إن سانغوم وصف الوضع بوضوح.

كان تخطيط الحدود يتم باستمرار، ويذكر هنا رشيد الدين: «عندما أرسل جنكيز خان سفراءه إلى فان خان ضم إليه وقتها أهم مجموعة من قبيلة الكونغيرات، ورجع إلى منطقة بالجوننا، أما قبيلة كورلاس فدفعت بوتو الاكريسي إلى الهرب مسحوقاً، فانضم إلى جنكيز خان في الموضع نفسه . . . وهناك عاشا وشربا الماء من بحيرة بالجوننا، وفي الوقت نفسه عاش جوتشي كاسار منعزلاً عن جنكيز خان، فانقض فان خان على زوجته وأولاده في منطقة كاراون جيون بجيوشه، فانضم أيضاً لجنكيز خان، لقد كان في حالة من الفقر إلى درجة أنه بدأ يسلق الجيف وجلود الأحذية^(١) للأكل، ومن هذا الضرب من الأكل أصابه الهزال، لهذا لحق بجنكيز خان في مقره في منطقة بالجيون» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٣١-١٣٢].

في الحقيقة إن عام ١٢٠٣ كان مأساوياً وحاسماً لمصير منغوليا، كل الذين لم ينضموا لجنكيز وفان وجاموخا حاولوا تكوين ائتلاف جديد ضد جنكيز خان وفان خان.

قام الخارجون عن إمرة جنكيز خان وفان خان وتشاموخا بتكوين حلف معاد لثلاثتهم «داريتاي أوتشيغين عم جنكيز خان وألتان جيون ابن كوتولا كاغان، الذي كان أيضاً عما لجنكيز خان، وكوتشار بيكي ابن نيكون تايشي، الذي كان أيضاً عما

(١) نوع من الخداء الجلدي ذي نعل ناعم (تعليقات ناشري رشيد الدين).

جنكيز خان، وجاموكا من قبيلة جاجيرات وقبيلة بآرين، وسويغاي وتوغوريل أنسال نوكتا بويولا، وتاغاي كولوكاي من قبيلة مانغوت، وكوتو تيمور أمير قبيلة التتار، اتحدوا كلهم واتفقوا على الآتي: الانقضاض بغتة على فان خان، وبعدها سنصبح حكاماً بأنفسنا، ولا نتحد مع جنكيز خان أو حتى فان خان، وأن لا نوليهم اهتمامنا» [المصدر نفسه، ص ۱۳۲] أما في «التاريخ السري» فوردت كلماتهم كما يأتي: «نقض بغتة على فان خان ونصبح حكاماً بأنفسنا، ولا نتحد مع فان خان ولا جنكيز خان ولا نوليهم اهتمامنا».

إننا لا نعلم رد فعل جنكيز خان على هذه الدعوة الجديدة، يحتمل أنه لم يتمكن من تدبير أمره، بحكم أن فان خان لم يتباطأ، فانقض على المتحدين الجدد وسلبهم.

بعد النصر اطمأن فان خان لقوته مرة أخرى، وبدون اهتمام أقام حفلة في خيمته الذهبية، أبلغ رجال جنكيز خان بأن «فان خان في غفلة تامة يحتفل ويتقسام الفرخ مع رجاله في خيمته الذهبية، إذا تحركنا ليلاً ونهاراً بدون توقف يمكننا أن نهجم عليه فجأة» [السيرة المكنونة، ص ۱۰۴]. كان العرض مغريباً ولا بد من استخدامه، إن جنكيز خان يختلف عن منافسه بأنه لا يضيع وقته، فدوماً يتحرك بسرعة وبصورة حاسمة، لم يبق شيء من الطاعة التي كانت بينه و«الأب الخان»، حتى إنه لم يتوقف ليلاً إلى أن بلغت جيوشه بسرعة الأراضي الكيريتية، وفي الحال طوق مقر فان خان الواقع إلى الجنوب من أعالي نهر كيرولين، استمرت المعركة العنيفة ثلاثة أيام وليال، سحق الكيريت برمتهم، ولكن بأعجوبة تمكن فان خان وابنه سانغوم من اختراق الكمين والنجاة هرباً، أما «الشعب الكيريتي» فأمر جنكيز خان «بتوزيعه في كل النواحي كأسرى»، وأخذ لنفسه ابنة فان خان الكبرى إياخا بيكي، «وبعد هذا السحق قضى شتاءه في أحراش أبتشجايا كوديفيري» [المصدر نفسه، ص ۱۴۰-۱۴۱].

إذا أخذنا في الحسبان معلومة رشيد الدين فإن جنكيز خان قبل الانقراض على فان خان لجأ إلى الحيلة العسكرية، بعث رسالة باسم شقيقه خاسار يزعم فيها أنه يرغب في الإذعان لإمرته، فصدق فان خان السفراء المبعوثين وفرح بالانقسام البسيط الذي حدث في صفوفهم، وهكذا وقع في الفخ الذي أعده جنكيز خان.

إن مصير فان خان كان شجياً ومحزناً، فعندما هرب من المغول وجنكيز وقع في يد الحرس النايمني هو وابنه، ولكن سانغوم تمكن من الهرب، أما فان خان فقد تم القضاء عليه على الرغم من توسله وتأكيديه بأنه من نبلاء القوم وخان الكيريت، أمر تايان خان النايمني بقطع رأس فان خان وإحضار الرأس له في مقره، وتشير بعض المصادر إلى أن الخان النايمني أمر بصنع إطار فضي لرأس فان خان «ولمدة من الزمن تركه على عرشه كمظهر من مظاهر العظمة والإجلال والفخر والاحترام» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٣٢]. وفي رواية «التاريخ السري» إن النايمن وضعوا رأسه على لباد أبيض وصاروا يضحون له، وذات مرة في ساعة الذبيحة يزعمون أن الرأس بدأ يبتسم، وحينها هاج وماج الخان النايمني تايان خان، ودخله إحساس بأن هذا نذير شر. (وأيضاً ساعتها نبج كلب وهو كذلك نذير شر أيضاً) فأمر بالقضاء عليه [السيرة المكنونة، ص ١٤٢].

لم يعيش سانغوم طويلاً، كان من المفروض عليه الخروج من حدود منغوليا، وبرواية رشيد الدين، عن طريق بلدة إيشيكبالاغاسون، التي يرى فيها الباحثون مدينة إيدزينا التانغوتية (خارا خوتو)، فدخل حدود الدولة التانغوتية سي سيا ولدة من الزمن عاش سانغوم على النهب، لما لم يجد دعماً من التانغوت طرده السلطات التانغوتية إلى شرق تركستان (على حدود خوتان وكاشغار)، وهناك لقي حتفه على يد أحد الحكام الأورغوريين كليتش كارا، بعد خضوع الأورغوريين لأسرة جنكيز خان سلم كيليتش خان زوجة سانغوم وابنه لجنكيز خان.

وهكذا في خريف عام ١٢٠٣ بعد مضي عام من سحق التتار انتصر جنكيز خان على الكيريت ، وبتقييم الباحثين الصينيين كان هذا أكبر انتصار له ما دام أنه لم يبلغ «موقعه الخاني المستقل» إلا بعد القضاء على دولة الكيريت ، يميل ل . غامبيس وب . راتشيفسكي إلى الرأي القائل : إن جنكيز خان لم يسحق الكيريت بقسوة كما فعل مع التتار ، «لم يقض تيموتشجين على الكيريت ولم يعاملهم بقسوة كما فعل بالتتار والتايتشجوت» [راتشيفسكي ، ص ٧٢] ، ويضيف ل . غامبيس : «وزع تيموتشجين الكيريت للسكن مع القبائل المغولية ، لكي يحرمهم من الاتحاد سياسياً ، ذلك الاتحاد جمعهم على الأقل في خلال ثلاثة أجيال ، وترحم عليهم ، ولم يعرضهم للقهر العام إلى أن اختلطوا تدريجياً بالمغول» [غامبيس ، ص ٨٤-٨٥] .

لعل من الصعب ، وبدون قيد الاتفاق مع رأي راتشيفسكي فقط في أن «حركة تيموتشجين في حربه ضد الكيريت مثل المصالح القومية للشعوب المغولية» [راتشيفسكي ، ص ٧٦] ؛ لأن جزءاً كبيراً من المغول في ذلك الوقت عندما انهزم الكيريت لم يتبع لجنكيز خان حتى لم يروا أنه بالتحديد يمثل مصالحهم ، ولكن هنالك أمراً آخر هو أن الوضع تغير بحدة من جديد ، وأصبح السؤال مع من يجب الذهاب ، مع جاموخا أم مع جنكيز خان ، أم مع المجموعة التي تريد تكوين قوة ثلاثة في الوسط المغولي ، تأزم الأمر بالنسبة لنبلاء المغول حيث كان هذا خياراً بين الموت والحياة .

. كان هنالك النايان أيضاً ، وهم شعب كثير العدد ، متجول بين جبال خانغاي وألتاي من أعالي نهر إرتيش «هذه القبائل النايانية وحكامها كانوا أقوياء ومحترمين ، ولهم جيوش كبيرة وقوية ، ويشبهون المغول في عاداتهم وتقاليدهم» [رشيد الدين ، المجلد الأول ، الكتاب الأول ، ص ١٣٧] على الرغم من أنه ، كما ذكرنا سابقاً ، لم يكن معلوماً أكان النايان شعباً ناطقاً بالمغولية أم بلغة من اللغات

التركية، وهنالك رواية أنهم كانوا من الفيرغيزيين، ففي عام ١٢٠٤ عندما تحتمت الواقعة بين النايان وجنكيز خان، كان النايان حينها قد أصابهم الوهن من جراء الخصام الذي وقع بين الناياني تايان خان وشقيقه يويوروك خان، وبين تايان خان وابنه كوتشوك.

حمل تايان خان لقب داي فان؛ أي الأمير العظيم، ولقبه به تشجور تشجين، ودخل التاريخ بهذا اللقب، واسمه الحقيقي برواية رشيد الدين بايوكا، وكما ذكر آنفاً أن النايان كانوا قبيلة تعدّ من أكثر القبائل التي تقطن منطقة مغوليا الحالية وألتاي ثقافة، لقد انتشرت بينهم الديانة المسيحية من المذهب النستورياني كما هو بين الكيريت، وبحكم جوارهم مع الشعوب الأويغورية تعرفوا ثقافتهم وطوعوا رموزهم الكتابية إلى لغتهم، فإذا قلنا إنهم شعب ناطق بالمغولية فإنهم أول من فعل ذلك، واحتمالاً لهذا السبب كانوا ينظرون إلى المغول بغطرسة، قالت والدة تايان خان (وبرواية رشيد الدين) زوجته غورييسو عن المغول:

«الرداء عندهم غير ظريف في منظره

ومنهم تنبعث رائحة نتنة لا تحتمل»

ولعل البعد عنهم أفضل، وربما نساؤهم وفتياتهم عليهن أن يجلبن لنا البقر والأغنام، بشرط أن نختار من بينهن الأفضل ونأمرهن بغسل أيديهن وأرجلهن»
[السيرة المكنونة، ص ١٤٢].

في الواقع أن غورييسو كانت زوجة «وأماً» لتايان خان في وقت واحد، فهي كانت زوجة إنانتش خان، والدة تايان خان، أي زوجة أبيه، ولهذا تعدّ أمه، وبعد وفاة إنانتش خان أخذها زوجة حسب العادات المغولية، وبهذا أصبحت زوجته في الواقع، مما يوضح لنا النفوذ الكبير الذي تمتعت به غورييسو على تايان خان بعد القضاء على الكيريت وموت فان خان، وجد نايان خان في شخص جنكيز خان

منافسه الأساسي على السلطة في السهوب المغولية، ولو أنه شارك فقط في المعركة أو حتى أبدى عن رغبته في المشاركة، على الرغم من أن النايان كانوا على جنب ومنهمكين في خصامهم، إلا أنه على الرغم من ذلك كان بمقدورهم عرقلة جنكيز خان بعد الدسائس بخاصة التي جرت بينه وبين جاموخا، لم يقدر تايان خان بالتحديد قيمة عدوه:

- يحكى أنه يوجد تافهين في الجهة الشمالية من المغول، وكأنهم أخافوا الحاكم العظيم فان خان، وبامتعاضهم أوصلوه إلى الموت، أحقاً يريد المغولي أن يصبح خاناً؟ وهل لهذا خلقت الشمس والقمر؟ لكي يضيئان مع بعضهما في السماء؟ وكذلك على الأرض، كيف يمكن أن يعيش خانان جنباً إلى جنب على أرض واحدة؟ [كما ورد في السيرة المكنونة، ص ١٤٢].

إذا كانت هذه الكلمات موثوقاً بها، فمن الصعب أن تكون شهادة لسعي تايان خان الذي يريد بنفسه أن يصبح «حاكم السهوب»، ولكنهم سردوا في «التاريخ السري» من أجل توضيح عظمة المغولي جنكيز خان.

عندما أصبح الصدام حتمياً بين تايان خان وجنكيز خان انضم جاموخا إلى النايان، وكسابق أفعاله مارس دهاءه منتظراً وآملاً موت جنكيز خان على يد تايان خان في هذه المرة أو العكس.

يحكى أن تايان خان لم يكن من البواسل، بل كان يحب ممارسة الصيد أكثر من التمرينات والأعمال الحربية في أولوسه، فعندما أراد بدء الحرب قرر البحث عن حلفاء له، فبعث برسله إلى الأونغوت (التتار البيض)، وكما كتب ب. راتشيفسكي، الأونغوت والتترك والنستريان «كانوا أخوة في الدين والعرق للنايمان» [راتشيفسكي، ص ٧٧]. عاش الأونغوت على حدود دولة تسزين، حسب معلومات رشيد الدين «إن هذا الشعب شعب متميز ويشبه المغول فقط»

[رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٤٠]، كان الأونغوت في خدمة الحكام التشجور تشجيين، كما قاموا بحراسة حدود دولة تسزين على امتداد سور الصين العظيم، يورد لنا «التاريخ السري» الرسالة التي بعث بها تايان خان إلى الحاكم الأونغوتي الأخوش ديغيتهخوري التي بلا شك تعرض عدم تقييم الخان النايمني لإمكانات جنكيز خان.

يحكى أن سفراء تايان خان قالوا:

- هناك في الشمال يوجد المغول الوقحاء، فلتبق ساعدي الأيمن، سأتحرك من هنا لكي نتحد.

كان الأخوش شاهد عيان على سحق المغول الحقراء التتار وهزيمة الكيريت، حتى إنه لم يرد القتال مع جنكيز خان، وكما يقال إنه كان معجباً به، فرد على تايان خان من غير شرح الأسباب: «لا أستطيع أن أكون ساعدك الأيمن»، وأرسل لجنكيز خان رجاله الأوفياء ينبؤ به بالآتي: «بعث الخان النايمني تايان خان يطلب مني أن أكون ساعده الأيمن، ولكنني رفضت، والآن بعثت لك لكي أحذرك» [السيرة المكنونة، ص ١٤٣].

بلغ النبأ جنكيز خان في ساعة صيد المطاردة، وفي الحال تم انعقاد مجلس، وانعكس الرأي العام في كلمات بيلغوتاي: «النايمان يتفخرون بأن دولتهم كبيرة، ولها جمع غفير كبير من البشر... كيف يمكن السكوت على مثل أقوالهم المتعجرفة؟ فلنمتط خيولنا بسرعة!» [المصدر نفسه، ص ١٤٣-١٤٤].

وافق جنكيز خان على الهجوم بسرعة على تايان خان، وأعد نفسه جيداً للحرب، وقبل الهجوم أعاد تنظيم إدارة جيوشه وألوسه.

ورد ذكر إصلاحات عام ١٢٠٤ في «التاريخ السري»: «أعجب جنكيز خان بخطبة بيلغوتاي، وعندها أوقف الصيد وخطب من مقره (أبتشجيج كوديغير

وعسكر بنهر خالفا في أحراش أورثويون كبلتيغاي خاد، أجرى إحصاء القوات وتنظيم الألفيات وقيادتها من النبلاء، الذين من المفروض أن يقودوا الألفيات والمئات والعشرات، كما عين الموظفين (تشيربي) الذين بلغ عددهم ستة موظفين، وهم بالتحديد: دوداي تشيربي، ودوخولو تشيربي، وأغولي تشيربي، وتولون تشيربي، وبوتشاران تشيربي، وسيويكيتو تشيربي، بعد تجهيز الألفيات والمئات والعشرات اتخذ جنكيز خان لنفسه حرساً خاصاً (كيشيكيتين) مكوناً من ثمانين شخصاً للحراسة الخانية الليلية (كيبتيول)، وسبعين شخصاً للحراسة النهارية (تورخاود)، وفي هذه المجموعة تم اختيار أفضل المقتدرين وأبناء النويون الأصليين والصغار من أشقائهم قادة الألفيات والمئات وأيضاً أبناء الأحرار . . . ثم بعد ذلك اختيرت ألفية من الأبطال الذين آلت قيادتهم إلى أرخاي خاسار، وفي أيام المعارك ألزموا بالقتال أمام عينيه، أما في الأيام العادية فيكونون حرسه النهاري (تورخاوخ كيشيكيتين). إضافة إلى ذلك أمر أوغولي تشيربي بإدارة الحرس النهاري السبعيني، بعد التشاور العام مع خودوس خالتشان [المصدر نفسه، ص ١٤٤]، وهكذا أدت الإصلاحات إلى الإجراءات الآتية:

١ - تم إعادة تنظيم الجيش وأدخل نظام العشرات والمئات والألفيات، من المحتمل أن الإصلاحات لم تتعرض للجيش فقط، بل لامست كل قاطني الأولوس، بما أنه ذكر في المصدر أنهم «كونوا الألفيات» لا يستبعد أن كل سكان الدولة في وقت واحد تم تقسيمهم إلى مجموعات، كان من المفروض عليها أن تقدم عدداً مطابقاً من محاربيها للعشرات والمئات والألفيات بعتاد كامل، إنه نظام قديم لآسيا الوسطى، ومعروف منذ عهد شعوب الغون.

٢ - أدخل النظام الوظيفي (تشيربي) الموظفين «الذين يقومون بالخدمة» كانوا يديرون اقتصاد الأولوس وسكانه، إضافة إلى مراقبة «خدم مائدة الخان وحراسة أبوابه ورجال خيالته» وهلم جراً، وأيضاً حرس الخان الخاص.

٣ - تم انتخاب ألفية حراس الخان الملمزمين «بالقتال أمام عينيه» وأعد حرسه الخاص أيضاً المكون من مائة وخمسين حارساً، التحق بحراسة الخان الخاصة أبناء النويون وصغارهم وأشقايتهم إضافة لقيادات الألفيات والمئات، اختلف الباحثون في تفسير عبارة «قوم في وضع حر»، التي استعملها س. أ. كوزين، ويرى الباحث ب. راتشيفسكي أن الحديث يدور حول ساكني الأولوس المتساوين في وضعهم الاجتماعي للمفهوم الصيني «باي سين»؛ أي «الناس البسطاء» الذين لا يؤدون الخدمة الرسمية [ب. راتشيفسكي، ص ٧٧]. تشدد الترجمة المختصرة الحديثة لـ «التاريخ السري» إلى اللغة الصينية، على أن المصطلح المغولي يركز على أن يؤخذ للخدمة في الحرس أبناء أحرار القوم بالتحديد: «مالكو العبيد الذين ليس لديهم رتبة أو وظيفة» [دوروتايب، ص ١٨٢].

من الممكن أن هذه الإجراءات أكملت ماتم عمله عندما أنشأ أولوس جنكيز خان الأول، ونظمت تكوينه بعد ما لحق بها من جراء الحرب مع الكيريت عام ١٢٠٣.

شن جيش جنكيز خان البالغ من العدد تقريباً خمسة وأربعين ألف فارس الحرب ضد النايان في بداية صيف عام ١٢٠٤، وقبل الحملة ضحوا للراية المقدسة التي تعيش فيها الروح الحافظة للجيش (سولدا) حسب اعتقاد المغول، تحركت جيوش جنكيز خان صاعدة إلى أعالي نهر كيرولين، وعند اصطدامهم بالحرس الأول الناياني قرروا قبل المعركة الكبرى علف الخيول، والقيام بحيلة أن يشعل كل مقاتل في الليل خمس شعل في مناطق مختلفة في الوقت نفسه، التهب السهوب نارا وفي الليل المظلم الساطع النجوم، فتملك الخوف النايان، وخيل لهم أن جيش جنكيز خان غطى كل السهول ما دام في المعسكر المغولي، كان «عدد الشعل الملتهبة في المعسكر المغولي أكثر من نجوم السماء»، كما استخدموا حيلة أخرى أيضاً إذا

حكماً مؤلف يوان شي . أدخل المغول قبل المعركة حصاناً هزياً في معسكر تايان خان ، فعندما عرض على تايان خان الفرس النحيل ، وهو يعد الخطة للجيش قال : «إن الخيول المغولية هزيلة مثل هذا الفرس ، فلنستدرجهم إلينا ثم نبدأ الحرب ونقبض عليهم» . [يوان شي ، الفصل الأول ، ص ٧ ب] .

انظر تايان خان بجيوشه جنكيز خان على نهر ألتاي بجبال خانغاي ، وبرفته جاموخا ومثلو القبائل الأخرى ، ويذكر مؤلف «يوان شي» قبائل الميركيت والكيريت والأويرات والداربان والختاتشين والتتار ، وفي البداية عندما عرض تايان خان الحذر المتحفظ عدم المجابهة والتقهقر إلى خلف جبال ألتاي «لاستدراج جنكيز خان إلى الداخل» وجذب المغول أيضاً ، اتهمه ابنه كوتشوك بالجن مبرهنناً ذلك بصغر جيش جنكيز خان وتبعية أغلبية المغول بصورة جلية إلى جاموخا داخل معسكر تايان خان .

يتشدد تايان خان عديم المروءة من الذعر ، فمن أين ظهر لجنكيز خان أتباع كثيرون من المغول؟ من المعروف أن أغلبية المغول يتبعون لجاموخا هنا! وعلى الرغم من أن كوتشوك بنفسه لم يتخيل كم من المغول يتبعون لجنكيز خان ، وكم يتبعون لجاموخا ، إلا أنه من الواضح في أيام صيف عام ١٢٠٤ وقف الكثير من المغول ضد مالك السهوب المستقبلي ، دون علم بالفائدة من توحيد مغوليا .

أقنع كوتشوك والمقربون لتايان خان بتعديل قراره السابق الذي أملاه الحذر العاقل :

- نتلقى حتماً ، نحن سنتلقى ، ولكن هل ببساطة سنفترق؟ - هكذا اعترض تايان خان على كلمات كوتشوك الوقحة ، ولكن كوتشوك وأنصاره فرضوا على تايان خان مواجهة جنكيز خان ، تحرك الجيش النائماني على امتداد نهر تامير متجهماً عبر نهر أورخون إلى المنحدرات الشرقية بجبال ناخو .

حسب ما قال رشيد الدين إن جنكيز خان «أعد الجيش بنفسه» و «ذهب في أول فصيلة» اكتسح المغول والحرس النائماني الأول وطردهم، وبيسالة قاتل الفرسان خويلاي وتشجايي وتشجيلمي وسويتايي وتشاموخا، أما جاموخا الذي كان في معسكر تايان خان فيريد سحق جنكيز خان ويخاف منه، ولكن كان يتمنى بشدة القضاء على النائمانيان، ثم بعد ذلك التلخص من جنكيز خان واستلام السلطة على أرضه المنغولية، ولذلك عندما سأل تايان خان عن نوكير جنكيز البواسل «من هم هؤلاء القوم؟» أجابه:

- إن المتأخي تيموتشجين قرر إطعام أربعة كلاب بلحم بشري حتى الشبع، وربطهم بسلسلة معدنية، من المفروض أن تكون هذه الكلاب هي التي هاجت على حراستا.

فرد تايان خان:

- ما دام الأمر كذلك علينا أن نبتعد، ثم نبتعد أكثر من هؤلاء الحقراء، وأمر بنقل معسكره إلى أعلى في الجبال (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٤٥-١٤٧).
إذا أخذنا بما ورد في «التاريخ السري» من أن جاموخا أخاف تايان خان أربع مرات إلى أن بلغ الأخير أعلى قمة جبلية، وعندما تأكد بأن النائمانيان سيتكبدون الهزيمة حتماً هجرهم، وبرواية رشيد الدين: «عندما رأى جاموخا من على البعد النظام الحربي لجيش جنكيز خان نظر إلى نوكيره وقال: "أتعرفون أن الطريقة والنظام الحربي لقوات المتأخي تغيرت؟ إن قبيلة النائمانيان لا يمكن أن تترك لأي أحد شيئاً حتى ولو جلد رجل ثور، ولا يمكن أن يرحى من ورائهم ربح"» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٤٨]. كان جاموخا ضليعاً في حديثه وحكيماً، فلذا كان من الصعب فهمه في الحال وإلى ماذا يرمي، ولكنه كان حاسماً، «بعد نهاية حديثه ابتعد عن حصونهم ومكان المعركة ممتطياً فرسه».

وبرواية «التاريخ السري» إن جامو خالم يقم بخيانة ترك النايان في عز وطأة المعركة فقط ، بل أبلغ جنكيز خان بأن الجيش الناياني في حيرة من أمره ، وتايان خان تملكه الرعب وانتابه الشك في مجرى المعركة (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٤٩-١٥٠).

يبد أن رشيد الدين يصف تايان خان بصورة أخرى ، ويتصور أنه في واقع الأمر كان رجلاً حذراً وشجاعاً ، وفي اللحظات الحرجة قاتل المغول ببسالة وقوة «وأصيب بعدة جروح غائرة» ، ثم بعد ذلك اختفى مع نوكيره على قمة جبل ناخو غون الشديد الانحدار ، إن المقاتلين النايان فضلوا الموت على الهزيمة المخزية «فانطلقوا عبر مدرج الجبل وحاربوا بعنف إلى أن تم سحقهم» [رشيد الدين ، المجلد الأول ، الكتاب الثاني ، ص ١٤٨]. والبعض حاولوا الوصول إلى المعركة عبر الصحور ، ولكن قضوا نجهم بين الجبال «فمنهم من سقط ومنهم من تدرج من أعالي جبل ناخو غون فأصبحوا يقضون على بعض ، داهسين وطاعين . . .» وهارين وكاسرين عظام بعض كمثل الهشيم اليابس» [السيرة المكنونة ، ص ١٥٠]. تمكن كوتشلوك من الهرب ومعه فصيلة ليست بالكبيرة ، ولقي تايان خان نجبه ، انسحق النايان «وكانوا في حالة تفكك تام» ، وأصبحوا غنيمة لجنكيز خان وحراسه ، وتم تسليم غورييسو لجنكيز خان وحينها قال جنكيز :

- هل أنت من قال إن من المغول تنبعث رائحة نتنة؟ لماذا ظهرت إذأ؟
وبعد ذلك اتخذها عشيقه له [المصدر نفسه].

وهكذا ، وبعد القضاء على دولة النايان أصبح جنكيز خان عملياً الأمر النهي في كل منغوليا ، بل بقي كوتشلوك في عداد الأعداء حيث هرب إلى عمه بويوروك في منطقة ألتاي ، قسم من الميركيت الذين لم يتمكنوا من الرجوع لأراضيهم فقطنوا في الغرب ، والأويرات أيضاً العائشون إلى الغرب من بحيرة بايكال ، إضافة إلى

جاموخا وألتان وخوتشار، أي إن جنكيز خان «لا يوجد لأعداء الدولة مكان أفضل من المقبرة» [رشيد الدين]. وواصل مسيرته على المنوال نفسه مطوراً لنجاحاته، ففي خريف عام ١٢٠٤ قاد حملة ضد الميركيت «فأخضع الشعب الميركيتي» على الرغم من أنه لم يقض عليهم تماماً. هرب توختو بيكي حاكم الميركيت وانضم إلى كوتشلوك واستقر في وديان إرتيش خلف جبال ألتاي، وتم القضاء على بقايا الذين لم يعترفوا بسلطة جنكيز خان في منغولية (مع الميركيت). تم القضاء على بقايا الذين لم يعترفوا بسلطة جنكيز خان في منغوليا مع الميركين، أو فلول المندهرين الذين يبحثون عن طريق النجاة عند الميركيت.

قضى جنكيز خان شتاء عام ١٢٠٤-١٢٠٥ على السفوح الجنوبية من جبال ألتاي، وفي الربيع تجاوزت جيوشه الجبال، وفي منطقة نهر بوختارما هجم على توختو بيكي وكوتشلوك، وفي المعركة لقي توختو بيكي حتفه، وقسم كبير من جيشه ولقي نايمان كوتشلوك المطاردون من قبل المغول أيضاً حتفهم غرقاً عند محاولتهم عبور نهر إرتيش.

بعد الهزيمة الثانية ذهب كوتشلوك مع رجاله والكثيرون الذين لا يرغبون في تبوء جنكيز خان العرش في منغوليا عبر أراضي الأويغور إلى منطقة كارا كيتاي أي «الصين السوداء» على نهر تشو.

أخذ أبناء توختو بيكي مع رجالهم الميركيت رأس أبيهم المقطوع الواقع في ساحة المعركة، وهربوا إلى قبائل كيتشاك في السهول القازاخية، وأرسل سويتاي لملاحقتهم، وبرأي رشيد الدين إن هذه الأحداث وقعت في عام ١٢٠٨ وليس في عام ١٢٠٥.

كانت هزيمة تايمان خان وكوتشلوك وتوختو بيكي نذيراً بحتمية موت جاموخا الذي أخطأ التقدير، فبعد هزيمة النايمان مباشرة انضم غالبية المغول التابعين له وأيضاً

ممثلو القبائل المغولية الأخرى إلى جانب القوي، فأصبحوا في صف جنكيز خان .
 أما متى توفي جاموخا فغير معلوم، وهذا حدث إما في نهاية عام ١٢٠٥ أو في عام
 ١٢٠٧، يشير «التاريخ السري» إلى أن هذا حدث في عام ١٢٠٥. يعطي «التاريخ
 السري» للقارئ رواية يرى فيها ب. راتشيفسكي بحق «نوعاً من الرومانسية» أن
 جاموخا فقد رجاله وشعبه وبرفقة خمسة من رفاقه كان يلف البلاد، وعلى جبال
 تانلو اصطادوا خروفاً برياً وشووا لحمه، وفي أثناء الأكل «قال جاموخا لزملائه:
 " أي أبناء يمكنهم العيش على صيد الخراف البرية، كما تفعلون أتم الآن!»، وحينها
 وعلى الأكل قيده أصحابه، وأخذوه إلى جنكيز خان، وعندما أوصله حراسه إلى
 جنكيز خان يزعمون أن جاموخا قال له:

«تأهب غراب الحقل الأسود

ظن الكالغ

أن يقبض على علجوم

عن لوضع قوم

عبد حتى النخاع،

أن ينال من سيده

ورفع عليه يده

فيا صاحبي، يا سيدي

بماذا تجازيه؟»

أدركت الإيماة في لحظتها، «وسمع جنكيز خان بالإجابة "أبعقل أن يترك
 الذين رفعوا أيديهم على خانهم بالفطرة ينعمون بالحياة؟ ومن يحتاج لصداقة مثل
 هؤلاء القوم؟" وفي الحال أمر بسحق رعاة الماشية (أرات) الذين رفعوا أيديهم على
 خانهم الفطري، وأيضاً بالقضاء على ذريتهم! وهكذا على مرأى جاموخا وهب
 الرعاة المتنقلين للإعدام» [السيرة المكونة، ص ١٥٤-١٥٥].

إذا تتبعنا رواية «التاريخ السري» يمكننا أن نفكر أن جنكيز خان كان يريد أن يترك جاموخا حياً، وعرض عليه صداقته القديمة «ها نحن قد التقينا، فلنكن أصدقاء» معدداً خدماته في سحق الكيريت والنايمان، وأيضاً «أبلغتني حديث فان خان بكامله وكشفت لي على مواضع قواته»، «أتذكر كيف أنك بمجازية أبلغت النايمان، وكيف أنك بكلمتك قتل، وللموت بفاهلك . . . دفعت».

ارتحل جاموخا في رده بذاكرته إلى الصداقة القديمة، فرأى أنه لا يستحق أن يكون صديقاً: «إنني وفي أيام الصداقة لم أتمكن من التصديق كما ينبغي»، فكيف يمكنني التصديق الآن عندما:

نصبوك على عرش الخان
إلى ماذا تصبوا من صداقتي لك
وها العالم أمامك راع

«سأصبح قملة على رقبتك وشوكة في فراشك»، هكذا قال جاموخا مقيماً ما جرى بوعي، ومطالباً بشيء واحد هو الإعدام «بدون سفك الدماء، فإن الروح ستبقى حامية وحافظة للجنس، أبدى جنكيز اعتراضه مظهرياً وكان «بإمكان جاموخا إصلاح ما اعوج، ولكنه رفض»، ثم بعد ذلك أمر بالبحث عن حجة لإعدام جاموخا دون سفك دماء، أما رفاته فيجب أن تدفن بصورة تليق بالمقام «عندها تم قتله ودفنوا جثمانه رافعين عظامه» (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٥٥-١٥٨).

برواية رشيد الدين التي يرويها في القسم «الذي يتحدث فيه عن قبائل الترك المسماة بالمغولية» وليس في قسم «مدونات جنكيز خان التاريخية»، وفي وصف قبيلة جوريات أن الأسير جاموخا لم يكن مع خمسة من الحراس بل كان مع أقربائه وفصيلاً من نوكيره لا تقل عن ستين شخصاً، ويبدو أن هذا صحيح، إن جاموخا

الذي تم تسليمه لجنكيز خان أيضاً لمح بان الذي خان سيده الواحد لا يمكن أن يخدم رجلاً آخر بصدق، «فأمر جنكيز خان بعزل أقربائه وأبناء عمومته الذين كانوا في عداد الستين شخصاً، أما حراسه الثلاثون الذين قبضوا عليه فتم شقتهم.

والثلاثون الذين تبقوا خدموا جنكيز خان سمعاً وطاعة، وحتى قائدهم أولوغ باخادور صار رجلاً ذا شأن، وقدم من الخدمات ما يحق له عليها الإجلال، بما أن جنكيز خان كان يدعو جاموخا بالأخ المتأخي (أنداء) لم يرد قتله، فلذا أهداه لابن عمه النويون الجيداي نويون الذي كان يحبه بملكاته وحراسه وبيته، وبعد مرور عدد من الأيام قتله الجيداي، ويؤكدون أن الجيداي أمر بفصل أعضائه عن بعض، كل واحد على حدة، وقال جاموخا: "الحق يؤول إليكم! لقد كانت لدي فكرة بأنني سألتقى مساعدة السماء، وسأقطعكم إرباً، وبما أن السماء كانت بجانبكم، فعليكم الإسراع بي تري إلى أجزاء!" ولم يصبه الذعر أبداً. [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٩١-١٩٢]، بيد أن كل هذا شبيه بالحقيقة، عذب جاموخا أشد عذاب الذي يسمى عند الكيدانيين ليتشي؛ أي نوع خاص من العقاب يتسم بالقسوة والعنف.

وهكذا انقضت تلك الحقبة المظلمة والمريعة للسهب المغولية، فعندما تذكر مؤرخاً كوكو تسوسا أحد المقربين لجنكيز خان في تلك المدة قال: «استدارت النجوم في السماء وساد الخناق العام، لم يستطع الناس الاستسلام للفراش، فكانوا ينهون ويسلبون البعض، إلى أن اهتز سطح الأرض، وتطارت السباب مختلفة الألوان، تعذر الهجود في المضاجع، وقبل ذلك ساد العداء» [السيرة المكنونة، ص ١٨٥]. إنها كانت حرب الخانات والأعراق كالمغولية والكيريتية والنيامانية والميركيتية من أجل الهيمنة على منغوليا، وهكذا انقضى المسار السياسي بطرد عرق الترك من دولة منغوليا، ومن وقتها لم يكن لدى جنكيز خان منافس قوي في كل السهب

المنغولية، فمنهم من سحق، ومنهم من تحطم، وآخرون طردوا إلى ما وراء ألتاي في سهوب كيتشاك في وديان جمهورية قازاخستان الحالية، أو إلى الشمال البعيد إلى أحراش سيبيريا الكثيفة. إن الأراضي الممتدة الواسعة من جبال وأحراش وسهوب أصبحت تحت سيطرة القبائل المغولية وجنكيز خان الذي بدأ ساعتها يشيب، ومنذ ذلك الوقت صارت هذه الأرض تحمل اسم المنتصرين، وسميت منغوليا، والشعوب التي سكنتها كتب عليها أن تنسى تسمياتها القبلية، وأن تعرف نفسها بالمغول، كان من المفروض توثيق الاتحاد، وهذا ما قرره مجلس النبلاء العظيم لمنغوليا كافة.



كوريليتاي العظيم

«من خلف حجب السموات التتين
بهامته أطل، ومع سحائب من
من محتوم الكوارث أهل علينا
أهل علينا اليوم المقبل»
ف. س. سولوفيوف

في ربيع عام ١٢٠٦، وعند منابع نهر أونون، اجتمع كوريليتاي النويون العظيم مجلس الخانات والنويون من كل أرجاء منغوليا الجديدة، ورفرت على المؤتمرين راية بيضاء مقدسة، ذات تسعة ألسن، حافظة للمحاربين؛ أي روح سولدا، ومن أوائل مقررات كوريليتاي تلقيب تيموتشجين جنكيزاً وحاكماً لمنغوليا، كما «نصب خاناً» أو «جعلوا منه إمبراطوراً»، كما ذكر في الترجمة الصينية «للتاريخ السري»، وفي الوقت نفسه وثق المجلس لقب جنكيز خان.

في مؤلف يوان شي أن «الإمبراطور دعي لمؤتمر كبير ضم كل الخانات والنويون، ورفع على العرش الإمبراطوري الراية البيضاء ذات تسعة ألسن عند منابع نهر أونون، فقدم الخانات والنويون اللقب الإمبراطوري جنكيز أي (تشانسزيسي خواندي)» [يوان شي، الفصل الأول، ص ٨]. إن نص مؤلف يوان شي قريب جداً من نص «التاريخ السري»: «عندما وجه الشعوب التي كانت تسكن الخيم اللبادية إلى طريق الحق، ففي عام ١٢٠٦ أي عام النمر الأرقط انعقد المجلس على منابع نهر أونون، وهناك رفعت الراية البيضاء المقدسة ذات تسعة ألسن، ونصبوا جنكيز خان خاناً» [السيرة المكنونة، ص ١٥٨].

يذكر رشيد الدين تأكيد لقب جنكيز خان الذي كان عند تيموتشجين سابقاً «عندما أقبل عام النمر بسلام وخير، العام الذي وافق بداية رجب من العام ٦٠٢ هجرية الموافق لـ فبراير - مارس ١٢٠٦ في بداية فصل الربيع، أمر جنكيز خان برفع الراية البيضاء ذات تسعة ألسن، ومع الحضور عقد مؤتمراً عظيماً، أي كوريلتاي، وفي هذا المؤتمر أكدت له التسمية العظيمة جنكيز خان، واعتلى العرش بسعادة، ووثق التسمية كوكيتشي بن مونليك بيكي إيتشيغي من قبيلة كونكوتان واسمه الحقيقي تاب تانغري» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٥٠].

ثمّة بعض الاختلافات بين المصادر الثلاثة الرئيسة، مثلاً يرى مؤلف «يوان شي» ورشيد الدين أن كوريلتاي دعي له جنكيز خان بنفسه، أما «التاريخ السري» فيصمت عن ذلك، في مؤلف «يوان شي» أن لقب جنكيز خان قلده الخانات والنويون لتيموتشجين، أما «التاريخ السري» فيذكر أن المجلس عقد عند منابع نهر أونون «ونصبوا جنكيز خان خاناً».

يفترض رشيد الدين أن لقب جنكيز خان «أقره» الساحر كوكوتشو، أما مؤلف «يوان شي» فيثبت أن اللقب تم تقليده لأول مرة، بينما يتضح عند رشيد الدين للمرأة الثانية، وبالمناسبة إن «التاريخ السري» يطرح الرؤية نفسها «وأطلقوا لقب خان على جنكيز خان»؛ أي إن جنكيز حمل هذا اللقب سابقاً، ومن المحتمل حتى إنه لم يتم تأكيده أو تثبيته بصورة خاصة، وشعاراً للسلطة كانت الراية البيضاء ذات تسعة ألسن «راية كبيرة خالصة البياض» [التدوين الكامل، ص ٧٦].

كما كانت لدى موخالي أيضاً، أعلنه المجلس (كوريلتاي) أميراً (غورخان) راية بيضاء ذات تسعة ألسن، ولكنها تختلف عن راية جنكيز خان بأن عليها قمراً أسود مرسوماً، كان لدى جنكيز خان شمسية ترمز للسلطة الإمبراطورية وكان لونها أحمر أو أصفر (فاللون الأحمر يعدّ اللون الرسمي في ذلك الوقت لأسرة «سون»

الحاكمة في الصين)، اعتلى العرش أيضاً الذي يشبه «كرسي واعظ دير بوذي» و«مزين برؤوس التنانين المطلية أيضاً بالذهب» وهذا يعدّ أيضاً رمزاً صينياً للجبروت والسلطة، وعرش موخالي يختلف عن عرش جنكيز في أنه مطلي بالفضة، أما سرج فرس جنكيز خان وطقمه فكانا مزينا بتماثيل ذهبية من تعرجات التنانين.

إن العدد تسعة - عدد ألسن الراية الإمبراطورية - يعدّ عند المغول مقدساً؛ فإن الذهب في العرش والطقوس الزخرفية لجنكيز خان والفضة على المتطابقات من الأدوات عند موخالي، يبدو أنهما كانا موجودين منذ البداية أي منذ عام ١٢٠٦، ويبدو أن الباحثين الأجانب أولوا اهتمامهم، ولأكثر من مرة، على كثرة المعادن الثمينة عند المغول، أصابت الدهشة لي سيتشوان: «على الرغم من أنهم لموا من الثمين لما إلا أنهم لم يتوقفوا عن الجمع»، وعندما نهب المغول كل جيرانهم شيد نبلاؤهم لخيولهم معالف من الفضة ومن الذهب، وصنعوا أواني للنيذ (كما ورد في «التدوين الكامل» ص ٧٦-٧٧).



المرشد من السماء الخالدة، التي أنعمت عليه بالعرش الخاني، أي جنكيز خان، كان في الكوريلتاي مشغولاً بالأعمال الدنيوية وبخاصة إتقان النظام الإداري الحربي للأولوس المنغولي، الذي بلغ من الاتساع الآن مساحة دولة التتار المغولية، الطبقة السائدة في مجتمع التتار المغول في القرون الوسطى هي طبقة النبلاء (نويون)، الذين رشحوا تنصيب جنكيز مع عشيرته على العرش الخاني وأيدوه، فلهذا كان لا بد من أن يكونوا أول من يتنعم بخيرات البلد الجديد، إن جنكيز الإمبراطور بالتصورات التقليدية لتلك الأماكن «حاكم متجه بوجهه إلى الجنوب»؛ أي إلى الشمس، قسم الجيش وإدارة الدولة على ثلاثة أقسام: «الجناح» الأيمن من

الجيش؛ أي بارونغار بقيادة القائد (تيمينيك) بوورتشو، الممتدة غرباً حتى حدود ألتاي، واليسرى؛ أي جونغار بقيادة تيمينيك موخالي، الممتدة شرقاً إلى جبال خينغان الكبرى، وأيضاً الوسط بقيادة تيمينيك نايأ، ففي سيرة موخالي الذاتية في مؤلف «يوان شي» نقرأ: «اعتلى جنكيز خان (تاي تسزو) العرش الإمبراطوري، ومنذ البداية أمر بوورتشو وموخالي بأن يكونا قائديه الأيمن والأيسر، وببشاشة قال: 'في الدولة تعيش كثرة من القوم الأقوياء الذين تم قمعهم بفضلكما، وأنما وأنا كمثل عرش الخطور الواحد، ومثل أكتاف جسد واحد، فيجب عليكما لزاماً أن تصيرا جسداً واحداً، وساعتها فقط يمكن أن نحقق ما نسعى إليه» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص ١٦].

كان هذا النظام التقليدي لإدارة الدولة، والمعلوم منذ عهد شعوب الغون أن منغوليا قسمت على خمسة وتسعين وحدة إدارية عسكرية، التي كان لزاماً عليها أن ترسل في حالة الضرورة ألف مقاتل، «وفي الواقع حوالي الألف أو أكثر» بقيادة نويون أو قائد الألفية حسب النظام الحربي المغولي، تسلم قواد الألفيات والمئات عادة مكافآت على خدمتهم، إن وظيفة ورتبة قادة الألفيات والمئات وقادة القيادات (تيمينيك) وراثية، عندما عين جنكيز خان قادة الألفيات قال:

- أود أن أسجي الشكر والعرفان مع التمنيات إلى قادة الألفيات النبلاء القوم الذين عملوا وجهدوا معي في بناء الدولة! (كما ورد في «السيرة المكونة» ص ١٥٨).

وهكذا أصبح النويون دعامة السلطة الجديدة الذين ساعدوا بصورة أو بأخرى في انتصارات جنكيز خان، وأصبحوا يمثلون القيادة الاجتماعية للمجتمع التتري المغولي؛ أي أقرباء جنكيز خان، الذين كان يمثل مصالحهم، وفي الواقع في عداد قادة الألفيات، الذين تم ذكرهم في «التاريخ السري»، يقابلنا مونليك وبوورتشو

وموخالتي وخورتشي وخوبيلاي وتشجيلمبي وبورو وخول شيغفي خوتوختو وسورخان شيرا وكوكو تسوسا وتايا وتشجاي وسويتاي وهلم جراً. وفي الألفيات كانت العائلة والأسرة أقل وحدة في النظام الإداري الحربي، التي كان من المفروض عليها أن تقدم عشرة محاربين، يفترض أن عدد المغول في عهد جنكيز خان بلغ مليون نسمة.

وفي الإدارات المنفصلة حددت الأقاليم، ومنها الإقليم الشمالي المأهول «بسكان الغابات»، ولإدارتهم عين جنكيز خان نصيره وحارسه خورتشي، ولقد تم تقسيم الخاضعين من القبائل بالقوة أو بمحض إرادتهم على مبدأ النظام الإداري الحربي في وقتها، أي بنظام الألفيات، وتم تثبيتهم في مواقع معيشتهم، والحد من حرية تنقلهم. إن الإشارة إلى هذه الحقيقة المهمة التي وردت في «التاريخ السري» تخص «الشعوب الغابية» فقط، «التي لا يحق لها الحركة الحرة دون موافقة خورتشي. أما بخصوص التنقل بمحض الإرادة فلا يحق التفكير فيه» [السيرة المكنونة، ص ١٦١]. ولكن من الصعب أن يكون هذا الأمر قاصراً على «الشعوب الغابية» فقط، فكان من المستحيل متابعتهم، فلهذا من المحتمل عندما دار الحديث عنهم وعن تعيين خورتشي، دخل النظام العام في قاعدة القوانين (ياسا)، الذي سن أول مرة في زمن إصلاحات عام ١٢٠٣، إن قاعدة القوانين (ياسا) لم تكن قاعدة منظمة، بل جمعت الأوامر (يارليك)، والقوانين (ياساك)، والنصائح (بيليك)، ولم يبق من (ياسا) في الوقت الراهن سوى ما ذكر في المتواترات، ولقد وصل إلينا منها بصورة خاصة في أحد فصول قاعدة القوانين (ياسا) القول: «من يغير مكان خدمته فعقابه الموت»^(١).

(١) يكتب جويني «ياسا» أي مجموعة القوانين أيضاً كانت من أجل أن لا يخرج أي فرد في أعداد الألفيات والمئات والعشرات من حدود موقعه المسجل فيه إلى مكان آخر، وحتى الاختباء عند الآخرين، وأن لا يسمح أي فرد لنفسه استقبال الخارجين، ومن يخرق هذا =

يشار في «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية» إلى أنه «لا يحق للقوم البسطاء وفقاً لمجموعة القوانين التنقل من عشارية إلى أخرى أو مثنوية إلى أخرى بلا إذن، وهذا عملياً يعني تثبيتهم بأرض نويون وقادة الألفيات والمئات وهلم جرّاً» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص ١٣٣]. إن ربط المنتجين مباشرة بالمكان ووسائل الإنتاج في مجتمع القرون الوسطى المغولي شكل أساساً لاضطهادهم.

وأشار غ. روبروك أيضاً إلى أن جنكيز «أصدر قراراً لا يحق بموجبه لأي شخص التخلي عن الخدمة، ما دام لم يبلغ سن الشيخوخة، ولا يستطيع بأي حال من الأحوال العمل» [الرحلات، ص ١٥٤]. إن تقسيم السكان بين الآلاف والمئات سجل فيما يسمى بالكتب الزرقاء^(١).

في مؤلف «يوان شي» يحكى: «أنه لم يكن هناك كادر وظيفي في الحقبة الأولى لنشأة الدولة، وكان على رأس الإدارة قاضي [دوانشيغوان] ويسمى جارغوتشي، كان يحل كل مشكلات شؤون الدولة، وفي يده مسؤولية القضايا الجنائية والمدنية» [يوان شي، الفصل ٨٥، ص ١١-١٤]. يبدو أن هذه المعلومة غير كاملة.

كان في أولوس جنكيز خان على الأقل ست عشرة وظيفة، ومن هذه الوظائف الاقتصادية التي ينتسب إليها رعاة الماشية والإبل وقادة قطعان الخيل وقادة عربات الخناطير والنازحين؛ وفي خدمة الدار ينضوي المسؤولون عن لباس الخان والمائدة والنيذ والموسيقيون وحراس الديار والمداخل، وتوجد أيضاً الخدمة البوليسية الحربية التي تضم حملة الأقواس والسيوف وقابضي اللصوص، أما الصقارون = القانون فعقاب الخارج عن حدود موقعه الموت أمام كل الجماهير، ومن ساعده على الاختباء مصيره الأغلال والقصاص». [حول تكوين قاعدة القوانين العظيمة (ياسا) ص ٤٨-٤٩].

(١) أصدر جنكيز خان أمره بتسجيل ذلك في نقش أزرق، وفيما بعد قام كوكو ديبتير بيتشيك مضاهاة هذه النقوش مع المواطنين حسب المجموعة اللغوية [السيرة المكنونة، ص ١٦٠].

فكانوا يمثلون مصلحة الصيد الخانية، وسكرتارية الدولة تتكون من معدي المراسم والأوامر، وكتاب السكرتارية والمترجمين.

العمالقة الأبطال وحراس (نوكير) جنكيز خان الأقوياء عينوا قواداً للحرس، أمرهم «تاي تسزو» بممارسة هذه السلطة بالتوارث، أي قيادة المجموعات الحرسية الأربعة (كيشيك)» [يوان شي، الفصل ٩٩، ص ١١]. أصبح بورخو وموخالي وبوررتشو وتشيلون قادة للمجموعات الحرسية الأربع، وكما ذكرنا سابقاً أن الحرس تم انتخابه أو تنصيبه من عداد أبناء قادة الألفيات والمئات وصغار أشقائهم، شغل الحراس الدائمون (كيشيكتون) المناصب الأساسية في جهاز إدارة الدولة المغولية. إن المؤلف يتقاسم الرأي تماماً مع الباحث سياو تسيستين الذي يرى أن الحرس الدائم الخاني يمثل «نواة جهاز الدولة المغولية المبتكر» [سياو تسيستين، ص ٤٤].

مثل رؤساء الحشود (تيمينيك) السلطة المحلية وقادة الألفيات والمئات والعشرات، وكما قال عطاء مالك جويني: «لم يكن هنالك أحد خارج عن صفوف الألفيات والمئات والحشود التي ينسب إليها، أو عليه البحث عن ملجأ في مكان آخر» [جويني، ص ٣١]. كان لكل ألفية مرعى (نونتوغ) ومصادر ماء (أوسون)، تم إعادة تقسيم بعض قطع الأراضي، إذا لم نقل أغلبها، الصالحة للرعي.

كما ذكر غ. أ. فيودوروف دافيدوف أن «جوهر الملكية الإقطاعية للأرض في المقام الأول هو السلطة على البشر الذين يعيشون ويعملون على الأرض المحددة، إن نظام البناء الاجتماعي المغولي في عهد جنكيز خان كان مبنياً على خضوع جميع الرحل لقادة النويون الذين كانوا تحت إمرتهم العسكرية، إن التقسيم الإداري الحربي للسهوب الذي انتهجه المغول أطر عملية تقسيم الأراضي». [فيودوروف دافيدوف، ص ١٥].

وهكذا أصبح قادة الألفيات يقومون بالمهام الإدارية (إدارة السكان الموكلين لهم) والاقتصادية (إدارة المراعي وأماكن الترحل) وجمع الضرائب، وتسيير الأعمال العسكرية (تجنيد عدد محدد من المقاتلين وإرسالهم إلى الخدمة) ومن المحتمل أنهم كانوا قضاة محليين، يشير سياو تسيستين بصورة خاصة إلى أن النظام المغولي للعشرات والمئات والألفيات وعشرات الألوف «لم يكن اتحاداً عسكرياً فقط، بل كان يمثل أيضاً أقساماً إدارية ومدنية؛ أي إن قادة العشرات لم يكن عملهم يقتصر على قيادة العشرة من المقاتلين، بل كانوا يدبرون أمر أسر المحاربين في الوقت نفسه» [سياو تسيستين، ص ١٧٨].

وزع جنكيز خان أقرباءه لإدارة الأفضية (خوبي)، وعين لكل منهم قضاءً «منح أمه عشرة آلاف يورتابلاشتراك مع أوتشيغين (شقيقه من جهة أبيه. تعليق المؤلف) ولأبنائه تشجوتشي تسعة آلاف خيمة، وتشأداي ثمانية آلاف خيمة، ولأوغودوي خمسة آلاف خيمة، ولتولوي خمسة آلاف، ولشقيقه خاسار أربعة آلاف، ولأتشيداي ألفين، ولبيلغوتاي ألف وخمسمائة خيمة» [السيرة المكنونة، ص ١٧٦]، ولكل أنساب جنكيز خان تم تعيين ممثلين من النويون ذوي مهام مجهولة، مثلاً النبيل كوكو تسوس كان يراقب تشأداي الرجل «الصارم غامض الطبع»، الذي كان من المفروض أن يناقش معه كل ما يخطر على البال» [المصدر نفسه]، فإذا حكمنا بهذا المثال يتضح أن أقرباء جنكيز خان كانوا بوضوح تحت المتابعة، إذ لم يكونوا تحت المراقبة المباشرة^(١).

(١) حسب رأي فلاديمير تسوف «إن تقسيم الأفضية قام على أساس أن الدولة، أي (أولوس إيرغين) تعد ملكية لسلالة مؤسسها كافة، الذي صار خاناً لها، وكما السلالة يحق لفروعها أيضاً وأفرادها الحق على الأرض التي يشغلونها بالرعي عليها، ويحق لأفراد السلالة أيضاً وفروعها ملكية القوم الذين يعدون أقتان أرض بالتوارث وتابعين، ويحق للسلالة أيضاً ملكية الشعب والدولة بصورة مطلقة على مساحة معينة، وانطلاقاً من هذا تم تعميم مفهوم =

ومنح أيضاً أقرباء جنكيز خان خوبي؛ أي مكافأة، مثل حراسه الخانزين على لقب الجدارة. إن إعطاء المكافأة (خوبي) صحب بتقديم مستند (بارليك) يحق بموجبه التمتع بالخوبي ورمز السلطة (غيريغي)، إن الذين كانوا يقومون بالإدارة والمراقبة، إضافة إلى تمتعهم بالخوبي والدخل الخاص، يحق لهم أيضاً التمتع بالأختام (تامغي). «كان القضاء خوبي ينقسم على قسمين: أولاً عدد معين من أسر الرجل (أولوس)، وثانياً مساحات الرعي والصيد (نوتوغ) الكافية لإعالتهم. [فرديمير تسوف، النظام الاجتماعي، ص ١١١] أو كل تقسيم الخوبي إلى شيغي خوتوختو.

لم يكن يوجد في المجتمع المغولي في القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر أي معلومات أكيدة عن الضرائب والقروض، ولكن نلاحظ أنهما كانا موجودين. وذلك من وجود دائرة الإعفاء من الربقة الخانية (دارخات) وهكذا من أجل المساعدة في تحرير تيموتشجين من الأسر التايجيوتي نال سورخان شيرا حق الدارخات في أماكن تنقله في سيلينغي، فلو لم تكن دائرة الإعفاء من الربقة الخانية (دارخات) المعروفة لدى الجميع موجودة في عام ١٢٠٦ فعن ماذا كان قد دار الحديث بين جنكيز خان وسورخان شيرا؟ فوجود الإعفاء من الربقة الخانية يؤكد وجود ما يعفى عنه، الغرض الواضح للألفيات تجهيز الحرس الدائم الخاني

ملكية السلالة على أكبر المجالات في الأولوس وعلى مستوى الشعب» [فلاديمير تسوف، العصر الاجتماعي، ص ٩٨-٩٩]. إن هذه الفكرة، حتى في الوقت الراهن، نستحق الاهتمام في وجهات نظرها، على الرغم من أنها تتناقض مع الفكرة الأساسية؛ أي فكرة السلطة الخاصة، أي السلطة الخانية، التي أنعمت بها القوة العليا عليه، إن السماء الزرقاء الخالدة والأرض يختاران للخانية ليس السلالة، بل رجلاً محدداً، إن قدوم جنكيز خان إلى السلطة كان مرتبطاً بهذه الفكرة؛ أي فكرة الاصطفاء، التي في مظهرها المتطرف مرتبطة بالتصور الذي يشير إلى أن السماء والإرادة العليا أنعمتا عليه ليس بمنغول بل بكل ما هو ممكن (معلوم ومرئي) من العالم.

(كيشيكين) «بالقدر الذي حددناه لإمداد الجيوش في مواقعها: فعلى أبناء النويون وقادة الألفيات المتوجهين للخدمة، بغض النظر عن حجم ورتبهم التي نالوها من آبائهم وممتلكاتهم، سواء حصلوا عليها بجهودهم الخاصة، فوقفاً للقاعدة، وبغض النظر عن ممتلكاتهم، عليهم إمداد الجيش بالقدر المطلوب عن خروجهم للخدمة، وأيضاً حتى أبناء النويون وقادة المئات والأحرار الطلقاء المتوجهون للخدمة في صحبة ثلاثة من الرفاق» السيرة المكنونة، ص ١٦٨-١٦٩]، وفي بيت المال كانت تجمع الماشية والكوميس وما شابه ذلك.

إن إصلاحات عام ١٢٠٦ ضربت بالأواصر القبلية، عندما وقع ممثلو القبائل المختلفة تحت قيادة ألفية أو مئوية واحدة، الذين كانت تجمع بينهم الخدمة والمعيشة الموحدة في مكان وجودهم، وباختلاطهم وضعوا بداية لتكوين هوية مغولية واحدة، كتب ب. فلاديميرتسوف: «إن اختلاط العشائر والأجيال المغولية في ظل الهيكلية الألفية للموحدة الأساسية في بناء إمبراطورية جنكيز خان كان لها أثر مهم في البناء القبلي (السلالي). إن التقسيم الألفي وتوزيع الخويبي أدى إلى انشقاق صفوف أكبر القبائل المغولية القديمة، وعلى سبيل المثال التار وميركيت وجاجيرات ونايمان وكيريت، التي صارت بقاياها في غالب الأحوال مشتتة في الأولوسات والدويلات الألفية [فلاديميرتسوف، النظام الاجتماعي، ص ١٠٩].



كتبت التعاملات الكتابية عند المغول بالخط الأيغوري، الذي طوع إلى اللغة المغولية، وبما لدينا من معلومات أن هذه الكتابة بدأ إدخالها بمساعدة تاتانوغا الأويغوري الأمين السابق بخاتم الخان النايمني تايان خان، يشير مؤلف «يوان شي» إلى أن «تاتانوغا كان أويغورياً ذكياً وضيعاً في اللغة، وبعمق استوعب كتابة لغة

دولته، فلذا فضله الخان النايمني تايان خان وأمنه على خاتمته الذهبي والمال والحبوب أيضاً، بعد حملة تاي تسزو أي جنكيز خان إلى الغرب حيث تم القضاء على دولة النايمن، هرب تاتاتونغا مخبئاً ختم الدولة الذهبي، وبعد مضي مدة من الزمن تم القبض عليه، فحقق معه جنكيز خان سائلاً: "لقد آلت إلي كل أراضي تايان خان وقومه، فلماذا أنت تحتفظ بهذا الختم؟" فرد: "إنني خادم وأريد أن أؤدي خدمتي حتى الممات حافظاً ومنفذاً لما استلمته من حاكمي المرحوم، وهل لي بحاكم آخر؟" فقال الإمبراطور جنكيز خان: "إنك لرجل جليل وفي" ثم سأله: "كيف يمكن استخدام هذا الختم؟" فرد: "الختم يستعمل في كل الأعمال، مثلاً لتوثيق صرف المال وتوزيع الغلال وتعيين الخدمة" أثنى الإمبراطور: على الختم وأمر من حوله من علية القوم باستخدامه كل مرة عند إصدار المراسيم، كما أمر أيضاً بأن يعمم الختم على كل النبلاء الذين بيدهم السلطة، ثم قال الإمبراطور: "هل أنت عارف بكتابة لغة دولتك؟" فأفصح تاتاتونغا بكل الأسرار التي خبأها، ثم بعد ذلك أمره بتعليم الخانات استخدام الكتابة الأويغورية لتسجيل لغة دولته المغولية» [يوان شي، الفصل ١٢٤، ص ٣ب]. كان ذلك في عام ١٢٠٤.

يرى الباحث تامورا دزيتسودزو أن الكتابة تم إدخالها سابقاً أي في عام ١١٨٩ أو ١٢٠٤ أو ١٢٠٦، أما الباحث ن. مونكوييف فيربط دخولها بتاريخ أسر تاتاتونغا أي العام ١٢٠٤، لكن الباحث المغولي دالاي تشولوون يصر على أن المغول مارسوا الكتابة بالخط الأويغوري قبل أسر تاتاتونغا، فيكتب: «استناداً إلى مؤلف "يوان شي" إن جنكيز خان في عام ١٢٠٤ عرف من أسيره تاتاتونغا وزير الخان النايمني تايان خان، الذي كان معه الختم الخاني، الغرض الذي يستعمل فيه هذا الختم المنقوش بالكتابة، ثم بعد ذلك بدأ استخدامه كتوثيق المستندات الحكومية، وكلف جنكيز خان تاتاتونغا نفسه أيضاً بتعليم أبنائه وأقربائه النبلاء (نويون) الكتابة

الأويغورية . إن غالبية الباحثين الأجانب يستندون على تلك المعلومة غير الواضحة التي تفتقر للبراهين القاطعة ، ويفترضون أن المغول اقتبسوا الكتابة الأويغورية في بداية القرن الثالث عشر ، ولكن الراجح أن الهجائية الأويغورية - التي تم استعمالها منذ القدم من قبل بعض القبائل المغولية - تم نشرها في عهد جنكيز خان في كل أرجاء منغوليا ، وأصبحت كتابة رسمية للدولة المغولية الموحدة» [تشولون دالاي ، ص ١٥٠-١٥١] .

إن النقاش للأسف لا أساس له تماماً قبل العثور على النصوص التي كتبت باللغة المغولية ، ولكن بالخط الأويغوري ، فلنقل في الثمانينات والتسعينات من القرن الثاني عشر ، ولكن الغريب في الأمر أن جنكيز خان لم يعرف الأختام ، واستخدامها يناقض كثيراً من الآراء ، ولكن لا يزال يتحتم علينا التعامل مع الحقائق ، يذكر تشجاو خون : في بداية ظهور دولة التتار الحاليين لم يكن لديهم مستندات مكتوبة ، وفي كل الأحوال عندما يرسلون أوامرهم كانوا يعيشون سفراءهم ، وفي أثناء ذلك كان الرسل يحفرون على الخشب علامات للتذكير ، ولم يكن لهم الحق حتى في إضافة حرف واحد في المستندات التي استخدموها بأنفسهم في تعاملهم مع الدول الأخرى ، وإلى الوقت الراهن في كل العلاقات كانوا يستخدمون الكتابة الأويغورية . . . ولكن استخدم التتار الكتابة الصينية في العاميين الأخيرين من العلاقة مع دولة تسزين ، وذلك لأن الموظفين في دولة تسزين الهاريين خانوا دولتهم واستسلموا للتتار أمالين في الخدمة معهم ، بحكم أنهم بدون مأوى بدأوا يعلمونهم صياغة المستندات» [التدوين الكامل ، ص ٥٢] ، كما يشبت جويني^(١) واقعة تعليم الكتابة من قبل الأويغور .

(١) «وبما أن القبائل التتارية لم يكن لديها الهجائية الخطية أمر جنكيز خان الأويغور بأن يعلموا الأطفال المغول الخط الهجائي» . وهذا المصدر مأخوذ من مؤلف [حول تكوين ياسا العظيمة ، ص ٤٢] .

يشير الباحث ف. بارتولد إلى أن «حنكينز خان فضل الحضارة الأويغورية، لأنها أكثر قرباً لحياة الرجل؛ لأنه تبقى في حياة الأويغور الكثير من متواترات السهوب وتقاليدها» [بارتولد، نشأة الإمبراطورية، ص ٢٦٤].



استخدم البريد اليامي في كل منغوليا وعلى النهج الصيني الذي استخدم آنذاك مع الدول المجاورة لمنغوليا مثل دولة تشجور تشجينيين وتانغوت، ولخدمة كل يام (من الصينية «تشجان» أي «محطة البريد») أعد لها عدد معين من الرجال والخيل، قسمت كل المحطات (يام) بين عشرات الآلاف، ولكل ألفين محطة بريدية مكلفين بخدمتها، عند استعراض المصادر الصينية التي تتحدث عن الخدمة البريدية في عهد الكيدانيين والتشجور تشجيتيين نجدها مليئة بالمشاهد التي تشير إلى أن هذه المحطات كانت تمثل مصدراً لاستغلال السكان القاطنين حولها، يخص هذا الأمر الرسل المعتمدين ببطاقات (بايتسزا) والسفراء الذين يعملون في جباية حوائج الخزينة، إن القوانين التانغوتية نظمت حدود العقاب للمستغلين بصورة تفصيلية، يروي رشيد الدين عن الوضع المغولي أن النبلاء القائمين بالجباية كانوا «يضطهدون ويشتمون ويضربون الشعب» ومن «كل النواحي كانوا يجمعون زاد الطريق بمقدار يزيد بكثير عن متطلبات الطريق والقانون (ياساك)»، ففي حالة خروج النبلاء يبلغ عدد مصاحبهم مئتين أو ثلاثمائة شخص، وفي بعض الأحيان من خمسمئة إلى ألف شخص «وذلك لأن وزن المبعوثين وأهميتهم كانت تتوقف على الجمهور المصاحب، فلذلك اجتهدوا في دعوة نو كبيرهم من عداد أقربائهم وأصدقائهم» [رشيد الدين، المجلد الثالث، ص ٢٦٢-٢٦٥].

نقش على ضريح يلوي تشوتسا الكيداني المصلح الإداري لدولة منغوليا الكلمات الآتية: «في البداية كل الأمراء وأقرباء الإمبراطور برؤيتهم الذاتية كانوا يستطيعون أخذ خيول محطات البريد، وإضافة إلى ذلك كان عدد السفراء كبيراً جداً، فإذا وقعت الخيول من التعب كانوا يستبدلونها من المواطنين كرها لمواصله السير عليها، وفي المدن أو المواقع وعلى الطرقات وأين ما حلوا كانوا يبعثون القلق في نفوس السكان المحليين، وعندما يبلغون بلاطاً كانوا يطالبون بمختلف الخدمات، فإذا تأخر تقديم المائدة ولو لمدة بسيطة كانوا يقومون بضرب [مقدميها] بالسياط» [المصدر الصيني، ص ٨١].

من رموز السلطة وعلاماتها البطاقات المعتمدة (باتسيزا) المصنوعة من الذهب والفضة، التي اقتبسها المغول من جيرانهم، وبالأحرى من الصين، ولها قيم مختلفة، وفي الغالب الأعم كانت تزين برأس النمر المرسوم عليها، وتحريرها عدد حقوق مالكيها، ومن التحارير المعروفة «أمر المنزل من السماء الإمبراطور جنكيز خان العاجل»، «أمر المنزل من السماء الإمبراطور جنكيز خان الملزم بأداء الأعمال برؤيته»، زينت البطاقات المعتمدة الذهبية بالنمر المستلقي وثلاث من اللؤلؤ. أدخل المغول الخدمات البريدية اليومية إلى أوروبا، ومن المعروف أنها استمرت في روسيا حتى القرن التاسع عشر.

وبسرعة صارت الشخصية الأساسية في إدارة شؤون الدولة المغولية في يد «داروغاتشي»؛ أي «الخامد للعصيان»، الذي صار مراقباً لإدارة شؤون الشعوب المحلية الخاضعة، ومن رموز سلطته لوح من الخشب (غيريغي) وختم (تامغو). ونبه إلى أن هذه الرموز تم اقتباسها من الصين، ففي الأقاليم الغربية التي أخضعها المغول مثل إدارتها النائب باسكاك تامغاتشي (نائب أو قائد جيش).

أخذت الدولة المنغولية اسم «يكي منغول ألوس» أي دولة منغوليا العظمى، وبالصينية «دا مينغو غو» وفي المعلومات التي أوردها الباحث الصيني لي سيتشوناي أصبحت دولة جنكيز خان من عام ١٢١١ تسمى بالدولة المغولية العظمى، وكما ذكرنا سابقاً إن مختصر مبحث ب. فلاديميرتسوف العلمي الناص على أن الدولة كانت تحت سلطة السلالة الخانية يحتاج إلى التصحيح، يرى الباحث غ. فيرنادسكي أن السلطة العليا تركزت في شخص الخان «واللقب الخاني يعدّ صفة للسلطة العليا» [حول بناء قاعدة القوانين العظيمة، ص ١٥]، ولو أن الخان لا يصبح خاناً دون موافقة المؤتمرين في المجلس (كوريلتاي) يقر كل الباحثين شمولية سلطة الخان المغولي، وباستنتاج الباحث غ. فرانكي نزلت شرعية سلطة جنكيز خان من السماء وبنيت على خضوع الشعوب الأخرى، فاستكان التابعون وصار الحكم عليهم متعة، وأصبح العرش الخاني يسمى بـ «سرج الغبطة». إن شمولية سلطة الخان المغولي - على رأي فرانكي - بنيت على عدم الاختلاف بين الانتماء الحقيقي إلى دولته والمحتمل أو الكامن، أما الدول التي لم تخضع، فبعثت لها الأوامر بالخضوع والولاء لأمر السماء، وذلك بالخضوع لممثلها على الأرض، ومن هذا المنطلق كان عدم الاعتراف بالسلطة الخانية يعدّ تمرداً وعصياناً، وقد ذكر في الكتابة المنقوشة على ضريح يليوي تشوتساي المذكورة أعلاه الآتي: «عندما يرفض الخصم [العدو] أمر [الخضوع] ويطلق ولو سهماً واحداً أو حجراً [على الجيوش المحاصرة] وفقاً لنظام الدولة [السائد آنذاك] يباد الجميع دون رحمة في كل الأحوال» [المصدر الصيني، ص ٧٦].

كل هذا يعطينا تصوراً عن سلطة الأباطرة الصينيين، الإمبراطور الصيني خواندي يعدّ «حاكماً لكل ما هو تحت الشمس». إن هذه النظرية - كما يشير فرانكي - «تسفر عن عدم معرفة الحدود»، وكان الخان يتمتع بنعمة خاصة وكاريزما [فرانكي، ١٩٧٨، ص ١٦-١٨].

استخلصت الباحثة ت. اسكرينيكوفا من النصوص وجود نوعين من النعمة عند جنكيز خان وأتباعه، وهما القوة «كيوتشو» ونوع خاص من النعمة يسمى «سو»؛ أي النعمة السماوية [اسكرينيكوفا].

وتمتع الأباطرة الصينيون أيضاً بنعمة القوة «دا» كما تمتع الكاغانات الترك بنعمة تسمى «كوت»؛ أي القوة الخانية المنزلة من السماء.

إن نظرية السلطة الخانية كانت سرية مكنونة بحكم أنها لا يوجد نص صيني قديم يعكس بصورة منتظمة نظرية السلطة للإمبراطور الصيني، كما لا يوجد أيضاً نص مغولي مماثل.

ففي المرحلة الحالية من الصعب أن نجد حلاً للسؤال الذي ينص على أن كماً من الآراء في سلطة الخان المنزلة من السماء مكونات مغولية، أي من أصول ترجع لآسيا الوسطى، وكماً من مكونات صينية، ولكن في عهد المغول بالذات ليس على مستوى التنظير فقط بل عملياً وبحدة طرح سؤال شمولية سلطة الخان المغولي بصورة استثنائية؛ أي عدم السماح لوجود حكام آخر، لم تشتت استثنائية السلطة التساوي في العلاقات، الشيء الذي لم تسمح له بالمناسبة النظرية الصينية للإمبراطور، من المحتمل والجائز ملاحظة نوع الاختلاف في أن الإمبراطور الصيني كان يعرض نفوذه على من حوله قبل كل شيء بالقوة (دا)، وليس بطلب الطاعة فقط، وعلى الرغم من أنه أيضاً أنعم عليه بالقوة (دا) ووهبته السماء بحق عقاب المتمردين، إلا أنه من المحتمل أن النظرية والتجربة المغولية كانتا على شدة من الغظاظ والسماحة.



قن الإمبراطور جنكيز خان لأبناء عشيرته الزواج من أبناء قبيلة خونغيرات
«عندما تظهر إلى النور فتاة من قبيلة خونغيرات يصبحن من جيل إلى جيل
إمبراطورات، وإذا ولد صبيان فيصبحون من جيل إلى جيل يتزوجون بالأميرات،
فليكن باستمرار من جيل إلى جيل أن يعلنوا عن هذا الأمر . . . في بداية الهلال من
الفصول الأربعة» [يوان شي، الفصل ١١٨، ص ١]. المهم في الأمر أن هناك مادة
قانونية شبيهة في المضمون تحكم العلاقات الزوجية بين بيت أنغيم القيصري
وسلالة سيمي، الذي منه يحق فيه للأباطرة المنتهين لعشيرة أنغيم الزواج من فتيات
قبيلة سيمي، ونجد ذلك في القوانين التانغوتية في منتصف القرن الثاني عشر.

إن الدور الأساسي في الدولة الجديدة منح شيغي خوتو ختو الذي - كما ذكرنا
سابقاً - له سلطة تقسيم الخوبي، وبالتحديد وجه له جنكيز خان هذه الكلمات:

- عندما نبدأ بمساعدة السماء الخالدة في إعادة بناء دولتنا الشعبية كن مقلة للنظر
وأذنأ للسمع! وأجر لي توزيعاً سكانياً متبائناً للقبائل في الدولة، وامنح أهلنا
وأشقاءنا وأبناءنا نصيبهم من القوم الذين يعيشون خلف جدران اللباد، المسمون
بالطائعين، ثم وزعهم على النواحي، على القوم الذين يستعملون الأبواب الخشبية
ولا يحق لأي منهم تغيير تقسيمك!

إن الأمر الأخير يعدّ تحريماً مباشراً للخروج من ربة المالك، تشولون دالاي
يرى أن «القوم الذين يسكنون خلف جدران اللباد» هم قوم الدولة الرحل، أما
«القوم الذين يعيشون خلف جدران خشبية» هم الحضرة الذين يمارسون فلاحه
الأرض [تشولون دالاي، ص ١٠٧].

نصب شيغي خوتو ختو رئيساً للمحكمة العليا ومنح تعليمات:

- استأصل السرقة واقض على الخداع في كل أرجاء الدولة، والمذنبين في
الموت امنحهم عقاب الموت! والمجرمين عاقبهم بالغرامة! (كما ورد في «السيرة
المكونة» ص ١٥٩-١٦٠).

إن القيادة الخائبة لا يحق أن تتوه في العتمة

ولا يحق للخان ارتكاب الخطأ!

اعملوا برؤيتكم الذاتية

كونوا أشداء ، ولا تنجرفوا أو تنحازوا للجانب آخر

ولا تسمتروا من كلماتكم

ولا تحتدوا مع أجلة القوم

ولا ترفعوا أصواتكم على الناس!

ولا تبثوا الشائعات

ولا تربطوا الجرس بطرف الثوب

ولا تأتوا إلى المحكمة شعثاء

[ألتا نوبتشي ، ص ٢١٥]

وهكذا حكماً بإحدى القصائد المغولية - التي كما يرون ترجع في تاريخها إلى

الربع الأول من القرن الثالث عشر (ن. شاستينا) - كان جنكيز خان يعظ قضاة .

إن المحكمة التي ترأسها شيغي خوتوختو في قراراتها كان من المفروض أن

تتقيد بمجموعة القوانين (ياسا). يرى غ. فينادسكي باحث مجموعة القوانين (ياسا)

أن مجموعة القوانين أقرها المجلس؛ أي المؤتمر «كوريلتاي» في عام ١٢٠٦ ، ثم

أعيد النظر فيها في الأعوام ١٢١٨ و ١٢٢٥ ، إن هذه القوانين - على رأي فينادسكي

- ضمت القانون الدولي والمدني الإداري والميثاق الأتاوي والجنائي والخاص

والتجاري والقضائي ، ويرى أيضاً أن من المكونات الأساسية للقانون الدولي

المتضمن في قاعدة القوانين «طريقة محددة لإعلان الحرب مع ضمانات أمنية لشعب

الدولة المعادية في حالة الخضوع الاختياري». كانت الإمبراطورية مبنية على تثبيت

السكان التام في خدمة الدولة ، كان على كل فرد - تحت وطأة الخوف من الموت -

إرجاع كل عبد هارب إلى سيده «إن الهدف الأساسي من العقاب في مفهوم ياسا (قاعدة القانون) التصفية البدنية للمجرمين». إن الباحث غ. فينادسكي يقيم جنكيز خان ليس كقائد عبقرى فقط بل كرجل دولة «طويل الباع وواضع القوانين الإمبراطورية» (انظر [حول تكوين ياسا العظمى، ص ٣٣]).

ولكن لم تصبح «ياسا» قانوناً للجميع يمكن الانصياع إليه دون إخلال، عند تقسيم الخويي والمناصب والهدايا أذن جنكيز خان لمجموعة من حراسه «بارتكاب تسعة ذنوب؟ أي لا يحق محاكمتهم وعقابهم لما يرتكبونه من الذنوب التسعة التي تحاسب بالموت شتقاً إذا ارتكبتها غيرهم.

منح أوسون العجوز من أقرباء جنكيز خان لقب بيكي، وكان عليه التربع على مكان مقدر (أي العرش)، وأن يرتدي معطفاً أبيض ويركب الفرس الأبيض، إن منصبه كان يحمل معنى مقدساً، وكان عليه دراسة علاقة الطبيعة وظواهرها في دولة جنكيز خان؛ أي إنه كان بمنزلة منجم الحاشية الذي يراقب التقويم، وكما قال جنكيز حسب الروايات:

- فليحدد ويخبرنا بالسنين والأشهر! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٦٦).

كان استخدام التقويم في الشرق الأقصى يعدّ سمة من سمات الدولة المستقلة. ثم أمر جنكيز خان بزيادة عدد حرسه الخاص (نوكير) إلى عشرة الاف شخص، نص الأمر على الآتي: «نعلن لكل السامعين من الألفيات وما تلاهم عند الأعداد لنا فيلق الحراس الدائم، يجب أن يتكون من أبناء النويون والتيمينيك والألفيات والمئات أبناء القوم الأحرار أيضاً القادرين على حمايتنا بإمكاناتهم الخاصة وقوتهم الجسدية، أبناء نبلاء الألفيات (تويون) الزموا بالمشول إلى الخدمة بعدد لا يقل على عشرة رفاق وشقيق صغير مع كل واحد، وأيضاً أبناء نبلاء المئات

التزموا بالمشول إلى الخدمة بعدد لا يقل عن خمسة رفاق وأخ صغير مع كل واحد، أما نبلاء العشرات بالتساوي مع أبناء الرجال الأحرار فملزمون بالمشول برفقة شقيق صغير وثلاثة رفاق، كما التزموا أيضاً جميعاً بالظهور بوسائل النقل التي عادة يستلمونها في المواقع، ولرفقة أبناء نبلاء الألفيات يأخذ المحاربون في المواقع بتقسيم الألفيات والمئات بهدف تقوية الفيالق الذي أعد لنا [السيرة المكنونة، ص ١٦٨-١٦٩].

وهكذا تم إعداد فيلق من الحرس الدائم «عشرة آلاف كيشيكيتين» وبلغ قوامه ثمانية آلاف حارس نهاري «تورخاوت» إضافة إلى فرقة واحدة قوامها ألف مقاتل من الأبطال، وفصيطة من الحرس الليلي قوامها ألفا حارس «كيبتيول» أمر جنكيز خان قائلاً:

- حرسنا الخاص، الذي بلغ عدده عشرة آلاف حارس سيكون في وقت الحرب فوج الوسط الأساسي.

لقد ذكرنا سابقاً أن حرس المقر الخاني كان يتغير كل ثلاثة أيام «إن الحرس الليلي (كيبتيول) القائم بحماية المداخل ملزم بقطع رأس كل من يحاول الاقتراب من القصر ليلاً» [السيرة المكنونة، ص ١٧١].

لم يكن باستطاعة أي فرد السؤال عن عدد الحرس الدائم أو نظام تغير عمل الحراس، أما المتهمون بالتساؤل عن الحرس فكان عقابهم غرامة تتمثل في نزع ملابسهم ومصادرة خيولهم بطاقمها وسروجها، وعند مغادرة موقع الحراسة دون إذن كان العقاب الضرب بالعصي، ولكن، على الرغم من ذلك، تمتع الحرس الدائم (كيشيكيتين) بعطف خاني إلى درجة أنه لا يمكن محاكمته دون علم الخان.

أعلن جنكيز خان:

- إذا أريد تسليم الخرس الدائم إلى المحكمة يجب إخطارنا أننا نستطيع بأنفسنا إعدام من يستحق ذلك كمثل من يستحق الضرب بالعصي، فنبسطه ونعاقبه بهن! [المصدر نفسه، ص ١٧٠].

إن الحارس الدائم العادي يعدّ في مكانه أعلى من محارب الألفية البسيط، حفظ لنا «التاريخ السري» نشيد الحرس الخاني الحماسي:

كست السحب السماء الليلية
وأنت الوفي لنا في مقر حراستك
حارس لخيمتنا بمدختها
ملتصق أنت بمتانة حولها
ولنوم عميق لأجفان قد جلت
وعلى العرش الخاني قد أجلسني
[المصدر نفسه، ١٧١].

في الوقت الراهن على ضوء بعض الحقائق أن الدولة المنغولية الموحدة - التي أسسها جنكيز خان - في جوهرها دولة رقيق، بينما يرى الباحث ب. غورفيتش أن «هذا استخفاف مقصود لمستوى التطور الاقتصادي لمنغوليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (انظر [تشولون دالاي، ص ٤]). ولكن المسألة ليست بهذه البساطة ولا نود مناقشتها في هذا السياق، ولكن نقول ليس كافياً أن نعول في كل شيء «على مجتمع الرحل المغولي الإقطاعي» في أيامنا هذه.

وهكذا في بداية القرن الثالث عشر وعلى السهوب المغولية - بعد منافسة طويلة بين الخانات - ظهرت قوة ضخمة ومتلاحمة تولدت من جراء المعارك، مكونة دولة موحدة - مترابطة منذ ذلك الوقت، ذات سلطة إدارية عسكرية تتسم بالأساسيات الحربية، إن حكم العساكر - على الرغم من أنه على أساس آخر - معروف جيداً في

الوقت الراهن ، كل شيء ابتداءً من نظام العشرات وإلى العشرة آلاف (تيمينيك) في دولة جنكيز خان ، وكل حارس في مقره ، حتى ولو كان مسؤولاً عن إدارة المائدة ، كانوا كلهم في المقام الأول حربيين ، ثم بعد ذلك الوظائف التي تحكم القضايا المدنية ، إنها قوة أعضائها النويون ، وكانت تعمل لمصالحها . «إن أurstقراطية السهوب المغولية كان يههما استتباب الأمن داخل مراعيها ، والحملات الناجحة ، إضافة إلى الحروب مع العدو الخارجي الذي يعود عليهم بالغنائم» واستمرارية الحرب لم يضعف بل كان في ازدياد ، وخلال عهد حكم جنكيز خان حتى وفاته لم يمر عام واحد دون حرب أو هجوم على الجيران ، إن هذه الدولة الجديدة المتشعبة بالانتصارات الداخلية والمتعطشة للغنائم الجديدة منذ ميلادها أعلنت عن نفسها كقوة معادية للعالم المحيط ، وكما قال الباحث ب . فلاديميرتسوف مجازاً : «لوقت طويل استمرت تتعامل مع الشعوب المتحضرة مثل عصاة من اللصوص» . [فلاديميرتسوف ، النظام الاجتماعي ، ص ٨٦] .



ثروة دولة التانغوت

«لماذا لم يعد إلى هذا الوقت؟ لم أستطع
الإجابة عن هذا السؤال، وصلت فقط عن
كل النساء من أجل أن لا يرى العالم الحرب»
لاوشا . مذكرات عن مدينة القطط

يرى الباحثون الصينيون المعاصرون لمؤلف «يوان شاوشي»؛ أي «تاريخ أسرة
يوان» أنه بعد اتحاد منغوليا مع السكان المحليين من نهب بعضهم بعضاً «ولهذا
أصبحت دول الجوار الغنية مصدراً لاستمرار (لدى المغول . تعليق المؤلف) غزوات
السلب»، «إن التطلع الشبق للسطو يعدّ السبب الأساسي للحروب الدائمة التي
قادها الحكام المغول» [يوان شاوشي، ص ٩٨]. إن العالم الكبير الواقع إلى الجنوب
الشرقي والجنوب والغرب والشمال الغربي من السهوب المنغولية «تتين جديد أطل
بوجهه» قبل عام من المؤتمر العظيم (كوريلتاي)، الذي انعقد على شواطئ نهر
أونون، من المحتمل أن يكون جنكيز خان عند رجوعه من ألتاي بعد انتصاره على
النايمان عام ١٢٠٥ قد قرر مراجعة مائة الحدود مع جاره؛ أي حدود دولة تانغوت،
دولة سيا العظمى، فأمر جيوشه باقتحام مناطقها الغربية؛ أي نواحي شاتشجوو
وغواتشجوو، يروي مؤلف «يوان شي» أنه في عام ١٢٠٥ «انقض على قلعة سي
سيا فاليتسييزيليساي وعبر مدينة لوسي، فنهب الشعب وأخذ الإبل» [يوان شي،
الفصل الأول، ص ٨٨].

يروي رشيد الدين عن هذه الحملة كالآتي: «أمر جنكيز بتنظيم جيشه،
وتحركت الحملة صوب ناحية كاشين المسماة بتانغوت، وعندما بلغوا هذه الناحية

وصلوا في البداية إلى قلعة تسمى ليغيلي، وهذه المنطقة محصنة بشدة، فحاصروها، وبزمن بسيط احتلوها، وحطموا كل شيء، حتى الحائط والأساس، تحركوا منها إلى مدينة تسمى كلين لوشي وهي أكبر مدينة، فاحتلوها ونهبوها، ثم بعد ذلك احتلوا بعض نواحي تانغوت ونهبوها أيضاً، وسرقوا كل الماشية التي عثروا عليها في تلك المناطق، ثم بعد ذلك عادوا إلى ديارهم بغنائم حربية كثيرة العدد، وبعده لا يحصى من الجمال والأبقار مائتين أمام جنكيز خان، وعلى وجوههم سمة خضوع الرقيق» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٤٩-١٥٠].

كانت الحملة على سي سيا في نهاية الربيع؛ أي في الشهرين الثالث والرابع من العام ١٢٠٥ بالتقويم القمري، كان النجاح فيها كاملاً والغنيمة عظيمة.

إن التانغوت - الذين بلغ عمر دولتهم مئتي عام، والذين كانوا طيلة الوقت يتفاخرون أمام التتار المغول بثقافتهم التي تحوي هجائية مكتوبة (على الرغم من أنها على النمط الصيني)، تفسر معنى كلمة «تتار» وبمدلول كلمة «كلب»، الشيء الذي يوضح مدى احتقارهم لجيرانهم من الشعوب الشمالية - صاروا مهانين، لقد سمح التانغوت للعدو بالمرور عبر الحدود، وتركوه يسلب مناطقهم الغربية، لا يعقل بأن يكون التانغوت على غير علم بما حدث في السهوب المغولية، لقد رأوا في حدودهم فان خان في أكثر أيام حياته العصبية، وابنه سانغوم أيضاً الذي بحث عندهم عن مخبأ عندما طارده جنكيز خان، إنهم بالتأكيد كانوا على معرفة بجنكيز خان.

يمكن القول مع التأكيد إن نهب المناطق الغربية لسي سيا يعد انتقاماً للتانغوت لعدم تسليمهم سانغوم، ومن المحتمل أن نجاح حملة جنكيز خان الأولى ضد التانغوت - التي لم يشارك فيها جنكيز خان بنفسه - تعد تجربة أولى للسلاح المغولي في الحرب ضد سكان الحضرة والمدن والقلاع، التي تكللت بالنجاح وساعدت في قيام المؤتمر (كريلتاي) على شواطئ نهر أونون، وساعد جنكيز خان أيضاً في أن

يصبح أعظم خان لكل القبائل التتيرية المغولية، لقد زادت الغنائم جنكيز خان ثراءً بحكم أنه وفق العادة المغولية «وبعض النظر عن حجم الغنيمة، صغيرة كانت أم كبيرة، لا بد أن يترك منها قسم يقدم للإمبراطور جنكيز» [التدوين الكامل، ص ٦٨]، وكما زادت من ثراء الجيش وهيكله أي (نوكير) ونبلائه، والأهم من ذلك فتحت شهيتهم وزادت من شغفهم وتعطشهم للغنيمة، إن المؤتمر والإصلاحات التي أعقبته كونا جهازاً إدارياً حريباً ذا نزعة إصلاحية تصل إلى مصاف الدولة.

وبعد مرور عام ونصف فقط على انعقاد المؤتمر العظيم (كوريلتاي) وفي خريف عام ١٢٠٧ انقض المغول من جديد على حدود دولة التانغوت، وفي هذه المرة في أقاليم الوسط، وتمركزوا في جبال ألشان قرب قلعة فالاخاي (أويراك) طوال الصيف، عام ١٢٠٨، كانوا يهجون القرى المجاورة، طوق التانغوت الإقليم الذي استولى عليه المغول، ولكنهم لم يهجموا للقضاء عليهم، لأنهم من المحتمل لم يقرروا أو لم يستطيعوا، ومن جديد تركوهم يخرجون بغنائمهم إلى السهوب المغولية، يقول رشيد الدين: إنه في وقت حملة ١٢٠٧-١٢٠٨ على التانغوت «للمرة الثانية شن جنكيز خان ضدهم الحرب، وحينها احتل كل الناحية، ورجع إلى دياره منتصراً ظافراً وراضياً» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٥١]، وفي هذه المرة شارك جنكيز خان في الحملة بنفسه، ولكن لا يمكن الحديث بأي حال من الأحوال عن الاستيلاء التام على كل أراضي التانغوت، يرى الباحثون الصينيون أن سبب الحملة الثانية على دولة سي سيا هو رفض التانغوت دفع الإتاوات وعدم اعترافهم بالتبعية الإقطاعية له [يوان شاو شي، ص ١٠٢].

مضى شتاء عام ١٢٠٧-١٠٢٨ عندما حارب جنكيز خان في أراضي سي سيا، يشير مؤلف «يوان شي» في الرد على السفارة القيرغيزية في أعالي نهر ينيساي، بعث المغول لهم سفيرين، ففي القرن الثالث عشر تفككت الدولة

القيرغيزية الواقعة على نهر ينساي إلى عدة أقسام مستقلة عن بعضها، وترأس كلاً منها حاكم يلقب «إنال»، استقبل القيرغيزيون السفراء المغول بإحلال، وبعثوا رداً برسولين هما إليك تيمور وأكيراك، اللذان جلبا لجنكيز خان صفراً أبيض، وفتحوا ساعتها مقابلة رسمية مغلقة مع جنكيز خان، حيث يعدّ القيرغيزيين من هذه اللحظة تابعين إلى إمرة دولة جنكيز خان [يوان شي، الفصل ١، ص ١٨].

يروى «التاريخ السري» قصة خضوع القيرغيزيين بصورة أخرى، في عام ١٢٠٧ أرسل تشجوتشي ابن جنكيز خان لإخضاع «سكان الغابات» مع الجيوش، نتيجة ذلك أخضع المغول الأويرات والبورياتيين وبعض الشعوب القاطنة في جنوب سيبيريا، وبفضل جيش تشجوتشي وضغوطه الواضحة أذعن «تومين القيرغيزيين»، وحينها أقبل إليه نبلاء القيرغيز إيدي إنال وألدير وأوليبك ديغين وأهدوا لتشجوتشي طيوراً من السنقور الأبيض وخيولاً بيضاء وسماسير بيضاء، وأيضاً برفقته حضر سفراء القيرغيز والشعوب الأخرى إلى جنكيز خان، منح حكام الأويرات وأبناءهم حق الزواج من الأميرات المغوليات، صرح جنكيز خان لابنه تشجوتشي:

- إنك لأكبر أبنائي، وقبل أن تتخطى رجلك الديار عدت بسلام في أتم الصحة منتصراً، دون خسائر في الأرواح والخيول، على شعوب الغابات، خذهم مني هدية في إمرتك (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٧٤-١٧٥).

من المحتمل أن تبعية القيرغيزيين كانت «طواعية قسرية»، وهذا واضح من الأحداث التي وقعت بعد عشرة أعوام؛ أي في عام ١٢١٧ عندما دخل المغول لإخضاع التومات المقيمين إلى الغرب من بحيرة بايكال، ألحق التومات الهزيمة بالمغول، وحينها أدرك جنكيز خان العالم أهمية خطة «فرق تسد». أمر تابعيه من القيرغيزيين بإخماد انتفاضة التومات، لكن القيرغيزيين رفضوا تنفيذ الأمر، وثاروا

أيضاً وأصبحوا متمردين ، كان على حاكم «سكان الغابات» تشجوتشي أن يذهب بنفسه لترتيب الوضع ، فعبر جليد نهر سيلينغو ماراً بأراضي الأوبرات والبوريات إلى أن بلغ منابع أعالي نهر نينساي ونهر أوسا ، ثم بعد ذلك نزل إلى أسفل نهر نينساي وهجم على المناطق الوسطى التي يسكنها القيرغيزيون ، وصلت الجيوش المغولية إلى نهر أوب ثم رجعت ، وبهذا دخلت تحت إمرة تشجوتشي حتى الشعوب القاطنة غرب القيرغيزين أي شعوب التيلينغوت .

إخضاع جنكيز خان لأويغور من نتائج الحملات على التانغوت ، تشتت الإيغوريون في بداية القرن الثالث عشر في كل النواحي من خمالي إلى كوتش ، وفي الشمال اتحدوا مع النايما ، وفي الجنوب امتدت أراضيهم إلى بحيرة لوب نور ، فإذا تمت في منغوليا السيطرة على هذا الإقليم ففي شرق تركستان أصبح التريك أيضاً ، لقد أخاف سحق النايما الأويغور .

لم يكن الأويغور مستقلين في نظام التبعية والخضوع الشائك ، لقد اعترفوا بتبعيةهم لدولة كارا كيتاي ؛ أي دولة لياو الغربية ، ففي عاصمة الأويغور غاوتشان يوجد نائب كيداني ، عانى الأويغور من ملاحقة الكيدانيين وتزايد نفوذ المغول ويطشهم بالتانغوت الذين قاسموا العدا في غابر الأزمان ، مما وضع الأويغور أمام أصعب الخيارات : إما أن يقفوا صفاً واحداً مع أعداء جنكيز خان ، أو أن يكونوا معه اتحاداً يمثل قوة جديدة ، التي أسفرت عن نفسها بسرعة ووضوح .

قرر المغول في عام ١٢٠٨ القضاء التام على كوتشوك ، وحينها تجاوزت جيوشهم ألتاي ، وعند نهر بوختار ما سحقوا النايما والميركيت ، ولى كوتشوك عبر نهر إرتيش هارباً إلى أراضي الصين السود (كارا كيتاي) في عام ١٢٠٩ قتل الأويغور النائب الكيداني ، بعث جنكيز خان لهم سفراءه ، أرسل حاكم الأيغور إديكوت بارتشوك مع السفراء المغول إلى جنكيز خان اثنين من وجهائه وأعلن

تبعيته للمغول، ووافق أيضاً على أن يعلن نفسه ابناً له، كما ورد في الأسطورة أن سفراء أعلنوا لجنكيز خان:

- تتابني الغبطة العظيمة عندما يتهادى إلى سمعي مجد جنكيز خان، فلنبتهج عندما تنقش الغيوم وتبلج الشمس التي هي أم كل شيء، فلنفرح عندما يذوب الجليد وتفتح الأنهار من جديد، ألا ينعم علي الحاكم جنكيز خان ويجد لي ولو رباط حزام ذهبي، أو حتى قصاصة قرمزية، وحينها سأكون ابنك الخامس وأهبك كل قوتي!

إن جنكيز الذي استقبل سفراء إديكوت حملهم الإجابة الآتية:

- سأهبه ابنتي زوجة وسيكون ابني الخامس، فليقدم محملاً بالذهب والفضة واللؤلؤ والصدف والديباج الذهبية والأقمشة المزخرفة الحريرية (كما ورد في «السيرة المكنونة»، ص ١٧٤).

تباطاً الأويغور أيضاً في إظهار إخلاصهم، فعندما بعث خودو بن توختوبيكي الميركيتي سفراءه إلى إديكوت، قضى الأويغور عليهم، وطردها بقية الميركيت الذين حاولوا الاختفاء في أراضيهم، رافضين لهم اللجوء.

تحركت القافلة المحملة بالهدايا الثمينة من دولة الأويغور بقيادة إديكوت نفسه إلى منغوليا، جمع إيديكوت من أتباعه الأويغور الذهب والفضة واللؤلؤ والأقمشة الحريرية، هكذا أمر جنكيز خان، وحينها رجع جنكيز خان من حملته على التانغوت، حسب ما قال مؤلف «يوان شي» فتح إديكوت مقابلة رسمية على نهر كيرولين في عام ١٢١١، إن جنكيز خان الذي أجل دوماً الأويغور رأى في شخصهم منورين للشعب المغولي، أعد لإديكوت استقبالا حاراً ووهبه ابنته الأتونو (إيليخاتون) زوجة له.

تم الاعتراف ببارتشوك كابن خامس لجنكيز خان، وألزم أبناءه بأن يكونوا إخوة له، وبهذا الأمر حدد موقع الأويغور في الدولة المغولية، ويحكم كابن لجنكيز خان ومؤسس للأسرة، تم الاعتراف ببارتشوك وأنجاله الإديكوت كخانات عظام وتابعين لجنكيز خان وأسالة أباطرة أسرة يوان كانوا يدفعون الإتاوات ويشاركون المغول في حملاتهم، ولكن حافظ الإديكوت على الاستقلال في إقطاعاتهم، ساعد الإويغور المغول في احتلال الدولة التانغوتية دولة سي سيبا، يبدو أن الأويغور الذين كانوا في خصام مع جيرانهم التانغوت منذ القدم، ثم إن احتلال التانغوت جزءاً من أراضيهم في القرن الحادي عشر ساعدهم في أن يجدوا في شخص جنكيز خان منتقماً لهم على الإهانات القديمة، لم يكن جنكيز خان في البداية بحاجة إلى القوة الحربية من الأويغور إلى هذه الدرجة، بقدر حاجته إلى ضمان عدم قيام اتحاد أويغوري تانغوتي ضد المغول، ولكي لا يجد النايان والشعوب الأخرى التي لم يتم القضاء عليها أمثال الميركيت محبباً في شرق تركستان، ولكي لا تتجمع قوات جديدة، شغل الاتحاد مع الأويغور مكاناً مهماً في الرؤية الاستراتيجية، كحماية متينة للجناح الأيمن الغربي للحرب التي ستقوم مع تشجور تشجين.

وفي عام ١٢١١ نفسه «وصل خان الكارلوكيين (سي سيوي) من الناحية الغربية وأعلن تبعيته». [يوان شي، الفصل الأول، ص ٨ب]. إن الكارلوكيين القاطنين منذ غابر الأزمان في غرب ألتاي، في حوض إرتيش، وارتحلوا مؤخراً إلى الجنوب بالقرب من مدينة بابتين باشباليكو، ثم تحركوا بعد ذلك تحت ضغوط الأويغور إلى إقليم يقع في الجنوب الشرقي لبحيرة بالخاش على نهر إلي وتشو، وهنا وقعوا تحت سيطرة دولة الكاراخانيين، وفي عهد حكم السود الصين منح حاكمهم لقب أرسلان خان، وبالمناسبة إن هذا اللقب، وفق المصادر الصينية، حمله حاكم الأويغور، كان الكيدانيون يرسلون للكارلوكيين نوابهم، وعندما قضى

جنكيز خان على النايان أرسل فصيلة من جيشه بقيادة خويلاي لإخضاع الكارلوكيين، ولكن أرسلان خان سبق الأحداث الحوادث ففضى في البداية على نواب الصين السود، وأعلن تبعيته للمغول طوعاً، وفي عام ١٢١١ أقبل بصحبة خويلاي إلى مقر جنكيز خان، وانضم إليه حاكم الكارلوكيين الآخر أيضاً، خان مدينة ألمالك فادزار، الذي كان يشي بأوضاع كوتشلوك لجنكيز خان الذي أعد له الاستقبال الرسمي أيضاً، وللانتقام على الوشاية هجم كوتشلوك على مدينة ألمالك، وأسر فادزار، وعندما أسرعت الجيوش المغولية لنجدة الكارلوكيين تخلى كوتشلوك عن حصار مدينة ألمالك، وقتل فادزار، وبعد مقتله نصب ابنه خاناً لمدينة ألمالك وزوجه بفتاة من حاشية جنكيز خان إكراماً لإخلاص والده في خدمة المغول، خدم الكارلوكيون المغول بإخلاص، وشاركوا في الحملة على خوارزم.

حدثت كل هذه الوقائع في وقت واحد في أثناء حملة المغول الكبرى على دولة التانغوت، وفي هذه المرة، حسب القرار «النهائي» الداعي إلى السحق الكامل لدول التانغوت في الشهر السادس الموافق للسادس من أبريل حتى السادس من مايو عام ١٢٠٩ دخلت الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان بنفسه وللمرة الثالثة دولة سييا، أرسل التانغوت جيشاً كبيراً بقيادة وريث العرش لمقابلته، وفي معركة حاسمة قضى عليها المغول، واستعاد جنكيز خان من جديد قلعة فالرخاي، ومنها واصل المغول هجومهم على تشجونسين عاصمة دولة سييا، وفي أحد المعابر الجبلية في جبال خيلانتشان (ألاشان) عند مخفر إمين تربص لهم جيش من تانغوي قوامه خمسون ألف مقاتل، وفي هذه المرة هجم التانغوت على المغول بشجاعة وألحقو بهم الهزيمة، ولكن لم يحرزوا النجاح بالمواصلة قدماً بسبب حر الصيف الذي لم يحبه جنكيز خان، فعسكر الجيشان مقابلة بعضهما مدة شهرين دون مهاجمة، حتى دخل الخريف، وحينها وصل إلى جنكيز خان إمداد ودعم إضافي، فاغتنم مواتاة

الطقس، وأعد جيوشه، وواصل الهجوم على عاصمة سي سيا، انقضت الخيالة المغولية بكثير من القوة على معسكر التانغوت، ولكن التانغوت استطاعوا دحرهم بسهولة، مما جعلهم يصدقون في النصر من جديد، وصاروا بكل جيوشهم يطاردون المحاربين من الأعداء، وهذا ما كان ينتظره المغول، فقد وقع التانغوت في شركهم، كما كتب مؤخراً ماركو بولو: «في المعارك مع الأعداء كانوا يبلغون القصد بالصورة الآتية: يهربون من الخصم دون حرج، وفي أثناء ذلك يلتفتون ويضربون، كانوا يدربون أحصنتهم مثل الكلاب أي التحرك في كل الجهات، وعندما يطردونهم جرياً يقاتلون بروعة وقوة، كأنهم متصبون بدقة وجهاً لوجه مع الأعداء، ثم ينطلقون جرياً ويلتفون إلى الخلف، ويصوبون بسهولة خيول الأعداء والمقاتلين، حينها يعتقد الخصم أنهم مشتتون، وتم النصر عليهم، ولكن في واقع الأمر أنه الخاسر، إذ إن خيوله مصابة بالسهم ورجاله أيدوا بالجملة، كان التار عندما يرون أنهم قضوا على جمع كبير من المحاربين وخيولهم يرجعون إلى الخلف، ويواصلون القتال بحسن وبسالة إلى أن يدمروا عدوهم ويتصرفوا عليه» [ماركو بولو، ص ٩١].

وقع الجيش التانغولي ضحية الخطة التي انتهجها التار المغول، فلقد تم القضاء عليه تماماً، ووقع كثير من قاداته أسرى، في أكتوبر ظهر أوائل الفرسان المغول على أسوار عاصمة دولة سي سيا، وبهذا بدأ الحصار الطويل للمدينة، وانتهجوا خطة خاصة لإخضاع بقية المدن، كما كتب تشجاو خون: «وفي كل مرة عند الهجوم على المدن الكبيرة من البداية يهجمون على المدن الصغيرة ويأسرون سكانها ويتخذونهم أدوات لإنجاز المهام الحصارية، وحينها كانوا يطلقون الأوامر لكل فارس لكي يستولي على عشرة أفراد، وبعد الاستيلاء عليهم بالقدر المطلوب يتوجب على كل فرد أن يحمل قدرأ معيناً من العشب أو الحطب أو التراب أو

الحجارة، كان التتار يتعقبونهم في المسير ليلاً نهاراً، فإذا تأخروا كانوا يقضون عليهم، أما إذا بلغوا الهدف فيردمون الخنادق الحصينة بما لديهم من حمل [حول أسوار المدن التي حملوا لها المواد]، أما البقية الأخرى فيستغلونهم في خدمة العربات الشبيهة في شكلها الخارجي بالبط، وفي إعداد وسائل الحصار وتحضير المنجنيقات أيضاً وغيرها، كان التتار يستغلون لهذه الأعمال عشرات الآلاف من الناس، لذا عند اقتحام المدن كانوا يسيطرون عليها كلها بسهولة، وبعد تحطيم جدران المدن يقوم التتار بقتل الجميع دون تفریق بين الصغير والكبير، الجميل والقبیح، الغني والفقير، المطيع والعاصي، وكالمعتاد بدون أي شفقة، وكل من لا يخضع لأمر [الاستسلام] في ساعة اقتراب العدو كان عقابه الموت حتماً حتى ولو كان من النبلاء» [التدوين الكامل، ص 67].

في وقت حصار المدن والقلاع التانغوتية بني التخطيط المغولي للاستيلاء عليها على عظام التانغوت، وبالتحديد في دولة التانغوت ولأول مرة استخدم المغول حرب الحصار، واجهوا أيضاً المنجنيقات وغيرها من وسائل الحصار والدفاع العائدة إلى القرون الوسطى في الشرق الأقصى التي أتقن التانغوت استعمالها، هنا بالذات تعرفوا هذه الوسائل وأجبروا المختصين الحربيين من الأعداء على المشاركة في حصار مدنهم.

وفي عاصمة التانغوت المحاصرة عقد مجلس حكومي، وآخر كلمة كانت من نصيب الحاكم أن تسيوان، فصمت الجميع:

- أكثر من مثتي عام كانت أسرنا تحكم الدولة، والآن هذا العدو القادم الشمال يدفعنا ولأكثر من مرة إلى أن نفكر في حياة الأسرة وممانتها، والآن هو قرب جدران العاصمة، وليس هذا وقت الكلام غير المفيد، إنني لأمركم بالصعود على الجدران، وسأحضر أنا بنفسني!

خرج الفرسان من القصر الإمبراطوري واحداً بعد الآخر، وخرج أن تسيوان إلى الساحة وأعطوه فرسه، لقد سعد كل سكان العاصمة تقريباً على الحائط، وأعدوا المنجنيق وأسهماً كثيرة تنطلق وحدها، وحمل القواسون حزماً من أسهم ثقيلة، وانهمرت الحجارة على الجدران، وغُلي في القدور الكبيرة الماء والقطران (الزفت) وتم صد بعض الهجمات أيضاً، إن حيطان المدينة أصبح من الصعب اختراقها بفضل بسالة المدافعين، وفي هذه الأثناء في خيمة جنكيز خان المتقلة انعقد مجلس فرد: بما أنه تعذر الاستيلاء على المدينة بالهجوم، فيجب إغراقها بالماء.

أقبل الخريف بعمق، وانهمرت السيول، والسكان الذين تم للمغول أسرهم من الأقاليم المجاورة حشدوا لبناء سد النهر، تدفقت السيول في المدينة، وابتلعت المياه المربعات السكنية بالتوالي، وتحطمت المباني وغرق الناس.

أرسل أن تسيوان سفراءه بسرعة إلى دولة تسزين من أجل طلب تشجوتشجين إرسال جيوش لمساعدة المحاصرين، كان تانغوت على علم بما جرى قبل ثلاثة أعوام بعد المجلس العظيم (كوريلتاي) الذي انعقد في عام ١٢٠٦، عندما حصل جنكيز على رتبة في خدمة تشجورتشجين لحمته على التتار بدأ يعلن عن عدم الاعتراف بأقدمية دولة تسزين، ثم بعد ذلك - وفقاً لمعلومة المصدر الصيني - قطع العلاقة معها، ويبدو أنهم أيضاً على علم بأن المجلس العظيم ناقش احتمالية الحرب مع دولة تسزين، ويبدو أن جنكيز خان لم يتطلع إلى سحق دولة التانغوت فقط، ولكن بحماس حضر للحرب ضد عدوه الأساسي، وهو تشجورتشجين، بل قصد الانتقام لمقتل أمباغاي خاغان، ولهذا اقترح الحصفاء من الموظفين التشجورتشجيين الذين دعوا سابقاً للاتحاد مع دولة سي سيا ضد المغول إلى بداية الحرب بسرعة مع جنكيز خان، كما قال واحد منهم:

- إذا انهارت دولة سي سيا لا بد للمغول من الهجوم علينا، فمن الأفضل الهجوم عليهم من المقدمة والخلف بالاشتراك مع سي سيا.

كانت هذه نصيحة ذكية، إن التانغوت والتشجور تشيجينيين كان بإمكانهم مع بعض تطويق الجيوش المغولية في حدود السهوب المغولية على الأقل إذا لم يكن باستطاعتهم القضاء على الخطر المغولي المتصاعد.

ولكن الحاكم التسزني فاي شاو كانت علاقته مع التانغوت عدائية، فلذا كان رده على سفراء التانغوت يتسم بالحدة والغباء:

- إن مصلحة دولتي عندما يتعادى أعداؤها مع بعضهم، فلماذا القلق؟

رفض التشجور تشيجينيون مساعدة التانغوت متبعاً للتخطيط الصيني القديم، التي لم يدرك كنهها «القتال مع البرابرة أفضل بأيدي البرابرة»، وبهذا التخطيط أعادوا تحديد مصيرهم ومصير الشعوب الأخرى.

وهكذا أصبح التانغوت بدون حليف وجهاً لوجه أمام عدوهم، وتقاطرت المياه مهددة بتحطيم جدران المدينة، إن نهاية دولة سي سيا أصبح حتمياً، وواصلت الأمطار هطولها في اليوم التالي، غمرت السيول القذرة الشوارع وطففت الجثث متفخة، وتكدس شبه الأحياء فوق سقوف المنازل المتبقية وعلى جدران المدينة مترقبين ساعة موتهم، إلى أن أطل الفجر المشؤوم بدون وعيد خير.

دبت حركة في المعسكر المغولي بوضوح، وانتقل بين المحاصرين خبر ينص على أن الأعداء أعدوا أنفسهم للهجوم، فأمر الحاكم الجميع بالاستعداد للموت بعزة، لقد اتضحت الرؤية عندما رأى التانغوت أن الماء بدأ يتناقص، أما في المعسكر المغولي فحدث شيء غير متوقع، حينها ترك المغول خيامهم وممتلكاتهم وامتنطوا خيولهم محتمين بالجبال المجاورة، هب الريح في منتصف النهار وتطايرت

السحب، وقتها ولأول مرة منذ عدة أيام بدأت تظهر شمس صفراء باردة، وساعتها خيل إلى التانغوت أن معجزة حدثت، وفي الصباح الباكر انفتح الجسر الذي أشاده المغول، وغمر الماء معسكرهم (انظر [كيتشانوف، السيرة، ص ٢٩٩-٣٠٠]).

واستسلم المغول في هذه المرة لعدم مقدرتهم القضاء على التانغوت، محاولين إجراء محادثات السلام، وصل إيدا سفير جنكيز خان إلى حاكم التانغوت آن تسيوان، ويبدو أن أول شرط للمغول تكوين حلف معهم للحروب القادمة، وبالأخص ضد دولة تسزين، بحكم أن التشجور تشجينيون والأويغور جيران دولة سي سيال لم يرغبوا في مساعدتهم، الشيء الذي وضع التانغوت على حافة الكارثة، فالتزام دولة سي سيال بعدم مساعدة دولة تسزين حرمت التشجور تشجينيون من أي حليف في الحرب المقبلة مع المغول، وأن دولة تسون الجنوبية الصينية كانت في خصام مع تسزين، مما جعلها تستطيع التحالف مع المغول فقط في حربهم ضد التشجور تشجينيون، وافق التانغوت على أن يكونوا «الساعد الأيمن» لجنكيز خان كما حدث مؤخراً، بمعنى أنهم حسب التقدير اعترفوا بأقدميته ومساعدته، ولكنهم في محادثاتهم رفضوا المشاركة في حملاته مسوغين ذلك بتحضرهم:

- نترحل بالقرب، ومدننا مبنية من الطين، فإذا اتخذنا أحداً برفقتنا، فإنه:

هل نقوم بخاطف الهجوم
ونرمي بأنفسنا في أتون الوغى
في خاطف هجومك
من الجلي ألا ندرك العدو
ولا المكوث طويلاً في حمى هذه الأتون
ليست لنا به مقدرة

[السيرة المكنونة، ص ١٨٠]

اقترح التانغوت في مقابل المشاركة في الحملات دفع فدية من الجمال والجوخ وصقور الصيد، كما يشير التاريخ السري: «إن الحاكم التانغوتي وفي بوعده وجمع من التانغوت مجموعة كبيرة من الإبل إلى درجة أنه عسر توصيلها إلينا» [المصدر نفسه، ص ١٨١]. تزوج جنكيز خان الأميرة تشاخا التانغوتية، إن المغول وفق معلومات رشيد الدين تركوا في الدولة التانغوتية نائبهم وحامياتهم [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٤٤]، ولكن هذا غير صحيح بحكم أن انتصار جنكيز خان لم يكن كاملاً، إضافة إلى أن الأحداث التي تلت ذلك تنفي تماماً وجود أي حاميات مغولية في دولة سي سيا.

إن حملة ١٢٠٩-١٢١٠ على التانغوت والاتفاق الذي عقد معهم عام ١٢١٠ بعد أن أول نصر أحرزه جنكيز خان خارج حدود السهوب المغولية. تعدد دولة سي سيا من ألد الأعداء، والانتصار عليها رفع سمعة جنكيز خان بين الشعوب المجاورة وبعث عدم الثقة بالنفس في الكثير من أعدائه المقبلين عدا خصمه الأساسي الإمبراطور فاي شاو فان التشجور تشيجيني، عندما انقض المغول على حدود دولة تسزين قال الموظفون التشجور تشيجيون:

- إن دولتنا كالبحر، أما دولتكم فحفنة من الرمل، فهل يعقل أن تنتصروا علينا؟

عندما اعتلى فاي شاو فان العرش عام ١٢٠٩ بعث بسفيره إلى مقر جنكيز خان مخبراً عن استلامه السلطة، طلب سفيره أن يستلم جنكيز خان بنفسه الأمر وهو رакع، ولكن تغير الزمان، ولم يركع جنكيز خان فحسب، بل على مرأى الجميع بصق على ناحية الجنوب؛ أي على جهة دولة تسزين، واتهم الإمبراطور التشجور تشيجيني بالغباء، ثم امتطى صهوة فرسه منطلقاً ومظهراً احتقاره الكامل للمتخيل نفسه سيداً، وهذا كان يعني القطع التام للعلاقة، وبدأ الطرفان في

الاستعداد للحرب التي لم تحدث بسبب حملة جنكيز خان على التانغوت - التي طالت عكس توقعاته - يجب أن نذكر أن السواد الأعظم لم يقاسم فاي شاو فان قناعاته الأمنية، لقد كان هنالك مع التانغوت، وثمة معلومات تشير إلى أنه في وقت هجوم المغول على دولة سي سيا في عام ١٢٠٩ تم عتق الكثير من الرقيق التانغوت من الأسر التسريني .

تمكن جنكيز خان إلى عام ١٢١٠ من تأمين الجناح الغربي للحرب مع دولة تسرين، وقد حماه الأويغور والكارلوكيون عن كارا كيتاي، صار التانغوت معزولين، وأصبح الحلف بين التانغوت والتشجور تشجينين (وقد كتب عن احتمال ذلك الحلف ل. غامبيس [غامبيس، ص ٩٧]) أنه كان مستحيلاً، وكتب على التشجور تشجينين أن يدركوا في الأشهر القادمة مدى قصر نظرهم .



الساحر كوكوتشو

«السحرة لا يهابون أصحاب السلطنة»

أ. بوشكين

أنعم على كوكوتشو تاب تانغري ساحر جنكيز خان المنزل من السماء، «الوسيط» بينه وبين السماء السرمدية العظيمة، في كوريلتاي العظيم، بقدسية حكمه على المغول، وكان يتصرف بحرية بين أتباع تيموتشجين، يزرع في نفوسهم الخوف الخرافي، يبدو أنه كان إنساناً ذا صحة خارقة، كان يجلس عارياً في عز الشتاء على الثلج، فيذوب من حرارة جسمه، ويدثره البخار، فيصدق بسطاء القوم أنه أسرى إلى السماء على حصان أبيض [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٦٧] وبمباركة والده مونليك - الذي سبق أن كان في خدمة يسوغاي والطفل تيموتشجين - وبمساعدة أشقائه الستة، كان كوكوتشو يتعامل مع التوكير ونبلاء جنكيز خان، ليس كما يطيب له فقط، بل صار يتعدى على أفراد أسرة جنكيز خان، تحدث سابقاً مع جنكيز خان بتسلط، ولكن بحكم أن بعض كلماته كانت تبث السكينة وتدعم جنكيز خان في أعماله، فلذا كان يحبه، ولكن عندما صار تاب تانغري يتعدى الحدود ويتدخل في كل الشؤون بعجرفة وتغطرس أدرك جنكيز خان بفراصة وعقل أنه رجل منافق ومخادع [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٦٧].

كان خاسار شقيق تيموتشجين رجلاً قوي البنية، حسن الطبع وطيب القلب، يحكى أنه ذات مرة تحرش كوكوتشو وأشقاؤه أبناء مونليك بخاسار وضربوه، لكن جنكيز خان لم يدافع عن شقيقه فحسب بل طرده قائلاً:

- أنت المنتصر دوماً، وها قد أصبحت في عداد المهزومين!

FOR QURANIC THOUGHT

وحينها بكى خاسار، وخرج من يورتا أخيه غاضباً، ولم يظهر في غضون ثلاثة أيام، حينها انتهز كوكوتشو الماكر التخاصم بين الأشقاء مفكراً في القضاء على خاسار نهائياً، يبدو أنه لأكثر من مرة رأى في أحلامه الجميلة نفسه حاكماً للمغول، وليس جنكيز خان، وبخاصة الآن عندما أثبتت القوة وجودها وتم إخضاع الكل، من المعلوم أن أعداء جنكيز خان في وقت الحروب الداخلية في السهوب المغولية يرون في شخص تاب تانغري خصماً لجنكيز خان في عقر داره، عندما أراد فان خان الهجوم على جنكيز خان، ليس عرضاً، حاول أن يستميل إلى جانبه كوكوتشو «سنحارب متحدين مع بعض، أنت من هنا وأنا من هناك»، ولكن وقتها لم يكن بمقدور الأخير مواجهة جنكيز خان علناً، ولكن مجد جنكيز خان المتزايد وسلطته أصبحت كغشاوة المقل، ويعتقد كوكوتشو أنه قبل استلام السلطة مكان جنكيز يجب عليه القضاء على حلفاء جنكيز المحتمل قدومهم، وبالأخص أشقاؤه وأبناؤه، وعندما أدرك كوكوتشو أن جنكيز لا يود الدفاع عن شقيقه خاسار لجأ إلى تسلطه السحري وظهر لجنكيز خان قائلاً:

- إن تانغري الخالد أبلغني مشيئته التي فحواها أنك ستحكم الدولة لوقت سيحكم خاسار أيضاً لوقت، فإذا لم تحذره لا يمكن أن يضمن لك المستقبل [السيرة المكونة، ص ١٧٦].

هل صدق جنكيز خان أن كوكوتشو مربوط بالسماء الخالدة، أو أنه وقع فريسة لهذه الدعاية، إلا أنه في ذلك الليل أمر باعتقال خاسار استجوبه وهو مقيد اليدين، محاولاً التثبت من شكوكه، يروي مؤلف «ألتان توبتشي» أي (التاريخ الذهبي) أن «والدته عندما علمت بهذا النبأ ذهبت ليلاً في عربة مسقوفة يقودها جمل أبيض، وقضت كل ليلتها في الطريق دون أن تغمض عينها إلى أن جاء الصباح، وعندما

وصلت وما زال جنكيز العظيم يستجوب خاسار المقيد الأكمام، بدون قبة وحزام، حينها ارتعش جنكيز العظيم خوفاً من أمه» [أثنان توبتشي، ص ١٩٤-١٩٥] أطلقت ويلون سراح خاسار، وجلست جلسة القرفصاء، وهي متجهمة بالغضب، معرية ثديها، رامية به على ركبتيها، لكي تبث الحرج في نفس جنكيز خان، ثم قالت :

- انظروا! إنه الشدي الذي أروضعكم، أي إثم ارتكب خاسار، لماذا تريد أن تقضي على بذرة القربى؟ لقد كان تيموتشجين حينها دوماً يفرغ ثديي كاملين وحده، بينما خاتشون وأوتشغين لم يستطيعا حتى إكمال ثدي واحد، أما خاسار فكان يهدئ من روعي ويداعبني حتى يفرغ كلا ثديي وحده، لهذا امتاز تيموتشجين بذكائه بينما خاسار بقوته وبراعته في رمي السهام، هل لهذا كرهتم خاسار؛ لأنه سحق الأعداء؟

عندها قال جنكيز خان :

- إن غضب الأم بعث في نفسي الذعر والحرج .

ثم أخلى سبيل خاسار، مهدئاً من روع والدته، وخرج بنفسه [السيرة المكنونة، ص ١٧٦-١٧٧]، لكن لم يبارح الشك جنكيز خان، وفي خفية عن أمه سلب من خاسار أكثر من نصف رجاله الذين منحهم له في البداية، وترك له ألفاً وأربعمائة يورتا من أصل أربعة آلاف، عاش خاسار منذ تلك اللحظة في رعب دائم، وفرعته بعض من أصحابه المقربين خوفاً من غضب جنكيز، فإذا تبعنا «التاريخ الذهبي» نلاحظ أن خاسار في هذه المرة أبدى عداؤه لشقيقه «خفية من أجل أن لا يعلم أنه خرج بصحبة ألف وثلاثمائة رجل مناصباً العدا لشقيقه، وعندما علمت أمه بهذا الأمر توفيت». يؤكد مؤلف «التاريخ السري» أيضاً أن ويلون

فأرقت الحياة؛ لأنها لم تحتفل الخصام الذي وقع بين أبنائها [ألتان توبتشي،

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURĀNIC THOUGHT

ص ١٩٥؛ السيرة المكتونة، ص ١٧٧].

لم يعاقب تاب تانغري كوكوتشو على ما فعل، ولتأبعة خاسار الراحل بعث
سوييتاي باتور، الذي ثني خاسار عن التمرد، وطلب منه الرجوع والخضوع لإرادة
أخيه قائلاً:

«إذا زرعت الخلاف في أسرتك
فستصبح طعاماً للغريب، أليس كذلك؟
وإذا بعدت عن أمومتك
فستصبح طعاماً للمغول، أليس كذلك؟
وإذا بعدت عن أصحاب الأسر الكبيرة
ستصبح طعاماً لليتامى، أليس كذلك؟
وإذا أصاب الانشقاق الشعوب الكبيرة
ستصبح طعاماً للشعوب الصغيرة، أليس كذلك؟
يمكنك العثور على الصيد والخدم
لكن لا يمكن الحصول على الأهل
قد تجد لنفسك الطائعين،
لكن لا يمكن الحصول على أسلاف
من سلالة واحدة!»

وافق خاسار على هذه الكلمات وأب» [التاريخ الذهبي، ص ١٩٧].

يبدو أن جنكيز خان انتابه الخوف من قوة كوكوتشو الإعجازية، ومن المحتمل
وجود أسباب غير معلومة لنا منعتته حتى من المجابهة الخفية، مع العلم أن كوكوتشو
دوماً كان يعد نفسه للصراع مع جنكيز خان من أجل السلطة، فجمع حول نفسه

النوكير والنويون ورجالاً من مختلف القبائل والشعوب المغولية والشعوب الخاضعة لسلطة جنكيز خان، فانهالت عليه «الشعوب الناطقة بتسع لغات» وبسرعة أصبح عدد القوم في مقره «كثيراً بقدر ما عند جنكيز خان نفسه» حتى بلغ الأمر إلى أن «فكر رجال جنكيز خان هجره والانضمام لتاب تانغريش، نهض الخان العظيم المنتصر في وجه الخطر الكبير، لأن الأمر كان يحمل في طياته الحياة والموت، وكان الموت يترقبه ليس على ساحة القتال وإنما بقربه، وقد حان الأمر إلى أن جنكيز بنفسه بدأ يبحث عن حجة ليقضي على كوكوتشو، وبلغ الأمر إلى أن أوتشغين الشقيق الأصغر لجنكيز خان، الذي كان تحت إمرته عشرة آلاف خيمة مع والدته المتوفاة ويلون، أضحى يناصر كوكوتشو، وحينها بعث أوتشغين إلى كوكوتشو برسوله المدعو سوخور مطالباً بإعادة الهاربين، ولكن ساعتها تبدى الأمر لكوكوتشو أنه لا يهاب أي فرد من الأسر الخانية، فسحروا من سوخور «وضربه كوكوتشو وعذبه» ثم بعد ذلك طرده راحلاً بدون حصان معلقاً على ظهره سرجاً مكتوباً عليه:

- ستكون مرسلًا تحت زمرة أوتشغين!

أقبل الغاضب المهان أوتشغين إلى دار كوكوتشو بنفسه، ولكن أحاطه الأشقاء السبعة في دائرة، وصاروا يتهكمون عليه بوقاحة، فرد مخاطباً كوكوتشو:

- لقد بعثت إليك برسول سوخور، ولكنك رددته إلي حافياً راجلاً بعد أن أوقعت الأذى والضرب، أما الآن فلقد حضرت إليك بنفسك لكي أرجع رجالي!

فرد الأشقاء السبعة:

- هل من الصحيح أن تبعث برسولك سوخور؟

اعترف أوتشغين خوفاً من عدم الخروج من جبروت الساحر كوكوتشو:

- إنني مخطئ، في بعثي لرسولي.

- إذا اعترفت بخطئك ، عليك أن ترقع وتطلب المغفرة .

لقد أجبره أشقاء كوكوتشو على الركوع .

وفي صبيحة اليوم الثاني أقبل المهان أوتشغين إلى شقيقه جنكيز ، الذي لم يبارح فراشه ، وأطلعه على ما كابده من الإهانة ، وفي الوقت الذي بدأ فيه جنكيز خان التفكير فيما جرى أزرت زوجة جنكيز الأولى بورتى أوتشغين ، التي كانت ساعتها في فراشه ، إن رواية أوتشغين دفعتها للبكاء ، حسب رواية «التاريخ السري» قالت بورتى :

- إذا كانوا حتى في حياتك يبيدون أشقاءك العظماء ، فمن المؤكد أن الشعب بعد وفاتك سيخرج من إمرة أبنائك ! (كما ورد في [السيرة المكنونة ، ص ١٧٧-١٧٨]) .

وفي مؤلف «ألتان توبتشي» كان توعدا محدداً لدرجة خاصة :

- وهكذا سيقضون على أشقائك الصغار كمثل الخدم والعبيد ، وبمقدورهم أن يلحقوا بك الضرر [ألتان توبتشي ، ص ١٩٨] .

من الواضح أن قولها الذي ينص على [أنهم سيلحقون بك الضرر] دفع جنكيز إلى اتخاذ إجراءات محددة خشية أن يحرمه كوكوتشو من السلطة .

قال جنكيز خان لشقيقه أوتشغين :

- عندما يأتي تاب تانغري اليوم افعل ما تشاء .

وهكذا وعد شقيقه بالدعم ، إذا تمكن من القضاء على كوكوتشو بسرعة ، اختبأ أوتشغين عند مدخل يورتا جنكيز ، وخلف العتبة انتصب ثلاثة من العمالقة المصطفين الأقوياء منتظرين قدوم كوكوتشو ، وبسرعة ظهر مونليك برفقة أبنائه

السبعة، جلس كوكوتشو دون مبالاة في صدر المكان، وحينها قفز أوتشغين وقبضه من ياقته، ووفق العادات المغولية القديمة دعا خصمه للمبارزة.

- بالأمس أجبرتني على أن أطلب منك العفو، ولكن اليوم سأجرب مهارتي معك.

تصارع كوكوتشو وأوتشغين مباشرة داخل يورتا جنكيز، ولكن الخان أمرهم بالخروج من اليورتا:

- اذهبا لمقارنة مقدراتكما في الباحة.

يبدو أنه على علم بما سيجري لكوكوتشو عندما يتخطى عتبة اليورتا، في الواقع لم يكد كوكوتشو يتخطى عتبة الباب حتى انقض عليه الثلاثة الأقوياء الذين كانوا له بالمرصاد، وفي لحظة قصموا عظمة ظهره وقذفوا به على عربة في الجانب الأيسر من باحة الدار.

خاطب أوتشغين عند عودته إلى الخيمة جنكيز قائلاً:

- إن تاب تانغري لا يود مصارعتي وتمثل راقداً (كما ورد في [السيرة المكنونة، ص ١٧٨]).

ولكن العجوز مونليك أدرك أنه قاسم مع أبنائه سوء التقدير الذي أدى إلى موت الساحر الأعظم كوكوتشو المنافس للخان حتى في شخصه، مما حدى بالإخوة الستة حينها محاصرة جنكيز وتهديده، (كما ورد في مؤلف «ألتان توبتشي» أنهم «حاصروا الدار مشمرين عن سواعدهم» ص ١٩٩) وعندما ضاق لجنكيز الخناق من قبل الإخوة صرخ قائلاً:

- اغرب عن وجهي وأعطني الطريق!

ثم قفز من الخيمة، وفي الوقت نفسه أحاط به الحراس الذين نهضوا لنجدته عند سماع صوته.

إن الساحر القادر المجيد كوكوتشو تاب تانغري كان ملقى أمام الخيمة مكسور الظهر، وعلى الرغم من أنه كان ميتاً إلا أنه بث الذعر في النفوس، حينها أمر جنكيز بتغطية جثته بخيمة رمادية، أما هو فقد غادر مكان الحادث البشع على عجل، خلال ذلك اختفى جسد كوكوتشو بشكل غامض.

لم يتمهل جنكيز في أن يعلل هذا الاختفاء بالقوة الإعجازية للساحر، وأما الموت فعزاه إلى الانتقام السماوي «تاب تانغري كان يضرب إخوتي ويرميهم بالإفك، الشيء الذي بسببه لم تحبه السماء، ولذلك أخذت مع روحه جسده أيضاً» [السيرة المكنونة، ص ١٧٨-١٧٩].

رغمًا عن ذلك لم يقو جنكيز خان على إعدام مونليك وإخوة كوكوتشو تحاشياً لانتقام الساحر الذي مات، معللاً ذلك بالأفضال السابقة لمونليك، على الرغم من أنه بإمكانه اتهامهم بالعصيان ومحاولة الاعتداء على حياته، فبدون كوكوتشو لم تعد تملك أسرة مونليك ولا حتى الظل البعيد لذلك النفوذ الذي كانوا يتمتعون به.

لا تزال القوى مجهولة، تلك التي كانت تقف خلف كوكوتشو، هل هم النوكير والنويون الذين قبل عشرة أعوام حاربوا في صف أعداء جنكيز في أثناء صراعه على السلطة، أو قد تكون معارضة جديدة، ولكن من الواضح أنه بخلاف الخوف السحري الذي أوحى به تاب تانغري ومطالبته بالسلطة كانت تقف من خلفه قوى من نوع معين، تسمح له بالمطالبة بالسلطة من خان منغوليا العظيم بعد أربعة أعوام من انعقاد كوريلتاي النويون العظيم، ليس من المستبعد أن تكون المعارضة قد استغلت محاولة جنكيز خان غير الناجحة للقضاء على الدولة التانغوتية التي في خلالها خريف وشتاء الأعوام ١٢٠٩-١٢١٠ مني المغول بهزائم مريرة، إن الساحر كوكوتشو أرغم جنكيز مرة أخرى على الإحساس بالخوف من فقدان العرش، يبدو أن فلاديمير تسوف كان محقاً جداً عندما كتب «بغيباب كوكوتشو عن مسرح

الأحداث غاب معه من منغوليا آخر من تقابل بالندية مع شخص جنكيز أو المقاومة أو عدم الطاعة، الآن الكل خاضع لإرادة الإمبراطور الحديدية، والذي عبر طريقاً شاقاً من حياة الكفاف وشبه الجوع في يورتا مهمل على ضفة نهر أونون إلى مقر قيادة إمبراطورية منظمة» [فلاديميرتسوف، جنكيز خان، ص ٩٢-٩٤].



تحقيق وصية أمباغاي خاغان

«سبح الإله بأفكاره الكبرى
ناظراً إلى الأرض وهي تدور
وهناك تنداح كرة سوداء
لها الشيطان بأغلال حديدية ضارب»
مكسيم غوركي

أمن جنكيز خان بعد تهيئته للتانغوت وتسلمه لقيادة الأويغور والكارلوك الجناح الجنوبي والجنوبي الغربي، وبدأ يعد نفسه للحرب مع عدوه الأساسي في شرق آسيا، مع دولة تسزين التشجور تشجينية كما ذكرنا سابقاً، إن سلطة الأباطرة التشجور تشجيين قبل حقبة جنكيز كانت العلية في المنطقة، واعترف بمشيتهم الصينيون والكوريون والتانغوت والتار المغول ومجموعات أخرى من القبائل قليلة العدد، وقبائل وشعوب أخرى قوية، يروي مؤلف «يوان شي»: «إن الإمبراطور في البداية كان يدفع كل عام الإتاوة لدولة تسزين، عندما أرسل الحاكم التسزيني برسوله فاي فان يون تسزي لجمع الإتاوة في مدينة تسزينتشجاو حيث لم يحسن إمبراطورها استقبال يون تسزي حسب المراسيم المتبعة، مما حدا بيون تسزي بعد عودته إلى الرغبة في جمع الجيش والهجوم عليه، ولكن المنية وافت حاكم تسزين حينها، فورث العرش من بعده يون تسزي، وأصدر مرسوماً إمبراطورياً بعث به لدولة جنكيز خان، ويتوجب الامتثال إليه ركوعاً، حينها سأل الإمبراطور الرسول التسزيني: «من الحاكم الجديد» فرد عليه الرسول: «فاي فان» وساعتها التفت الإمبراطور فجأة إلى الجنوب وبصق، ثم قال: «أنا أقول الآتي: إمبراطور السهوب

الوسطى هو الشخص الذي يسري إلى السماء، كيف ينصب هذا الرجل الضعيف الساذج إمبراطوراً؟ وكيف ينحنى له؟ " إنه وقتها اعتلى ظهر فرسه وذهب صوب الشمال، أبلغ الرسول التسزيني عند عودته الحاكم يون تسزي بما جرى، فانتابه الغضب بشدة، ويات ينتظر سانحة جيدة عندما يقدم الإمبراطور من جديد الإتاوة فيتذرع لها للخلاص منه ساعتها، ولكن الإمبراطور علم بمقصده سلفاً، فلذا قطع علاقته مع تسزين، وبدأ يعد خيرة جيوشه" [يوان شي، الفصل ١، ص ٨٠].

جرت العادة أن يدفع التار والمغول الإتاوات لتسزين في مدينة تسزيتشجاو، كانت الحدود الشمالية والشمالية الشرقية والشمالية الجنوبية لتسزين مليئة بالخنادق، كانت هذه الخنادق أعمال هندسية ضخمة تمتد إلى أكثر من ١٥٠٠ كم، تم إكمال العمل فيها عام ١١٩٨، كان مثل هذه المنشآت الهندسية وغيرها من الأعمال السائدة في ذلك العصر، التي تطلب من المغول أن يتخطوها، بعد أن قام جنكيز خان وبشكل مسرحي بقطع علاقته مع الإمبراطور التسزيني أخذ يهيم نفسه لشغل مكانه في شرق آسيا، وبداية نقل المركز المعترف به دولياً من بكين إلى مقر نفوذه، بعد أن حسم أمر الساحر كوكوتشو صار بإمكانه أن يصبح مطمئناً على توطد سلطته في منغوليا، على الرغم من أن هذه الثقة لم تكن متينة، حسبما يخبرنا رشيد الدين أن جنكيز أرسل قبل الغزو على تسزين «خوفاً من توحد القبائل المتشتتة وإعلانهم العصيان، فصيلة قوامها ألفا شخص تحت قيادة توكوتشار من أجل تأمين جبهته الداخلية، خلال غزوة لدولة الصين من قبائل المغول والكيريت والنايمان والآخرين الذين قام بإخضاعهم وكذلك القوم الرحل من رعاياه» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ١٦٣] ما يثير الانتباه أن جنكيز خان ما زال حتى هذه اللحظة يتخوف، ليس من القبائل التي هزمها من الكيريت والنايمات فحسب - اللتين ما زالتا تتذكران عظمة فان خان السابقة - بل كان يتخوف قبل كل شيء من

قبائل المغول نفسها، التي يتسمى إليها هو نفسه، إن هذا يؤكد لنا مرة أخرى أن مطالبة كوكوتشو بالسلطة لم تكن شاهداً فقط على تأثير فارس من القواد، إنما وقفت خلفه المعارضة لجنكيز خان من داخل القبائل المغولية .

قام ناخاتا ما يتشجو المسؤول عن الحراسة في الحدود الشمالية الغربية لتسزين، بإبلاغ حاكمه فاي شاو فان أن المغول بعد حربهم مع التانغوت بشكل جاد يعدون العدة للحرب مع تسزين : يصنعون الدروع، وبلا انقطاع يطرقون السهام ويرعون الخيل باهتمام شديد، إلى درجة أنه، في داخل الاستحكامات، يجبر الجنود العربات بدلاً من الخيل، عدّ الإمبراطور التسزيني أن مايتشجو تملكه الخوف فأودعه في السجن [التاريخ، ص ٤٧] أما بحلول القمر الثاني لعام ١٢١١ (١٥ فبراير - ١٦ مارس) فهجم الجيش المغولي بقيادة جنكيز خان نفسه على تسزين، وبدأ في الانتشار جنوباً وإلى الجنوب الشرقي .

يقسم المؤلفون الصينيون حرب المغول مع تسزين على ثلاث مراحل :

١ - المرحلة الأولى : (١٢١١-١٢١٦) عندما كانت الحرب تحت قيادة جنكيز خان
٢ - المرحلة الثانية : (١٢١٧-١٢٢٩) بعد أن تم إخضاع شمال الصين، وكانت الجيوش تحت قيادة موخالي، ثم بعد موته تحت قيادة ابنه بولو .

٣ - المرحلة الثالثة : (١٢٢٠-١٢٢٤) عندما تولى خلفاء جنكيز خان أوغاداي وتولوي بالاتحاد مع سون الجنوبي أكملوا القضاء على دولة تسزين .

بحسب تقدير هؤلاء المؤلفين الصينيين أنفسهم فإنه تطلب للمغول للفوز على دولة سي سيا ٢٢ عاماً، وعلى دولة تسزين ٢٣ عاماً، أما دولة سون الجنوبية (أي الصين بأكملها) ٤٤ عاماً [يوان تشاو شي، ص ١١٢] .

نقرأ في مؤلف «يوان شي» أن «الإمبراطور في غضون شهرين قاد الجيوش في حملته على الجنوب، وقضى على الجنرال التسزيني دين سي في جبال يخولين واستولى على أفضية داشوي ولو وفين ولي» [يوان شي، الفصل ١، ص ٨ب].

كان الجيش الحدودي لدولة تسزين مكوناً بشكل أساسي من جنود ينتمون لشعوب متباينة، كانت خاضعة لسيطرة التشجور تشجيينين، كانوا ينتمون لقبائل سي وكيداني اللتين حرهما قبل مائة عام التشور تشجيينون من السلطة على شمال الصين، ولذلك كان لسكان أقاليم منتشجوريا البوخايون والترك الأونغوت الذين كما نعلم كانت لهم في السابق صلات بجنكيز خان، وجزء من شعوب سي وكيداني كان لهم صلات عرقية مقاربة مع المغول.

دخلت القوة الأساسية للجيوش المغولية في حدود دولة تسزين من جهة بحيرة دالاي نور تحت قيادة تسجايي، الذي استولى على القلاع الحدودية، نشب القتال عند مدينة فوتشجوو، التي فقد التشجور تشجيينون بعد سقوطها مدينتي سيوانبين وخوانتشجوو، وقبل انطلاقة جديدة نحو الجنوب قام جنكيز بإراحة الخيول.

لكن القيادات التسزينية علمت بذلك، واقترح أحدهم الآتي:

- إن جيوش جنكيز خان اجتاحت مدينة فوتشجوو، ومشغولة بتقسيم الغنائم، وخيولهم مطلقة ترعى على السفح، فإذا هجمنا عليهم على حين غرة، فسنقضي عليهم.

ولكن التشجور تشجيينون لم يقرروا الانقراض بغتة عليهم، فبعثوا رسولهم مينغان للمحادثات، ولكنه لجأ إلى جانب جنكيز وأطلعهم على خطة قيادات الجيوش التسزينية.

قام التشجور تشجيينون بتركيز قوة قوامها من ثلاثمائة إلى أربعمائة ألف مقاتل على سلسلة يخولين، التي تشكل المانع الطبيعي للمناطق الداخلية لدولة تسزين،

وقبل كل شيء لعاصمتها الوسطى، ولكن تم القضاء عليها «في مجزرة، تقعقت فيها العظام، وكأنها فروع يابسة» [السيرة المكنونة، ص ١٧٩]. «في هذه المعركة تم القضاء على مشاهير مناطق شمال الصين وجرجا» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٦٧].

لم يستطع الجيش التسرزني المهزوم الوقوف في وجه القوات المغولية حتى في المنطقة التي كان له فيها فرصة، وبالأحرى في سور الصين العظيم، ذلك الحائط القديم الكبير الذي تم تشييده قبل ذلك الوقت بألف وخمسمئة عام تقريباً من أجل حماية المنطقة من الرحل، ولكن في هذه المرة أسفر عن عجزه وعدم فائدته الحقيقيين، خرج المغول في خريف عام ١٢١١ إلى بوابة تسويونغوان «حينها كانت الطرق مليئة بأكوام الجثث كأعجاز نخل خاوية» [السيرة المغولية القديمة، ص ١٣٩] قائد حامية ترك المدينة وفر هارباً، لما رأى تشجايي عزم حامية القلعة الدفاع عنها لآخر قطرة قرر إغراءهم بالخروج من خلف الأسوار مستخدماً معهم الخدعة المغولية القديمة، أخذ بالتراجع، لكن التشجور تشجيون أخذوا في إخراج أطرافهم من القلعة وبدأوا المطاردة، ولكن تشجايي رجع بفرسانه ملتحقاً بجنكيز خان، الذي تمكن من الوصول وإحراق الهزيمة النكراء بالجيوش التسرزنية، وكانت نتيجة المعركة «عددًا من الجثث على طول مائة لي»، «تم قطع أكثر من ثمانين ألف رأس» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص ١ب، ٢أ].

إن سقوط تسزيونغوان فتح الطريق للمغول إلى مدينة بكين في الشهر التاسع (من التاسع من أكتوبر إلى السادس من نوفمبر) بلغ أوائل الفرسان المغوليون أسوار مدينة بكين الحالية، حيث يقيم إمبراطور التشجور تشجيينين، أعدت المدينة للحصار، ولم يخرج أي رجل من العاصمة، كان كل جندي في عداد حماة سور المدينة عند الحاجة في ساعة ضيق الحصار، أراد الإمبراطور التسرزني فاي شاو فان

مغادرة العاصمة، ولكن قسماً من الجيش استمر في القتال إلى آخر قطرة دم، فقرر البقاء آملاً في تغير مجرى الأحداث، ولكن بلغته في هذه اللحظة أنباء سيئة جديدة مفادها أن المغول انقضوا على مراعي الدولة ونهبوا أفضل الخيول التشجورتشجينية التي تمثل احتياطي الجيش التسريني.

وفي عام ١٢١١ هب الكيدانيون بقيادة يلوي لوغي أيضاً ضد دولة تسزين في منطقة غيرين الحالية الواقعة في مانتشجورين، والتحقوا بالمغول يُذكر في وصف حياة يلوي لوغي أنه كان يقود ألفية في الحدود الشمالية لدولة تسزين «عندما دخل تاي تسزو منطقة شوفان تخوفاً من بقايا سكان دولة لياو، الذين كانت تحدهم مدة أخرى، أمر التسرينيون أعوانهم من التشجورتشجيين بتضييق الخناق على سكان لياو القاطنين بالقرب، بوضع كل دار من ديارهم بين دارين من ديار التشجورتشجيين وحراسهم» وفي عام ١٢١٢ مرة أخرى نهض لوغي برفقة نصيره يدي حيث عقدا اتحاداً مع المغول، وعلى جبل تسزيتشان وفقاً للعرف السائد نحروا فرساً أبيض وثوراً أبيض طعنأ في القلب، وكسروا سهماً، ثم أدى الحاضرون على الجبل القسم متجهين بوجوههم نحو الشمال، ولكن التشجورتشجيين الغاضبين على غدر لوغي أعلنوا مكافأة على من يأتي برأسه تقدر بالآتي: على كل مثقال ليان^(١) من عظمه ليان من الذهب، وعلى كل مثقال من لحمه ليان من الفضة، من يسلم لوغي يمنح رتبة قائد ألفية [يوان شي، الفصل ١٤٩، ص ١١-١٢ب]، ولكن لم يتجاسر أحد من بين أتباعه على الخيانة؛ لأنهم رأوا في شخصه منافلاً جديداً للمصالح القومية الكيدانية.

في عام ١٢١٣ بدأ الجيش التسريني المكون من ستين ألف مقاتل بعد تربيث حملته التأديبية ضد لوغي، ولكن أقبل المغول الذين قضوا على البعثة التسرينية

(١) ليان: وحدة وزنية قدرها ٣١ غراماً.

الاستطلاعية لنجدته، وبهذه المناسبة قرر لوغي بعث دولة لياو، وأعلن عن تكوينها وخلع على نفسه لقب فان لياو، واتخذ شعاراً لدولته «يوان تون»؛ أي (بداية الحكم). كانت هذه دعوة صريحة للاستقلال، فقياساً على البيانات التي وردت في مؤلف «يوان شي»، والتي تشير إلى أن حاشية ليوغي حاولت إقناعه بأن يتقلد لقب إمبراطور، ولكن ليوغي كأثمر رد بأنه «سابقاً عقد اتحاداً مبنياً على القسم مع النبيل أنتشين نويون آملاً في الخضوع للدولة المغولية العظمى»، كما كان تحت قيادته جيش قوامه مائة ألف مقاتل، وتحت سيطرته كل مانتشجوريا [يوان شي، الفصل ١٤٩، ١٢-١١].

ثم تطورت الأحداث بعد ذلك في مانتشجوريا على الشكل الآتي: في عام ١٢١٤ قضى لوغي على القوات التسرينية التأديبية التي قوامها أربعون ألف محارب عند مدينة تشانتو، واستولى على مدينة سيانين وضواحيها أيضاً، وأعلن سيانين عاصمته الوسطى، وفي نهاية ربيع عام ١٢١٥ هجم على العاصمة الشرقية لدولة تسزين، التي لم يتمكن تشجايي من الاستيلاء عليها في عام ١٢١٢، ولكن على الرغم من ذلك إلا أن قوات لوغي لم تظفر بالنجاح، حينها كان تحت سيطرته ستمائة ألف دار، ولكن الأنصار الكيدانيين المتعطشين لإعادة بناء مجد الإمبراطورية الكيدانية السابق تعجلوا الأمر، ولكي يحرضوه قضوا على فصيل مغولي قوامه ثلاثمئة رجل، ولكن لوغي لم يستجب لهذا التحريض والابتعاد عن جنكيز خان، لذلك قام اثنان من أتباعه، يسيبو وتسينو، بالانتفاضة عليه، ففي عام ١٢١٦ أعلن يسيبو نفسه إمبراطوراً، واتخذ دانتشجوو عاصمته، وبالطبع أطلق على دولته اسم لياو، وأعلن شعاراً للملكة أيضاً «القوة الرهيبه الموهوبه من السماء»؛ أي تيان فاي، ولكن هذه القوة الرهيبه الفاقدة للهبة السماوية لم يطل خلودها، ولقي يسيبو حتفه على يد أتباعه، وهرب قائد جيشه تسينغوو إلى تسزين، وهزم

نصيره تسين على يد يلوي لوغي ، وولي هارياً إلى كوريا، إن إمبراطورية لياو الجديدة التي تكونت للمرة الثالثة حسب معلومات مؤلف «يوان شي» استمرت سبعين يوماً ونيف [يوان شي، الفصل ١٤٩، ص ٢-أ٢]، ولكن الكيدانيين لم يستطيعوا الاستسلام لفكرة استحالة قيام مجدهم السابق في خضم الأحداث العاصفة، وتواصل العصيان على الرغم من ذلك، وكان المغول ولوغي يقظين مما جعلهم تحت السيطرة، ففي عام ١٢١٩ أخضع لوغي الجميع تحت سيطرته، وفي عام ١٢٢٠ وافته المنية .

قضى جنكيز خان شتاء عام ١٢١١-١٢١٢ في منغوليا خارج دولة تسزين، ولكن بالغرب من حدودها الشمالية، وعلى غير توقعات فاي شاو لم يقم المغول كدأبهم بحصار بكين، إن حصارهم لعاصمة التانغوت - الذي لم يكلل بالنجاح - ما زال حياً في ذاكرتهم، مع العلم أن خبرة المغول في محاصرة المدن الكبيرة والمحصنة بطريقة جيدة وإسقاطها ما زالت في بدايتها .

في ربيع عام ١٢١٢ بدأت الجيوش المغولية حملاتها، فتحركت في ثلاثة صفوف بقيادة جنكيز خان نفسه وأبنائه تشجوتشي وتشاغاتاي وأوغادبي، وفي هذه المرة أصابت الضربة القاضية المناطق الشمالية الغربية والغربية لدولة تسزين، كما ساعد المغول الأونغوت أيضاً في هذه المرة، وبعد استيلائهم على مجموعة من المدن في منطقة خووخوتو الحالية عاصمة منغوليا الوسطى حاصروا العاصمة الغربية لدولة تسزين، وبعث التشجور تشجيون جيوشهم لنجدة المحاصرين، ولكن جنكيز خان استدرجهم إلى قلعة ميغوكوو وهزمهم شر هزيمة، ثم رجع إلى العاصمة الغربية واستولى عليها، حسب معلومات مؤلف «يوان شي» عن حصار العاصمة الغربية لدولة تسزين جرح جنكيز خان بسهم، ولهذا السبب بالتحديد رفع المغول الحصار في البداية [يوان شي، الفصل الأول، ص ١٩].

في شتاء عام ١٢١٢-١٢١٣. تحرك جزء من الجيش المغولي بقيادة تشجايي إلى مانتشجوريا قاصداً العاصمة الشرقية لدولة تسزين، حيث الموطن الأساسي للقبائل التشجور تشجينية، الذي يعد بالنسبة لهم قدس الأقداس، وعندما لم يتمكن تشجين من احتلال المدينة أول الأمر فلجأ إلى الخطة نفسها تقريباً التي انتهجها عند احتلال بوابة نسيويونغوان «يرجع إلى الورا سائراً بخطى حثيثة، متوقفاً تارة وسائراً تارة أخرى، حينها تطايرت الأنباء بأن جيش تشجايي تقهقر إلى الورا وابتعد، ولكن بعد أن قطع تشجايي بجيشه خمسين فارساً^(١) أي ثلاثمائة كيلو متر تقريباً، وتأكد أهل المدينة من أن جيشه تقهقر إلى الخلف، حينها ترك قادة الجيش واختار الخيول السريعة، وهجم وبسرعة جارياً بها ليلاً ونهاراً إلى أن بلغ المدينة بغتة دون أن يعلم أحد واحتلها» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٦٥]. نهب المغول عاصمة تسزين الشرقية، ولكنهم لم يبقوا بها، بل التحقوا بالجيش المغولية المحاصرة بكين.

بدأ عام ١٢١٣ بأكبر هجمة مغولية وهزيمة للجيش التسنينية، وفي خلال هذا العام تم إخضاع كل المناطق الواقعة إلى الشمال من بكين والأقاليم التسنينية الممتدة إلى شمال نهر خوانخا تدريجياً، وتم حصار مدينة بكين وجزء من المدن الكبرى، كما اجتاحت كل الأقاليم اجتياحاً شاملاً، وتكبد سكان مجموعة من الأقاليم خسارة فادحة، بينما تم القضاء على سكان مدينة ميتشجوو بأمر موخالي عن بكرة أبيهم، قلع موخالي مدينة ميتشجوو من جذورها، ومن هذا الإطار يذكر العالم الروسي المشهور ن. ي. بيتشورين (أب إياكينف) المتخصص في دراسة الصين في النصف الأول من القرن التاسع عشر استناداً على مؤلف «يوان شي» موضحاً أن «قلع المدينة يعني: تعريض كل سكانها لحد السيف من غير مراعاة للعمر والجنس وحتى الثروة» [التاريخ، ص ٥٧].

(١) فارساً: وحدة مسافة قدرها ستة كيلو مترات تقريباً.

اضطرت السلطة التشجور تشجينية من أجل حماية المدن إلى استجلاب سكان الضواحي الفلاحين لزيادة عدد المدافعين عنها، كما استخدمهم المغول أيضاً عند الهجوم دروعاً بشرية من أجل الاستيلاء على المدن، إلى درجة أن الآباء المدافعين عن السور تعرفوا أبناءهم في صفوف المحاصرين، وشهر الأشقاء السيوف بعضهم في وجه بعض [المصدر نفسه، ص ٦٦]. بديهياً لم تكن لدى المدافعين ولا المرغمين على الهجوم الرغبة في القتال، لهذا انقض المغول بشراسة على المدن مما حدى بهم إلى الاستسلام الواحدة تلو الأخرى.

وتم تقسيم الجيوش المغولية من جديد إلى ثلاث مجموعات: اليمنى الغربية بقيادة تشجوتشي وتشاغاناي وأوغاداي، التي حاربت إلى الجنوب من سلسلة تاخان، وسيطرت على الشاطئ الشمالي لنهر خوانخا في منطقة تسزيسيان ومينسيان القضائين الحديثين في محافظة خينان، أما المجموعة اليسرى فترأسها خاسار، وحاربت في المناطق الشرقية لمحافظة خيباي الحالية، أما جنكيز وتولوي فقادا المجموعة الوسطى للجيوش، ونهبا المناطق الجنوبية لمحافظة خيباي الحالية والمناطق الغربية لمحافظة شاندون، على مساحة واسعة تقدر بآلاف الكيلومترات، تم سحق كل السكان تقريباً، «جمعوا الذهب والمنسوجات الحريرية والبنون والبنات والحيل والثيران وأخذوا مثل الحصير، خرقت المنازل والأكواخ، وتحولت أسوار المدينة إلى حطام»، وهكذا وصفت في التاريخ الصيني «تونتسزيان غانمو» نتائج التحركات الحربية المغولية في شمال الصين في عام ١٢١٣ (انظر [التاريخ، ص ٦٧]).

لكن هذه الواقعة لم تخل من الغدر، فقد انحاز شي تيانيار وسياو بودي بجيوشهما إلى جانب المغول، وقد صارا فيما بعد قائدين لجيوشين قوام كل منهما عشرة آلاف مقاتل أي تيمنيك، في الشهر الثامن لعام ١٢١٣ الموافق للثامن عشر من

أغسطس والتاسع من سبتمبر وقع في العاصمة الوسطى لدولة تسزين انقلاب في السلطة، راح ضحيته فاي شاو، الذي أعقبه على السلطة خوشاخو الذي هجر العاصمة الغربية سابقاً.

في بداية عام ١٢١٤ ظهر جنكيز خان بنفسه عند مدينة بكين، عندها اقترح عليه القادة المغول إكمال اقتحام المدينة، يذكر مؤلف يوان شي أن معسكر جنكيز خان كان على الضواحي الشمالية للعاصمة الوسطى تشجوندو، «طلب كل القادة المغول بناءً على الانتصارات منه اقتحام مدينة يان (بكين. تعليق المؤلف)، ولكن الإمبراطور لم يوافق على ذلك» [يوان شي، ص ٩ب] رفض جنكيز خان لأسباب غير معلومة، لعل منها تعب الجيش أو تخمته بالغنائم الثمينة، اقتحام المدينة، وأعلن للإمبراطور تسزين أنه سيغادر أرض دولته ويوافق على إجراء محادثات السلام، «بعث رسوله بأمر إلى حكام تسزين مشيراً إلى أن "كل ضواحي منطقة شاندون وخيبياي وأقضيتها أصبحت ملكي، وأنت ستدافع عن منطقة يانتسزين فقط، بحكم أن السماء أضعفتك، ها أنا من جديد وضعتك في موقف خطر، فماذا تقول لي السماء؟ الآن سأرجع الجيش، وبإمكانك أن تغمر جيشي بالهدايا لكي يهدأ غضب قوادي! " حينها بعث حاكم تسزين رسله طالباً السلام، وأيضاً أهدى للإمبراطور ابنة فاي شاو فان الأميرة تشجيا غونتشجا والذهب والمنسوجات الحريرية وخمسمائة شاب وشابة وثلاثة آلاف فرس» [يوان شي، الفصل الأول، ص ٩ب]. إن فدية الذهب والمنسوجات الحريرية كانت كبيرة «إضافة إلى أن المغول عندما نهبوا البلاد اضطروا إلى أن يربطوا أحمالهم من الحرائر والأشياء الأخرى حتى بالحرير» [السيرة المكنونة، ص ١٨٠]. صارت ابنة فاي شاو زوجة رابعة لجنكيز خان، ولقبت بغونتشو خاتون؛ أي الأميرة، ودع فانيان فوسين الوزير الأول التشجور تشجيني (تشانسيان) بنفسه جنكيز خان من بكين إلى تسويونغوان، أمر

جنكيز خان بعد تركه لمقر التشجور تشجيينين مخلفاً وراءه السهول الصينية الواقعة خلف الجبال، ووراء سور الصين العظيم يجمع مئات الآلاف من الأسرى الشباب والشابات، الذين لم يتمكن المغول من استخدامهم عبيداً في منغوليا، والذين رأى المغول أنهم سيكونون أعداءً في المستقبل، أو من أجل بث الرعب في نفوس سكان أقاليم تسزين الذين لم يتم إخضاعهم، وأصدر أمراً بالقضاء عليهم جميعاً إلى آخر شخص، إن جيوش جنكيز خان بعد مطاردتها حدود تسزين تركت خلفها جبالاً من الجثث.

في الشهر الخامس الموافق للعاشر من يونيو حتى الثامن من يوليو عام ١٢١٤ غادر الإمبراطور التشجور تشجيني العاصمة الوسطى، وانتقل إلى العاصمة التسزينية الجنوبية، وفي الطريق ثار ضده قسم من الجيش، وبالأخص الفصائل الكيدانية، وحينها رجع المناهضون شمالاً من بكين، ثم بعثوا برسولهم إلى جنكيز خان طالبين السماح لهم بحمل الجنسية المغولية، ولكن جنكيز بعث لهم جيشاً بقيادة الغادر مينغان في الشهر السادس الموافق للتاسع من يوليو حتى الخامس من أغسطس، وأصدر أمراً بحصار العاصمة التسزينية الوسطى، وهكذا استمر السلام شهراً واحداً فقط، وسقطت بكين على يد المغول بعد أن نهبت كل خيراتها وتركوا فيها نائنين جبر خوجا واكيداني شيمو مينغان. كان حصار بكين الذي استمر بعد العصيان الكيداني عاماً واحداً تقريباً قاسياً، وعم المدينة الجوع «إلى درجة أن السكان من شدة الجوع اضطروا لأكل لحوم البشر ومنهم من مات» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٧٤]. عندما دخل المغول المدينة بدأوا بضرب السكان الذين بقوا على قيد الحياة، وتم حرق قصر الأباطرة التشجور تشجيينين واستمر الحريق أكثر من شهر، لم يكن جنكيز خان في صفوف الجيوش التي اقتحمت بكين؛ لأنه كان في الشمال بحكم أنه لا يتحمل قيظ الصيف.

غزا موخالي في شتاء عام ١٤١٢-١٢١٥ إقليم لياودون وحاصر عاصمة تسزين الشمالية، ولكن حاكم المدينة سلم نفسه طواعية للمغول.

على كل حسب قول مؤلف «يوان شي» تمكن المغول في خريف عام ١٢١٥ من الاستيلاء على ٨٦٢ مدينة تسزينية، وحطموا أسوارها [يوان شي، الفصل الأول، ص ١٠].

جلب العام ١٢١٤ محنة كبيرة للتشجور تشجيين مرة أخرى، فمن أجل الانتقام من عدم مساعدتهم في ساعة الضيق والأمل في الغنائم السهلة جعل التانغوت منذ عام ١٢١١ يوجهون الهجمات على المناطق الحدودية للإمبراطورية التسزينية، ومن عام ١٢١٤ تحولت هذه الهجمات الحدودية وتساعدت إلى الحرب التانغوتية التشجور تشجينية التي استمرت من عام ١٢١٤ إلى عام ١٢٢٤، بدلاً من أن يتعاونوا ضد المغول، لقد استنزف التانغوت والتشجور تشجينيون إمكاناتهم في هذه الحرب التي كانت ضعيفة في الأساس معجلين بسقوط دولتيهما.

لقد تعرضت كل المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر خوانخا إلى النهب والإفلاس، إضافة إلى محافظة شاندون الحالية، بحكم أن نهر خوانخا في عام ١١٩٤ غير اتجاه مجراه، اقترح المغول في نهاية عام ١٢١٥ السلام للتشجور تشجيين بشرطين: أن يتنازل التشجور تشجينيون عن كل الأراضي الواقعة إلى الشمال من نهر خوانخا، وأن يتنازل إمبراطورهم عن لقب الإمبراطور، ويحتفظ بلقب الأمير فقط، ويحكم الأقاليم الجنوبية المتبقية من دولة تسزين، لكن التشجور تشجيين لم يوافقوا على هذين الشرطين.

في عام ١٢١٦ رجع جنكيز خان إلى مقره في منغوليا على نهر كيرولين، وبهذا انتهت الحقبة الأولى من حروب المغول النشطة مع التشجور تشجيين، إن المغول في الأساس مارسوا نهب خيرات الدولة التشجور تشجينية واجتياحها، ولم

يستثمروا المساحات التي احتلوها، ولم يبقوا في المدن حتى حمايتهم العسكرية، غالباً ترجع إدارتها بعد خروج فصائلهم العسكرية من الأراضي المحتلة للتسزين أنفسهم، ولهذا كان السبب الأساسي في رفض التشجور تشجيين التنازل عن المساحة الواقعة شمال نهر خانخا. إن نتائج الحروب بالنسبة للمغول الانتصار دوماً والاستيلاء على الغنائم الثمينة، يخبرنا رشيد الدين أنه «بعد أن أخضع جنكيز خان خلال السنوات الثلاثة أو الأربعة الأخيرة المدن والقلاع الصينية واستولى عليها، التي ذكرت سابقاً وفق ترتيبها، رجع من تلك البلاد منتصراً، وفي ذلك العام نفسه، أي عام الفأر آب إلى مقره سعيداً ومحققاً كل رغباته، وسمح للجميع بالاسترخاء في ديارهم وعلى الأمر السلام» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٧٧].

ومنذ ذلك التاريخ كان جنكيز خان يرى أنه رد ما لحق بأجداده من إهانات التشجور تشجيين؛ لأنهم لا يمكنهم الآن أن يلحقوه بالضرر، ولا يمثلون خطراً كما سبق، ويبدو أن هواجس الظافر في ذلك الوقت تحددت في الغالب الأعم بالاتجاه غرباً، كان الانتقام رهيباً، كما ذكرنا سابقاً «جبال من الجثث».

سنورد أيضاً مثالين: عندما سقطت مدينة باوتشجو طرد المغول كل سكانها ونهبوها، ثم بعد ذلك قضاوا في البداية على العجائز، وبعد يومين قتلوا كل السكان المتبقين بما فيهم الشيوخ والشباب، الأغنياء والفقراء، لقد قضي على مئات الآلاف من الأشخاص، وتكومت الجثث أكواماً بكل ما تحمل الكلمة من معنى، يروي مؤلف «التاريخ السري» أن الإمبراطور التسزيني عندما هرب من الشمال إلى الجنوب كان جيشه في وضع حرج إلى درجة أن «الذين نجوا من الجيوش الكيدانية عانوا من الجوع، إلى أن بلغ الأمر بالمحاربين الذين كادوا أن يموتوا جوعاً بقتل بعضهم بعضاً وأكلهم» [السيرة المكنونة، ص ١٨١].

وهكذا كان الاجتياح مرعباً وغنائم المنتصرين عظيمة ، لقد أخذوا المعادن الثمينة والحريير والأواني^(١) ، كان عدد الأسرى وفيراً فأبادوا الزائدين منهم .

لقد استولى المغول على كمية كبيرة من الأسلحة والعتاد الحربي ، كما أسروا حشداً كبيراً من الفنيين العسكريين ، الذين كان بمقدورهم التعامل مع الأسلحة وبمقدورهم تعليم الآخرين أيضاً استعمالها . كانت نتيجة الحرب التي استمرت خمس سنوات مع تسزين الإقبال العام والانضمام إلى جانب المغول والكيهانيين والصينيين ، ففي عداد المنضمين إلى المغول من التسزينيين من قادة وجنود من مختلف الشعوب - على حسب رأي ل . غامبيس - كونوا ستاً وأربعين فصيلة عسكرية [غامبيس ، ص ١٠٧] . ومن تلك اللحظة لم يكن ميسوراً لغير المغول مواصلة الغزو على دولة تسزين ، وبالتحديد بعد ذلك صار الجيش المغولي ، وبصورة أدق جيش جنكيز خان ، جمعاً من غزاة ولصوص متعددي الجنسيات والقبائل ، إن نتيجة الحرب بالنسبة لدولة تسزين التي استمرت خمسة أعوام كانت الاجتياح والانهيار ، وكما كتب مؤخراً تشجاو خون «إن التتار ضايقوهم حتى أسوار مدينة يانتسزين ، وعند نهاية الحرب قضى على القوات العسكرية التي أسسها قطاع الطرق التسزينيين على مدى مائة عام وتوزيعها تقريباً بكاملها ، وألت دولتهم للانحطاط» [التدوين الكامل ، ص ٧٣] .

ارتبطت المرحلة الثانية من غزو تسزين باسم موخالي ، في عام ١٢١٧ منح موخالي لقب أمير ؛ أي غوفان ، وشهادة يحق بموجبها حكم العمليات الحربية وإدارتها في شمال الصين ، وختم ذهبي يؤكد حقوقه في شمال الصين تبعاً لتقليد ينص على أن «الأبناء والأحفاد من جيل إلى جيل سيتوارثون حكم الدولة» . إن أمر (١) عن القدر الذي تم نهبه في الصين تشهد تلك الحقيقة التي تقول إن جنكيز خان أهدى سويتاي مكافأة على إسقاط إحدى مدن تسزين حمولة عربية كاملة من الذهب والحريير [يوان شي ، الفصل ١٢١ ، ص ١٦] .

جنكيز خان ينص على أن «الأراضي الواقعة إلى الشمال من جبال تايخان سأحكمها، أما أنت فستحكم الأراضي الواقعة إلى الجنوب من جبال تايخان، التي يجب أن تضي عليها جهودك» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص ١١٢]، كما منح موخالي عربية احتفالات وعلماً ذا تسعة ألسن وعرشاً من الفضة، وأعلن للجميع أنه «عند إصدار موخالي أمرأ يرفع هذا العلم، إن هذا يساوي حضوري بشخصي» [المصدر نفسه ص ٢]. أنشأ موخالي إدارات ميدانية على مستوى المحافظات وللغزوات أيضاً؛ أي «سيستين»، كما أمر بإعداد خرائط للسهول الوسطى؛ أي شمال الصين.

كان موخالي ينفذ أوامر جنكيز خان دون تباطؤ، ففي عام ١٢٢٢ ظهرت نجمة غير عادية، مما حدى بقيادات الجيوش بناءً على هذه العلاقة السماوية بإيقاف الغزوات، حينها قال موخالي: «أمرني الحاكم بإخضاع السهول الوسطى، وعلى الرغم من أنه تم احتلال خيبي، إلا أن السيطرة لم تتم على خينان وتسينغو، فإذا لم أسر إلى الأمام من أجل الظاهرة السماوية، فمتى سأخضع لمن هو تحت السماء؟ إذا خرقت أمر الحاكم فهل أكون من الحافظين للوفاء؟» [المصدر نفسه، ص ١٣].

تسم المرحلة الثانية من الحروب المغولية باستخدام كبير للتشكيلات العسكرية من سكان تسزين، إن الصينيين والكيدانيين كانوا يحاربون تارة إلى جانب المغول وتارة إلى جانب التسزينيين وحينها صار المغول لا يتهبون فحسب بل يستثمرون الأراضي التي احتلوها، بل إن الصينيين بحكم بغضهم للتشجور تشجينيين صاروا طوعاً في الغالب الأعم يناصرون المغول، ومثال ذلك أسرة النبيل شي التي كون ممثلوها «طوائف الفرع الطاهر» أي (تسين لي شي) و «جيش الفرع الطاهر» أي (تسين لي تسزيون). إن هذه الطوائف والجيش دعموا المغول بنشاط وحاربوا إلى جانبهم، حارب الجيش الأسود الصيني ضد تسزين إلى جانبهم أيضاً، كما أنشأ

الكيداني فان سيون مجموعة تسمى «سنجمي أهلنا»؛ أي (باو تستسزو) وجلب لهم مائة ألف مقاتل .

لقد شجع جنكيز خان كل الذين أقبلوا لمناصرته ، فقلدهم أعظم الألقاب ، ومنحهم السلطة ، على الرغم من أنه في شمال الصين كانت تدور الحرب ، لكن أصبح الغرب تدريجياً قاعدة الانتصارات المغولية ، جرت التحركات الحربية في الأساس على أراضي شبه جزيرة شاندون الحالية ، ومحافظتي شانسي وشينسي ، وللعام ١٢٢٢ استولى المغول على مدينتي تايوان وتشاتان ، وفي العام نفسه توفي موخالي بسبب مرضه وهو ابن الرابعة والخمسين ، وقبل الموت ذكر لأخيه الصغير دايسون قائلاً : «إنني كنت من المساعدين في إنشاء الدولة ، وقمت بأعظم الأعمال ، وحققت النجاحات ، حملت السلاح أربعين عاماً ، وغزوت الشرق عدة مرات ، وأخضعت الغرب ، ولست نادماً على شيء عدا أنني لم أسيطر على بيانتسزين ، فأخضعها» [يوان شي ، الفصل ١١٩ ، ص ٣].

أصاب الحقة الأخيرة من حياة جنكيز خان هزات أرضية عنيفة في منطقة خيبا التي كانت نتائجها عصيان شعبي ضد المغول ، وإرجاع بعض المساحات التي تم احتلالها إلى دولة تسزين ، إضافة إلى ذلك نشبت حرب بين قائدين صينيين هما شي تيانير وأو سيان اللذين سبق لهما أن انضما إلى صفوف المغول ، قتل أو سيا شي تيانير وسلم نفسه إلى التسزينيين ، ولكن شقيق المتوفى شي تيانسزا بصحبة الجيوش المغولية قضى على أو سيان الذي هرب إلى بيان ، وهكذا تمت السيطرة من جديد على خيبا تدريجياً ، ففي عام ١٢٢٧ - عام وفاة جنكيز خان - تمكن المغول من السيطرة التامة على شبه جزيرة شاندون ، وصى جنكيز خان قبل وفاته بإخضاع تسزين بالاتحاد مع سون إلى درجة أنه قال إنه يتوجب أن تبدأ الحرب بالاستيلاء على بوابة التنغوان غرب البلاد .

قاد أوغاداي خليفة جنكيز خان بنفسه الحرب ضد التسنزين في عام ١٢٣٠ على المنطقة التي أوصى بها جنكيز خان، وفي عام ١٢٣٢ تكبدت الجيوش التسنزنية الهزيمة النكراء عند بوابة تونغوان، وسلم قائدها نفسه للمغول، أما الجيش الذي كان تحت قيادة سوبيتاي فقام بمحاصرة مدينة بياتيا المكتظة بالسكان، فانتشر الوباء والجوع بين السكان. تشير بعض المصادر إلى أن عدد الموتى بلغ حوالي تسعمائة ألف شخص، وسقطت المدينة، وهرب الإمبراطور التسنزني. وفي عام ١٢٣٢ توحد المغول مع سون من أجل السيطرة التامة على دولة تسزين، ومن شروط الاتحاد السونية أن تعاد لهم كل أراضي خينان، وفي عام ١٢٣٤ اختبأ آخر إمبراطور تسزيني؛ أي تسزون في مدينة تساي تشجوو، ولكن الجيوش المغولية والسونية حاصرت المدينة، السبب الذي جعله يتحجر، وبهذا سقطت المدينة، وانتهت أسرة تسزين ودولتها. ولقد حدث كل هذا بعد سبع سنوات من وفاة جنكيز خان، وبهذا تبقت دولة سون والصين فقط، ولكن قصة احتلالهما لا تدخل في بحثنا هذا.

في عام ١٢١٦ رجع جنكيز خان إلى منغوليا، وكانت كل أفكاره حينها متجهة نحو السيطرة على الغرب، ولكي يطمئن على ذبول جيشه قرر مرة أخرى بث الرعب في نفوس جيرانه القاطنين في الشمال والجنوب.

في عام ١٢١٦ قاد سوبيتاي باتور وتوكوتشار باتور بأمر جنكيز خان حملة على الشمال ضد الميركيت، الذي كال المغول لهم الضرب مرات عديدة؛ لأن جنكيز خان كان على علم بأن الميركيت «من جديد يعدون جمعهم ويريدون مواصلة التحركات العدائية». كان جنكيز دوماً يخاف أهله التتار المغول أكثر من أعدائه الخارجين، «ولكن سحق قواده المغول كل قبيلة الميركيت إلى درجة أنهم لم يتركوا واحداً منهم على قيد الحياة». ابن الزعيم الميركيتي كودو، الذي يدعى ميزغين المشهور برمي السهام، تم القبض عليه حياً، وأخذ إلى تشجوتشي وقد طلب

العفو عنه من جنكيز خان، ولكن جنكيز رفض الطلب قائلاً: «لقد سيطرت من أجلكم على الكثير من الدول والجيوش، فلأني غرض محتاجون إليه؟» وهكذا أمر ابنه بالرد على سؤاله، يخبرنا رشيد الدين: «ولهذا السبب تم القضاء أيضاً على ميرغين ولم يبق بعده أثر لهذه القبيلة. أمين!» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٧٧-١٧٨].

في شتاء عام ١٢١٧-١٢١٨ حاول المغول مرة أخرى القضاء على الدولة التانغوتية، وفي فبراير عام ١٢١٨ حاصروا عاصمة دولة سي سيا بعد أن سيطروا على العديد من المدن التانغوتية ونهبوها، ولكن حاكم التانغوت تسزون سيان كنظيره حاكم التشجور تشجيينين سيوان تسزونو أصابه الخوف، وامتنع عن قيادة الدفاع عن العاصمة بنفسه، أمراً بالدفاع عن المدينة لداجان خليفة العرش، بينما سافر بنفسه لمدينة سيليان، ومن هناك بعث بسفرائه للمحادثات، إن ذعره وتطلعه إلى الحلول سلمياً يمكن تفسيره بأن التانغوت كانوا على علم جلي بما فعله المغول في دولة تسزين، حينها أعد المغول أنفسهم لغزو الغرب، ولم يدخل في خطتهم الحصار الطويل لعاصمة سي سيا بعد معرفتهم أن الاستيلاء على المدينة الكبيرة المحكمة التحصين ليس بالسهل، كما أن الدولة التانغوتية كانت في حالة ملائمة جداً للمغول في حربهم مع دولة تسزين، وبهذا طلب جنكيز خان من التانغوت في ساعة المحادثات طلباً واحداً، هو مساعدتهم في غزو الغرب. إن الحرب مع تسزين وضحت أن الحرب بالأيدي الغربية مريح، أبلغ السفير المرسل اسم جنكيز خان الحاكم التانغوتي «لقد وعدت بأن تكون ساعدي الأيمن، فدعك من أن تكون الآن كما وعدت حين أبدأ بغزو الشعب السارتاولي الذي قطع مقاليد حكمي الذهبية!» [السيرة المكنونة، ص ١٨٦].

ولكن رد التانغوت بالرفض البات دفع جنكيز خان إلى الوعد بالقضاء عليهم
بعد غزو الغرب، وأمر بسحب الجيوش عن أراضي سي سيا .

ماذا يمثل شمال الصين بعد الاحتلال المغولي؟ يمكننا أن نلاحظ من رواية بهاء
الدين رودي، الذي ترأس بعثة خوارزمشاه إلى جنكيز خان، الذي أدركوه في
داخل تسزين: «لقد بدت من كل النواحي آثار الاجتياح المرعب، وكونت عظام
الموتى جبلاً بكاملها، وباتت التربة رخوة من شحوم البشر، وقيح الجثث جلب
الأمراض» التي من جرائها مات بعض أصدقاء بهاء الدين، «وعند بوابة بكين
انبسطت أكوام كبيرة من العظام» [رافيرتي، المجلد الثاني، ص ٩٦٥] لقد كان انتقام
جنكيز خان من أجل أمباغاي خاغان عظيماً، وهكذا أعلن جنكيز خان عن نفسه
لكل العالم بعد عشر سنوات من مؤتمر كوريلتاي العظيم .



الكارثة الأوتراقية

«عندما رميت ببصري، ها هو فرس شاحب
عليه فارس اسمه الموت، ويعقبه الجحيم، منح
سلطة على ربع مساحة الأرض، يميت فيها
بالسيف والجوع والأوبئة ووحوش الغابات»
القيامة، الفصل الحادي عشر، ٨.

أقرب الدول المجاورة لجنكيز خان من جهة الغرب دولة الصينيين السود؛ أي
لياو الغربية أو (سي لياو)، التي كانت من الدول المعادية له، ودولة خوارزمشاهيين
الواقعة على السهول الكيبتشاكسية (ديشت إكيبتشاك)، كانت الدولة
الخوارزمشاهية في الأعوام ١٠٩٧-١٢٣١ بموازاتها بالدول الأخرى من أقواهم،
في السنين العشر الأخيرة من وجودها ضمت المساحات الآتية: ما وراء النهر،
وخراسان، ومازندرانا، وقرمان، والعراق الفارسي، وأذربيجان، وسيستان،
وغازني، في بداية القرن الثالث عشر الميلادي وعندما برزت على الساحة العالمية
الدولة المغولية كقوة عظمى حارب الخوارزمشاه علاء الدين محمد ضد الصينيين
السود والملاك المحليين لسهول آسيا الوسطى، وفي العام ١٢٠٧ سيطر على
بخارى، وفي عام ١٢٠٨ استولى على مدينتي غيرات وخورزم، وفي حروبه مع
الصينيين السود حدث أن وقع أسيراً، ولكنه استطاع الفرار، كان يدفع جزية للغور
خان من الصين السود، ولكن القوة جانب الصينيين السود.

في عام ١٢٠٩ وصل إلى العاصمة رسول غور خان توشي لاستلام الجزية،
ولكن تصرفاته الرعناء (إذ جلس على العرش بجوار الخوارزمشاه) انتهت بموته، أما

أعوانه، فقد مزقت أوصالهم، ورمي بهم في نهر أموداربا. التقى الأعداء على السهب الإلاميشي، وأيد الله بنصره المؤمنين على أعدائهم من الكافرين، فر الصينيون السود، وحينها أغلق سكان بالاساغون عاصمة غور خان أبواب المدينة، ولم يسمحوا بمرور قادتهم الذين حكموهم وأخضعوهم، في خلال خمسة عشر يوماً حاصر غور خان عاصمتهم ودفع آلاف من عليه سكان المدينة أرواحهم ثمناً لعدم الطاعة، وتم نهب البقية الباقية، قام العالم الإسلامي بتقييم نصر الخوارزمشاه كنصر المسلمين على الكافرين، ووهبوه لقب اسكندر الثاني أو ذي القرنين^(١).

أضيف اسم السلطان السلجوقي سانجار إضافة إلى هذا اللقب من القرن الحادي عشر، وفي أختامه التي يمهز بها الوثائق أضافوا النص «المتواضع» هو: «ظل الله على الأرض». في العام ١٢١٢ قامت ثورة سمرقند ضد خوارزمشاه التي قادها آخر من آل قارخانيد التابعين لعثمان، قام خوارزمشاه بإعدام عثمان، وقتل عشرة آلاف من أتباعه الجدد، في عام ١٢١١ قام كوشلوك ابن القائد النايمني تايان خان واستولى على مقاليد الحكم، وحرّم القائد الصيني الأسود غور من الحكم، تمتع كوشلوك قبل هذه الواقعة بثقة آخر حاكم غور خان جيلو كو، وقد كان متزوجاً من ابنته، كانت كونكو ابنة غور خان امرأة متسلطة، ونجحت في إرغام كوشلوك في تغيير ديانته من المسيحية إلى البوذية، بعد أن لمس كوشلوك أن الكثيرين في دولة الصين السود يميلون إلى نفوذ غور خان وسلطته وحتى خوارزمشاه عندما علم بالفضل الجديد في بلاط غور خان دخل معه في علاقة ودية، لما علم كوشلوك بهزيمة غور خان بسيف خوارزمشاه «قام وبكل سرعة ضرورية وهجم عليه (أي غور خان. تعليق المؤلف). في الوقت نفسه الذي كانت قوات هذا الأخير قد تشتتت وكان نفسه محاصراً، ولما كان غور خان لا يملك مخرجاً آخر أراد أن يتنازل أمامهم بكل سلام، لم يسمح كوشلوك بذلك، وكان ينظر إليه في عداد والده ويكن له

(١) كان اسكندر المقدوني معروفاً في العالم الإسلامي باسم اسكندر ذي القرنين.

الاحترام بشكل ظاهري فقط؛ لأنه في واقع الأمر كان قد أخذ بزمام السلطة في مناطق تركستان، التي كانت تتبع لغور خان، وكذلك مقدماته ورتبه القيصرية كافة، في عقد عامين من الزمان أسلم غور خان روحه لبارئها بسبب حزنه لفقد ممتلكاته، التي جمعت من خلال الثلاثمائة وخمسة الأعوام، كل هذا انتقل إلى أيدي كوشلوك» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٨٢]، وهكذا امتلك كوشلوك عرش غور خان التابع للصينيين السود، وأصبح منافساً لخوارزمشاه.

نفذ كوشلوك سياسة داخلية تفتقر إلى المرونة بنفسه، الذي يعدّ مرتداً، حيث ترك المسيحية واعتنق البوذية، وصار يلاحق المسلمين، «أطلق العنان ليديه على مواطنيه بالقهر والابتزاز» [المصدر نفسه]، طالب المسلمين بتغيير عقيدتهم إلى المسيحية أو البوذية ودخل في مجادلة مع أئمة المسلمين خوتان، التي انتهت بأن أحدهما وهو الإمام علاء الدين محمد الخوتاني أهان الحاكم قائلاً: «فليكن التراب في فمك يا عدو الإيمان الحقيقي» [المصدر نفسه، ص ١٨٣]، نظير ذلك تم صلبه على أبواب مدرسته، ومنذ ذلك الحين أصبح كوشلوك جالساً على ممتلكاته كالجالس على النار.

سبق أن ذكرنا أن سويتاي باتور قد أرسل للغزو على الميركيت، على الرغم من أن رشيد الدين يخبرنا أن الميركيت كافة قد أيدوا عن بكرة أبيهم، إلا أن أعداداً قليلة منهم قد هربت إلى السهل الكيبتشاكي في مناطق قازاخستان الحالية، الأكثر قرباً لهذه المناطق، أصبح تشجوتشي أو حاكم «شعوب الغابات»، كما ذكر في كتاب «يونان شي»: «في عهد بناء دولة [تشجوتشي] صار حاكماً عظيماً (تسين فان)، وأقطعوه الشمال الغربي كمنحة يتعيش عليها، هذه الأراضي التي تقع على بعد عشرات آلاف لي عن العاصمة، يتطلب الوصول إليها على خيول البريد

السريعة، التي تبدل في أثناء المسير، أكثر من مئتين وعشرين يوماً» [يوان شي، الفصل ١٠٧، ص ١٥١]. أمر تسجوتشي بأن يكمل القضاء على الميركيت، الأمر يبدو قد وصل إليه في حينه على الرغم من بعد المسافة.

وهكذا بدأ الفصل المغولي تحت إمرة تسجوتشي في تعقب الميركيت، توجه خوارزمشاه في هذا الوقت للغزو شمالاً ضد الكيبتشاكين. كان المغول قد قضاوا على الميركيت عند ظهور خوارزمشاه في ساحة القتال، لم يود تسجوتشي أن يدخل في عراك مع خوارزمشاه، وأعلن أن جنكيز خان أرسله على الميركيت فقط.

أعلن محمد أن كل الكفار أعداءه وأعلن الحرب على كل غير المسلمين أي المغول، حسب معلومات ابن الأثير: «دامت الحرب ثلاثة أيام بلياليها، ومات فيها من الجانيين ما لا يحصى، ولكن لم يفز أي من الجانيين، بلغ الأمر إلى أن أحد الفرسان منهم يترجل ويشتبك مع عدوه، تعاركوا بالمدى وسال الدم إلى درجة أن الخيول زلقت به لكثرت، وخسرت الفرقتان في الحرب وفي الانتظار» [ابن الأثير، ص ٧] لم تكن نتيجة المعركة واضحة، وعندما قام المسلمون بتجديد القتال لم يجدوا المغول، فقد انسحبوا عند حلول الليل، وتركوا كعادتهم نيرانهم مشتعلة وبذلك خدعوا المسلمين.

يجب القول إن فكرة غزو منغوليا والصين واحتلالها كانت تعيش في داخله نفس خوارزمشاه منذ أمد بعيد، كان دائماً يسأل التجار عن ثروات الدولة الشرقية، فما طمعه ونجاحاته بشكل ملحوظ في نمو شخصيته كجنكيز خان جديد، يخبرنا جوزجاني قائلاً: «نحن كخدمه وأتباعه المقربين، حاولنا إقناع خوارزمشاه بالعدول عن هذه الفكرة، معللين قناعتنا ببعده المسافة وصعوبات الطريق والعوائق الأخرى، ولكن خوارزمشاه أصر على رأيه، عندما بلغته الأقاويل إن جنكيز خان احتل

الصين، قرر التأكد من صحة الأقاويل، وأرسل إلى الصين إرسالية بقيادة السيد النبيل بهاء الدين الرازي» (انظر [بونياتف، ص ١٣١-١٣٢]).

استقبل جنكيز خان رسل خوارزمشاه بكل ترحاب، وغمرهم بالهدايا، وأرسل هدايا إلى خوارزمشاه قائلاً للرسول:

- انقل إلى خوارزمشاه الآتي: «أنا مالك الشرق، وأنت مالك الغرب، فليكن بيننا اتفاق متين على الصداقة والسلام، ودع التجار وقوافل كلا الجانبين ليذهبوا ويعودوا، كما المشغولات الثمينة والبضائع العادية التي في أرضي فيروحوا بها، وتلك التي لديك بالترتيب نفسه فليجيئوا بها إلي!». .

من الجائز أن الأكاديمي ف. س. بارتولد كان على حق عندما كتب: «قد لا يعرف ما إذا كان جنكيز خان في ذلك الوقت قد حلم بالسيادة على العالم» [بارتولد، تركستان، ص ٤٦]. لكن هذا الاتفاق يشبه إلى حد ما «اقتسام العالم» المنظور والمطروق للطرفين، وهذا هو البرهان الأول والبرهان المهم على أن جنكيز خان، بعد انتصاراته على تسزين، لم يفكر بتحجيم دولته حدود منغوليا؛ إنما كان يفكر بمقاييس دول العالم، لقد عد نفسه «مالك الشرق» مستحوذاً على الشرق كله؛ أي كل ما يمكن أن يصل إليه الفارس على ظهر حصانه السهلي الدؤوب.

بعث جنكيز خان رداً على إرسالية خوارزمشاه بهدايا ثمينة من ضمنها قطعة من الذهب بحجم سنم جمل (حملت على عربة وحدها) واليشم والمسك ومنسوجات من وبر الجمل . . . استقبل محمد الرسل في بخارى، قام الرسل بإبلاغ محمد أن جنكيز خان قد سمع عن انتصاراته ومجده، وعليه أن يعرض اتفاق سلام، وعزمه عن استعداده ليضعه في عداد «يتساوى مع أعلى أبنائه»، ويعني هذا باللغة الدبلوماسية الشرقية أن الاعتراف هو الاعتراف، ولكن التساوي بينهم لا يمكن أن يكون، جنكيز الأب الأكبر، لتأكيد هذا عبر اقتراح جنكيز عن الأمل في أن

محمدًا، الذي يعرف عن انتصاراته في الصين، أي ببساطة ترويع خوارزمشاه «أنت لدي كأغلى ابن عندي، وليس بخاف عليك باستيلائي على الصين وبلدان الترك المجاورة، وقد انصاعت لي قبائلها كافة» [بونيأتوف، ص ١٣٣].

لا نعلم بماذارد خوارزمشاه على رسل جنكيز خان، ولكنه دعا بشكل سري رئيس رسل جنكيز محمود الخوارزمي، وأسر إليه بأن يكون له عيناً في قصر جنكيز، وأوكلت إليه مجموعة من المهام:

- هل حقيقة ما قال لي جنكيز أنه مالك للصين، وهل حقيقة أنه استولى على مدينة تامغاج، هل وقع هذا؟

- حقاً إن هذا واقع، شيء عظيم، مثل هذا لا يمكن أن يكون في الخفاء، وعمما قريب سيتأكد السلطان بنفسه من ذلك.

- أنت تعلم أن مستعمراتي مترامية الأطراف، وأنت تعلم مهابة جيشي، كيف يأتي لهذا الدعي أن ينعتي ابنه؟ ما قدر جيشه؟

- إن قوات جنكيز خان مقابلة بجيوش خوارزمشاه مثل فارس وحيد أمام خيالة، أو خيطة دخان في عتمة الليل [المصدر نفسه، ص ٣٣].

حذر محمود خوارزمشاه في بادئ الأمر، «الشيء الذي تأكد منه السلطان بنفسه فيما بعد»، ولكن كما يقول المؤلفون المسلمون «رجع في الحق»، وأعطى لخوارزمشاه معلومات مضللة عن جيوش جنكيز خان، فلعل التاجر خاف وقرر لو أنه قال الحقيقة عن جيش جنكيز، لن يخرج من قصر خوارزمشاه حياً، قام خوارزمشاه بإهدائه حجراً كريماً، وطلب منه أن يتذكر دائماً بأنه خوارزمي.

تم عقد الاتفاق ورجع الرسل إلى جنكيز، وحملت الإفادات الليلية التي قدمها محمود طواعية، في باطنها أسوأ النتائج لوطنه.

يعدّ|. ب. بيترو وشيفسكي إفادات محمود أنها أثبتت أن «خوارزمشاه لا يحمل أدنى فكرة عن واقع إمبراطورية جنكيز خان ولا عن إمكاناته العسكرية» [بيترو وشيفسكي، ص ١٠٥]، كانت لجنكيز خان علاقات وثيقة مع تجار آسيا الوسطى «فلهذا لا يمكن أن نتصور أن جنكيز لم يتمكن من الحصول على المعلومات الضرورية له قبل عامين من نشوب الحرب» [المصدر نفسه]. يبدو أن خوارزمشاه امتلك بعض المعلومات عن بعثة بهاء الدين، ومن بعثاته والفارين من الصين ومنغوليا من الأويغوريين والكارلوكيين وأخيراً من كوتشوك، لم يستطع أن يصدق أن جنكيز بجيش ضئيل للغاية استطاع الاستيلاء على الصين، استطاع التاجر المخادع أن يحذر رغبة الخوارزمشاه وحدثه بما يسر قلبه، لم يحب خوارزمشاه أن يسمع الحقيقة فلم يسمعها.

كان التجار المسلمون في تلك الأعوام يسيطرون على التجارة بين آسيا الوسطى والشرق الأدنى من جهة، وما بين الصين ومنغوليا من جهة أخرى، أرسل جنكيز خان إلى المناطق التي تتبع لخوارزمشاه قافلة تجارية ضخمة قوامها ٤٥٠ تاجر مسلم حملوا على خمسمئة ناقه بضائع جنكيز خان التي نهبت في أراضي التانغوت ودولة التشجورتشجينيين، ذهب وفضة والحريير الصيني وجلود السمامير وأنواع الفراء الأخرى من جنوب سيبيريا والأجزاء الشمالية لتسنزين، كانت قافلة المغول تختلف عن قافلة التجار، ووصل معها أيضاً أوخونا رسول جنكيز خان.

كان لدى الأشخاص الذين وصلوا مع القافلة بشكل رسمي أمر «بالذهاب إلى أراضي خوارزمشاه والاشتغال بالتجارة وشراء البضائع الثمينة والنادرة التي يتمتع بها ذلك الإقليم»، ورد في الرسالة التي حملها معه أوخونا الآتي: «التجار هم عماد الدولة، إنهم الذين يجلبون للقادة الأشياء الثمينة والنادرة، ولا يوجد ما يسوغ معاكستهم في هذا الشأن، ومن جانبي لا توجد عندي أي نوايا لمعارضتهم في

الاتجار معكم، يترتب علينا العمل معاً وبشكل جماعي من أجل نهضة أقاليمنا وعمرانها، لهذا فقد أصدرنا أمراً بأن يسود السلام على الأرض بين جميع الدول، حتى يتمكن التجار دون خوف من السفر في البلدان، الأغنياء والفقراء سيتعيشون في سلام وسيحمدون الله» [بونيافوف، ص ١٣٥]. كان في الرسالة عيب واضح، لم يفت بغير ملاحظته في دولة خوارزمشاه، وهو أن جنكيز «أصدر الأمر» لكي يسود السلام بين الدول على الأرض، وفي الرسالة أعلن جنكيز خان نفسه حاكماً على العالم!

وصلت قافلة جنكيز إلى حدود مملكة خوارزمشاه في مدينة أوترار، يحدثنا المؤرخ العربي ابن الأثير عن تطور الأحداث فيقول كالآتي: «وصل (أي التجار) إلى إحدى مدن الترك المسماة أوترار، التي تشكل إحدى المدن الحدودية لإقطاعية خوارزمشاه، الذي كان لديه نائب في المنطقة، عندما بلغه هذا الفيلق التتري فإنه (أي الممثل) أرسل لخوارزمشاه يعلمه عن وصولهم، وعن الممتلكات التي بحوزتهم، أرسل له خوارزمشاه أمراً بقتلهم جميعاً وبتجريدتهم من ممتلكاتهم التي بحوزتهم وإرسالها إليه، قام (نائب خوارزمشاه) بقتلهم وإرسال ما بحوزتهم، وكانت كثيرة، عندما وصل ما أرسل لخوارزمشاه قام بتوزيعه على تجار مدينة بخارى وسمرقند وأخذ قيمتها (أي البضائع لنفسه)» [ابن الأثير، ص ٥].

هناك وجهات نظر مختلفة حول تفاصيل هذه الواقعة، تبعاً لوجهات النظر هذه فإن محمداً قد أمر حيدر خان اينال (اينالتشيك) نائبه في مدينة أوترار بالقبض على التجار، ولكنه قام بقتلهم حسب وجهة نظره الخاصة، وسلطته المخولة له، متهماً إياهم سلفاً بالتجسس، يفترض كثير من الباحثين أن المرافقين للقافلة من المغول كانت كانوا موكلين بالتجسس على أوضاع الدولة في خوارزمشاه.

ومهما كان الحال فإن التجار ومن رافق القافلة من المغول صاروا ضحايا لشكوك والممثل للخوارزمشاه وجشعه بل له شخصياً، يكتب في هذا السياق مباشرة ز. م. بونياتف أن «المسؤولية عن هذه الجريمة تقع مباشرة على زعيم الدولة، ذلك لأن الاعتداء الذي وقع على التجار يخالف القواعد الاجتماعية كافة المتبعة بين الحكام كافة، وبالعكس ذلك تم قتل الرسل الذين كانوا واقعين تحت القواعد العامة المتعارف عليها» [بونياتف، ص ١٣٥].

تمكن واحد فقط من التجار (ويفترض أنه جمّال) من إنقاذ نفسه وإيصال الخبر المفجع إلى جنكيز خان، ومن المحتمل أن هذا الشخص ترك حياً عن عمد، وقصد بذلك أن يقص على جنكيز خان ما تم بشأن الجواسيس، كان في هذه القافلة عدد كبير من الذين لا ينتمون للتجار، كما كتب إ. ب. بيتروشفسكي «هؤلاء الناس لم يكونوا تجاراً، وأوكلت إليهم مهمة أخرى، وهذه المهمة هي التجسس العسكري» [بيتروشفسكي، ص ١٠٧]. بدأ رجال جنكيز خان حسب معلومات بعض المؤلفين المسلمين بترويع مدينة أوترار «بالمصائب المقبلة» [المصدر نفسه، ص ١٠٦] أي الغزو المغولي، يعلم من إفادات محمد بن قيس الرازي أن الشائعات عن الهجوم المرير قد انتشرت في مدن دولة خوارزم قبل غزو المغول، مما سبب الذعر وسط السكان، ماذا تبقى لخوارزمشاه أن يفعل؟ هل يترك هؤلاء الناس يمارسون عملهم بلا رادع أم يوقفهم عند حدهم؟ لقد كان مليئاً بالعزم على الرغم من أن بعض التردد قد داخله، في معركة دامت ثلاثة أيام مع تشجوتشي، فقد منها عشرين ألف مقاتل، ولكن ساحة المعركة بقيت لديه، كتب النسوي أنه بعد الوقعة مع تشجوتشي «دخل الرعب في قلب السلطان»، وذلك بعد أن تأكد بنفسه من الشجاعة والفن الحربي للمغول، ولكن لا ننسى أن كل هذا كتب بعد أن استولى المغول على خوارزمشاه، ومؤخراً فقط أصبحت نتائج المذبحة في أوتراو واضحة، كتب مؤخراً جويني «نظير كل قطرة

من دمهم (أي تجار جنكيز خان) سألت أنهر من الدماء، ويظن أن في الجزء على كل شعرة من رؤوسهم تدرجت على الأرض مئات الآلاف من الرؤوس، تدرجت على الأرض، وعلى تقاطع الطرقات» [جويني، المجلد الأول، ص ٨٠]. لعله كان بإمكان خوارزمشاه محمد وحيدر خان إينال أن يتصرفوا بشكل مختلف، ولا يعطوا حجة لجنكيز خان للانتقام، نحن لا نعرف الظروف كافة، ولكن من الواضح أنهم عرفوا بالخطر، ولكن ظنوا أن لديهم قوة كافية لرد غزو جنكيز خان.

قام جنكيز خان عند وصول الأخبار بمقتل القافلة في أوترار بإرسال بعثة للاستفسار عما حدث برئاسة ابن كفر جيني بوغر، كان المطلب الأساسي لجنكيز خان تسليم حيدر خان إينال، هناك روايتان عن «بعثة» جنكيز خان إلى خوارزمشاه: في الرواية الأولى قام الرسول بإبلاغ الآتي: «لقد منحت الوعد الموثق بيدك ضمان أمن التجار وعدم مهاجمة أي منهم، ولكنك تصرفت بغدر وحنث بكلمتك، والغدر ضيع، وأكثر غدراً إن كان من العاهل الإسلامي خاصة، فإذا أكدت لنا أن ماتم من جانب إينال لم يتم بإرادتك، فسلمنا إياه، اعطنا إياه حتى نقوم بعقابه على جرمه، وذلك حقناً للدماء، بخلاف ذلك ستكون الحرب التي تهان لها الأرواح وتتكسر فيها الرماح» [بونياتوف، ص ١٣٦].

هذه الرسالة تحمل سؤالين لا رد عليهما، يفهم من هنا أنه كان هناك نوع ما من الاتفاق المكتوب بين خوارزمشاه و جنكيز خان «وعد موقع بيدك» لا نعلم عن هذا الوعد شيئاً، فيما عدا ذلك أرسل خوارزمشاه بعد الذي حدث في أوترار رجاله مع تسويغ لما حدث، إنه يؤكد أن ما حدث في أوترار تم بغير إرادته، فمتى أمكن لهؤلاء القوم أن يدركوا جنكيز خان؟

أما الرواية الثانية للسبكي، التي تبدو أكثر تلاؤماً للأحداث «أخبرني بما حدث، أتم كل ذلك بإرادتك؟ فإذا حدث بغير إرادتك، فإننا نطالب بدماء القتولين

و دم نائبك في أوترار، الذي يترتب تسليمه لنا في أسوأ حاله، ذليلاً ومن غير شرف، ولكن إذا تم ما حدث بإرادتك فإن المسؤولية تقع عليك، لأنني لا أدين بدينك، ولا أقر هذه الأفعال، إنك تدين بالإسلام، وهؤلاء التجار كانوا من دينك! ففي هذه الحالة كيف نقيم هذا الإقرار الذي أصدرته؟» [بونيا توف، ص ١٣٦].

على الرغم من المعنى الكبير لهذه المعركة بين خوارزمشاه وتشجوتشي حيث بلغ عدد الموتى من جانب السلطان فقط عشرين ألفاً، وهذا يعني أن الحديث يدور عن آلاف الأرواح من المقاتلين المغول، ويبدو تسامح جنكيز خان تجاه خوارزمشاه غريباً، لقد أعلن خوارزمشاه أن الله يأمره بمحاربة المغول. يقال إن خوارزمشاه لم يستطع أن يسلم رينال للمغول، لأن هذا كان ابن خاله، ويتمتع بأقرباء عديدين نبلاء وذوي نفوذ، من الجائز أن الأمر كذلك، لكن لماذا يتحتم على خوارزمشاه أن يسلم رينال إذا كان يعلم أن الحرب لا بد منها، واستعداده لها (سواء أكان بشكل جيد أم لا) وقراره بخوض الحرب، عندما أراد جنكيز خان أن يكون هو ابنأله والذي افترض سلفاً أنه حاكم الكون وتشابكت أسلحته مع ابنه في سهول قازاخستان.

تظهر بعد الحروب الدموية والبشعة دائماً رواية عن أن هذه الحرب كان يمكن تجنبها، ولكن التاريخ لا يعيد نفسه، نصح جلال الدين بن خوارزمشاه بتسليم رينال، أصدر خوارزمشاه أمراً بقتل الرسول ابن كفر جيني بوغر، أما الاثنان من مرافقيه فأمر بجزؤ ذقنهما. كتب المؤرخون المسلمون مؤخراً عن هذه الحادثة ما يأتي: «لم يكن عمل من قبل أكثر بشاعة من هذا، كل نقطة من دمهم (أي الرسل) دفعت بسيول من دماء المسلمين» (السبكي، انظر [بونيا توف، ص ١٣٦]) على الرغم من أن هذا التقسيم يعد محققاً، إلا أنه لم يكن لو انتصر خوارزمشاه. أرسل خوارزمشاه رده لجنكيز خان مع الرسل المهانين.

- إنني مقبل عليك ولو كنت في آخر الدنيا؛ لأنتقم منك وأعاملك كما

تعاملت مع أتباعك!

هدد الشاه الخان بالموت، وهذا يعد إعلان الحرب، حسب شهادة الكتاب المسلمين، بعد أن استلم جنكيز خان هذا الرد قام بالصلاة لثلاثة أيام في خلوة داعياً:

- أيها الرب خالق الدنيا! يا خالق المسلمين والترك، لست أنا البادئ بكل هذه الفتنة، امنحني القوة للانتقام! (انظر [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٨٩]).

ولكن هذه أيضاً رواية المسلمين، ويرجع مضمونها إلى أن المذنب في كل هذه المصائب التي أهلها المغول على المسلمين هو خوارزمشاه، لا يوجد شيء كهذا في المصادر المغولية، توجد في «التاريخ السري» إشارة إلى أن أسباب نشوب الغزو الغربي ليس مقتل الرسل فقط، ولكن الرفض للخضوع وكسر اللجام الذهبي لجنكيز خان، الذي حاول عبره، وإن لم يخضع الشعب السارتاولي، فقد عقد العزم على ذلك «وعقب ما قام السارتاوليون بتوقيف مائة شخص من أفراد الإرسالية، التي كانت برئاسة أوخون رسول جنكيز خان وقتلهم، حينها قال الحاكم جنكيز خان: «سأهاجم غازياً الشعب السارتاولي، وبصورة قانونية سأنتقم للمائة من رجالي في الإرسالية بقيادة أوخون، هل يعقل أن نسمح للشعب السارتاولي أن يقطع زينة لجامي القيصري الذهبي دون عقاب» [السيرة المكنونة، ص ١٨٢].

قرر خوارزمشاه عدم الإبطاء بالرد على مطالب جنكيز خان قبل أن تصبح أكثر قسوة ومليئة بالإهانات، لكن الشيء الذي كان أكثر تأثيراً في القرار هو علمه بعزم العرب وخليفة بغداد بتحريض جنكيز خان على بدء الحرب معهم، حسبما يخبرنا النسوي أن بعثة الخليفة الناصر اتجهت إلى جنكيز خان لتعرض على المغول الحرب

ضد خوارزمشاه، حارب خوارزمشاه ضد الناصر، ولم يعترف له بالزعامة الروحية، والناصر سابقاً حاول مصادمته عن طريق اتحاد مع كوتشوك، الذي عرف بمطاردته ومضايقاته للمسلمين، ضد خوارزمشاه، يثبتنا ابن واصل: «عندما توجه خوارزمشاه نحو بغداد كتب الخليفة إلى جنكيز خان حاكم التتار محذراً له من الهجوم على دولة خوارزمشاه». هناك أنباء متطابقة مع ما ذكره المقرئزي: «في عهده (أي الناصر) قام التتار بنهب دول الشرق، السبب لهذا كان كما يأتي: في واقع الأمر لقد كتب إليهم محرصاً بغزو تلك البلاد، محذراً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزمشاه، عندما عزم على الاستيلاء على بغداد». (انظر [بونياتوف، ص ١٣٧]).

كان بإمكان رسل الخليفة أن يبلغوا جنكيز خان بمعلومات قيمة عن الأحوال في دولة خوارزمشاه، كان كل من خوارزمشاه و جنكيز خان في أوج مجدهما وقوتهما، أحدهما كان من الواضح ينوي الانفراد في حكم العالم، واصطدامهما كان شيئاً لا بد منه، عزم جنكيز خان على خوض الحرب، وحتى خوارزمشاه لم يتهرب منها، إن هزيمة خوارزمشاه المتوقعة يمكن أن تكون سبباً لاتهامه وحده من قبل العالم الإسلامي في بدء الحرب، من الجائز أن البروفسور إ. ب. بيتورشيفسكي قد أبدى حزماً زائداً عندما كتب أن «سبب نشوب الحرب لم ينطلق من خوارزمشاه، هو لم يردّها، وإنما أجبرته الظروف عليها، والمحرك الحقيقي للحرب في واقع الأمر هو جنكيز خان، على الرغم من أنه دبرها حيث إنه تمكن بشكل رسمي بإلقاء التهمة على خوارزمشاه، وذلك ليتفادى أن يبدو في أعين المسلمين عدواً للإسلام» [بيتورشيفسكي، ص ١١١]. إن خوارزمشاه أيضاً مذبذب في هذه الحرب، ولكن حسب نتائجها أصبح المسؤول الأول عن الأحداث، وشغل جنكيز خان موقع «المنتقم النبيل» لما لحق به من أذى، والآن هناك بعض المؤلفين

يكتبون أن المغول تمكنوا من السيطرة على نصف العالم بسبب أن هؤلاء قتلوا
رسلمهم، إن هذا لا يمت بصلة لواقع تلك السنوات الصعبة والرهيبه.

أما التخطيط للحرب في دولة خوارزمشاه، أو خطة الدفاع، فكان من
المفترض أن يتم تجميع جيش قوامه أربعمئة ألف شخص على ضفاف نهر السردار،
وتوجيه ضربة على المغول دون إعطائهم فرصة عقب الطريق الطويل حتى ممتلكات
خوارزمشاه، إن هذه الخطة اعتمدت على عدم السماح للمغول بالتوغل في أعماق
دولة خوارزمشاه، ولكن هناك خطة أخرى مبنية على هزيمة المغول في داخل حدود
الدولة، أو فيما بين نهر سردار وأمودار، معتمدين على معرفتهم جغرافيا المنطقة،
أو إغرائهم بالتوغل في الأماكن الجبلية صعبة المداخل، تم الاتفاق على الخطة التي
ليست الأفضل، والتي تتضمن تحاشي معركة شاملة، وإعطاء كل مدينة الحق
بالدفاع بشكل مستقل، ولكن هذه الخطة التي تم الاتفاق عليها نفذ القليل منها بما
يختص باستحكاكات المدن واستنفار السكان المقاتلين، بل الأكثر من ذلك أن
خوارزمشاه قام بنهب مواطنيه جامعاً منهم الضريبة مضاعفة ثلاث مرات للعام
١٢١٩-١٢٢٠ الشيء الذي أدى إلى زيادة الشعور بعدم رضا رعاياه.

استعد أحدهما للحرب بشكل سيء أما الآخر فاشتعل غضباً كما سبق أن
كتبنا، وحسبما يحدثنا رشيد الدين أن «وقاحة» خوارزمشاه تركت ذلك الانطباع
على جنكيز خان لدرجة أنه «لم تبق لديه أي قوة للشباب والهدوء، وفي جذوة هذا
الغضب صعد وحده إلى أعلى التل، ولف حول عنقه حزاماً، وعرى رأسه،
وأحنى وجهه إلى الأرض، ثلاثة أيام قضاها في الصلاة والبكاء . . . بعدها أحس
في داخله العلامات والبشارة، ونزل من هناك موفور النشاط ومسروراً وعازماً
بشكل أكيد على تنظيم كل ما هو ضروري لخوض الحرب». [رشيد الدين، المجلد
الأول، الكتاب الثاني، ص ١٨٩]. من المحتمل أن جنكيز خان كان بحاجة إلى

«العلامات والبشارة» من السماء الزرقاء الخالدة، وتسلمها بعد صلوات وانجذاب
روحي طويلين.

في عام ١٢١٨ وقبل أن يقوم جنكيز خان بغزوته على خوارزمشاه أرسل
تشجوتشي لإخضاع كوتشوك حاكم الأنهر السبعة وكاشغار، كما ذكرنا من قبل
كان كوتشوك يقوم بمضايقة المسلمين في أراضيه، واستقبل السكان المسلمون
مجيء المغول ليحررهم من سيطرة النايان، قام تشجوتشي - وهو ما زال على مداخل
كاشغار، التي كانت مقر كوتشوك - بإعلان «من أجل أن يحتفظ كل شخص بإيمانه
ويبقى دينه على طريق أجداده» [المصدر نفسه، ص ١٨٣] نهض السكان المسلمون
في وجه كوتشوك منتقمين للمطاردات السابقة التي تمت في الآونة الأخيرة، بعد
أن فقد كوتشوك نقطة الارتكاز وأصبح مطارداً، قام ولوقت ما باللجوء للاختفاء
من المغول، الذين طاردوه، إلى أن ألقى عليه القبض في نواحي باداخشان وسلم
إلى المغول، يقال إنه تم إلقاء القبض عليه بوساطة حاكم الممالك^(١)، حصل المغول
من باداخشان «على غنيمة حربية كبيرة تتكون من الأموال والأحجار الكريمة»
[المصدر نفسه، ص ١٨٣-١٨٤] انضم كل حوض تاريم والأنهر السبعة حتى تالاس
إلى إمبراطورية المغول، وسع احتلال دولة كوتشوك أملاك جنكيز، وأصبحت
الخطوة الأولى في طريقه الذي يؤدي حسب تقديره إلى سيطرته على الشرق
والغرب.



(١) حسب إفادة «يوان شي» أن كوتشوك لقي حتفه على يد خاسيمايلي المسلم التابع لغور خان
الصيني الأسود [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص ٨٦].

قبل بداية الغزو على الغرب بلغ جنكيز من العمر حسب تاريخ ميلاده الرابعة والستين ، أو السابعة والخمسين ، أو الثانية والخمسين ، فلم يكن صغيراً في العمر وحتى موافاة الخمسين من العمر في ذلك الوقت كانت بالنسبة لحاكم الدولة ليست قليلة ، هنا برز السؤال عن وريث العرش ، وقد أثارته التتارية خانشا يسوي ، كل مولود لا يمكن أن يعيش خالداً ، وحجتها في ذلك أن مملكة جنكيز خان «الكثيرة الأنفس» تركز على قوة شخصيته وسلطته ، فإذا مات أفلا تنهار دولته مثل كوم من القنب أو سرب من الطيور .

تأمل جنكيز خان :

- لقد تناسيت كأنني لن ألق عن قريب بخطى الأولين ، ولقد تناومت كأنا لن يخطفني الموت ، وهكذا فماذا ترى ابني الأكبر تشوتشي؟ رد علي! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص ١٨٢-١٨٣) .

لكن «لم يكذب يفتح تشجوتشي فمه إذ حذره تشاداي : " إنك تأمر تشجوتشي بالكلام أولاً ، لعلك تود بذلك أن تعلن تشجوتشي؟ كيف يمكن أن نسلم أمرنا لأسير الميركيت؟ قفز تشجوتشي عقب هذه الكلمات وأخذ بتلايب تشاداي قائلاً : " الأب الحاكم لم يعلنك بعد وأنت تحاكمني؟ " بأي أفضال تميز علي؟ أليس بوحشيتك فقط تمتاز أنت عن الآخرين؟ اقطع إبهامي إذا تفوقت علي حتى في إطلاق السهام في الهواء الأعلى ، ولا أقوم من قعدتي هذه إذا رميتني في الصراع ، ولنكن إرادة الأب والحاكم» .

استعد الأخوان للمبارزة ، ولكن فرق ما بينهم والدة بورتي وموخالتي ، لزم جنكيز خان الصمت ، تكلم كولو تسزوس ناطقاً بالكلمات التي ظلت طيلة عشرات السنوات تخدم دليلاً على الشكل التقدمي الذي مارسه جنكيز خان في توحيد

منغوليا «السماء ذات الأنجم تغيرت: كان نزاع عم الأمة، لم يطب الرقاد لأحد في سريره، كل شخص يذهب الآخر»، لقد ألمح للأمير الكبير تشاداي (تشاغاتاي) أنه ليس من الخير أن تسيء الأم التي قاسمت الأب العمل، وأما الأب «رأسه الأسود لم ييخل به، ودمه الأسود كذلك بسخاء سكب، عيناه السوداء وان لم يغمض لهما جفن، وأذناه المفلطحتان لم يضعهما على الوسادة، أكامه بدلاً عن الوسادة وضعها، وافترش الأرض، أطفأ ظمأه بلعابه . . . وسكب العرق من جبينه حتى أخمص قدميه».

على كل حال أعطى كولو تسزو المفهوم بأنهم كانوا سابقاً يهبون بعضهم بعضاً والآن سينهبون الشعوب الأخرى، وفهموا ما قصد، قرر تشجوتشي وتشاداي أن يعلننا أوغوداي (أوغاداي) وريشاً، ولا أحد منهم سيشعر بالغبن وكلاهما كثنائي سيعملان تحت إمرته، وهنا قام جنكيز خان بالرد قائلاً: «لأي غرض هذا العمل كثنائي؟ الأم الأرض فسيحة، كثيرة عليها الأنهر والمياه، من الأفضل أن تقولوا لي سنحكم كل على انفراد على الشعوب الأخرى» [السيرة المكونة، ص ١٨٣-١٨٥-١٨٦]. إن مساحة منغوليا قليلة ولا تكفي للجميع، فلقيام أولوسات جديدة لا بد من احتلال أرض جديدة، عندها قال أوغوداي الوريث المرتقب: «سأعمل على تحقيق ذلك»؛ أي إدارة الدولة، ولكنه لا يتكفل على أنجاله.

في عام ١٢١٩ تحرك جنكيز وأولاده وقواته الأساسية المكونة من مئة وخمسين إلى مئتي ألف شخص، وبدأ الغزو ضد «ملاك الغرب» خوارزمشاه محمد، قضى جنكيز خان صيف عام ١٢١٩ على ضفاف إرتيش، وفي الخريف توجه نحو مافيراناخ، وهي المناطق الثقافية القديمة في أحواض نهري أموداريا وسيرداريا، لقد سار، ولكنه ليس وحده، فإذا لم يستطع أن يجبر التانغوت على الغزو معه فإن بقية

أتباعه - ومنهم الإيديكوت الأويوغوري بارتشوك وخبان الترك الكارالوكيين أرسلان خان، وسوكونك تيغين المالكي، الذي أوكله المغول بإدارة ممتلكات كوتشوك - قدرافقوه في الغزوة.

سبق أن ذكرنا أن خوارزمشاه امتلك جيشاً يفوق جيوش جنكيز خان عدداً، لكن جيشه لم يكن ذا عجيبة واحدة ومطيعاً كجيش جنكيز خان، كما أنه اختار في التخطيط الحربي أن لا يركز توزيع قواته على المدن المختلفة، كان مقر إقامة محمد في مدينة بلخ، على الرغم من أنه أضمر في نفسه السفر بعيداً عن منطقة دخول المغول إلى العراق، عدّ جلال الدين بن خوارزمشاه الإجراءات التي اتخذها والده للدفاع عن الدولة غير مجدية، وعن نواياه للالتجاء إلى العراق غير مقبولة حيث قال:

- الحل الأمثل أن نجتمع بقدر الممكن جيوشنا ومقاومتهم، فإذا لم يقرر السلطان فليذهب وحده منفذاً نواياه بالذهاب للعراق، وليعطني الجيوش حتى أذهب إلى حدود الدولة، وأحرز النصر، وأنجز ما يمكنني إنجازه، حتى يكون لنا مسوغ أمام الخالق وخلقه، فإذا لم نل ما نصبو إليه فلن نكون هدفاً لسهام اللوم ولن نتطرق السنة السوء بكلمة علينا، قائلين: كانوا طيلة هذا الزمان يجمعون منا الضرائب . . . والآن، في هذا الوقت البشع يستخفون بنا ويتجاهلوننا.

لم يسافر محمد إلى العراق ولم يعط الجيوش لابنه لملاقة جيوش جنكيز خان على الحدود [بيتروشيفسكي، ص ١٠٨-١٠٩؛ بونيا توف، ص ١٣٨].

قام جنكيز خان عند وصوله إلى حدود دولة خوارزمشاه بتقسيم جيوشه: المجموعة الأولى من الجيوش بقيادة تشاغاداي وأوغوداي تركت لحصار مدينة أوترار، المجموعة الثانية بقيادة تشجوتشي بدأت تحركها على جند وبانغيكينت، أما المجموعة الثالثة بقيادة أولاك نويون وسبو كثير تشيربي فهاجمت جنوب أوترار على

خوجينست وبيناكينت (أو فينا كينت)، بهذا الشكل هاجمت ثلاث المجموعات من جيش جنكيز خان في المركز على أوترار وعلى الشمال (جيوش تشجوتشي) وعلى الجنوب منه (أولاك نويون وسيو كتيو تشيربي)، المجموعة الرابعة من القوات، التي قام بقيادتها جنكيز خان بنفسه وبمساعدة قاداته تشجابي وسويتاي، توجهوا نحو مدن بخارى وسمرقند، يعد الاستيلاء على كل هذه المدن، من خلال سير الحملة، المسألة ذات الأولوية.

استمر حصار أوترار من سبتمبر ١٢١٩ حتى فبراير ١٢٢٠، كانت المدينة محصنة بشكل جيد، وحيدر خان إينال إضافة إلى الجيوش المبعوثة من خوارزمشاه للمساعدة بقيادة كاراتشا خان، بعد خمسة أشهر من الحصار حول كاراتشا خان، خرج من القلعة مع رجاله وسلم نفسه للمغول، كل الذين استسلموا تم تقطيع أوصالهم من قبل المغول وأعدم كاراتشا خان، قام المغول بعد خيانة كاراتشا خان وبوقت قليل بالاستيلاء على المدينة وطرد جميع الناس كقطع من الأغنام واستباح المدينة، صمد حيدر خان إينال مع عشرين ألف مقاتل مدة شهر آخر في داخل استحكاكات المدينة، في آخر الأمر بقي حياً وحده، وطرد حتى السطوح، ولكن من هناك واصل رمي الطوب على المغول، وأنزلوه من على السطوح ثم أعدموه، حسب معلومات النسوي إن جنكيز (طلب إحضار إينال خان، وبعد ذلك أمر بصهر الفضة وسكبها في أذنيه وعينه) [النسوي، ص ٨١]، تحطمت مدينة أوترار حول المغول «القلعة والسور إلى الرماد» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٩٩. تم إبادة معظم سكان المدينة، ومن بقي حياً - وغالبيتهم من الحرفيين - أرسلوهم إلى بولون.

في فبراير عام ١٢٢٠ اقترب جيش جنكيز خان من بخارى، وفي السابع منه بدأ محاصرتها، وهي «قبة الإسلام في أقطار الشرق ومدنه، وهي أم كل المدن

الإسلامية» استمر الاقتحام ثلاثة أيام تحت غطاء من أهالي المدينة المحليين وسكان مدينة أترار، الذين جلبوهم حتى أسوار مدينة بخارى. قررت حامية المدينة بعد ثلاثة أيام «بقوة الإرادة الاستعاضة عن عار الهزيمة» خرجوا من المدينة ولوقت ما أزاحوا المغول ثم كسروا طوق الحصار، وبدأوا بالخروج من المدينة، لكن خروجهم من الأسوار كان مميتاً لهم، سرعان ما تعقبهم المغول وقاموا بإبادة كل من خرج من بخارى تقريباً وقلة قليلة فقط تمكنت من عبور نهر أموداريا.

دخل المغول إلى بخارى في العاشر من فبراير، أما قلعة بخارى، التي كان يحميها أربعمائة شخص فقط، فقد صمدت اثني عشر يوماً آخر، قام المغول بإجبار أهالي المدينة بردم الخندق حول القلعة ومساعدتهم في الحصار «انتصر الكافرون ودخلوا القلعة، وقد قاومهم المسلمون الموجودون فيها حتى استشهدوا جميعهم، بعد أن تغلب (جنكيز خان) على القلعة أمر بتجهيز قائمة بأسماء الشخصيات المهمة للمدينة وقياداتها، بعد أن تم تجهيز القائمة أمر باستدعائهم وعند حضورهم خاطبهم قائلاً: "أطالبكم بالفضة التي باعها لكم خوارزمشاه؛ لأنها تؤول إلي وقد نزعنا من أنصاري وصارت بحوزتكم"، ثم جمع كل ما كان بحوزتهم وتقديمه، ثم أمر بإخراجهم من المدينة، وخرجوا بعد أن جردوا من ممتلكاتهم كافة، وليس عليهم سوى ملابسهم، دخل الكافرون المدينة ونهبوها، أو قتلوا من وجدوه بها، قام جنكيز خان بالإحاطة بالمسلمين، وأمر أتباعه باقتسامهم فيما بينهم، قام التتار باقتسامهم، وكان يوماً بشعاً نتيجة لعويل الرجال والنساء والأطفال، تبعثر (السكان) في كل الاتجاهات، وتم تمييزهم كالأسمال: قسموا النساء فيما بينهم، وحينما أصبح الصبح على بخارى كانت مهدمة حتى الأساس وكأنما لم تكن بالأس فائمة» [ابن الأثير، ص ۹-۱۰].

أما الرجال، فتم استنفارهم لحصار سمرقند، وحسب معلومات رشيد الدين «قام المغول بقتل أكثر من ثلاثين ألفاً من الرجال، أما الأطفال والنساء فأخذوهم معهم كعبيد» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٠٦]. وصل المغول في شهر مارس إلى مشارف سمرقند ساحيين خلفهم حشوداً من الأسرى «الذين ساروا خلفهم على الأقدام في أسوأ مظهر، وكل من تعب أو تخلف عن المسير فمصيره القتل»، انضم إلى جيش جنكيز خان كل من جيوش تشاغاتاي وأوغوداي الذين قاموا بإبادة أوترار.

عندما استسلم كارانشا خان تم إعدامه، «لعل ذلك راجع إلى الحقد الذي يكنه المغول لأوترار»، وتم استضافة الذين وقفوا إلى جانب المغول خلال احتلال بخارى، وكذلك الذين انحازوا إلى جانبهم، ومن بينهم صار حاكم كوندوز علاء الدين، وحاكم بلخ الأمير ماخ روي.

قام المغول من أجل إخافة حامية سمرقند بكثرة عدد مقاتليهم، وبتنظيم الأسرى في صفوف، وكل عاشر منهم حملوه بلواء، لكن أهالي سمرقند لم يخافوا بل دبروا انطلاقة المحاصرين، وبكل شجاعة قاتلوا، ولكنهم سقطوا ضحية التخطيط المغولي الحربي «حاربوهم خارج المدينة على الأقدام طيلة الوقت، قام التار بالانسحاب، وأهالي المدينة واصلوا ملاحقتهم أملين في التغلب عليهم، لكن الكافرين أعدوا لهم كميناً، ولما عبروا الكمين وقف المغول بينهم وبين المدينة، وقام بقية التار الذين بدأوا الهجوم بمواصلة القتال، وهؤلاء أصبحوا في الوسط بينهم وبين المدينة، حصدتهم السيوف من كل جانب، ولم ينج منهم أحد، وماتوا بأكلهم والشهداء، فيتغمدهم الله برحمته، كما يقال سبعون ألفاً» [ابن الأثير، ص ١٠-١١].

لم تكن المحاولة الثانية للخروج من الحصار ناجحة على الرغم من استعمال الأفيال المقاتلة، عندها خرج وفد من المواطنين لمقابلة جنكيز خان، وكان الوفد برئاسة الزعيم الروحاني شيخ الإسلام، وذلك للتباحث في الاستسلام، في السابع عشر من المدينة ساووه مع الأرض، النساء والرجال بالمشات طردوهم إلى السهول بصحبة المغول، وعن طريق المنادين أعلنوا لهم: " فليراق بدون عقاب دم كل مخلوق يختبئ! " والمغول الذين كانوا مشغولين بالنهب قتلوا عدداً كبيراً من الناس الذين عثروا عليهم مختبئين في جحور مختلفة صمدت، القلاع في مدينة سمرقند لوقت أطول قليلاً كما في المدن الأخرى، قرب النهاية قام الألو ف من الأشخاص، وأغلقوا على أنفسهم المسجد بعد أن لم تعد لديهم المقدرة على القتال، وهناك تم قتلهم وأحرق المسجد ثلاثون ألف مقاتل من الترك والذين استسلموا لجنكيز خان في البداية مع سكان المدينة، والذين كان من المفترض أن يضمهم لخدمته، وبعد سقوط القلعة تمت إبادتهم أيضاً من قبل المغول، ثلاثون ألفاً من الحرفيين السمرقنديين تم توزيعهم على أبناء جنكيز خان وأقربائه، ومن بقي حياً من سكان المدينة «من أجل إنقاذ أرواحهم» فرض عليهم دفع مئتي ألف دينار، ولكن حيث قام المغول بترحيل ما تبقى من سكان المدينة الأحياء عدة مرات (قليل من بقي حياً، وصارت البلاد مقفرة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٠٦-٢٠٨].

استولت القوة العسكرية بقيادة تشجوتشي على مناطق دولة خوارزمشاه التي تقع إلى الأسفل على مجرى سيرداريا، قام المغول في البداية بالاقتراب من مدينة سيغناك، ووجهوا لأهل المدينة رسالة مع رسول منهم للاستسلام، قام سكان مدينة سيغناك بقتل الرسول، وقاتلوا المغول حتى آخر نفس، وعند سقوط المدينة «مغلقي أبواب الرحمة والرجاء قام المغول بقتل الجميع، منتقمين لأجل شخص واحد» [المصدر نفسه، ص ١٩٩].

في أبريل عام ١٢٢٠ قام تشجوتشي بالاقتراب من مدينة جند، حينها قام الممثل وحاكم المدينة كوتولوغ خان بترك المدينة، وهرب إلى خوارزم، في الحادي والعشرين من أبريل سقطت جند بأيدي المغول من غير قتال، ولأن مدينة جند لم تقاوم هجمة المغول تمّ منحهم العفو، ثم حفظهم في السهل مدة تسعة أيام، قام خلالها المغول بنهب المدينة وسلبها حتى الدرك الأسفل، أما مدينة بينا كينت فقد قام بحمايتها الترك الكانغاليون، استسلمت المدينة بعد ثلاثة أيام، قام المغول بقتل عدد من المقاتلين في حامية المدينة وسكان المدينة، طردوهم منها واقتسموا الخرفيين والعمال المهرة الذين أسروهم.

استغل كل من المغول، في غمار خوضهم للحروب في آسيا الوسطى، السكان المحليين لأجل حصار المدن، وهؤلاء يسمون بـ«خاشار»، خلال حصار مدينة خوجينت كان عدد المغول عشرين ألفاً، وتعداد الخاشار خمسين ألفاً، لم يكن الاستسلام طواعية دائماً يضمن الأمان والعلاقة الطيبة، استسلم سكان مدينة زارنوك لجنكيز خان وهو في طريقه إلى بخارى غازياً، لكن المغول قاموا بطردهم من المدينة وهدموا القلعة، وأخذوا الشباب كافة في الخاشار، استسلمت مدينة نوري بخارى طواعية للمغول، وهي مدينة صغيرة، وإثر ذلك تم تحويل ستمائة ألف من سكانها الشباب في الخاشار.

عند حصار المغول مدينة خوجينت تميز دامير مالك بتركيز قواته في جزيرة وسط نهر سيرادريا، التي لم تكن تطلها سهام المغول وحجارة المنجنيق، قام المغول بحشد آلاف من البشر، وأرغموهم على نقل الحجارة من الجبال لردم النهر، قام دامير مالك بتغليف اثني عشر زورقاً باللباد المشبع بالخل ولطخ اللباد بالطين، فلذلك لم تكن الزوارق قابلة للحرق، وفي المساء يخرج في طلعات يهدم خلالها السد الذي تم بناؤه خلال النهار، لكن قلة الأغذية والأسلحة أجبرت دامير مالك

للنزوح إلى أسفل مجرى النهر على سبعين قارباً، طارد المغول أسطوله على ضفتي النهر، وفي مدينة بينا كينت قاموا بحجز النهر بسلسلة حديدية، لكن مقاتلي دامير مالك كسروها، ولم يقدر المغول أن يجبروهم على الخروج إلى الشاطئ؛ إلا بعد أن ركبوا المنجنيق على الأطواف والقوارب، هنا يبدو أن الجميع قد قضي عليهم، إنما قد تمكن دامير مالك من الخروج من الحصار، وطارده ثلاثة من المغول وسدد دامير مالك لأحدهم ضربة قاتلة وخاطب الاثنين الآخرين قائلاً: «لقد تبقى لي سهمان لا أريد إطلاقهما، ولكنها كافيان لكما الاثنين، فمن الأفضل لكما وحفاظاً على حياتكما أن تعودا أدراجكما!»، هل فهمه المغولين أم لا، ولكنهما تفهقرا، استطاع دامير مالك أن يصل إلى غور غانج وانضم إلى المدافعين عن المدينة (انظر [بونياتوف، ص ١٤٢-١٤٣]).

في أواخر أبريل «وفي زمن قليل (يزيد قليلاً عن مائة يوم) تمكن جنكيز خان من غير مشقة كبيرة من تدمير دولة خوارزمشاه القوية، استولى على الحصون كافة، وتم أسر سكان المدن، وهزم أقوى جيش في ذلك الزمان وأكثره عدداً وشتته» [المصدر نفسه، ص ١٤٦].

وضع جنكيز خان أمام اثنين من قواده تشجايي وسوبيتاي مسألة أسر خوارزمشاه، أصدر أمراً للجيش (التي بلغ عددها خمسة وعشرين ألف مقاتل) «بمتابعة خوارزمشاه ليلاً ونهاراً، والقبض عليه وإحضاره له». عبر خوارزمشاه أموداريا بعد أن أغرق فيه خزانته التي أحضرها من كرمان، والتي حوت من الذهب سبعين رحلاً فقط، بلغ خوارزمشاه مدينة خراسان، لكن لم يتوقف فيها «حدث أن جنكيز خان جهز حملة على خراسان بقيادة صهره توغاتشار نويون وأمير من قواده يدعى بير كاي نويون وعشرة آلاف فارس؛ لكي ينهبوا البلاد ويحرقوها ويمتصوا من سكانها مخ عظامهم، والدم من عروقهم، وبتروكوا بقايا الجثث فقط تلفظ أنفاسها الأخيرة» [النسوي، ص ٩٦].

وحسب أقوال النسوي نفسه هجم المغول على مدينة ناسا في خراسان «كالليل الأسود»، استمر الهجوم على المدينة خمسة عشر يوماً دافعين بالأسرى في مواجهة أسوار المدينة، تم فتح ثغرة في السور، ومن خلالها تمكن المغول ليلاً من السيطرة على الأسوار «وعند حلول النهار نزل التتار من الأسوار وطاردهم في مكان مكشوف وراء الحدائق . . . كقطيع من الأغنام يهش عليها الرعاة، لم يمد التتار أياديهم إلى الغنائم والنهب حتى جمعوا النساء والأطفال في ذلك المكان الفسيح، والصراخ ملاً الأفق، وأمروهم بأن يوثقوا أكتاف بعضهم بعضاً، فنفذوا الأمر بكل طواعية، ولكنهم إن لم يقوموا بذلك هربوا إلى كل الاتجاهات بغية النجاة، هارين بغير قتال نحو الجبال التي هي قريبة، فلعل أكثرهم قد كتب له النجاة، وهنا بعد أن أحكموا وثاق بعضهم بعضاً اقترب منهم التتار حاملين أقواسهم ورموا بهم على الأرض، وقدموهم طعاماً للوحوش والجوارح السماوية، كم سألت من دماء، واغتصبت النساء، وكم كان عدد الأطفال المقتولين على صدور أمهاتهم! عدد المقتولين من سكان مدينة ناسا والأغراب الذين وجدوا فيها قد بلغ عددهم سبعين ألفاً، ولا ننسى أن هذه المدينة واحدة من ضواحي خراسان» [المصدر نفسه، ص ٩٦-٩٧].

يكتب النسوي عن أن ظروف احتلال خراسان كانت «مشابهة بعضها بعضاً: الموت والدمار في كل مكان»، لم يبق أحد في المدن التي تم احتلالها «من قد يوقد النار في الديار، وتملك الخوف النفوس» [المصدر نفسه، ص ٩٧]. لم يتوقف خوارزمشاه في خراسان وترك الإقليم لحاله، في طريقه إلى العراق حاول اغتياله أقرباء أمه، لعل ذلك ينهي الحرب أو يوقف مسارها، لم تنجح محاولة الاغتيال، وفي الثامن عشر من أبريل عام ١٢٢٠ وصل خوارزمشاه إلى نيسابور، قام المغول باحتلال نيسابور وهدموها حتى الأساس «أمر المغول الأسرى بمساواة المدينة مع

الأرض بالمجاريف حتى تتساوى مع الأرض، ولا يبقى بها حجر أو كوم مما قد يتعثر الفارس به إذا لعب بالكرة، معظم السكان ماتوا تحت الأرض، وذلك لأنهم بنوا الأقبية والسراديب أملين بأنهم سيحتمون بها» [المصدر نفسه، ص ٩٩].

كانت خيول المغول كأنها معلقة دائماً بذيول خيول خوارزمشاه، خبأ خوارزمشاه في الجبال عشرة صناديق من الأحجار الكريمة، التي انتقلت إلى أيدي المغول فيما بعد، أخيراً وصلت كتيبة خوارزمشاه إلى الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين، هنا اختبأ خوارزمشاه في جزيرة أشود آدا ليس ببعيد عن مصب نهر غورغان وميناء أباسكون، أعلن جلال الدين وريثاً للعرش، وحينها قال خوارزمشاه:

- انفرط عقد السلطة، وتراخت دعائم الدولة وانهارت، وأسفرت عن نفسها نوايا هذا العدو الشرس، الذي أنشب مخالفه وأنيابه في جسم الدولة، سيتقم لي ابني مانكبورني، وها أنا ذا أعلنه وريثاً للعرش [بونياتفوف، ص ١٤٨].

توفي خوارزمشاه في ديسمبر عام ١٢٢٠، ودفن في تلك الجزيرة، ولكن لما حان موعد دفن حاكم الغرب الأسبق لم يكن لديه كفن يلف به» [المصدر نفسه].

قام جلال الدين مؤخراً بترحيل جثمان والده إلى حصن أرداخي؛ لأن المغول لم يرحموا أحداً حتى الأموات، فكانوا ينشون القبور، ويحرقون رفات أعدائهم، ولكن عندما استولى المغول على حصن أرداخي قاموا بنش رفات خوارزمشاه، وأرسلوه إلى منغوليا، التي صارت في ذلك الوقت تحت حكم وداي وتم حرقه.

أما جنكيز خان نفسه فأمضى صيف عام ١٢٢٠ في منطقة نيسيف، وفي الخريف وصلت قواته إلى تيرميز، عرض المغول على سكان تيرميز الاستسلام وهدم القلعة بأنفسهم، في أثناء الاستيلاء على المدن الأخرى كلفت الاستحكامات الداخلية الكثير من الدماء للمغول، ولما علم المغول برفض عرضهم بدأ جنكيز

الهجوم، وفي اليوم الحادي عشر استولوا على المدينة، قام المغول بطرد كل السكان في وقت واحد إلى السهل، وكعادتهم أبادوا الجميع، متوغلين في داخل إقليم كولايسك (طاجكستان) «قام جنكيز بالاستيلاء على تلك المناطق ماسحاً إياها من على وجه الأرض، ناهباً وقتلاً كل السكان، محطماً وحراراً كل ما في طريقه». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢١٨].

قضى جنكيز شتاء عام ١٢٢٠-١٢٢١ على ضفاف نهر أموداريا، في ذلك الوقت كانت القوات التي أرسلها تحاصر عاصمة دولة خوارزمشاه محمد مدينة أورغيتش.

أرسل جنكيز خان رسوله حاجب دانيشمند إلى تيركين خاتون والدة خوارزمشاه، ورد في رسالته: «أنت تعلمين كيف تصرف ابنك تجاه حقوقك (وهذا كان إيماءً للخلافات المعروفة جيداً بين خوارزمشاه والدة (تعليق المؤلف)، الآن في اتفاق مع بعض أمراءه نحارب ضده، لكنني لن أهاجم على ما تمتلكين، فإذا قبلت هذا فأرسلني من يؤكد لك أنني مخلص لكلمتي، وفيما بعد ستمنحين خوارزم وخراسان وكل ما يقع بجوارهم على تلك الضفة من نهر جيحون» [بونياتوف، ص ١٤٩]. لكن تيركين خاتون لم تقبل بهذه المساومة، وحاولت الخروج، ولكنها وقعت في الأسر في أثناء حصار حصن إيلان، الذي استمر أربعة أشهر، كان معها أبناء خوارزمشاه وزوجاته، الأطفال تم قتلهم، والزوجات منحن لأقارب جنكيز خان، أما تيركين خاتون فأرسلوها إلى مقر قيادة جنكيز خان، قبل أن يغادر جنكيز آسيا الوسطى صدر أمر لتيركين خاتون وزوجات خوارزمشاه «بأن يخرجن في المقدمة، وينحن بصوت عال، على دولة خوارزمشاه خلال مرور القوات المغولية أمامهن». تم ترحيل تيركين خاتون إلى منغوليا، حيث عاشت في مقر الخان وتغذت من فضلات مائدته، ماتت تيركين خاتون عام ١٢٣٣، وذلك بعد وفاة جنكيز خان [المصدر نفسه، ص ١٥٠].

استمر حصار مدينة أورغيتش سبعة أشهر، لم تكف الحجارة للمنجنيق، وبدأ المغول في استعمال أشكال مستديرة منحوتة من شجر التوت مبللة بالماء، طال أمد الحصار بسبب الندية التي ظهرت من جديد بين تشجوتشي وتشاغاداي، أسلم جنكيز قيادة القوات كافة لأوغوداي وحده، وسار الأمر بشكل أسرع، عندما سقطت المدينة تم إرسال مائة ألف من الحرفيين من عاصمة خوارزمشاه إلى منغوليا، حسب معلومات ابن الأثير في أوغيتش «أباد المغول كل من بها» [ابن الأثير، ص ٣٢]، كان على كل جندي من الخمسين ألف المقاتل المغولي من عدد القتلى من سكان مدينة أورغيتش أربعة وعشرون، صاحبت المذبحة إهانات مذلة، «أمر المغول النساء الأسيرات في غور غالغ بالتجرد حتى العري، وقسموهن على مجموعتين وأمرهن: "إن نساء مدينتكم مصارعات جيدات، ولذلك نأمر كلا المجموعتين بالصراع فيما بينهما"، وهجمت النساء المسكينات على بعضهن، وبعد أن استمتع المغول بهذه المهزلة الحقيرة قطعوا كل النساء اللاتي بقين أحياء إرباً» (جوزجاني، نقلاً عن [بونياتفوف، ص ١٥٣]، «ومن ثم قاموا بفتح السد الذي كان يحبس مياه نهر جيحون عن المدينة، وهنا غمرت المياه المدينة فانهارت العمارات، وغمرت المياه مكانها، وبكل تأكيد لم ينج أحد من سكان المدينة في الوقت الذي كان فيه من استطاع النجاة في الأماكن الأخرى، ومنهم من اختبأ، ومنهم من فر، ومنهم من خرج، ثم كتبت له النجاة، وكذلك من رقد بنفسه وسط القتلى، ومن بعد ذلك خرج حياً، أما في خوارزمشاه فإن من خبأ نفسه عن التتار أغرقته المياه أو انهارت عليه المباني، وتحول كل شيء إلى عجينة وأمواج» [ابن الأثير، ص ٣٢] حسب كتابات جويني «تحولت أورغيتش إلى مكمن بنات آوى، وملجأ للبولم والغربان» (انظر [بونياتفوف، ص ١٥٣]).

في خلال صيف عام ١٢٢١ ومطلع خريفه سقطت المدن الآتية: بلخ، تيرميز، زاوزان، ميرف، نيسابور، غيرات، وفي ربيع عام ١٢٢١ عبر جنكيز خان بجيشه نهر أموداريا، واحتل بلخ، رأس جلال الدين النضال ضد المغول على أراضي شرق إيران وشمالها الذي هزم قرب ناسا لأول مرة فصيلة من المغول مكونة من سبعمئة فارس، و «لأول مرة تذوقت السيوف الإسلامية طعم الدماء المغولية»، ولكن انضم لصفوف المغول ابن عم خوارزمشاه أمين الملك وجماعة أخرى من أمرائهم، استطاع جلال الدين في الواقعة قرب كانداغار أن يسجل هزيمة جديدة ذات أثر واضح في المغول، كما يفترض المؤلفون المسلمون، كان لهذا الانتصار أثره الواضح في خروج السكان المحليين من حال الصدمة والخوف التي انتابتهم، وكان أثرها في المغول أن يكونوا أكثر حرصاً، ظن المغول قبل ذلك أن العدو «يفلح في الهرب منهم فقط كالغزال، ولا أحد ينوي الهجوم، فلقد تلمت رماح المقاومة ولا أحد ينوي رفعها في وجه المغول، ولكن عندما شاهدوا هذه الرماح المتعطشة لخلوقهم، التي تنوي أن تستقر في أفئدتهم، امتطوا خيول الذعر» و «صاروا لحمًا للسيوف الصوارم، وطعاماً للنسور العرجاء» (انظر [بونياتف، ص ١٥٦]).

استطاع جلال الدين في مدينة غزنة أن يجمع جيشاً قوامه مائة وثلاثون ألفاً، وألحق بالمغول هزيمة نكراء عند حصن فاليان، أرسل جنكيز خان ضده ثلاثة فيالق تحت قيادة شيغي خوتوكو، التقى الخصمان عند بيرفان قرب منبع نهر لوغار رافد كابول، وعندها قام جلال الدين بإلحاق هزيمة نكراء بالمغول، مبيداً كل فيلق شيغي خوتوكو تقريباً «معتلياً حصان الغضب قام جلال الدين بقطع نهايات أوردة رقابهم فاصلاً بين الرقاب والأكتاف التي كانت عليها، وكيف يجوز غير ذلك؟ فإنهم قد سببوا من الأذى له أكثر بكثير ولأخوته ولوالده ولدولته ولأقاربه وأتباعه» [المصدر نفسه، ص ١٥٧].

تسببت الأخبار عن انتصار جلال الدين في العصيان في صفوف عدد من المدن التي استولى عليها المغول، قام جنكيز خان شخصياً بمقاتلة جلال الدين، لكن تأثير النصر كان قد ضعف بسبب قواد جيش جلال الدين الذين اختلفوا عند توزيع الغنائم، لم يستطع جلال الدين أن يمنع المغول عبور غيندو كوش، عند حصار مدينة باميان أصاب سهم قاتل موتوغين ابن تشاغاتاي والحفيد المحبوب لجنكيز خان، عندما تم الاستيلاء على القلعة أمر جنكيز خان «بأن يقتل فيها أي كائن حي سواء أكان من البشر أو من الحيوانات أو الوحوش أو الطيور، وألا يأخذوا أي أسير أو غنيمة، وأن تحول المدينة إلى صحراء وأن لا تعمر مستقبلاً» حتى «لا يعيش فيها أي كائن حي» فترك تنفيذ الأمر، وأصبح هذا المكان يسمى موبالك أي «المدينة السيئة لزم من طويل.

احتل جنكيز خان غزنة في خريف عام ١٢٢١، فترك جلال الدين المدينة، أدرك المغول جلال الدين عند غارديز، ولكنه هزم مطارديه وذهب، وقعت المعركة الحاسمة على ضفاف نهر إيند، في ٢٣ نوفمبر عام ١٢٢١، هزمت قوات جلال الدين، وبعدها قام بنفسه بإغراق حريمه في النهر، ثم عبره بصحبة أربعة ألف مقاتل وذهب.

هناك مقولة تشير إلى أن جنكيز خان أمر بعدم تعقبه «إن ذلك الابن لمفخرة لوالده، فإذا تمكن من الخروج حياً من تلك المعركة وسالماً من كل هذه المجازر إلى شاطئ الأمان، فإن من ورائه ستخرج أفعال كثيرة وأشياء لا حصر لها» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٢٤]. لم يتوغل المغول في الهند أبعد من مدينة مولتان بسبب القيظ، قامت قوات جنكيز خان في عام ١٢٢٢ بالاستيلاء على الاستحكامات التي كانت تقع على الجبال المجاورة، أما مقر قيادة جنكيز خان شخصياً فقد كانت جنوب غيندو كوش، ولذلك قرر جنكيز العودة إلى منغوليا

بسبب ظهور أحداث مهمة في الشرق، «قرر جنكيز خان العودة إلى منغوليا من بشوار إلى دياره، وسبب هذه العودة السريعة أن الصينيين والتانغوت استغلوا غيابه وأثاروا الاضطرابات، وتسببوا في الفتنة والقتال وسط أتباعه» [جويني، ص ١٣٩] الشيء نفسه يؤكدُه رشيد الدين: «نفذ جنكيز خان قراره بالعودة إلى عقر داره وإلى خيمته القديمة (يورتا) لأنه قد وصلت إليه أنباء تفيد أن أهالي تانغوت، تمردوا خلال مدة غيابه الذي طال» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٢٦] في خريف عام ١٢٢٢ تحرك جنكيز خان من منطقة بيرفان عبر بلخ ونهر أموداريا ماراً بسمرقند وبخارى، بينما كان جنكيز خان في حروبه أدار شقيقه الأصغر تيموغي الحكم في منغوليا.

أمضى جلال الدين في شمال غرب الهند قرابة العامين طريداً حيث حارب مع الراجات المحليين، ومن ثم قفل عائداً عبر كرمان وشيراز وأصفهان إلى الغرب محاولاً تنظيم المقاومة ضد المغول في عام ١٢٢٥ مع شقيقه بيرشاه وهو في العراق يهاجم بغداد، وكما يتوقع ز. م. بونياتف انتقاماً للعلاقات السرية فيما بين الخليفة والمغول، كتب جلال الدين في إحدى الرسائل أن: «الخليفة يتحمل مسؤولية مقتل المسلمين، وقتل والدي، ودخول الكفار إلى بلاد المسلمين» [بونياتف، ص ١٦٣]، ومن ثم يحارب في أذربيجان وجورجيا وعادة ما كانوا شرسين كما المغول، في عام ١٢٢٥ عندما سقطت في يده مدينة داكوكو قام «بقتل السكان ونهب المدينة وحرقتها وهدم أسوارها»، وعندما سقطت في يده في التاسع من مارس عام ١٢٢٦ مدينة تفليس قام أقفر جورجيا، حتى منتصف عام ١٢٣١، كان حاكماً لأذربيجان وشيرفان وجورجيا، كان الانتقام في الحرب ضد المغول هدفاً من أهداف حياته، عندما كان جنكيز خان يكمل مشواره على مساحات سي سي، قام جلال الدين في الخامس من سبتمبر عام ١٢٢٧ بهزيمة المغول عند أصفهان، تقريباً

في الأعوام ١٢٢٩-١٢٣٠ تلقى رسالة من شقيقته خان سلطان، التي كانت قد زوجت من تشجوتشي، كتبت تقول إنه، حسب معلوماتها، المغول لا يمانعون في مصالحته، وجعل الحدود المشتركة للمستعمرات على نهر جيحون، وكتبت الشقيقة «إذا وجدت في نفسك القوة اللازمة لصددهم والانتقام منهم، فحاربهم، فإذا غلبتهم فتصرف كما يحلو لك، وإذا لم تفلح في تدبير قوة للانتقام فانتهاز الفرصة للمصالحة ما داموا راغبين في ذلك» [المصدر نفسه، ص ١٧٩].

يبدو أن هذه الرسالة والاقتراح بالسلام لم يجدا هوى من جانب جلال الدين، تجمع ضد جلال الدين ملاك آسيا الصغرى وسوريا وشمال الرافدين، ترأس هذا التحالف السلطان الكيني علاء الدين، قام بهزيمة جلال الدين مع حلفائه في العاشر من أغسطس عام ١٢٣٠، وحسب معلومات ابن الأثير «أرسل إلى المغول خبراً عن ضعف جلال الدين وهروبه، وأخذ يحثهم على الهجوم عليه، ويضمن لهم النصر ما دام ضعيفاً» (انظر [المصدر نفسه، ص ١٨٢]) صدر الأمر إلى المغول بالدخول إلى أذربيجان في العامين ١٢٣٠-١٢٣١ وسيطروا بسرعة على البلاد، كانت المحاولة الأخيرة لجلال الدين في الحرب ضد المغول مخاطبته لجيرانه من المسلمين، وحثهم على خوض الحرب معه، كتب قائلاً: «سوف يوقفهم القوة الموحدة فقط لجماعة المسلمين والوفاق» [المصدر نفسه، ص ١٨٤] ولكن سرعان ما لحق المصير بجلال الدين المطارد، الذي هجره الجميع، فقد قتل فيما بين السابع عشر والعشرين من أغسطس.

كتب المؤرخون المسلمون بكثرة عن جلال الدين، وقد رأوا فيه المناضل ضد المغول، والشخص الشجاع، ولكن لم يستطع التغلب على بذور الشقاق والخلافات والقسوة، وبهذا سهل مهمة المغول في السيطرة على الدولة الإسلامية، كتب النسوي قائلاً: «كان أسمر قصير القامة، تركياً باللهجة، ولكنه كان يتحدث

بالفارسية أيضاً، أما عن شجاعته فقد كان سبغاً وسط السباع، وأكثر الفرسان مهابة
 وسط الفرسان المقدامين، كان متواضعاً، لم يبد عليه الغضب، ولا يتلفظ بسبى
 القول، كان جاداً ولم يضحك قط، إنما يتسمم، وكان قليل الكلام، كان محباً
 للعدالة، ولكن الزمان الرديء الذي مر عليه ترك بصماته عليه مغيراً طباعه، كان
 محباً لتحسين حياة أتباعه، ولكن زمان حكمه جاء في وقت السقوط، ولذلك لجأ
 للقسوة» (انظر [المصدر نفسه، ص ١٨٧]). لقد عدّ ابن واصل جنود جلال الدين:
 «صاروا حاجزاً بيننا وبين المغول»، ولكن جلال الدين «تسبب في عدم العدالة
 والعداوة ما بين الجيران، وقد مارس حياته من غير إخلاص، مسبباً عدم الارتياح،
 وهذا أدى إلى مقتله ومقتل جيوشه، ومن ثم تبع هذا هجوم المغول وانتصارهم على
 دولة الإسلام، فإذا أراد الله شيئاً فسيجعل له سبباً» [انظر [المصدر نفسه،
 ص ١٨٩]]. افترض ابن الأثير أن عداوته للجيران سبب هزيمته «فهجروه ولم يدوا
 له يد العون».



يجب الحديث عن أفعال فيلقبي سوبيتاي وتشجايي اللذين كانا يطاردان
 خوارزمشاه، وعندما لم يدركوه بلغ هذا الجيش أذربيجان، وضم بعد أن نهب المدن
 الكبيرة في أذربيجان كافة حتى ناخيتشيفان أيضاً، وعبر المغول حدود جورجيا عام
 ١٢٢٢، وهزموا الجيش الجورجي في وادي كوتمان، سيطروا على شيماخا في
 هجوم عاصف بعد أن تركوا جورجيا، وبعد أن تخطوا ديربينت في حدود القوقاز
 الشمالي، قاموا بهزيمة البولوفيين والآلانيين (الأوستين) منفردين، وصل تشجايي
 وسوبيتاي عبر السهول المتاخمة للبحر الأسود إلى القرم مطاردين البولوفيين
 المهزومين، حيث أسقطوا سوداك ونهبوها، قام البولوفيون بقيادة القيصر يوري

كونتشا كوفيتش بتجميع قوة جديدة، ولكن المغول في هذه المرة ألحقوا بهم هزيمة أكيدة، وطاردوهم حتى نهر الدينير، حينها لجأ البولوفيون إلى الأمراء الروس للنجدة، استجاب عدد من الأمراء مع فيالقهم لطلب النجدة، مقررين بعدالة «إن لم نقم بعونهم فسينضم البولوفيون للتتار ولن يكون هذا في صالحنا»، حينها وصل أمير كييف مستيسلاف رومانوفيتش وأمير كوزيل وتشيرنيغوف مستيسلاف، وأمير سمولينسك فلاديمير ريوريكوفيتش، وأمير كورسك أوليخ، لم يرغب تشجابي وسويتاي خوض الحرب مع الروس، فأرسلوا رسولهم سائلين: «لماذا تودون الدخول في الحرب وإراقة الدماء؟» فأخذوا الرسول وقتلوه.

في الحادي والثلاثين من مايو عام ١٢٢٣ وقعت المعركة على نهر كالكا، وفيها هزم المغول الجيش الموحد للبولوفيين والأمراء الروس، ثم أقاموا عقب المعركة حفل انتصار فوق أجساد الأمراء الأسرى، الذي تم رسمه على يد الفنان الرسام إيليا غلازونوف في ركن لوحته «روسيا في ألف عام»^(١) بعد هذا توجهوا إلى أعالي نهر الدينير، ولكنهم لم يصلوا حتى مدينة بيرياسلاف، وتوجهوا شرقاً، وعبر سهول قازاخستان الحالية رجعوا إلى منغوليا، حيث آب جنكيز خان من الغزو على الغرب.

تصرف الأمراء الروس - حسب تقدير الأكاديمي ب. أ. ريباكوف - بشكل لا يعبر عن الوحدة المثالية، الذي كان يظهر في كل مكان حارب فيه المغول «دارت»^(١) في غزوات سويتاي وتشجابي اشترك المسلم خاسيميالي، الذي يقال في سيرة حياته المدونة في مؤلف «يوان شي»: «... إنهم بلغوا أرض الروس وهجموا عليهم، وفي الجبال الحديدية سيطروا عليهم، وأخذوا حاكمهم مستيسلاف (ميتشجيسيل)، أمر تشجابي خاسيميالي المسلم بإهداء مستيسلاف إلى تشجوتشي الذي أعدمه؛ أي مستيسلاف» [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص ٩ب].

يذكر في سيرة سويتاي الذاتية وعن معركته مع الروس عند كالكا الآتي: «تعاركوا مع زعيم القبائل الروسية مستيسلاف وأخضعوه» [المصدر نفسه، الفصل ١٢١، ص ١ب].

المعركة على نهر كالكا بعيداً عن روسيا، والمتصرون قريباً ذهبوا، أما الأمراء الروس فنسوههم، ولم يستوعبوا الدرس، من المحزن تصفح أوراق التاريخ للأعوام ١٢٢٤-١٢٣٦، حيث نجد أن قيادات الأمراء، التي كانت مرتبطة بالتجار الشرقيين منذ زمن بعيد، كأنما لم تعلم شيئاً عن الانتصارات التي حققها جنكيز خان في الصين وآسيا الوسطى ولا عن المعارك الدامية في القوقاز ولا عن أي قوة مخيفة وقادرة بدأت في التحرك تجاه الأراضي القريبة، ما زال الأمراء يكن بعضهم العداء لبعض . . . ولم تجد الاستراتيجية الموحدة للدفاع عن كل روسيا من يرسمها» [موقعة كوليكوف، ص ٨].

سارت الأمور في الشرق على منوالها، في عام ١٢٢١ تقدم موخالي بطلب إلى التانغوت للسماح له بعبور أراضي سي سيا مع قواته، وذلك للهجوم على التشجور تشجينيين، سمح التانغوت للمغول بالعبور، بل أكثر من ذلك، قام العاهل التانغوتي بإرسال قوة مكونة من خمسين ألف مقاتل لمساعدة موخالي، وذلك لأن التانغوت كانوا وما زالوا في حالة حرب مع التسنزين، بعد الاستيلاء على عدد من المدن التشجور تشجينية قام المغول بوضع حراسهم على المدن المهمة منها على الحدود التشجور تشجينية التانغوتية، أدى هذا إلى بث الذعر في نفوس التانغوت، وذلك لأن القوات المغولية أصبحت بذلك داخل حدودهم الآمنة، جاء الرسول التانغوتي مينو إلى موخالي وطلب منه الإيضاح، في خلال وقت الاستقبال برز السؤال عن المراسم، فأعلن موخالي لمينو:

- أنت تنظر من أسفل لأعلى لمولاك، ومولاك إلى مولاي، هكذا تتم المراسم .

هنا طلب من مينو أن يركع أمامه، ولكن مينو رفض:

- لا أستطيع الركوع إذا لم أستلم أمراً بذلك .

سافر الرسول وغادرت القوات التانغوتية المعسكر المغولي، هجم موخالي على المدينة المجاورة لسي سيا وهي يانيان، استكان التانغوت وأهدوا لموخالي حصاناً، وقام رسولهم بالركوع أمامه [كيتشانوف، ص ٣٠٨].

من المحتمل أن هذه الأحداث أو أن موخالي لم يستطع أن يجني نصراً كبيراً على التشجور تشجينين، فحملت جنكيز على أن يبدأ طريق العودة، على كل حال ليس الندم على ما اقترف من مذابح جماعية والموافقة على إيقافها بعد الدلالة السماوية، توجد في سجل حياة الكيداني يلوي تشوتساي-، الذي لعب دوراً مهماً في حياة القصر المغولي- رواية مفادها «في عام تسزيا شان (من ٢٢ يناير ١٢٢٤ إلى ٨ فبراير ١٢٢٥) بعد وصول الإمبراطور إلى شرق الهند توقف عند المعبر الجبلي المسمى بالبوابة الحديدية، وهنا خاطبه حيوان متوحش ذو قرن واحد يشبه الأيل، لكن له ذيل حصان ولون أخضر وناطق بكلمات كالشعر، ذكر للحارس: "دع مولاك يعود أدراجه وبسرعة!" وعندما سأل الإمبراطور يلوي تشوتسا عنه رد عليه قائلاً: "إن هذا الحيوان نبيل، اسمه تسزيويدوان، إنه يجيد التكلم بكل اللغات، يحب الحياة ويكره القتل، إن السماء بعثت بهذه العلامة لكي تحمي جلالتك، إنك يا صاحب الجلالة ابن السماء الأكبر، وكل أناس السموات أبناء جلالتك، استمع لإرادة السماء، واحفظ الحياة للشعوب. قام الإمبراطور في اليوم نفسه بتوجيه قواته إلى طريق العودة» [المصدر الصيني، ص ١٨٧]. حتى السماء انتحبت حين رأت بحار الدماء التي أراقها جيش جنكيز خان، من يدري، لعل رجال يلوي تشوتسا وهو نفسه قرروا أن ينصبوا له هذا الفخ.

قرر جنكيز العودة عبر الهند في بادئ الأمر، الهملايا والتبت، والخروج إلى الحدود الجنوبية للدولة التانغوتية. يخبرنا رشيد الدين أن جنكيز خان عبر عدة محطات حسب الطريق المرسوم قبل أن «تصل أنباء أن التانغوت قد ثاروا من جديد»

[رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٢٥]. عندها أخذ قراراً جديداً بالعودة من الطريق نفسه الذي جاء منه، في أول مارس وصل من بشوار إلى كابول، وقضى الصيف في الجبال، عبر نهر أموداريا، وقضى شتاء ١٢٢٢-١٢٢٣ في منطقة سمرقند، وبينما هو يغادر سمرقند قام بتنظيم شيء شبيه بالعرض العسكري للنصر، مرغماً أم خوارزمشاه وزوجاته بالنواح على دولتهم التي اندثرت. افترض ل. غامبيس أن جنكيز خان قضى ربيع عام ١٢٢٣ في مناطق كولان باشي شمالاً من جبال ألكسندر، حيث كان كوريلتاي الذي لا نعلم عنه شيئاً [غامبيس، ص ١٢١] في صيف عام ١٢٢٣ كان هو في سهول تالاس وتشو. بعد ذلك توجهت حملته نحو الشمال الشرقي، قضى كل صيف عام ١٢٢٤ في وادي إرتيش، أمضى جنكيز خان شتاء ١٢٢٤-١٢٢٥ في وادي أميليا، وأخيراً وصل إلى منغوليا. ترك جنكيز خان خلفه آسيا الوسطى وإيران بعد نهيهما، وحسب رأي العلماء تطلب إعادة تعمير ماتم هدمه في ثلاث أو أربع سنوات ستمائة عام، كتب إ. ب. بيتورشييفسكي «إن اقتصاد هاتين الدولتين حتى بداية القرن التاسع عشر لم يصل لذلك المستوى الذي كان عليه في بداية القرن الثالث عشر» [بيتورشييفسكي، ص ١٢٥].

ذكر المقربون من جنكيز خان: «نحن نفرح مغتبطين لأن السماء والأرض ضاعفتا قوانا، وها نحن قد أبدنا الشعب السارتاولي» [السيرة المكنونة، ص ١٨٨]، من المحتمل أنه في عام ١٢٢٣ قد انتهت الحرب في الغرب وأن حملة جنكيز خان على الغرب، كانت بالقوة نفسها التي صاحبت الغزوة في الشرق على تسزين، قد انتهت بنصر ساحق، وهزيمة أكيدة لقوات العدو كافة وإخضاعها، ولكن ليس إخضاعاً كاملاً، تواصلت الحرب في الصين وإيران والعراق، أصبح المغول يفكرون بالسيطرة على العالم، إن رماة السهام خونخاي

وخونتو خور وتشور ماخان عندما خاطبوا جنكيز خان كانوا مبدين اهتمامهم ؛ لأن أبناءه لا يعيرون اهتماماً لما يدور :

- الآن انظر ، الأعداء من حولنا من مغيب الشمس حتى مطلعها! [السيرة المكنونة، ص ١٨٨]، ولعل جنكيز خان نفسه وكل من حوله متطلعون لهزيمة هذا العدو، ونهب كل ما هو ممكن وإخضاعه . «من مغيب الشمس حتى مطلعها»^(١) .

تربط «السيرة المكنونة» عودة جنكيز خان إلى منغوليا مع تعيين المسؤولين في المدن المهمة وإدارات الأقاليم التي تم احتلالها، قام هؤلاء المسؤولون المحليون بتسجيل المواطنين، وجمعوا منهم الجزية، وراقبوا عمل البريد والنقل وتابعوا إيصال الجزية حتى مقر الخان، تم تعيين ماسخوت خوروشي مسؤولاً عن آسيا الوسطى، وبالوغاش مسؤولاً عن بكين، وتم تعيين تشجوتشي في خوارزمشاه، أما بقية أبناء جنكيز خان فقفلوا عائدين معه إلى منغوليا (حسب [السيرة المكنونة، ص ١٨٨-١٨٩])، انظر أيضاً [يوان شي، الفصل الأول، ص ١١٢] .

لقد عاد جنكيز خان إلى الوطن، هناك حيث تجري الأنهار العريضة عليه «الكيرولين الأزرق والأونون الذهبي»، ليس بغرض الهدوء، ولكن لتنفيذ أهدافه المتعلقة بترويض الدولة التانغوتية، إن عصيان التانغوت يؤكد «يوان شي»: «تاي تسزو تقع في الجزء الغربي، حاكم الدولة سيالي فان عقد اتفاقاً سرياً ليأتيه عون من الخارج وقبوع في هدوء في انتظار هذا الأمر» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص ١٥]

(١) كتب جنكيز خان للحاكم الأونغوتي قائلاً: «لقد سمعت أن في الشرق رجلاً يدعي أنه إمبراطور، إن السماء لا تتسع لشمسين، وهل يعقل أن يكون للشعب حاكمان؟» .

كما ذكر في سيرة بوتو الذاتية أن رجلاً من قبيلة الإيكيريس زوج شقيقة جنكيز خان الصغرى تيمولون، وقبل دخولهما بيت الزوجية قال جنكيز خان: «إنني أريد امتلاك ما هو تحت السماء، وأنتم قوم من الإيكيريس، فبصحتكم لبوتو ستخدمونني بإخلاص ورفاه!» [يوان شي، الفصل ١٠٨، ص ١٤] .

يَكْمُنُ السُّؤَالُ عَمَّنْ يَفْتَرِضُ أَنَّ يَقْدُمَ الْعَوْنُ مِنَ الْخَارِجِ؟ هَلْ كَانَ هَؤُلَاءِ
التَّشْجُورِ تَشْجِيُونَ الَّذِينَ صَالِحِهِمُ التَّانِغُوتُ أَحْيَرًا كَانَ عَامَ ١٢٢٤ أَمْ أَسْوَأَ مِنْ ذَلِكَ
أَنَّ يَكُونَ الشَّخْصُ مِنْ مَنْغُولِيَا؟ حَتَّى يَفْكَرَ فِي أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ كَانَ لْجَنْكِيْزِ خَانَ
بَعْضَ الْمَسْوُغَاتِ لِذَلِكَ .



موت جنكيز خان

هناك وسائل لحفظ الحياة لكن

لا يوجد عقار للخلود

تشان تشون . سي يوي تسزي

عندما بدأ جنكيز خان غزو الغرب عام ١٢١٩ لم يكن صغيراً في السن، فعندما سار بخطاه نحو مجده عبر أكوام الجثث في منغوليا والدولة التانغوتية وشمال الصين، لم يكن له بد من التفكير في الحياة والموت، لقد رأى كيف ينقطع تيار الحياة البشرية، وتمنى لو تطول حياته الخاصة، وبذلك يتعرف سر الخلود، لقد سمع وهو ما زال في شمال الصين أن هذا السر من المحتمل أن يمتلكه الداوسيون، الداوسية إحدى الديانات في الصين، التي تجمع في داخلها عوامل الفلسفة الداوسية للصين القديمة والمؤولة بشكل صوفي مخلوط بالمعتقدات الشعبية وعوامل السحر والشعوذة، التي يزخر بها شرق آسيا، يدين الداوسيون بمنجزات الخلود بمختلف الطرق مع استعمال السحر والكيمياء، وإلى حد ما وسائل الطب الصيني. تمتع القس الداوسي تشان تشون (تسيو تشوتسزي) بسمعة كبيرة، وسمع جنكيز خان عنه في أثناء غزوه الغرب، واستدعاه من على ضفاف نهر إرتيش لمعرفة أسرار الداوسيين، والاطلاع على سر إدراك الخلود، وافق تشان تشون على الحضور إلى مقر قيادة جنكيز خان^(١) بلا شك خضوعاً للقسر، ولكن في الوقت نفسه من

(١) أحضر تشان تشون إلى جنكيز خان المسلم جبار خوجا الذي أقبل عند حروبه الأخيرة مع فان خان، واستناداً على مؤلف «يوان شي» أن جبار خوجا عاش مئة وثمانية عشر عاماً أيوان شي، الفصل ١٢٠، ص ٣١٤-٣١٥.

المحتمل أنه كان يأمل في التأثير في الخان الرهيب لإيقاف نزيف الدم، كان تشان تشون شاعراً، وفي إحدى قصائده التي ألفها، وهو في الطريق سجل الهدف من هذه الرحلة كما يأتي:

أخطو إلى مقر الحاكم، والذي بأعلى النهر قام
من أجل إيقاف الحرب وإعادة السلام
[سي بوي تسزي، ص ٣٢٩]

وكلاهما قد أخطأ، الغازي الدموي والشاعر الحكيم الذي اضطلع بأسرار السحر وبلغ قمة الروح، وكل منهما توخى من الآخر المستحيل.

في السادس عشر من مايو عام ١٢٢٢ وصل تشان تشون إلى جنكيز خان بعد أن سلك طريقاً شاقاً عبر شمال الصين ومنغوليا وتركستان الشرقية والأنهار السبعة واصلاً إلى شواطئ أموداريا، بعد التبادل المعتاد للتحية سُمح لتشان تشون بالجلوس، وقدموا له الطعام، وحينها سأله جنكيز خان السؤال الذي انتظر رده بكل شغف:

- أيها الرجل الطاهر! لقد أتيت من ديار بعيدة، فما عندك من عقار للحياة الأبدية؟

فرد عليه الراهب:

- توجد وسائل لحماية الحياة، إنما لا يوجد عقار للخلود [المصدر نفسه، ص ٣٣٠].

كان رده حقاً وبسيطاً ولم يتطلب أي تفسيرات خاصة، وفهم جنكيز خان أنه المالك المهيب على الشرق والغرب تنتظره الخاتمة الحتمية.

نحن لا نعلم هل توجه الراهب تشان تشون إلى جنكيز برجائه ، ولكن أصبح من الواضح والمفهوم له أن عليه ألا يأمل بذلك ، وكتب وهو يغادر مقر قيادة جنكيز خان قائلاً :

على حافتي الطريق تبعثت الجثث
والمارة أفضلوا تافهاً أنوفهم
أمن عشرة أعوام إلى عشرة آلاف
تتحرك الآلة الحربية
أجلاً أم عاجلاً ستؤوب الجيوش
ويعم السلام!
[المصدر نفسه ، ص ٣٢٢].

لم يتبق لهذا الراهب سوى الأمل في أن «أجلاً أم عاجلاً» سيعم السلام على الأرض ، وقد فهم عدم مقدرته ، تحادث جنكيز خان معه بكل أريحية حول أسرار الروح وتعاليم الداوسيين ، ولكن لم يكن يود الاستماع لأي حديث يدور حول التسامح ، عندما طلب من تشان تشون المثل أمام جنكيز خان راجياً لأجل سكان شبه جزيرة شاندون ، أجابهم : «على الرغم من أنني سأسعى ولكنني لن أحقق شيئاً» [المصدر نفسه ، ص ٣٣٤] ، شاهد تشان تشون على طول طريقه الطويل أهوال الحرب وبكل حزن كتب :

لقد عمرت هذه الأمكنة بالأكم وبلغت عنان السماء
ولأن نشاهد المعمورات بكل ندرة
وقد مات أحياء لا يحصون على حد السيف
كم من العمائر التي أحييت إلى رماد غبرة!
[المصدر نفسه ، ص ٣٤٧]

أمر جنكيز خان تشان تشوم وتلاميذه أن يسكنوا في أي مكان ينال إعجابهم في مملكته، وليدعوا له بالعمر المديد [المصدر نفسه، ص ٣٤٧-٣٤٩].

في عام ١٢٢٢ زار جنكيز خان في آسيا الوسطى مبعوث سون الجنوبي، الذي أرسل له عام ١٢٢١ من أجل التباحث حول إمكانية قيام اتحاد والقيام بالنشاط العسكري الموحد ضد دولة تسزين، توجد معلومات قليلة في أحد المصادر الصينية عن هذه الزيارة: «في قديم الزمان عندما كان إمبراطورنا تاي تسزو يقود جيشه وذلك لتأديب الإقليم الغربي، وفي عام سين سي توقف عند حامية تيمينغوان، أرسل الحاكم السوني نين تسزون رسوله غاو مينيو بيغية عقد الصداقة والمطالبة بالسلام، فوافق الإمبراطور تاي تسزو على ذلك، وأصدر أمراً لساع الدولة غاخ بإعادته إلى وطنه» [التدوين الكامل، ص ٨٤].

ينبؤنا مؤلف «يوان شي» بأنه في آسيا الوسطى جاء إلى جنكيز خان أيضاً رسول الإمبراطور تسزين «الحاكم تسزين أرسل أوغوسون تشجوندوان يعرض رسالة حكومية يطلب السلام منادياً الإمبراطور بالأخ الأكبر، ولم يقبلوا ذلك الاقتراح» [يوان شي، الفصل الأول، ص ١١١]. طلب إمبراطور التشجور تشجينين عقد السلام بشرط الاعتراف باستقلاله عن جنكيز خان عاداً نفسه «الأخ الأصغر» و«جنكيز» «الأخ الأكبر» ولكن جنكيز لم يوافق على ذلك ساعياً وراء هدف واحد، هو القضاء على تسزين.

في عام ١٢٢٠ وفي غياب جنكيز خان وعلى وادي أورخونا - حيث تم بناء الدير البوذي الشهير إيردينيتسزو - تم بناء مقر قيادة جنكيز خان الجديد المسمى قره قوروم، يقع المقر القديم - كما يقال - في منعطف الجزء الأوسط من نهر الكبير ولين في منطقة كودا أرال، من المحتمل أنه كان أول قصر مستقر لجنكيز خان في هذه

المنطقة، وهنا كانت مقابر الأسلاف ومعبد للتعبد وبالجزوار أقيمت أربعة مقرات للقيادات التابعة للخان يديرها زوجاته.

كان مقر القيادة الجديدة قره قوروم مواصلة للتقاليد الأويغوية، التي تعني «الأنقاض السوداء». قام المغول حسب القصص الماثورة في منطقة قره قوروم بنصب عشرين يورتا، وأسسوا عاصمتهم، ولذلك يوجد تفسير لمعنى اسم قره قوروم، مثل «حورين غير»؛ أي «عشرون يورتا» ويوجد تفسير آخر أيضاً «خارا كوريم»؛ أي «الحجارة السوداء». جذبت الأطلال القديمة على جبل مالاخيتا قديماً الانتباه، حيث كانت في القرن الثاني عشر مقر قيادة الخان الكيريتي المسمى بتاخاي بالغاس، تم بناء مدينة في بادئ الأمر، وفي عهد جنكيز خان وفي مركزها تم نصب خيمة متنقلة لجنكيز خان، يفترض أنها العاصمة الأولى لجنكيز خان، وتمت فيما بعد حتى بلغت حجم مدينة كبيرة، وكانت مساحتها ٤٠٠×٤٠٠ متر.

من الصعب تحديد المكان الذي استقر فيه جنكيز خان عندما أب إلى منغوليا، سواء أكان هذا قره قوروم أو مكاناً آخر. ذكر في كتاب «يوان شي» أنه «في فصل الربيع في الشهر الأول عاد إلى مخيمه غير الثابت حيث مقر قيادته» [يوان شي، الفصل الأول، ص ١٢] حسب معلومات رشيد الدين بعد عودة جنكيز خان «أمر بتشيد خيمة ذهبية كبيرة، وعقد اجتماعاً لعدد كبير من الناس وأقام لهم وليمة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ١٣٠]، وفي صيف عام ١٢٢٥ «قضى وقته بالدار وقام جلالته بإصدار أوامر حكيمة».

كما كتب الشاعر المغولي مؤخراً:

الأرض والسماء زوجان

الشمس والقمر زوجان

الصيف والشتاء زوجان

نحن نعلم أن جنكيز خان قد فكر بهذا الأمر، ونعلم أيضاً أنه قرر أن يقضي في الحرب ما تبقى له من السنين لإسقاط دولة التانغوت. حدثت بعض التغييرات في دولة التانغوت قبل عودة جنكيز خان إلى منغوليا التي كانت في غير صالحه فقد تمت تنحية الحاكم تسزون سيان لصالح ابنه دا فان تحت ضغط المناصرين النشطاء في الصراع ضد المغول، وعندما علم هذا الأخير بعودة جنكيز خان من الغزو الغربي وبنواياه في إبادة دولة سي سيا قام بإجراءات تعزيز أجهزة الدفاع عن الدولة، في نهاية عام ١٢٢٤ تمكن من توقيع السلام بين التانغوت والتشجورتشجيينين.

فهم موخالي مغبة هذا التطور في الأحداث، وأرسل جيوشه لاجتياح المناطق الوسطى من دولة سي سيا، لكن التانغوت ألحقو بهم شر هزيمة، حينها فهم دا فان أن التشجورتشجيين لا يعتمد عليهم حالياً، فأكثر من نصف دولة تسزين وقعت تحت سيطرة المغول، حتى بعد أن عقد التشجورتشجيون الصلح مع دولة سي سيا وفرض عليهم القتال في جبهتين: في الشمال مع المغول، الذين لم ينقطع هجومهم، وعلى الجنوب مع الصين، ساعدت سون الجنوبية المغول في القضاء على الذين كانوا من عهد قريب أعداءهم وجيرانهم الشماليين، في يوم ما قام الصينيون بمساعدة التشجورتشجيين بالقضاء على الكيدانيين، وفقدوا نصف الصين، وبمساعدهتهم للمغول لم يدركوا بعد أنهم في القريب العاجل سيفقدون كل الصين، وهكذا لم يكن بمقدور دا فان الاعتماد على معونة الصينيين، حينها قام بخطوة جريئة، وأخذ يبحث عن حلفاء له في مستعمرات جنكيز خان وسط القبائل التي تعيش «إلى الشمال من الرمال» أي في صحراء غوبي وتاكلا ما كان، التي لم تخضع لجنكيز خان إلا منذ وقت قريب.

كانت هذه منه محاولة لتنظيم اتحاد عسكري في مؤخرة جيش جنكيز خان، من الغريب أنها بشكل ما قد كللت بالنجاح، ولذلك ليس من باب المصادفة أن جنكيز خان كان أكثر خوفه من أقاربه، الجيش الذي يمكن أن يقوم بغزوة كبرى في سي سيا يوجد في منغوليا، بعد أن علم المغول عن تحركات دا فان حاصروا المركز الغربي لدولة التانغوت مدينة شاتشجو، لم يكمل الحصار الذي استمر مدة شهر بالنجاح، والأنفاق التي شقها المغول تحت حوائط المدينة «رماها التانغوت بالنيران»، فأرغموهم بذلك على فك الحصار.

بعد أن عاد جنكيز خان إلى دياره طلب من دا فان أن يرسل إليه ابنه كرهينة، فناقش مجلس الدولة في سي سيا الرد على المغول، اقترح الكثير الخضوع والتنازل حتى لا يعطوا المغول فرصة للحرب، قال أحد وجهائهم:

- يا صاحب الجلالة! إن المغول كحيوانات مفترسة، حتى إذا كانوا مستأنسين، ولا يضايقون، فمن باب أولى ينبغي التوجس من زئيرهم، إن طباعهم غير ثابتة، وبرفضنا سوف نعطيهم الذرائع للحرب، إن دولة تسزين على وشك الانهيار، وهي بنفسها لا تستطيع الدفاع عن نفسها، فهل ستكون قادرة على مساعدتنا؟ يجب إرسال وريث العرش إلى مقر القيادة المغولية [كيتشانوف، ص ٣٠٩].

وقد كان على حق، ولكن دا فان كان أيضاً محقاً عندما رأى أن هذا ليس بالمرحج، وإنما المخرج يكمن في الخطوات الحاسمة ليس للتانغوت فقط وإنما لكل حلفائهم الذين عانوا من بطش سيف جنكيز خان:

- لقد انتهيت للتو من أمر إعادة السلام من تسزين، وأتمنى أننا بجهودنا الموحدة سنصمد في وجه عدونا المشترك، فهل أقوم الآن بإرسال ابني الوحيد إلى العبودية، ولاحقاً سأعرض أصابعي من الندم؟ لم التسرع؟ [نفس المصدر، ص ٣٠٩].

رحل رسول جنكيز خان بخفي حنين، من المحتمل أن المحادثات لم تنته عند هذا الحد، فمن إحدى الوثائق التانغوتية نعلم أنه تم في مارس عام ١٢٢٥ تعيين المسؤول عن الحدود السوتشجوكي حامل الوسام الذهبي كرسول، وكان من المفترض أن يسافر عبر مدينة خاراخونو، حيث تم العثور على هذه الوثيقة الأصلية في عام ١٩٠٩ من قبل ب. ك. كوزلوف (انظر [المذكورة]) بخلاف هذه المنطقة - أي مصب نهر إندزين غول - كان بإمكان البعثة العبور في السهول المغولية فقط، من الواضح أن المحادثات لم تكمل بالنجاح، بعد وقت قليل استقبل دا فان شيلغا كسان خونو أحد أبناء الخان التانغوتي [يوان شي، الفصل الأول، ص ١٢]، ومن الجائز أن ممثلي تلك القبائل «شمال الرمال» الذين يبغضون جنكيز خان، والذين رأوا في التانغوت القوة التي يمكن أن تقف بوجهه، كانت دعوتهم دعوة سافرة، إلى الحرب.

في ربيع عام ١٢٢٥ يبدو أن جنكيز خان قد ارتحل إلى صعيد دولة سي سيا، وفي الطريق كان يصطاد الخيول البرية، وللمرة الثانية سقط عن ظهر الحصان، وذلك لأنه في ربيع عام ١٢٢٣ سقط خلال الصيد من على ظهر الحصان للمرة الأولى، وكاد أن يقتله خنزير بري (حالف)، وفي الصباح قالت زوجة الخان لأولاد القيصر وحراسه:

- لقد أمت بالقيصر البارحة حمى شديدة، يجب التباحث في هذا الموقف.

قرر في المجلس أن «التانغوت قوم مستقرون ويعيشون في منازل من الطين في مدن صغيرة، فهل يعقل أن يذهبوا إلى مكان ما حاملين بيوتهم فوق ظهورهم؟» قرر مؤقتاً تأجيل الحملة، واستئنافها بعد أن يشفى جنكيز خان، لكن جنكيز رفض هذه الخطة، وافق على الانتظار لوقت ما، وحتى لا يظن التانغوت أنه قد خاف، أمر بإرسال رسول إليهم لإعلان الحرب، وقد أملى عليه الآتي: «في يوم ما يا

بورخان وعدتني مع التانغوت أن تكونوا ساعدي الأيمن، ونتيجة لذلك طلبت منكم الانضمام للغزو على السارتاولين، الذين خرقوا أسس اتفاق السلام، لكنك يا بورخان لم تكتف بعدم حفظك كلمتك فقط، ولم تساعدني بجيوشك، ولكن رددت بكلمات وقحة، ولما كنت مشغولاً بأمر أخرى قررت تأخير تصفية حسابي معك، والآن بعد أن انتهيت من غزو السارتاولين بمعونة السماء الخالدة وبعد أن قومت السارتاولين في الطريق الصحيح أعود، وأعود إليك يا بورخان مطالباً بالحساب».

حسب ما ورد في الأساطير الشعبية حينما ذكر الرسول هذه الكلمات في عاصمة سي سيارد عليه أشا غامبو أحد القادة العسكريين قائلاً:

- يا أيها المغول، ويا محبي الحرب، إذا رغبتم في الحرب فعندي لكم السهول الآشايية، فيها خيام محصنة بالشباك وجمال الرجل، تفضلوا إلى آلاشي عندي، وهناك ستحارب! [السيرة المكنونة، ص ١٨٩-١٩٠].

سافر الرسول حاملاً خبر أن التانغوت عازمين على القتال حتى آخر قطرة دم.

لم يكن تشجوتشي موجوداً في المجلس الذي ناقش إذا ما كانوا سيشتون الحرب على التانغوت أم لا، حسب معلومات رشيد الدين كلف جنكيز خان تشجوتشي بإخضاع كل ديشت إكيبشاك والبشكيريين والروس والشراكسة، لكن تشجوتشي «تهرب من هذه المهمة، وبدلاً من ذلك توجه إلى دياره». نظير ذلك وعد جنكيز خان بإعدامه معلناً: «سأعدمه، لن ير الرحمة أبداً»، مرض تشجوتشي ولم يرجع إلى منغوليا مع العائدين من أبناء القيصر، استدعاه جنكيز عدة مرات، ولكنه لم يحضر متعللاً بالمرض، قام أحد ما باغتيابه منبأ بأنه في واقع الأمر ليس مريضاً إنما يتلهى بالصيد، تقبل جنكيز خان هذا الخبر كعصيان من قبل ابنه «لعل

تشجوتشي فقد عقله إذا كان يرتكب مثل هذه الأفعال»، وأمر جيوشه بالهجوم عليه [رشيد الدين، المجلد الثاني، ص ٧٩].

لكن الغزو لم يتم، وذلك لأن تشجوتشي مات وهو في الأربعين من العمر، هناك معلومات تفيد أن تشجوتشي لم يكن موافقاً على أساليب الإرهاب الجماعي الذي مارسه والده، وحسب أقوال جوزجاني أعلن: «لقد فقد جنكيز خان عقله لأنه يبيد كل هذا الكم الهائل من الأراضي والبشر». هناك أقاويل مبهمه كأنما تشجوتشي لم يكن في عداوة مع أشقائه فقط، وعلى الأخص مع تشاغاتاي، وأكثر من ذلك كأنما كانت لديه مزاعم حتى يقتل والده خلال الصيد، وحينما أصبح هذا الأمر معلوماً لجنكيز خان أصدر أمراً بتسميم تشجوتشي [رافيرتي، ص ١٠٠١]. نحن نعلم أن تشجوتشي لم يتمتع بحبة جنكيز خان، بخاصة أنه قد ولد بعد أن كانت بورتي في أسر الميركيت، العامل الذي حفز جنكيز خان لهذا من الممكن أن تكون رغبته في تحاشي الصدام المتوقع حتماً بين تشجوتشي وتشاغاتاي بعد موته، يفترض ب. راتشيفسكي أنه حتى لو كان لجنكيز خان يد في موت تشجوتشي لم يكن ذلك الإحساس الخاص، إنما «الفهم السياسي ومبعثه القلق على وحدة الإمبراطورية [راتشيفسكي، ص ١٢٣].

في عام ١٢٢٦ «في الربيع، وفي الشهر الأول آخذين في الحسبان أن سي سيا قد ضمت إلى جانبها عدوه إلا غاسيا لكون (شيلغا كسان خونو) ولم ترسل ابن الحاكم رهينة، قام بنفسه (أي جنكيز خان) وترأس الجيوش، وقام بحملة تأديبية ضده، في الشهر الثاني أخضع مدينة خايشوي والمدن الأخرى» [يوان شي، الفصل الأول، ص ١٢] يبدو أن جنكيز مرض طيلة شتاء عام ١٢٢٥-١٢٢٦ وربيع عام ١٢٢٦. قام المغول بعبور حدود دولة سي سيا في أسفل نهر إدزين غول، وسقطت مدينة خايشوي، انهزم التانغوت والقبائل التي اتحدت معها بعد، وخسروا عشرات

الآلاف من القتلى، ترك جنكيز خان السكان المدنيين «أي بقية التانغوت» كعادته «للجيش لينهبهم». هكذا بدأت آخر حرب في حياة جنكيز التي استمرت قرابة العامين، وكانت وكان هدفهما الإبادة الكاملة للشعب التانغوتي^(١).

من خارا خوتا متجهاً لأعلى مجرى نهر إدرين غول قسم المغول مساحة سييا إلى نصفين، وخرجوا إلى سفح نانشان «في الصيف قام [جنكيز خان] باللاجوء إلى الجبال هرباً من القيظ محتلاً غانشو وسوتشجو، احتل في الخريف سيلانفا وقضاء شولو ولوخا، وبعدها عبر شاتو ووصل إلى خوانخا عند المعابر التسعة [تسزيو دو]، احتل إنلي وبعض الأقضية الأخرى» [يوان شي، الفصل الأول، ص ١٢٠]. أما جنكيز خان فقد أمضى الصيف في جبال نانشان في الوقت الذي قامت فيه جيوشه بغزو محافظات سييا المجاورة، تكبد المغول في الشهر الخامس (٢٥ مايو - ٢٥ يونيو) من عام ١٢٢ خمسة خسائر جمة عند الاستيلاء على مدينة سوتشجو، غضب جنكيز خان على أثر مقاومة أهل المدينة عند حصارهم، وأمر بذبح أهل مدينة سوتشجو أجمعهم، أما المدينة نفسها فهدمها، هذا المصير نفسه كان بانتظار مدينة غانتشجو، لولا ضراعة تشاغان التانغوتي، الذي كان قائداً لألفية جنكيز خان وابتناً لغانتشجو الذي وقع في أيدي المغول في سنوات طفولته والذي يخدم تحت إمرة جنكيز خان، فأدى ذلك إلى حماية السكان من الذبح الجماعي، والمدينة من الهدم، حسب إفادة «يوان شي». كان تشاغان (شاخان) ابناً لأحد وجهاء سييا من جارية له، زوجة الوجيه أبغضت أمه، ويبدو أنه توجب عليها

(١) إن كراهية جنكيز خان لتانغوت كانت عظيمة إلى درجة أنها استمرت طويلاً، ففي جبال سينلونشان الواقعة بالقرب من مدينة لانتشجار تنمو إلى يومنا هذا شجرة بلوط يناهز عمرها ألف العام، وحسب الأسطورة المحلية إن جنكيز خان ضرب بسيفه هذه الشجرة وهو في حالة غضب وأعلن: «إنني في كل الأحوال سأقضي على دولة سييا»، إن مؤلف هذه الأسطر رأى بنفسه في أغسطس عام ١٩٨٩ شجرة البلوط التي شجها جنكيز بسيفه.

وعلى ابنتها الفرار، قابل جنكيز خان في أثناء الصيد تشاغان وأعجبه الحديث معه، أعلن الصبي أن من صاروا في عداد كبار الإداريين هم كل من «درس المراسم»، وأقام الصبي في مقر قيادة جنكيز خان، وعندما شب زوجته فتاة من قبيلة خونغيرات، خدم في الحرب مع تسزين حتى رتبة قائد ألف، وكان من ضمن الذين استولوا على بخارى وسمرقند، وشارك في مطاردة جلال الدين، فلذلك علم بما سيجري للمدينة التي يفوز بها المغول بعد مقاومة عنيدة.

وردت قصة حصار مدينة غانتشو في سيرة حياة تشاغان كالآتي: «عاش والد تشاغان تسزيوي تسيلوي في المدينة المحصنة، ربط تشاغان بالسهم خطاباً ودعاه للخروج طالباً منه أن يريه شقيقه الأصغر، الذي له من العمر ثلاثة عشر عاماً، وقد صعد على سور المدينة في منطقة عالية، وتمكن [تشاغان] من مشاهدته، ومن ثم بعثوا رسولاً إلى المدينة حاملاً أمراً بالاستسلام مقدماً، أنشجو مساعد والده [أي تشاغان] وآخرون يبلغ عددهم ثلاثين شخصاً اتحدوا وقرروا قتل تسزيوي تسيلوي، وخلال ذلك قاموا بقتل الرسول، جمعوا كل قواهم للدفاع عن المدينة وصد العدو، وعندما تم الاستيلاء على المدينة أبدى الإمبراطور رغبته في أن تجتث بأكملها ويحفر مكانها حفرة، عدّ تشاغان الشعب غير مذنب، عوقب ستة وثلاثون شخصاً فقط، [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص ١].

قام المغول في ديسمبر باجتياز نهر خوانجي، واحتلوا الأراضي الشرقية من دولة سي سيا، وفي هذا الوقت نفسه مات دا فان، الذي حاول أن ينظم الصراع مع المغول، تحمّل الأمير سيان حاكم التانغوت الجديد، إضافة للمنصب، إرثاً ثقيلاً، حاول الجيش التانغوتي المكون من مائة ألف بالقرب من مدينة ليتشجو إيقاف زحف المغول نحو العاصمة، تفاصيل هذه المعركة الكبرى - التي شارك فيها جنكيز خان

شخصياً - بقيت مجهولة ، هزم الجيش التانغوتي بشكل مريع وسقطت مدينة
ليتشجو ، وأضحى الطريق مفتوحاً للجيش المغولي نحو عاصمة سي سيا .

في شتاء ١٢٢٦-١٢٢٧ بدأ آخر حصار لمدينة تشجوتسين ، في الوقت الذي
حاصرت فيه القوى الأساسية للجيش المغولي المدينة قامت فصائله الأخرى
بالاستيلاء على القرى والمدن الأخرى ، التي لم يتم احتلالها وتهديمها ، ورد في
إحدى المدونات التاريخية الصينية الآتي : «سيطر المغول تماماً على مدن دولة سي
سيا وأقاليمها ، دفن سكان هذه الأماكن أنفسهم تحت الحجارة والتراب لكي ينقلوا
أنفسهم من السيوف والسهام ، ولكن لم تكتب النجاة إلا لواحد أو اثنين من مائة ،
وغطت العظام البيضاء السهول» [كيتشانوف ، ص ٣١٣] ، في الربيع والصيف من
عام ١٢٢٧ كانت الدولة التانغوتية قد محيت من على ظهر الأرض ، وعاصمتها قد
حتم عليها بالقضاء لولا قيظ الصيف حيث : حماها من السقوط ، الذي ارتبط
بموت جنكيز خان بشكل مباشر ، الذي مات تحت أسوارها ، حسب إفادات رشيد
الدين حدث هذا قبل سقوط عاصمة التانغوت ، قال جنكيز خان قبل موته لمقربيه :

- لا تعلنوا عن موتي ولا تنوحوا ولا تبكوا حتى لا يعلم العدو بذلك ، وعندما
يخرج الحاكم وسكان المدينة في الوقت المحدد أيدهم كلهم ! [رشيد الدين ، المجلد
الأول ، الكتاب الثاني ، ص ٢٣٣] .

«في اليوم الخامس عشر من الشهر الأوسط لخريف عام الخنزير الموافق لشهر
رمضان عام ٦٢٤هـ (١٥ أغسطس - ١٤ سبتمبر أي الثاني من أغسطس عام
١٢٢٧) غادر هذا العالم الزائل تاركاً العرش وأملاكه ودولته لأنساله الوجهاء ، قام
الأمرء وفقاً لأوامره بإخفاء خبر موته حتى قام ذلك الشعب [التانغوت] بالخروج
من المدينة ، وحينها قاموا بالقضاء عليهم تماماً» [المصدر نفسه] . حسب إفادة «يوان
شي» (سيرة حياة تشاخان) كان جنكيز خان في جبال ليوبان «حاكم سي سيا دافع

باستماتة عن مدينة تشجونسين، أرسل الإمبراطور تشاخان إلى المدينة مع أمر حوى خيار الكوارث والعطاء الطيب للجيش والشعب [التانغوتي] الذين كانوا على وشك الاستسلام، وكما حدث مات الإمبراطور، قام القواد بأسر حاكم سيا وقتله^(١)، من جديد جاء السؤال حول القضاء التام على سكان تشجونسين، قام تشاخان بكل جهده وأقنع الجميع بعدم فعل ذلك، ودخل المدينة بنفسه وهدأ الجميع وجمع ما تبقى من الناس» [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص ١٦].

حسب إفادة «التاريخ السري» نفسه، قام جنكيز بذاته باستقبال حكام التانغوت الذين جاؤوا للمحادثات محملين بالهدايا الثمينة، الحاكم التانغوتي من أجل إهداء جنكيز خان «جمع بحسب الألوان والأنواع الأشياء والأغراض كافة بالعشرات المكررة، مثلاً: الذهب والفضة والأواني والأغراض المنزلية، الصبية والبنات، الخيول الخصبة والجمال، وعلى رأس كل هذا تأتي الأصنام الذهبية، في خلال مدة الاستقبال الرسمي ساءت حالة جنكيز خان، وأمر بقتل حاكم التانغوت، قام المغول بالهجوم على عاصمة سي سيا بعد أن خرقوا اتفاق السلام، تم زيادة سكان عاصمة التانغوت، وتمت إحالة معابدها وقصورها ومكتباتها كافة إلى أنقاض، يقال إن جنكيز خان بعد القضاء على الدولة التانغوتية أمر «بعدها أن قضيت على التانغوت عن آخرهم بل حتى آخر عبد منهم . . . فدعهم يذكرونني بهذه الإبادة الجماعية عند كل غداء . . . مرتين، بعد أن هجم جنكيز خان على الشعب التانغوتي؛ لأنهم

(١) وحسب وصف سيرة حياة أتشجولو التي وردت في مؤلف «يوان شي» أن أوتشجولو بالتحديد هو الذي قام بأسر آخر حاكم لدولة التانغوت (سي سيا)، وبعد ذلك وبأمر أوغوداي تم إعدامه، «يحكى: وقعت معركة كبرى مع الأعداء في منطقة خالا خاتشار، وفيها أطبق الحصار على قوات دولة سي سيا، فأصاب الذعر حاكمهم، فطلب الاستسلام، وقبض عليه، وعرض على تاي تسزو أي جنكيز خان الذي نفذ إعدامه» [يوان شي، الفصل ١٢٣، ص ١٣].

أخذوا بهذه الكلمة ، وبعد أن قضى على التانغوت بشكل نهائي عاد وصعد إلى السماء في عام الخنزير (١٢٢٧) «السيرة المكنونة، ص ١٩٠ - ١٩٢» .

في الفصل الأول من كتاب «يوان شي» ، الذي ورد فيه عرض لتاريخ حياة جنكيز خان وإدارته للدولة ، وعند موته ورد الآتي : «في الخريف في الشهر السابع مات في معسكر خالوتو غير الثابت بالقرب من نهر ساليثوان ، قبل الموت قال لمن حوله : "الجيوش المختارة لدولة تسزين موجودة إلى الجنوب من بوابة تونغوان ، ويرتكزون على جبل ليانشان ، من الشمال محميون بنهر داخا العظيم ، ومن الصعب الوصول إليهم وهزيمتهم ، فهل يمكن استخدام الطريق عبر أراضي سون؟ إن سون وتسزين أعداء قدامى ، وسون من المؤكد أن يسمح بمرور القوات ومرورنا] ولا بد أن نهزمهم [أي التشجور تشجين]" قال ذلك ومات في عمر ستة وستين عاماً ودفن في أخدود تسيناغو» [يوان شي ، الفصل الأول ، ص ١١٢] .

هكذا حسب السيرة الرسمية لجنكيز خان قبل موته فكر ليس بإبادة التانغوت - الذين تم هزيمتهم من قبل - إنما في سحق التشجور تشجينيين . إن مؤلفي «يوان شي» كتبوا في آخر ملاحظة التي لا تزال تحمل صوت العقل حتى يومنا هذا «إن الإمبراطور كان صاحب أفكار عميقة وخطط عظيمة ، استعمل القوات كما الآلهة ، لذلك تمكن من سحق أربعين دولة ، وبعد ذلك دمر دولة سي سيا ، والدلائل على أفعاله البطولية المدهشة جمة ، للأسف في كل ذلك لم يجهز [المغول] موظفين مؤرخين ، ولذلك ضاع الكثير من السجلات» [المصدر نفسه] وهذا حقيقة ، كما رأينا الكثير مهملاً ومليئاً بالتناقضات . وهذا ينطبق أيضاً على واقعة موت جنكيز خان .

حسب إفادات «يوان شي» ورشيد الدين مات جنكيز خان بسبب المرض ، كما كتب لاحقاً ر . ك . دوغلاس «بسبب الداء العجول» [دوغلاس ، ص ٢٣] عدة

مؤلفين يحددون المرض أو سبب المرض ، أبو الفرج يذكر الملاريا [راتشيفسكي ، ص ١٨٠] ، وحسب «التاريخ السري» يتضح أن سبب مرض جنكيز خان وموته كان من الممكن أن يكون سقوطه من على ظهر الحصان في وقت صيد العير الوحشي حيث «شب حصانه النبي الرمادي وسقط الحاكم ولحقه الأذى» [السيرة المكنونة ، ص ١٨٩] ، وحسب رواية «ألتان توبتشي» لمؤلفها لوبسان دانسان قبل موته «أصيب الحاكم المهاب بحمى شديدة» ، بعد أن أملى وصيته على أنجاله «في العام السادس والستين من العمر وفي العام الثامن والعشرين من تقلده الحكم ، في عام الخنزير الأحمر في اليوم الثاني عشر من الشهر السابع أصبح روحاً سماوياً» [ألتان توبتشي ، ص ٢٤٠] ، وحسب إفادة ألتان توبتشي في القرن الثامن عشر «في آخر قمر من عام الخنزير المائل للحمرة اختطف جنكيز خان شيبان حاكم شعب سي سيا بعد أن تغلب على شعب سي سيا عاد في الخريف ، في طريق عودته توقف عند نهر دوورادو مورانا (النهر الأسفل) الذي يتبع لكوكا الأوسوني من سي سيا ، الخاغان أصيب بضعف شديد ، بعد أن عاش سبعة أيام مات في اليوم الثامن ، بعد أن قال وصيته الروحية الأخيرة ، أحضر جثمانه مع الاعتبارات كافة وحولوه إلى أونغون (أي دفنوه) في منطقة نهر تشيفما ، إنهم يقولون كذلك ، ولكن غير معلوم أين توجد هذه المنطقة» [السيرة التاريخية للمغول العائدة إلى القرن الثامن عشر ، ص ١٥٣-١٥٤] .

يحكي جوزجاني أن إمبراطور التانغوت الأسير قد تنبأ لجنكيز خان بالموت في اليوم الثالث من وفاته هو شخصياً ، بالفعل نرف الدم من جروح جنكيز خان كاللبن الأبيض «وتوجه إلى نار جهنم» [رافيرتي ، المجلد الثاني ، ص ١٠٩٦] .

كتب ماركو بولو عن موت جنكيز خان أنه كان بسبب الجروح ، الجروح القديمة التي أصيب بها في أثناء الحرب مع تسزين ، [ماركو بولو ، ص ٨٧] ، ويخبرنا بلانو كاريبي أن جنكيز خان قتله صاعقة [الرحلات ، ص ٤٤] .

بعض السير التاريخية المغولية المتأخرة - مثل شاراتوجي - تحكي عن الصراع الخيالي بين جنكيز خان وحاكم التانغوت، الذي تحول إلى ثعبان، حينها تحول جنكيز إلى طائر التارودو الخرافي، تحول حاكم التانغوت إلى نمر وجنكيز خان تحول إلى الأسد الخرافي «أرسلان»، تحول حاكم التانغوت إلى شاب حينها تحول جنكيز خان إلى آلهة خارموستو، وأخيراً عندما أسر جنكيز خان حاكم التانغوت خاطبه هذا الأخير قائلاً: «إذا قتلني فإنك في جسمك ستضرر» أي إن حاكم التانغوت قال إذا قتله جنكيز خان فإنه نفسه سيموت، فإذا لم يقتله فالضرر سيصيب أنسال جنكيز خان، قام جنكيز بقتل حاكم التانغوت وأسر زوجته غور بالجين غوا خاتون، وهي التي قتلت جنكيز خان، «غوبالجين غوا خاتون في مكان سري من جسمها بعد أن وضعت فيه مشبك وتسبب في الأذى للمكان السري لأدزان (أي جنكيز خان . تعليق المؤلف) . بعد ذلك هربت إلى خارا موران وقذفت بنفسها وغرقت» بعد أن أصيب جنكيز خان هذه الإصابة غير العادية والقاسية مرض بشدة «وفي العام السادس والستين من عمره في عام الخنزير الأحمر في اليوم الثاني عشر من الشهر السابع في مدينة غورماغاي بالغاسون مات» [شاراتوجي، ص ١٣٣-١٣٥]. قرر ر. غوسيه أن جنكيز خان مات في الثامن عشر من أغسطس عام ١٢٢٧ [غروسيه، ص ٣٠٩].

وهكذا تظل ملابسات موت جنكيز خان غير واضحة، يمكن بكل ثقة القول إنه قد مات في بداية الخريف (أو في نهاية الصيف من عام ١٢٢٧ على أراضي الدولة التانغوتية سي سيا، مباشرة عقب (أو بعد وقت قليل) سقوط عاصمة سي سيا مدينة تشجونسين، وأسر آخر حاكم تانغوتي، وسحق دولة التانغوت، من المحتمل أن الموت قد أدرك جنكيز خان في أوردوس قرب نهر تشجامخاك الواقعة في الوقت الحالي في أراضي الحكم الذاتي لإقليم منغوليا الداخلي حيث يتصبب الآن ضريح عظيم للخان العظيم، وأقيم له تمثال ضخمة من حجر أبيض .

حسب إفادات رشيد الدين : إن المغول بعد وفاة الخان «جمعوا رفاتة وتوجهوا في طريق العودة حيث أبادوا كل ما هو حي وقع بأيديهم ، إلى أن أوصلوا الرفات إلى مقر جنكيز خان وأبنائه ، كل أبناء القيصر ونساؤه والأمراء والذين كانوا على مقربة تجمعوا وناحوا عليه» [رشيد الدين ، المجلد الأول ، الكتاب الثاني ، ص ٢٣٣].

متلبساً بأجنحة الصقر المحلق الطائر ابتعدت يا سيدي الحاكم!
أهذا صحيح أنك أصبحت حملاً لعربة مقعقة يا سيدي الحاكم؟
متلبساً بأجنحة الباشق الخاطف لفريسته ابتعدت طائراً يا سيدي الحاكم!
أهذا صحيح أنك أصبحت حملاً للعربة ذات المحور المتحرك يا سيدي الحاكم؟
متلبساً بأجنحة العصفور المشقشق ابتعدت طائراً يا سيدي الحاكم!
أصحيح أنك أصبحت حملة لعربة ذات صرير يا سيدي الحاكم؟
هكذا أو بالتقريب قام الشعب المغولي بالبكاء على قائده جنكيز خان .

حسب إفادات رشيد الدين أن جنكيز خان دفن في منغوليا ، وفي ذلك المكان الذي حدده سابقاً ، كذلك يخبرنا رشيد الدين عن أنه يوجد في منغوليا جبل عال يسمى بورخان خالدون ، من إحدى سفوح هذا الجبل تسيل مجموعة من الأنهار وعلى ضفافها تنمو غابات كثيفة «في تلك المناطق تعيش قبائل التايشجوت ، اختار جنكيز بنفسه هذا المكان لدفنه وأمر : " فلتنكن هذه المنطقة مكاناً لدفن أنجالنا الذكور " . تمت رحلات جنكيز خان الصيفية والشتوية في تلك المناطق . . . ولد في أسفل نهر أونون ومن هناك حتى جبل بورخان خالدون تكون ستة أيام من الطريق . . . والأمر كان كذلك : كان جنكيز خان في رحلة صيد في إحدى تلك الأماكن تحت شجرة وحيدة ، ولجأ إليها حيث نعم بشكل من السلوى ، وهنا قال : " هذه المنطقة تتناسب ومكان مدفني ! دعوهم يضعوا عليها علامة ! " ، في وقت

البكاء عليه الأشخاص الذين سمعوا منه هذه الكلمات رددوها، أبناء القيصر والأمراء حسب إرادته اختاروا تلك المنطقة لمكان قبره، يقال إنه في ذلك العام نفسه الذي دفنوه فيه، وفي ذلك السهل نفسه غمى عدد لا يحصى من الأشجار والأعشاب، في الوقت الحالي هذه الغابة كثيفة جداً بحيث لا يمكن عبورها، وهذه الشجرة الأولى والمكان الذي تم دفن جنكيز خان لا يمكن تعرفه البتة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٣٣-٢٣٤].

إذا صدقنا هذه الرواية فإن جنكيز خان دفن عند أهله في وطنه في جبال خانتاي، في تلك الجبال حيث مارس الصيد منذ طفولته، وحيث يبحث أكثر من مرة عن الخلاص من التاي تشجوت والميركيت، يقدر ل. غامبيس أنه من المحتمل أن جنكيز خان قد «دفن مع بعض أهله في منطقة تقرب من منابع ثلاثة أنهر في جنوب منغوليا» [غامبيس، ص ١٢٦].

يوافق ب. راتشيفسكي على رواية رشيد الدين حول مكان دفن جنكيز خان ما خلاص إليه تم إعلانها كمنطقة محرمة «خورغ».

في كتاب «ألتان توبتشي» نقرأ الآتي:

«على الرغم من أن الروح الرحيمة قد فارقتك

إلا أننا سنجمع غالي رفاتك الشبيه باليشم

وسنعيده لقومك كافة

وهكذا تحركت العربة الكبيرة بأزيز

وعمت القرحة البشر كافة!

إلى أن بلغت أرض الخان العظيمة وهناك ودعوك . . .

إن الجثمان الحقيقي - كما يقول البعض - قد تم دفنه في بورخان خالدون، والآخرين يقولون إنه قد تم دفنه على السفح الشمالي من ألتاي خان أو السفح

الجنوبي لكاتاي خان، أو في المنطقة التي تسمى ياخا أوتاك» [ألتان توبتشي، ص ٢٤٢].

يؤكد ماركو بولو أن منطقة دفن جنكيز خان والمغول الحاكمين كافة كانت ألتاي: «اعلموا أن كل الحكام العظماء من سلالة جنكيز خان يدفنون في الجبل الكبير ألتاي، وأينما مات حاكم التتار العظيم - حتى لو كانت المسافة إلى هذا الجبل تستغرق مائة يوم من الطريق - ينقلونه إلى هناك ويدفونونه، وهاكم هذه الطرفة الغربية: في أثناء نقل الخانات العظماء إلى ذلك الجبل وفي خلال أربعين يوماً أكثر أو أقل يقتل الذين يصاحبون نقل الجثمان كل من يصادفونه في طريقهم قائلين لضحاياهم: " اذهب إلى الدار الآخرة لكي تخدم حاكمنا! " وإنهم بحق يؤمنون بأن المقتولين حين يتقلون إلى الدار الآخرة سيخدمون حاكمهم، الشيء نفسه يفعلونه مع الخيول، عندما يموت حاكم عظيم يقتلون خيرة خيوله؛ لكي تكون بحوزته في الدار الآخرة» [ماركو بولو، ص ٨٨].

يفترض ي. شميدت الباحث في شؤون التبت للقرن الماضي والعالم بالشؤون المغولية معتمداً على عدم معرفة المغول بتحنيط الموتى أن جثمان جنكيز خان في ذاته لم يصل حتى منغوليا، وإنما دفن بعض الأغراض التي تخصه [شميدت، ص ١٠٧، ٣٩٠] (١).

(١) يمكن وضع قائمة للأماكن التي من المحتمل أن يكون دفن بها جنكيز خان:

ألتاي [ماركو بولو، ص ٨٨].

ألتاي خان [ألتاي توبتشي، ص ٢٤٢].

بورخان خالدون [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٣٨-٢٣٩].

ياخا أوتاك [ألتان توبتشي، ص ٢٤٢].

كانغاي خان [ألتان توبتشي، ص ٢٤٢].

شعب تسينيانغو [يوان شي، الفصل الأول، ص ١١٢].

عندما جلس أوغوداي على العرش ضحى بأربعين فتاة جميلة لروح جنكيز خان، وفي الوقت نفسه تمت التضحية بخيول أصيلة [رشيد الدين، المجلد الثاني، ص ١٩].

قام غ. ن. بوتانين في القرن السابع عشر بزيارة إيخي إيجين خورو في هضبة أوردوس حيث يعتقد أتباع اللاما من التبت ومنغوليا بمكان دفن جنكيز خان، حيثما أنشأوا بعض اليورتا، التي كأنما تحوي أنقاض جثمان جنكيز خان.

مرتدياً ثوباً صينياً قشياً وبصحبة اثنين من المغول توجه غريغوري نيكولا يفيتش بوتانين راجلاً إلى إيخي إيجين خورو قدس الأقداس على رابية مربعة الأركان غير عالية ومغطاة بالطوب، خلف سور شبه مهدم أطلت خيمتان (يورتا) وحيث تماستا تم تشييد معبر سري، على رأس الخيام قباب ذهبية، أما اللباد الذي يغطي مجموعة القباب فقد رسمت نهاياته على شكل ألسن متدلّية إلى الأسفل، قام غريغوري نيكولا يفيتش مع المغول بالركوع ثلاث مرات جاثياً أمام أبواب الخيام المشرعة، كان الدخول إلى اليورتا محظوراً، إنما من الأبواب المظلمة فقط، وفجأة تمتد يد حاملة طبقاً أحمر عليه مزهرية تحوي على دهن محروق، المغول الدارفاتيون الذين صاحبوا بوتانين عرضوا عليه أن يمكك بالطبق، وحينها قاموا مرة أخرى بالانحناء ثلاث مرات وابتعدوا.

نهر تشيفما [المدونة التاريخية المغولية من القرن الثامن عشر، ص ١٥٤].

في خمس حالات من الأحوال المتوقع فيها دفن جنكيز خان براد اسم الجبال، وهذا أقرب احتمال، وفق التصورات التقليدية القديمة للشرق الأقصى ومن بين المناطق الجبلية أولها ينسب لجبال خانغاي وبورخان خالدون، تلك الجبال المحيية لجنكيز خان، ومنذ سنوات في جمهورية منغوليا الشعبية تعمل بعثة يابانية منغولية مشتركة في البحث عن مقبرة الفاتح جنكيز خان مستخدمة كل وسائل التقنية الحديثة، نأمل أن تكمل بحوثها بالنجاح.

من تساؤلات بوتانين تبين أنه يوجد في اليورتا حوض فضي يحوي عظام جنكيز خان، كل عام في اليوم الحادي والعشرين من الشهر الثالث حسب التقويم القمري ينظم المغول الأوردوسيون احتفالاً كبيراً (تايلغا) على شرف جنكيز خان، وإلى خيمته يجلبون دوندو إيجين خورو قيادة الحكم الوسطى (إيخي إيجين خورو، أي مقر القيادة الكبرى للحاكم)، كذلك قيادة بورتي الزوجة الأولى للخان وباغا إيجين خورو (مقر قيادة الحاكم الصغرى) ورداء الخانة غوريلجين التي قتلت حاكم العالم بكل غدر وبغير توقع، في ذلك اليوم يقدمون حصاناً كأضحية لجنكيز خان.

حكى أحد المغول لبوتانين أنه في قديم الزمان قدمت الضحايا البشرية لجنكيز خان، ولكن بانتشين لاما من التبت قام بتهدئة جنكيز خان المتعطش للدماء، وذلك عندما بقي وحده في اليورتا مع رفات الخان العظيم، حزم جثمان الخان بوشاح أحمر قائلاً: «من الآن فصاعداً يجب أن تكون متسامحاً ولا تقتل البشر الأحياء! وكالأضحية لك سيقدمون الخيول وليس البشر!»، وبعدها أغلق الحوض بثلاثة أقفال، وأخذ المفتاح معه، منذ ذلك الحين حتى الدارخان الحفظة أنفسهم لا يدرون ماذا يرقد في ضريح الخان (عن كتاب [تسمع الرموز الكتابية فقط، ص ١٠]).

في أعوام الحرب مع اليابان تم ترحيل إيخي إيجين خورو إلى دير غومبوم في شمال شرق التبت (عام ١٩٣٨)، وفي عام ١٩٥٤ تم إعادة ترحيلها إلى مكانها السابق في أوردوس، في الذكرى الثمانمائة لميلاد جنكيز خان، الذي احتفل به في جمهورية الصين الشعبية (عام ١٩٦٢)، في عام ١٩٥٦ وفي المكان نفسه حيث وجد مجمع إيخي إيجين خورو تم بناء معبد مهيب بارتفاع ٢٥ متراً ومساحته ٢٤٠٠ متر مربع، صار هذا المعبد في الوقت الحالي مكاناً سياحياً مربحاً ومكاناً للعبادة.

بشكل رسمي وحسب «يوان شي» كان لدى جنكيز خان ثلاث وعشرون زوجة
 إمبراطورات وست عشرة عشيقه [يوان شي، الفصل ١٠٦، ص ١١-١٢] في مكان
 آخر ذكر أن العشيقات والزوجات كان عددهن أكثر من أربعين [المصدر نفسه،
 الفصل ١١٤، ص ١٦]. توزعت الزوجات والعشيقات في أربعة مقار، ويقول
 رشيد الدين: كان عند جنكيز خان من العشيقات والزوجات قرابة الخمسمائة
 «حسب العادات المغولية القديمة . . . فإنه أخذ لنفسه ووزع لمقريه، ولا سيما
 لأبنائه، زوجات وبنات الحكام الذين ينتصر عليهم من رؤساء القبائل وحكام
 الدول» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٦٨]. خمس فقط من
 نساء جنكيز خان حملن لقب الإمبراطورات، وهن: بورتى وخولون (من
 الميركيت) والتتريات إيسوي وإيسوغان وابنة الفان التشجور تشجيني فايشاو
 المعروفة بغونتشجو خاتون. حسب ما ورد في «يوان شي» كان لدى جنكيز ستة من
 الأبناء: تشجوتشي وتشاداي وأغوداي وتولوي وأولوتشي وكوليتسزين [يوان
 شي، الفصل ١٠٧، ص ٤٦].

هكذا في أكثر الأشكال تعميماً كان طريق حياة خان المغول العظيم ومؤسس
 دولة منغوليا، واحد من أعظم الفاتحين في تاريخ البشرية، الذي لا يزال اسمه
 معروفاً لملايين البشر، ومنذ القدم، كاسم علم، من المعروف أن ن. ي. بوخارين
 قد سمى الرئيس جوزيف ستالين بجنكيز خان.



شخصية جنكيز خان

.....»

قائد القتلة

المذيق الموت من سنان السيوف

للعالم الممزق والمهزوم

المقاتل

الصارخ بصلادة الرمح

المتوحش

نازع أبواب أوروبا من عقبها

كان مسخاً»

دميتري كيدرین

«قائد القتلة ، الصارخ بصلادة الرمح ، المتوحش ، نازع أبواب أوروبا من عقبها

والذي كان مسخاً» ، بهذه الكلمات الموجهة إلى راعي قبائل الغون أتيلي ، كأغما

الشاعر يخلق صورة جامعة للغازي ، الذي اشتهر بالمذابح الجماعية والوحشية بدون

مسوغ ، كان جنكيز خان على النقيض من سلفه ، ليس قصير القامة أو متزحلاً

مقوس الساقين ، بل العكس تفرد بلامح جذابة وقامة فارعة ، كتب جوزجاني ،

الذي شاهد جنكيز خان في خراسان حيث كان شاباً قاتلاً: «يتمتع جنكيز خان

بالقامة الفارعة والتكوين الجسماني المتين ، وكانت عيناه كعيني القط» .

من المحتمل أن تشجوا خون نفسه لم يشاهد جنكيز خان ، ولكن كتب أوصافه

من كلمات الآخرين ، إن شهاداته أيضاً مهمة كشهادات جوزجاني ، كلاهما كانا

معاصرین لجنکیز خان، کتب جوزجانی: «فیما یخص الحاکم التتري تیموتشجین کان فارع الطول، عظیم الکیان، ذا جبهة عریضة ولحیة طویلة، شخصیة مقاتلة ومهابة» [التدوین الكامل، ص ٤٨]، وأخیراً کما سجل رشید الدین کان والد جنکیز خان وکل سلالة ایسوغای باتور و جنکیز خان کانوا شقراً وذوی عیون زرقاء «الابن الثالث (بارتان باخادور. تعلیق المؤلف)، کان ایسوغای باخادور، الذی کان والد الجنکیز خان، إن قبيلة کیات بورجیغین ترجع أصولها لأسلافه، «تعني كلمة بورجیغین زرق العیون»، وقدر ما يبدو ذلك غریباً فإن السلالة كافة التي خرجت من أنسال ایسوغای باخادور وأنجاله أو أقاربه و «سلالته» إلى یومنا هذا ابن خاسار شقیق جنکیز «فارع الطول متورد الخدین وذا وجه مستطیل ولحیة طویلة» [المصدر نفسه، ص ٥٢].

اعتماداً علی هذه المعلومات قام المؤلفون بإعادة إنشاء صورة جنکیز خان کل حسب ما یراه، فعلى سبیل المثال الباحث المشهور فی روسيا والعالم ف. غ. یان یقول: «لقد رفع محمود یالفاتش رأسه حینما رأى وجهاً قائماً شائخاً ولحیة خشنة شقراء یميل لونها للاحمرار، وجدیلتین شائبتین مضمفورتین فی عقدة، مجدولتین علی المنکبین، ومن تحت قبعته السوداء اللامعة المزينة بحجر زمرد کبیر، اشرأبت عیناه الخضراوتان الثاقبتان المائلتان للاصفرار» [یان، ص ١١٢]. وأيضاً «کان طویل القامة، وعلی الرغم من أن عمره قد بلغ الستین عاماً، إلا أنه کان قویاً جداً، وذا خطی ثقيلة تشبه خطی الدب، وفی دهائه الثعلب، وفی غضبه الأفعی، وفی اندفاعه النمر الأرقط، وفی صبره سفینة الصحراء، وفی کرمه علی من یجب هبتهم کان یشبه أنثی النمر المتوحشة المتعطشة للدماء عندما تداعب صغارها، له جبین عریض، ولحیة طویلة خفیفة، وعیون صفراء، لا ترمش كأعین الهرة» [یان، ص ١٠٩].

كما سبق أن أشرنا إلى أن الشعر الأمازيغي والعيون الصافية عند البورجيين له تفسير عقلاني، إن جده أهلهم آلان غوا كان لها صلة قرى بالقيريغيين، وبما أن قدماء القيريغيين، حسب ما ورد في المصادر، وما ذكره الرحالة، تميزوا بهذه السمات التي تم ذكرها، إن تقبلنا الافتراض، لا يعني أن المؤلف ف. تشيفيلين الذي يرى أن جنكيز خان «ليس مغولي الأصل» وترجع أصوله إلى مجموعة «الشقر الذين يقطنون في آسيا» [تشيفيلين، ص ١٩٦-١٧٠]، إن آلان غوا تنتمي إلى قبيلة كورالاش، التي حسب معلومات رشيد الدين تعد من ضمن المجموعات «المكونة للشعوب المغولية الحالية، الذين كانوا في منطقة أرغونا كون» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ٧٨]، ومن هؤلاء «المغول الأصليين» كانت قبيلة أولخونوت، التي تنتسب إليها والده جنكيز خان ويلون، ويتوجب قول الآتي: بين مجموعة قبائل الشيواي التي ينحدر منها مشاهير قدماء المغول أمثال مجموعة خانتو (حرفياً «صفر الرؤوس») من الشيواي ذوي الشعر الأشقر والأمازيغي والعيون الصافية، التي تلاحظ في سلالة جنكيز خان، وهذا لا يلزم على الإطلاق أن تكون أصولهم من «الغرب»، أي أوروبا.

يشير العديد من المؤلفين إلى أن جنكيز خان كان رجلاً قوي البنية، ويرى راتشيفسكي أنه «على ما يبدو كان يجد متعة في الجنس» [راتشيفسكي، ص ١٤٥] ففي دولته كانوا سنوياً يبحثون له عن أجمل الفتيات ويجلبونهن له، على الرغم من أنه بعد كل غزوة تتكلم بالانتصار كان يؤوب بزوجة، وفي الحملات كان يسير بصحبة زوجته (مثل خولان عند الغزو على الغرب، وإيسوي عند غزو دولة سي (سيا)، كل هذا لا يمكن أن ينظر إليه كبرهان على أن جنكيز خان كان يحب بكثرة اللهو الجنسي، إن السيطرة على زوجات المهزومين كانت دليلاً على عقد اتحاد سياسي أو الخضوع، (ومثال ذلك زوجات التانغوت والتشجور تشجينيين) أو إظهار

التفوق على المهزوم، (ومثال ذلك زوجة الحاكم النيامي تايان خان)، لا توجد أي دلائل تشير إلى أن جنكيز خان كان مولعاً بالجنس اللطيف بإسراف (أما الاثنا عشرة ألف فتاة اللاتي جمعن له في غزوة الغرب - حسب قول جوزجاني [رافيرتي، المجلد الثاني ص ١٠٠٧] - هذا أيضاً ليس برهاناً، إنها غنيمة) كما لا توجد دلائل أيضاً تؤكد أنه كان يعاني من داء إدمان الخمر، على الرغم من أن إدمان الخمر كان متفشياً في أسرته، ومثال ذلك ابنه أوغاداي الذي كان سكيراً «يحب اللهو وشرب الخمر» وحفيده كاشي أيضاً «كان من أكثر المحبين لشرب النبيذ وهو في حالة السكر دائماً»، «توفي من جراء الشرب المفرط للخمر» [رشيد الدين، المجلد الثاني، ص ١٢].

إن أوصاف جنكيز خان الخارجية يمكن الاطلاع عليها في مؤلف «التاريخ السري»، إن «نظرته كالتار ووجهه كالفجر»، إنها لشاعرية أسطورية، ومن المحتمل أنها تحمل طابعاً نورانياً يشير إلى الأصول الإلهية.

لقد حاول رشيد الدين وصف جوهر شخصية جنكيز خان أيضاً في قسم خاص من مؤلفه «رواية عن جنكيز خان فيما يخص أفعاله التي يستحق عليها الثناء وسماته النفسية، وعن عاداته الفريدة وحكاياته ذات المغزى الجميل» وعلى رأي رشيد الدين كان جنكيز خان يقر بالحكمة الإنسانية، التي تشكلت بصورة جيدة حينها في الصين، عند شعب لم يطع فيه الابن والده، وصغار الأشقاء لا يخضعون لآخوتهم الكبار «لا يعتمد الزوج على زوجته ولا تخضع الزوجة لأم زوجها»، «ولا يحمي القوي الضعيف، ولا يقبل الصغير الموعظة من الكبير»، «وهكذا حجب المنافقون وقطاع الطرق والمحتالون على مختلف ضروبهم الشمس الساطعة على مراعي هذا الشعب الخاصة»، الذي بوسعه إدارة الأسرة، بمقدوره أن يحكم دولة، «وكل من باستطاعته إدارة منزله بانتظام يمكنه إدارة مقاطعة بكاملها، وكل

من يمكنه إعداد عشرة مقاتلين كما يطلب، يحق له أن يعطى ألف مقاتل أو عشرة آلاف محارب أي (تومان)». وكل مدعو إلى كبير يجب عليه أن يرد على السؤال فقط، وكل من يتفوه بكلمة قبل السؤال يحتمل أن لا يسمع «حسناً له إن لم يسمع، ولو سمع ففي أسوأ الأحوال سيكون كمن يطرق على حديد بارد»، يخدم جيداً ذلك الذي يخدم بصدق ووفاء في الظروف كافة، «جيد ذلك الحصان فقط الذي يسير وهو في غاية الشبع أو نصف جائع، أو حتى وهو هالك من الجوع»، ولبلوغ مراتب القيادة يحق لمن يدرك حاجة رعاياه فقط «والذي بنفسه يدري ما الجوع والعطش، ويحكم من هذا المنطلق على وضع الآخرين» [المصدر نفسه، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٥٩-٢٦٢].

إن كل ما ذكر حقيقة، وكان من الأفضل اليوم أن نتجه هذه القوانين للخادمين والمخدومين.

إن جنكيز خان يرى أن الشعوب يجب حكمها عن طريق المواعظة (ببليك) والقوانين (ياسا).

إن كل هذه التصورات ومناهج الإدارة كرسست من أجل أن تكون الدولة محكمة وقوية، ولكن في سبيل ماذا؟ يمكن أن يكون هذا السؤال أساسياً عندما نتحدث عن إيديولوجيا جنكيز خان وأتباعه، يتوجب على جنكيز خان «إخضاع الشعوب الطائشة غير المعتدلة» بفضل الإرادة العليا، التي تمنحه علامات رحمتها، «ذات مرة في أيام الشباب نهض جنكيز خان عند الفجر، حينها أصاب الشيب جزئياً نواصيه، فسأله المقربون: "يا أيها الوالي السعيد! إن عمرك لم يبلغ بعد سن الشيخوخة، فلماذا ظهر الشيب على نواصيك؟" فرد قائلاً: "بحكم أن الإله العلي أراد أن يجعلني قائداً وزعيماً لعشرات الآلاف (تومان) والألفيات، ونفخ بيوق

خيرات، لهذا وسمني بعلامة الشيخوخة، التي تعدّ مظهر اللزامة» [المصدر نفسه، ص ٢٦٢].

إن جنكيز خان بإرادة السماء، كما نقول، خان الرحمة الإلهية، التي باسمها تسير أموره الخانية، وباسمها أيضاً لبس أنساله الذكور وأسرهم «الزي المطرز بالذهب»، وأكلوا «اللذيذ والدسم»، وركبوا أروع الخيول «واحتضنوا الملاح من النساء»، وبهذا القدر من «الحياة المترفة» يجب أن ينعم بها كل من يخدم الخان، «إن محاولاتي وتطلعاتي فيما يخص الحرس ورماة السهام الذين أصابهم سواد الإهاب كغابة كثيفة عذراء، وزوجاتهم وخطيباتهم وبناتهم اللاتي ترائين بلونهن الأحمر كما لو أنهن ناراً توهج، أن أملاً أفواههن باللذيق المعسول، وأزينهن من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين بثياب مرصعة بالذهب، وأجعلهن يركبن على الأفراس الهادئة الخطى، وأشربهن الماء النقي الطيب، وأهبهن المشية والمراعي الغنية بالعشب»، ليست هناك كلمة تشير إلى أن من أجل هذا يجب العمل، فكل هذا يجب أخذه بالقوة من «الأقوام الطائشة» بعد القضاء على القوم الخارجين عن الإذعان، ما دمتنا «عندما نذهب للصيد نقتل الأيائل بكثرة، وعندما نسير في الغزو نقتل الأعداء بوفرة» [المصدر نفسه، ص ٢٦١-٢٦٢].

إن الموازنة بين الصيد والغزو الحربي ليس باستعارة بسيطة، كما الغابة والسهول المليئة بالغنائم للصائد المحظوظ مثلها كالشعب التابع، الذي يمثل الغابة والسهول عند ساعة «الصيد» الناجحة، حينها يمكن بلوغ كل المقاصد للحياة التي تبدى لشخصك بأنها حياة مثالية، إن الخان وجيشه ورجاله يمثلون الصيادين، «وأعظم ملذة وغبطة للرجل المغولي تكمن في سحق المنتفض والانتصار على العدو واقتلعه من جذوره ونهب كل ما يملك، وإرغام زوجاته على البكاء والشكل، ومن أجل الجلوس على كل أكفال أفراسه الناعمة، وإلباس زوجاته الملاح ثياب النوم

الليلية على أجوافهن للفراش ، ولمشاهدة أجيادهن في مختلف الألوان ، وعناقهن وتقبيل شفاههن اللذيذة! » .

هل تعدّ هذه الكلمات في الأصل كلمات جنكيز خان؟ يمكن مناقشة هذه الفكرة ، ولكن حسب رأي رشيد الدين إن كل هذا «هو حكايته الوعظية ، أي حكاية جنكيز خان» ، وطريقة تفكيره وتحركاته المفرعة الباعثة للرعب ، وليس من الغريب أن يكمل رشيد الدين حديثه بالكلمات التالية : « فليعلم السلام كل البشر والكون! » [المصدر نفسه] ، وعلى كل إذا أخطأنا ، فإن الأكاديمي فلاديمير تسوف - الذي لا يمكن الارتياح في احترامه للشعب المغولي - محق في أن هذه أيديولوجيا قطاع طرق تحت قيادة راعيها .

كتب ل . غامبيس أيضاً أن جنكيز خان «كان ينظر إلى الدول المتحضرة ، مثل الصين وإيران ، كأقاليم تمثل مصدر دخل لأسرته وعلية قومه وكل شعبه» ، وباستنتاج غامبيس نفسه أن جنكيز خان كان يتمتع بطبع «رجل نبيل» في عصره ، إذا لم نضع في الحسبان «بعض الهفوات الصغيرة» مثل «الدمار والقتل ، اللذين كانا حسب رأيه ضرورة» ، كما أنه كان رجلاً وياً لأصدقائه وليس رحيماً بأعدائه ، كان إنساناً «حافظاً دوماً لمقدار عظمة رسالته ، التي كما يرى هو «بأن السماء انتخبته لها» ، كان رجلاً معتدلاً قنوعاً في الحياة اليومية ، وأيضاً «ورث من أجداده التواضع ورعاية القطعان والصبر ودهاء الصيادين» [غامبيس ، ص 5-6] .

إن علم التاريخ في تقييمه لشخصية جنكيز خان على رأي ب . راتشيفسكي القائل إن جنكيز خان «دخل التاريخ كغاز لا يعرف الرحمة ، وفي غزواته جلب الموت والدمار لعدد غير متناه من البشر ، وقضت غزواته على قيم ثقافية لا يمكن استعادتها كاملة ، ولكن ليس من الحق الحكم على جنكيز خان انطلاقاً من مفاهيم عصرنا السامية ، إن أفعاله أملتها قوانين السهول القاسية ، تلك السهول التي لا

تعرف الرأفة بالعدو، إن أعماله دارت في المجال الحربي، وفي نجاحاته ليس مداناً إلى موهبته الحربية، بقدر حنكته السياسية وإمكاناته التنظيمية» [راتشيفسكي، ص ١٠-١١]. ولكن هذا لا يمنع المؤلف أن يشير إلى أن «طريقه (أي جنكيز خان، تعليق المؤلف) كان عبر الجثث» [المصدر نفسه، ص ١٤١].

إن المؤلف راتشيفسكي يشير إلى أن صفات جنكيز خان الخاصة، التي تجعله من رجلاً إيجابياً، هي إحساس بالعرفان، وعلى سبيل المثال نظرته تجاه سورغان شيرا الذي يحتمل أن يكون أنقذ حياته عندما هرب من الأسر التايجوتي، أو عنايته بأطفال أنصاره الذين لا قوا حتفهم في المعارك، «عندما أمر جنكيز خان أن يمنح أبناء صديقه خويلدار - الذي استشهد في ساحة القتال - وأنساله وحتى أنسال أنساله منحة اليتامى، وقال لنارين تووريل ابن تشاغان غوا: "إن أبك تشاغان غوا لقي حتفه في معركة دالان بالتشجوتوخ على يد تشاموخا، لكنه مات بضراوة أمام عيني، ولهذا فليأخذ الآن تووريل على خدمة والده منحة اليتامى"» [السيرة المكنونة، ص ١٦٦]. كان جنكيز خان يأتمن أنصاره، مثلاً موخالي، الذي كان ممثله الخاص في الصين، وفي بعض الأوقات كان الرجل الثاني في دولة الخان. واهتم جنكيز خان أيضاً بجنوده، فقال للقسيس تشان وتشون: «إنني أهتم بجنودي مثل اهتمامي بإخوتي».

انطلاقاً من المصادر التي تم العثور عليها، يصعب تحديد ما إذا كان جنكيز قد تميز بشجاعة خاصة، ولكن في طفولته كان يخاف من الكلاب، وكان ضعيفاً في بنيته مقارنة مع شقيقه خاسار وبيكتير، ولقد قتل بغتة أخاه بيكتير الذي لم يكن مسلحاً في معركة غير عادلة بمساعدة أخيه خاسار، الذي كان قوي البنية، ومن المحتمل أنه لم يكن شديد الذكاء، نجا تيموتشجين في شبابه بالهرب أكثر من مرة ولا يرى في ذلك عاراً، ولو أنه أسرع وراء خيول الأسرة المسروقة (ولكن تؤكد

المصادر الحديثة حقيقة أنه ذهب برفقة أخيه خاسار)، وشارك في الصراع مع المغول الكيات أي «تسجوركي» الذين جرحوا بيلغوتاي في أثناء حفل سكرهم على غابة الأونون.

في الواقع أن جنكيز خان كان رجلاً شاذاً في ذكائه وداهية وسياسياً محنكاً، عالماً بالناس ونقاط ضعفهم، ويعرف استخدام هذا الضعف لمصلحته، فكم من المكر والدهاء والذكاء استخدمه عندما هرب من الأسر التايجوتي! إننا لا نعلم المرحلة الحاسمة في مستقبل جنكيز، ولكن يبدو أنه عندما عاش في سلام مع تشجاموخا عاماً ونصف عام بفضل ذكائه وفراسته فقط، وليس لأنه رب العائلة، بل لأنه خان دولته، لقد استطاع العثور على قادة أذكى من بين حاشيته كأمثال موخالي وبرور تشو وسويتاي وتشجاي وتشجوتشي وآخرين من القواد الذين جلبوا له الانتصارات، كما أن أغلب مجده القيادي يرجع بالحق لهم.

كان جنكيز خان يطلب من الخاضعين الوفاء لحاكمهم، ومن الخدم الوفاء لخانهم، ولقد شاهدنا أكثر من مرة كيف قام بشنق الذين حاولوا الانضمام إليه والفوز برحمته عن طريق الغدر بحاكمهم، وكالعادة لم يجد هؤلاء القوم عنده الدعم. لقد تميز جنكيز خان بعدم الثقة والارتياب حتى مع أقربائه، إننا لا نعرف شيئاً عن عدم ثقته في شقيقه خاسار، على الرغم من أن الأخير من المحتمل قد أعطاه المسوغ للشك فيه، ومع أخيه أوتشيفين في صراعه مع الساحر تيب تانغري، وكان يتطلع أيضاً بريبة إلى تسجيلمي الذي ذهب إلى مقر تايجوت من أجل اللين المخسر لكي ينقذ الخان من الجرح، كان يقدر في الرجال الصدق، إنه عفى عن تشجاي الذي اعترف بأنه صوب عليه وجرحه.

الانتقام والقسوة كانا من سمات طبعه ويحددان مزاجه، يقول ب. راتشيفسكي: «كان تفكيره تفكير منتقم» [راتشيفسكي، ص ١٣٧]، فأدخل

الانتقام في تدرج سلم الدولة السياسي «في ذلك الوقت عندما نظم جنكيز خان الحملة على الأراضي الصينية (خيتاي)، ودخل في معركة مع ألتان خان صعد إلى قمة التل كعادته وحده، وفك حزامه وأزرار عباءته، ثم ركع وقال: "يا أيها الإله الأزلي! إنك السميع العليم بأن ألتان خان كان البادي بزرع بذرة الشقاق وداعية للانتقام، وبغير ذنب صرع أو كين باركاك وخامبا كاي كآن، اللذين لا يهون علي دمهما بالانتقام وبالقصاص فقط، فأرجو إن كنت على عدل، فابعث إلي من أعلى بمزيد من القوة!". أدى هذا الدعاء بخشوع تام، ثم امتطى ظهر جواده وتقدم، فبفضل صدقه وخالص نيته استطاع الانتصار على ألتان خان . . . وأضحت أراضيها وأبناؤه تحت سلطته» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٢٦٣].

فإذا عد ذلك انتقاماً محضاً لذوي القربى على مثال التفكير المشاعي البدائي، فمن المحتمل أن يكون هذا غير صحيح، لأن الحاكم حينها كان ليس ألتان خان الذي قضى على أقربائه، وإضافة إلى ذلك عندما كان الأمر في صالح جنكيز خان خلق علاقة صداقة مع ألتان خان، حتى إنه لم يرفض الوظيفة التي منحها له، ولهذا لم يكن من المصادفة أن يشير ب. راتشيفسكي إلى أن جنكيز خان كان في حالة إخفاقه دوماً يبحث عن ملجأ له بالقرب من حدود دولة تسزين، وعلى ذمة جنكيز خان وباسم الانتقام للأقارب قتل شانشا بيكي وتايتشو وألتان خان وخوتشار، الذين نصبوه على العرش الختاني، كما أنه أيضاً قتل شقيقه المتآخي تشجاموخا، ومن المحتمل أيضاً ابنه تشجوتشي.

يقال إن كل هذه الإعدامات كانت إعدامات سياسية، وهذا صحيح، ولكن بلغ الانتقام عنده مرتبة السياسية الداخلية والخارجية، يكتب ل. ن. غوميلوف أنه «بعد الكم الهائل من الجرائم التي ارتكبها التشجور وتشجينيون بالتحديد لا نجد مسوغاً لقسوة سوى أنها رد فعل نفسي . . . وفي مثل هذا الظرف الذي

تشكل تاريخياً لا تعني خصال جنكيز خان الخاصة شيئاً، فإنه قاد شعبه ضد أعداء لا يعرفون الرحمة، وشعبه أراد ذلك، وبخاصة أولاد المقتولين وأشقاء من تم بيعهم كرقيق، فإذا لم يفعل ذلك ما صار خاناً!« [غوميلوف، البحوث، ص ١٨٩] من أين هذا؟ وأين الشواهد التي تشير إلى أن الحرب مع دولة تسزين كانت مطلب الشعب؟ ولماذا لا يصبح جنكيز خان خاناً إذا لم يبدأ هذه الحرب؟ فهو قد أصبح خاناً قبل خمس سنوات من هذا! ويواصل غوميلوف: «الحرب بالطبع شيء مريب ومشين، ولكنها حتمية في المجتمع الطبقي، بحكم أنها الوسيلة الوحيدة لحل المتناقضات كلها، أخلاقياً يمكن إدانة من بدأ الحرب، التشجور تشجينيون هم المذنبون، أما إدانة المنتصر الذي نقل ميدان الحرب إلى دار أعدائه فغير معقول وغير أخلاقي، وهنا يبدو جلياً أن المحاباة أكثر من الحرص على التاريخ» [المصدر نفسه، ص ١٨٩].

فلنكن منحازين إلى أن جنكيز خان هو الذي رفع القصاص إلى مرتبة التقديس، لقد حض على الحرب، وأعد لها بكل عناية، وأدارها في غاية من القسوة، إن المحاباة ليست هي ألا نفكر بل أن نفكر ونكتب عكس ذلك! كما فعل ل. غوميلوف عندما أوجد المسوغ لهجوم المغول باغتيال رسلهم، بلا شك أن مقتل الرسل شيء غير حميد، غير أنه من المعروف أن المطالب التي تقدم بها الرسل المغول في الغالب كانت استفزازية، وتؤدي إلى شيء واحد، إما الخضوع وإما الحرب وما يليها من موت ودمار.

إن قسوة جنكيز خان من خصائص شخصيته التي وصلت إلى مصاف سياسية للدولة، إنه بوعي متعمد مارس الوسائل القاسية في إدارة الحرب، التي كانت تعني الاستخدام العريض للاضطهاد، كانت الإبادة الجماعية لسكان الكثير من المدن والقوى منهجاً معتمداً في إدارة الحرب، وتشكل سياسته وسياسة قاده، بغرض

زرع الذعر في نفوس خصومه، كان المستشرق السوفيتي إ. ب. بيتروشييفسكي محققاً عندما كتب في مقدمة ترجمته لمؤلفات رشيد الدين إلى اللغة الروسية أن «القسوة لم تكن عشوائية، بل كانت منظومة متكاملة من الإرهاب، معلنة من القيادة العليا، وتستهدف إبادة العناصر كافة القادرة على المقاومة من السكان، وترويع المواطنين الأبرياء، وزرع الذعر الجماعي في البلاد المحتلة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص ٣٢]. ذكر في المصادر الإسلامية قرابة ثلاثين حادثة من «المذابح الجماعية» عند الاستيلاء على المدن، في واقع الأمر قد تم ذبح سكان المناطق المجاورة عن آخرهم، وكان الكتاب الأسرى يقومون بإحصاء الموتى، على سبيل المثال استمر هذا الإحصاء رهيب بعد مجزرة ميرف ثلاثة عشر يوماً.

كان جنكيز خان في دأبه لقيادة الحرب يتبنى مثل هذه الأنماط، كما توجد إفادات من المعاصرين تشير إلى أنه كان فخوراً بقسوته، يورد جوزجاني قصة وحيد الدين بوشينجي الشاهد على أحداث تلك الحقبة، إن جنكيز خان كان يفتخر بين مقربيه بقتله ذلك الكم الهائل من البشر بحيث أن مجده سيكون خالداً، إن بوشينجي الذي كان شاهداً على ذلك علق قائلاً وبكل معقولية:

- إذا قام الخان ورجاله بقتل كل البشر، فمن سيتذكر مجده؟

عندها نعتة جنكيز خان بالغباء ثم قال:

- الحكام في العالم كثر، إنني أقيمت المذابح الجماعية والخراب حيثما كنت وحيثما كانت حوافر خيل جنود محمد أوغوزي خوارزمشاه، أما بقية الشعوب التي تعيش في البلاد الأخرى وحكامها ستنشر القصص عن مجدي! [المصدر نفسه، ص ٣٣-٣٤].

كان ل. ن. غوميلوف على حق عندما كتب: «إن القسوة التي مارسها المغول عند انتصاراتهم الحاسمة بالطبع فظيعة، لكنها لا تقل فظاعة عن الوحشية التي

مارسها التشجور وتشجينيون في الصين، والسلاجقة في أرمينيا، والصليبيون في دول البلطيق وبيزنطة، فهكذا كان ذلك العهد» [غوميلوف، البحوث، ص ٣٩٧]، هكذا كان بالطبع دأب ذلك العهد، ورغمما عن ذلك تفرد جنكيز خان في ذلك العهد، ولم يكن مخطئاً فيما ارتكبه من مذابح بحق الشعوب التي لا تزال تذكر له هذا حتى يومنا، هناك رأي يقول حجم المذابح غير العشوائية التي ارتكبتها قادة جنكيز خان وبأوامره بثت الروع حتى في نفوس المغول أنفسهم^(١). يضيف ف. ف. بارتولد: (الأسطورة التي احتوتها "السيرة المكونة" في داخل سطورها تشير إلى أن جنكيز خان ولد ويده علقه من الدم المتخثر، إن كل هذا يؤكد بوضوح أن كمية الدم المسفوح بإرادة جنكيز خان زلزلت المغول أنفسهم» [بارتولد، فلاديمير تسوف، ص ٤٥٣]. من المعلوم أن تشجوتشي الابن الأكبر لجنكيز خان لم يؤيد الإرهاب الجماعي.

إن جنكيز خان بلا شك كان محباً للسلطة، كتب ب. راتشيفسكي: «النزوع نحو السلطة من الصفات الغالبة على شخصية جنكيز خان» [راتشيفسكي، ص ١٤٠] على الرغم من أنه كان يدين بالكثير من العرفان لفان خان إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يقضي عليه وعلى أولوسه، وهو في طريقه لتعبيد سلطته، إن فان خان وتشجاموخا وخوتشار أكثر من مرة كانوا من حلفائه، ولكن ب. راتشيفسكي

(١) هناك حقيقة تشهد بأن جنكيز خان كان دوماً يسعى للمحافظة على حياة الشعوب التي استولى عليها، إذ قال أحد المقربين إليه: «إن البشر... هم عماد الدولة، فإذا تم القضاء عليهم فماذا تستفيد الدولة من المساحات التي تمت السيطرة عليها؟ إضافة إلى أن القضاء على الأبرياء لا يعود إلا بشدة العدا، إنه ليس بمقصد الحاكم!» لقد سمع تاي تسزو (أي جنكيز خان) هذا القول وسنده» إن هذا النص من مؤلف «يوان شي» ويعدّ برهاناً إضافياً إلى أن الإرهاب ضد الذين تم الاستيلاء عليهم وصل إلى مرحلة تدعو للشجب حتى بين أفراد حاشية جنكيز خان في ذاته، (انظر مؤلف [يوان شي، الفصل ١٢٤، ص ١].

يطرح بنفسه السؤال: «هل كان من الممكن أن يبقىهم على قيد الحياة إذا ما رأى فيهم الندية له، أو إذا ما وقفوا في طريقه نحو السلطة؟ إن جنكيز خان افترض أنه دائماً على حق، ودافعه لذلك كانت القوى العليا» [المصدر نفسه، ص ١٤١].

أصبحت القناعة التي تمثل البنية الفكرية للدولة المغولية جزءاً لا يتجزأ من شخصية جنكيز خان؛ وقد كان مهووساً بهذه الفكرة، وحسب سياق الأحداث وبإخلاص كامل آمن جنكيز خان، وبشكل أدق، من لحظة غير واضحة لنا، فقد تملكه إيمان تام بأن السلطة على كل العالم وتحديداً كل العالم مهداة إليه من قبل السماء الأزلية، كل من لا يؤمن بهذه الفرضية عدّ «بولغا إيرغين» أي متمرداً، إن هؤلاء شقوا عصا الطاعة على النظام الاجتماعي الذي أرسته القوى العليا، الحرب ضد «المتمردين» لم تكن مسوغة أخلاقياً فقط بل ضرورية، لقد منح الخان من السماء الخالدة القوة؛ أي «كيوتشو» والحماية أي «إيخي إكداء»، وسميت نعمة الإمبراطور بـ «سو» أي النعمة السماوية، ومنها الصفة «سوتو» و «سوتاي» وتعني «السعيد».

لا يشكك الكثير من الباحثين في أن فكرة الكاغانو الخان المنزلين من السماء أو المختارين من قبلها كانت وليدة التأثير القوي للفكرة الصينية (أي ابن السماء)، لقد عرف جيداً جنكيز خان في آخر أيام حياته طريقة الحكم الصينية، فعلى سبيل المثال كان يرى هزيمة حكام تسزين منزلة من السماء نتيجة سلوكهم المشين، عندما شرح تشان تشون تعاليمه لجنكيز خان في عام ١٢٢٢ قال: إن الحكام هم مخلوقات سماوية مبعوثون من السماء لكي يعيشوا بين البشر، ومسطر لهم الصعود إلى السماء، ففي ١٢٢٢ عندما منح يلوي تشوتساي التقويم الزمني للدولة المغولية الذي أعده بنفسه لجنكيز خان طور الفكرة التي تنص على أنه بإرادة السماء فقط تمكن جنكيز خان من الفوز بالإمبراطورية، ذلك العمل العظيم، الذي لا يمكن إنجازه

بقوة الإنسان العادي، اتفق كل الباحثين تقريباً على أن جنكيز خان أكد حقه في الاستيلاء على كل ما هو ممكن ومعلوم لديه

THE PRINCE OF (1) A TRUST
FOR QURANIC THOUGHT

(١) في كتابه «روسيا القديمة والسهوب العظيمة» كتب ل. ن. غوميلوف «إن أحداً من الباحثين المعاصرين أطلق على كتابه اسم «حياة تيموتشجين الذي فكر في السيطرة على العالم» إن تيموتشجين لم يستطع أن يحلم بالعرش عندما كان يحمل على عنقه طوق الخشب التايجوتي، وعندما أخذ منه الميركيت زوجته الشابة، وعندما هجره أعمامه وشقيقه، وعندما غدر به فان خان، الذي أنقذه جنكيز خان من قبضة جيوش النايان، ففي هذه السنوات كان يفكر في خلاص حياته وحياة أسرته فقط، وهذا ما تحقق إنجازه بعد انتصاراته على عدو قاس لا يعرف الرحمة، إنه السؤال الذي يجب طرحه بالتحديد» [غوميلوف، روسيا القديمة، ص ٤٥٥] إن ل. ن. غوميلوف محق في طرح السؤال وضرورة التعامل معه بالتحديد، وأنا أيضاً أرى أن تيموتشجين لم يفكر أيضاً في السيطرة على كل العالم في ظل تلك الأحداث التي تم ذكرها، ولكن ألم تخطر بباله هذه الفكرة لاحقاً؟ إنه كتب للحاكم الأونغوتي قبل الحرب على دولة تسزين الآتي: «إن السماء لا تتسع لشمسين، وهل يعقل أن يكون للشعب حاكمان؟» لقد كتب بلانو كارييني في ظل تلك الأحداث: «إن خطة التار كانت تهدف إلى الاستيلاء على كل العالم إذا تيسر الأمر... ولهذا الهدف كانوا مسلحين بأمر جنكيز خان» [الرحلات، ص ٥٩] بديهياً أن جنكيز خان لم يفكر بفتح أمريكا أو أستراليا ولكن راودته خاطرة امتلاك ما تحت السماء وفقاً للمفهوم الصيني الذي يعني الأراضي الأوروبية والآسيوية، عاداً أنه محق ويمتلك القوة لتنفيذ ذلك، انطلاقاً من هبة السماء الزرقاء الخالدة، لم يرفض الباحثون حتى قبل ل. ن. غوميلوف دور تأثير الوسط الطبيعي والتقاليد في حياة الشعوب والأعراف (التي يمكن أن تسمى بـ «التقاليد الوراثية») كما لم يرفض الباحثون الأثر النفسي لهما، ففي حالة وجود المصادر يمكن شرح كل التحولات الكبيرة في حياة الأعراف دون اللجوء إلى المفاهيم الغامضة، مثل «الانفجار الباسيونارني». إن المفاهيم الجديدة لا تغير تصورات علم التاريخ عن الأحداث المهمة في آسيا وأوروبا، وهنا يمكن التأسف على شيء واحد هو النظر إلى التسلسل التاريخي من منظور التطور الطبيعي، يعدل. ن. غوميلوف «التقييم الأخلاقي لشخص جنكيز خان غير وارد» [غوميلوف، روسيا القديمة، ص ٤٥١].

حاول أنجال جنكيز خان تأدية تلك المهمة ، وعلى رأي ب . راتشيفسكي إن المذهب المغولي مذهب ملكي شمولي ، ويختلف عن نظيره الصيني في أن الأخير كان يسعى لإخضاع الموالين إليه إلى الثقافة الصينية ، بينما المذهب المغولي كان هدفة الاستيلاء ، يمكن الاتفاق مع الباحث راتشيفسكي في أن جنكيز خان لم يكن عدواً للثقافة عامة ، إنما تميز بمدخله العملي لمنجزات الثقافة ، إنه قيم الكتابة ووظفها لسد متطلبات الدولة ، وكحرفة أيضاً ومادة لها ، بينما قضى ببشاعة على الثقافة التي كانت في نظره ونظر حاشيته ليست بالمفيدة ، وكثير مما حوته ثقافات الشعوب تمت إبادتها بالكامل .

كتب خويني : «خص العلي جنكيز خان بالعقل والبصيرة» قطعاً لم يكن غازياً سافك دماء فحسب ، بل كان رجل دولة بارعاً ، لقد أسس الدولة المغولية مستخدماً الطرق التقليدية لأواسط آسيا ، صابغاً لها بصبغة مغولية محددة ، إنه اقتبس من الجيران كل ما تبدى مهماً ، الرسل والحكام ذوي البطاقات ، نظام خدمة البريد ، النظام الأولي الحازم لتقسيم السكان وربطهم بأماكن عملهم وسكنهم ، كل هذه النظم تم إدخالها في عهد جنكيز خان ، إن المنظومة القانونية نصت على «لا أحد يملك الحق في الخروج من الألفية أو المائة أو العشرة التي تم إحصاؤه فيها ، بخلاف ذلك سيتم إعدامه ، وإعدام المسؤول عن تلك الجبهة التي لجأ إليها وسجل فيها من جديد» . [حول تكوين قاعدة القوانين ، ص ٥٤] . الحرس والمجنودون من الحراس المسؤولين عن المنظومة الإدارية المركزية نهضوا بمسؤولياتهم بشكل رائع ، من المحتمل أنه لم يكن لا قبل النظام الرعوي للدولة ولا بعاهه ، إن كانت هذه النظم مصقولة ، فإن لم يكن قد قام بإنشاء ذلك بشخصه فإنه عبر اسمه قد اصطفى تلك المنظومة من القوانين التي يعدّها غ . ف . فيرنادسكي الذي قام بدراستها حسب رأيه «لم يكن تقنياً محضاً لأبعاد الحقوق العادية» إنما «تأسس أبعاد جديدة للحقوق في توافق مع احتياجات الإمبراطورية الجديدة» [المصدر نفسه ، ص ٣٣] .

«لقد وضع لكل حالة قاعدة ولكل ذنب عقوبة، وبما أن قبائل التتار لم تكن لديها كتابة، أمر بأن يقوم الأويغوريون بتعليم أطفال المغول الكتابة وتدرسيهم المنظومة القانونية، والأوامر، وبأن يدونوها على الحواشي، وتسمى بالكتاب العظيم للمنظومة القانونية، وتحفظ في خزانة الأمراء، وعندما يحين وقت جلوسه على العرش كخان، أو توجيه جيوشه للغزو، أو حينما يجتمع الأمراء للتباحث في أمور ممالكهم لمعالجة مشكلاتها فإن هذه الحواشي تحضر إليهم، وعلى ضوئها يضعون أسس الحلول، سواء أكان تنظيم الجيوش أم تحطيم الدول والمدن حسب ذلك النظام المتبع فينفذون» [المصدر نفسه، ص ٤٩].

كان جنكيز خان يؤمن بالسحر والشعوذة والتنجيم والفأل والطيرة، لقد احتك بالديانات العالمية كالسيحية والإسلام والبوذية، ويبدو كذلك أنه استمع إلى أسس الداوية، ولكن مما نرى لم يبد أي اهتمام نحو أي منها، إن عقيدته مجموعة من تلك الاعتقادات التي هي جزء من صميم اعتقادات المغول في ذلك العهد، التي يمكن أن تطلق عليها مجازاً التانغوية، وهي في تعبير فضفاض الخضوع للسماء كمعبود أعلى وخالق كل الكون، لقد كانت هذه عبادة آسيوية صرفة تخص الصينيين القدماء والتبتيين والدول الرعوية كافة السابقة لإمبراطورية جنكيز خان، عبادة السماء تطلب تقديس الأرض، لكن الأرض هنا تلعب دور الخاضعة، على كل حال كان اللجوء إلى السموات في عهد جنكيز خان أكثر من الالتماس للأرض، وجود عقيدة خاصة بهم جعلت من جنكيز خان وأتباعه من المغول لا مبالين تجاه الأديان الأخرى بشكل تام، ومن هنا ظهر التسامح تجاه الديانات الأخرى لدى المغول، الشيء الذي ساعد إلى ما حد ما في نجاحاتهم العسكرية.

يجب علينا أن نذكر أن لدى هؤلاء المؤلفين الذين كتبوا في السنوات الخمس عشرة الأخيرة عن جنكيز خان بشكل محترف بعض الحقائق عن شخصية جنكيز خان، التي تستحق الانتباه، والتي نرى لزاماً علينا أن نطلع عليها القارئ الكريم.

يورد ل. غامبيس الكلمات الآتية: «لقد كان شخصاً بمائل عصره، متسماً
بسماته الفظة التي عاشها، هنا تكمن الأسباب التي يجب البحث فيها، المؤدية إلى
لا مبالاته تجاه التضحيات بالأرواح البشرية، ولذلك كان يملك القليل من الإحساس
المتطور، بدأ سنوات شبابه الغض بقتل أخيه غير الشقيق الذي كان بمقدوره أن
ينازعه على مركز رئاسة العائلة، أقصى كل من كان بمقدوره أن يشكل عائقاً في
طريق طموحه اللامحدود بغير أدنى تردد، وذلك لأنه بطبعه كان سياسياً بارداً وذا
تخطيط دقيق وحسابات دقيقة، الذي عمل على تكملة أفعاله، حيث لا يترك خلفه
أي عدو، لم يسامح قط الحنث بالكلمة المعطاة على الرغم من أنه نفسه قد تصرف
مراوفاً، حيث كان دائماً يترك الكلمة الأخيرة له معتمداً على أن تصرفاته تشرف
عليها وتحميها بدايات إلهية، لم يكن يحتمل سوى الذين يعترفون بقوة شخصيته
وكان بلا رحمة أيضاً عندما ينتقم للإهانة، أو عندما يرد على الغدر، في صغره
اضطر للانتظار مدة طويلة حتى يحين الوقت لكي يؤكد نفسه، وعندما كبر في
العمر تصرف بسرعة ونفذ مشروعات ضخمة في وقت وجيز، لقد كان دائماً
حذراً، ولم يبحث عن المتاعب، لقد كان دائماً منضبطاً، على الرغم من أنه كان
مولعاً بالنساء والمشروبات الروحية، لقد كان كريماً، فكافأ الذين استحقوا ذلك،
لقد أنجز أعمالاً عظيمة، واستمتع بالحياة بكاملها وملذاتها دون الخضوع للشهوات،
ودون أن يشغل فكره بمغزى الحياة، لم يتوجه قط إلى غزوة دون أن يأخذ معه إحدى
زوجاته، . . . لقد اهتم بأراء الشعوب التي وقعت تحت سيطرته، من غير أن يعطي
أولية لأي فرد عاداً كل قواعد الأخلاق جيدة من غير أن يعطي أيّاً منها أفضلية على
الأخريات، كان شخصاً عملياً وإدارياً عظيماً قبل كل شيء، كل شيء في حياته
كان مرتباً، حتى في أحلك اللحظات لم يفقد هدوءه، لقد تمكن من أن يربط الناس
بمصيروه، وعندما بدأوا في الخدمة تحت إمرته لم يودوا أن يروا أنفسهم تحت إمرة
حاكم آخر، كانت هذه أسباب نجاحه وعظمته، لم يبلغ أبداً أي كائن من كان مثل

هذا المستوى من القوى، دون أن يصيبه شيء من الغرور» [ل. غامبيس، ص ١٢٦-١٢٧] لقد كتب هذا فرنسي بسهولة وسلاسة دون أن ينسى ذكر النساء والخمر.

دعونا نمنح الباحث الألماني كلمة: «إن شخصية جنكيز خان تجمع بين القوة والحماس الإنساني الطبيعي المحكم بالالتزام، الذي يمليه العقل، ففي حياته الخاصة كان صديقاً عطوفاً وأباً حميماً، ساعياً لرفاهية أسرته وأهله، رجلاً بسيطاً عادياً في سلوكه، وكحاكم كان رجلاً طموحاً بلا حدود، ولبلوغ هدفه كان لا يخاف من أي شيء، وبدون رحمة كان يسحق أي معارضة، حتى لو كانت صغيرة» [راتشيفسكي، ص ١٤٨]. لقد سطر هذا باحث ألماني: القوة الالتزام والقليل من العاطفة.

يريد المؤلف في هذا الكتاب أن يطلع القارئ على كل الحقائق الأساسية المعلومة لنا من حياة جنكيز خان، إن شخصيته تبدو لنا غير عادية، تلك الشخصية التي أثرت فيها بشدة سنوات شبابه القاسية، والوسط الذي ترعرع فيه، حتى صار رجلاً، إنه رجل دولة عبقرى، وإذا لم يكن قائداً حربياً مقتدراً، إنه منظم عسكري رائع، كان رجلاً حاكماً يرى أنه مختار من العلي لهذا الحكم، وفي طريقه للسلطة كان لا يعرف الوسائل، وعند الحصول عليها كان يستخدمها لمصالحه الخاصة ومصالح أنجاله من الذكور، أي أوروغ، وأفراد أسرهم، إن قساوته من المحتمل إيجاد مسوغ لها بالوسط الذي عاش فيه، والحياة، وبصورة أوسع، العصر الذي لم يعرف فيه الناس الرحمة والشفقة، ذلك العصر الفاحش، إنه كان يرى أن الغاية تسوغ الوسيلة.

وباطمئنان يمكننا القول إنه كان ابناً وزوجاً وأباً محباً، ولهذا يبدو أن المصادر الروسية ترسم لنا صورة الخان الحاكم وليس الإنسان، هل كان جنكيز خان يحب

إخوته؟ ومن حب غير نو كبيره بصورة عامة، الذين قيم فيهم قبل كل شيء إخلاصهم، ثم بعد ذلك بسالتهم وقوتهم، كان يولي اهتمامه من في خدمته، وكان لا ينسى الخدمات التي قدمت له، ودوماً يشيب عليها، بينما كان يطلب النظام والمثول بدون إبداء أي اعتراض، هل كان يميز بين المغول الذين كانوا تحت إمرته في المدة الأخيرة؟ على ما يبدو لا، بالنسبة له لم يكن ذا أهمية انتماء من كان في خدمته، بل ما يهيمه الخدمة بإخلاص له ولأفعاله، وفي هذا المضمار كان بعيداً عن المحدودية القومية.

كان جنكيز خان رجلاً شاكاً كظائره من الحكام، الذين وصلوا للسلطة عبر الجثث، العارفين بأن هذه الطرق التي استخدموها ضد الآخرين يمكن استخدامها ضدهم، إننا لا نعرف أمثلة لرجولته حتى استخدام السلاح في سن رشده، ففي حالة الحرب كان يأتمن الآخرين، وجعل لنفسه مثال الحاكم السارق، واتبعه، ونعتقد أن الكثيرين سيتبعون طريقه لهذه الأسباب، كان مخموراً بالسلطة إلى درجة أنه لم يعرف حدوداً لاستخدامها، هل كان يحب شعبه؟ غير معلوم، ولم يكن أحد يثير هذا السؤال في تلك الآونة، كان يطلب من شعبه الخدمة والنظام، خدمة الطائع الأعمى للإدارة الخانية، وبعنف كان يعاقب من يخرق الخدمة ومن يحاول الخروج عن إمرته.

تصوروا ذلك العجوز الأشيب القوي ذا الشعر الأشقر المائل للاحمرار، وبوجه مستطيل الشكل، تبدو عليه سمات قوة الإرادة، ولحية نامية من تحت الذقن في الأساس، ذلك الرجل الماكر والمراوغ والمخبول باستيلاء سلطة حكام الجوار وتبجيل أنجاله الذكور أي أوروغ، ولهذا الهدف أفنى كل حياته، وعلى أسوأ الفروض منذ عام ١٢١١، إنه لم ير في حياته سقوط نظام منافسه الأساسي الإمبراطور التسزيني، يبدو أن إمبراطور دولة سي سيا قتل بعد وفاته، لكن

خوارزمشاه محمد كان هديته الحقيقية، إننا لا نعرف هل أطفأ ظمأ حب السلطة، هنا يمكن الموافقة مع الرأي القائل إنه كان معتدلاً في شغفه، الذي كان يرى فيه عرقلة لبلوغ هدفه بنجاح، فإذا كان حسب ما يرون مولعاً ببعض الأشياء وبالأحرى «النساء والخمر» ولم يخرج عن ذلك، فهذا دليل إضافي على أنه يملك إرادة قوية، من المحتمل أنه لم يكن موفقاً في أبنائه، لذا عندما رحل عن هذا العالم كان قلقاً على مصير أبنائه وأنجاله الذكور؛ أي أوروغ، هكذا كان جنكيز خان الساحق لأعدائه والمسرف بالعطاء على أحبائه، والذي كان يرى سعادته في القضاء على خصمه الطريح وسلب شرفه.

يمكن الاعتراض على هذا الوصف، لكن هناك كتباً ومصادر أساسية، اثنان منها «التاريخ السري»؛ أي «السيرة المكنونة»، و «مجموعة المدونات التاريخية» لمؤلفه رشيد الدين، اللذان ترجما إلى اللغة الروسية، ويمكن للقارئ الاطلاع عليهما بنفسه واستنتاج ما يراه.



إن المهزومين . . . مذنبون بقدر

ليس أقل من المنتصرين»

ل . ن . غوميلوف

البحث عن الإمبراطور المزعومة

لم يكن بالمصادفة البحتة أن رشيد الدين العظيم في مؤلفه «مجموعة التدوينات التاريخية» قد صاحب كل مراحل حياة جنكيز خان «مدونات الحكام المعاصرين لجنكيز خان». إن مصادر انتصارات جنكيز خان لم تكن في موهبته كرجل دولة سياسي وقائد عسكري، أو في المهارة العسكرية لقواده أو المهن العسكرية لجنوده، إنما تكمن في الضعف الموضوعي لأعدائه، وفي ذلك الوضع السياسي الذي نشأ في آسيا في بداية القرن الثالث عشر، والأسباب هذه تكمن في نفسية المنتصرين والمهزومين، وفي تقبلهم للأحداث وتفاعلهم مع ذلك.

كانت اليابان بوجودها على الجزر خلال أوائل الثلث الأول من القرن الثامن عشر خارج إطار اللعبة، بعد ذلك بكثير قام المغول بمحاولات غير ناجحة للاستيلاء عليها، قامت كوريا بالاستسلام طواعية بعد غزوات المغول على متشجوريا في عام ١٢١٨ ومن ثم أعلن فان كوريو استقلاله عن جنكيز خان.

حدثت عند لحظة ميلاد جنكيز خان في شمال الصين تغيرات مهمة، في عام ١١١٥ قام التشجور تشجينيون بإعلان تأسيس دولتهم تسزين في متشجوريا الوسطى، قرابة العام ١١٢٥ قاموا بإبادة دولة لياو الكيدانية، في العام نفسه أي ١١٢٥ بدأ التشجور تشجينيون الهجوم على الصين، حيث حكمت أسرة سون،

وفي العام التالي استولوا على عاصمة سون مدينة بيانتسزين، ووقع في أسر التشجورتشجينيين اثنان من الأباطرة الصينيين، وتم ترحيلهم شمالاً إلى متشجوريا، في عام ١١٢٧، تم إعلان تنصيب أحد أعضاء الأسرة الإمبراطورية كإمبراطور صيني جديد (غاو تسزون، الأعوام ١١٢٧-١١٦٢) للدولة الصينية الجديدة، التي احتلت الجزء الجنوبي من الصين الحالية، التي سميت سون الجنوبية، وأصبحت خانتشجاو عاصمة لها، استمرت الحروب بين سون الجنوبية وتسزين حتى عام ١١٤١، وانتهت بتوقيع معاهدة السلام التي بموجبها بقي الجزء الشمالي من الصين تحت يد التشجورتشجينيين.

في ذلك العام حين تجمع في منغوليا الكوريلتاي الكبير وأعلن جنكيز خان كحاكم لمنغوليا كافة (العام ١٢٠٦)، هجمت جيوش سون الجنوبية على تسزين، استمرت الحرب ثلاث سنوات، وفي عام ١٢٠٨ عقد اتفاق السلام، عندما استعد جنكيز خان للهجوم على تسزين لم يكن على علم بهذه الأحداث، لقد كان على علم تام بأن إمبراطورية تسزين في حربها ضده لم تكن تتمتع بظهور آمن، وذلك لأن جارتها الجنوبية إمبراطورية سون الجنوبية كانت مشحونة بالعداء تجاه الجارة الشمالية.

وجدت الدولة التانغوتية سي سيا إلى الجنوب من منغوليا، تم الإخلال بعلاقات حسن الجوار ما بين دولتي التانغوت والتشجورتشجينيين، في آخر القرن الثاني عشر، وكما نعلم امتنع التشجورتشجينيين عن مد يد العون للتانغوت في أخرج الأوقات؛ أي خلال حصار عاصمتهم من قبل المغول، أدى هذا إلى تزايد العداوة، وانتهى بنشوب الحرب بين سي سيا وتسزين (عام ١٢١٤). ومن هذا العام ١٢١٤ امتنعت سون الجنوبية عن دفع الإتاوات لدولة تسزين، قررت سي سيا وسون الجنوبية توحيد جهودهما ضد التشجورتشجينيين، الذي بخلاف ذلك لا

يكادون يدرؤون ضربات المغول القاضية، تحول الصينيون في سون الجنوبية عام ١٢١٧ إلى الهجمات العسكرية المباشرة ضد تسزين التي استمرت حتى عام ١٢٢٤، هل من الجدير أن يذكر أن هذه الحرب كانت لفائدة موخالي، الذي حارب في شمال الصين؟ قامت سون الجنوبية وبعد موت جنكيز خان بإشعال الحرب مرة أخرى ضد تسزين، وحينها تمكن الصينيون بجهودهم المشتركة مع المغول من القضاء على الدولة التشجور تشجينية.

وهكذا كان الوضع السياسي في الثلث الأول من القرن الثالث عشر ملائماً تماماً لصالح المغول، لم يستطع التسزين وسون الجنوبية وكوريو أن يكونوا اتحاداً شاملاً ضد العدوان المغولي، وفي نهاية الأمر تم القضاء على الدول الثلاث الرائدة في شرق آسيا وإبادتها، كل واحدة منها على حدة.

إذا ما نظرنا إلى الغرب نجد هيمنة العداوة والتناحر مما أعطى المغول فرصة ملائمة، الأويغوريون والترك الكارلوكي استسلموا طواعية لجنكيز خان، وصاروا معاونين نشطاء في حروبه ضد دولة خوارزمشاه وكوتشوك، لأن خوارزمشاه كان يحارب دول الجوار، وبما أن كثيراً من أرجاء دولة خوارزمشاه نفسها انضمت لها قبل خمس أو خمس وعشرين سنة فقط قبل غزوة جنكيز خان، وذلك بقوة السلاح حسبما يأتي: خراسان في الثمانينات من القرن الثاني عشر، إيران الغربية في عام ١١٩٤، ما وراء النهر في عام ١٢١٠، أفغانستان ١٢١٥، كل هذا لم يؤد إلى شد عضد الدولة، لذلك واجهته في شمال دولة خوارزمشاه بشكل دائم الصدمات مع قبائل الترك الكيتشاكين الرحل.

عانت دولة الصينيين السود من مشكلات داخلية جسيمة، وتجرت كثيراً من الهزائم الخارجية من دولة خوارزمشاه، وتم الاستيلاء أخيراً على العرش من قبل النايان بقيادة كوتشوك، إن الترصد القاسي للمسلمين تسبب في انبعاث موجة

عارمة من عدم الرضى وأدى إلى انتصار المغول ومقتل كوتشوك واندثار تلك الدولة التي كان يرأسها، وقبلًا تم القضاء على دولة النايان في ألثاي على يد جنكيز خان، أما القييرغيزيون، الذين قاموا من قبل في القرن الثامن بإنشاء دولتهم (كاغانات) في وسط آسيا، وتحكموا بمنغوليا قبل أن يستتب الأمر لسلطة الكيدانيين عند مشارف القرن الثامن، هؤلاء القييرغيزيون كانت لديهم عدة همالك مفتتة في أعالي نهر ينيساي، ولم يشكلوا القوة المقدره لها الجادة للتصدي لجنكيز خان، كل المذكور إضافة إلى الغياب الطويل في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للسلطة القوية والمركزية في منغوليا ذاتها أدى لخلق حال سمحت لجنكيز خان بالتفوق وتوحيد منغوليا وتجميع كل القوى في قبضة واحدة والاعتاق خارج نطاقها.

قوة الجيش المغولي التي اصطدم بها شرق آسيا ووسطها كانت في داخلها نفسها وخارج نطاقها، اعتمدت قوتها على جهاز التنظيم العسكري المعهود لدى آسيا الوسطى، ولكن من المحتمل تم تحسينه من قبل جنكيز خان، كانت قوتها في صلابه المحارب المغولي الفارس بالميلاد وحصانه المدرب وقوة تحمله، في براعة استخدام الخيالة من قبل قادة الجيش وفي فهم التكتيكي، وفي جودة التأصيل بالعتاد الحربي قبل مغادرتهم إلى خارج حدود منغوليا، وفي استيعاب قواد الجيش المغولي لاستخدام التقنية الحربية لجيرانهم وقبل كل شيء المنجنيق.

حسب معلومات أبي الفرج، يجند الرجال في الجيش المغولي من عشرين سنة [عن مكونات ياسا العظيمة، ص ٥٤]. كتب تشجاو خون «يولد التتار ويشبون على السروج، يتعلمون القتال بأنفسهم، من الربيع حتى الشتاء كل يوم يركضون ويصطادون، هذه وسيلة للبقاء، ولذلك فليس لديهم مشاة ولكن كلهم خيالة» [التدوين الكامل، ص ٦٦-٦٧]، يؤكد جنكيز خان أهمية الصيد في اكتساب المهارات الحربية: «عندما لا تكون هناك حرب مع الأعداء، دعهم ينخرطون في

الصيد، تعليم الأبناء مطاردة الحيوانات البرية، حتى يتأقلموا مع القتال ويكتسبوا قوة التحمل، وبعدها ينقضون على العدو كما ينقضون على الحيوانات البرية غير مراعين لأنفسهم» [عن مكونات ياسا العظيمة، ص ٤٣]. حسب إفادات جويني المقاتلون المغول بالعشرات والمئات والآلاف في وقت السلم، يعملون في شؤون الدار «مثل المزارعين» [المصدر نفسه، ص ٤٧]، عند التجنيد للحرب يحضر المقاتل وحصانه وأسلحته ودروعه وطقم معداته المهمة عند الحرب، يتم التفتيش بشكل منتظم في تشكيلات العشرات أو المئات الذي يُفحص خلاله وجود الأسلحة والدروع وحالتها، حسب كلمات جويني «في يوم التفتيش يعرضون عتادهم، وإذا نقص ولو قليلاً فإن ذلك الشخص يصيبه ما يصيبه ويعاقب بشدة» [المصدر نفسه، ٢١].

إننا نجد هذه المنظومة بالضبط في مواد الحقوق التانغوتية للقرن الثاني عشر، كانت سيوف المغول خفيفة ورفيعة ومقومة، تصنع أخشاب السهام من الصفصاف، أما القوس والسروج فمن الخشب، لم يعرف المغول الصدر المزررة، وكانوا يجمعون أجسادهم بالدروع التقليدية لأواسط آسيا والصين، التي تصنع من شرائح جلدية أو معدنية وتربط بأحزمة، سميت الدروع التي تصنع من المواد الصلبة ومن أجزاء مربوطة بعضها ببعض بواسطة أحزمة «خوياغ»، وهناك نوع آخر يسمى «خاتانغو ديغيل»، هذه كانت عبارة عن قفطان من النسيج الناعم كاللباد، النسيج أو الجلد تزرر إلى بعضها، ويتخللها المعدن، يعلق الخوياغ على الجسم بواسطة حمالات تاركاً الكتف عارياً، أما الخاتانغو ديغيل فيحمي الكتف، وكانت لديه كنفيات مجسمة ومفصلة في أشكال كالجاروف، أما العنق فتحميه بإقات دفاعية من الجلد الناعم التي تخاط فيها شرائح معدنية، كان ذرع المحارب أو ما يسمى بالخاخا نسيج من أغصان الصفصاف بشكل مستدير، يبلغ قطره خمسين سنتيمتراً، الخوذة

عند المحاربين المغول كانت مخروطية الشكل ومبرشمة من عناصر مختلفة، وتغطي على طول مكان الخياطة بشرائح معدنية منتهية عند رأسها بشكل مخروطي أو نصف كروي أو مسطحة، والجبهة تغطي بشريحة مربعة أو مجسمة، والقفا يغطي بالكتفيات، وجدت في ذلك الزمان دروع للخيل [غوريليك، ص ٢٤٧-٢٥٩] كانت المعادن لدى المغول بكميات وافرة، وكانوا حدادين مهرة، ولذا فإن أسلحتهم وعتادهم الحربي كانت مضمونة الفعالية في القتال.

تمر الخيول الحربية بتدريب خاص، كما يخبرنا تشجاء خون: «الخيول . . . في العام الأول أو الثاني من ولادتها تروض بشكل مكثف في السهول وتعلم، ومن ثم تربي لمدة ثلاثة أعوام، وبعدها من جديد تروض . . . في خلال اليوم لا يطعمونها العشب، وخلال الليل فقط يطلقونها في المراعي . . . وعند مطلع الفجر يسرجونها وينطلقون بها . . . عندما يخرج التتار للغزو لدى كل فرد عدة خيول ويمتطونها بالتبادل مبدلين إياها كل يوم، ولذا فإن الخيول لا تجهد» [التدوين الكامل، ص ٦٨-٦٩].

كان يتوجب على القائد خلال زحف الجيش الاهتداء بأكثرهم ضعفاً، ووتيرة حركتهم هي الملزمة للبقية كافة، يعتقد جنكيز خان أن «اللائق بقيادة الجيش ذلك الذي يشعر بالعطش والجوع يماثل ذلك الإحساس مع الآخرين، ويمشي في الطريق واضعاً في اهتمامه ألا يسمح للمقاتلين بمعاملة الجوع والعطش، وذوات الأربع بالهزال» [عن مكونات ياسا العظيمة، ص ١٨].

بعد أن يخضع من الغنائم مستحقات الخان للخان، ينال كل مقاتل نصيبه، وقد كان هذا بحق حافزاً مهماً، ويدفع أياً كان للفوز به، وهذا لم يكن ممكناً إلا عن طريق هزيمة العدو، في الأثر التاريخي للقوانين المغولية في القرن الثالث عشر، الذي تم العثور عليه في كوريا منذ زمن ليس بالبعيد، يذكر بشكل مباشر أن كل ما

غنمه الجندي يؤول إليه «كل الغنائم الحربية التي يعثر عليها الجندي في أثناء الغزو مثل الأسرى والماشية والأغراض كلها تؤول لذلك الجندي فقط، ويمنع قائده من مصادرتها ولكن يصادرها عقاباً له أو إرهاباً» [سومياباتور، ص ٣٥٨].

تعفى الأسرة التي فقدت أحد أفرادها في ساحة الوغى من تجنيد أي من رجالها مدة عام، إذا مات عضو الأسرة المقاتل في الخدمة بسبب المرض فاستنفر عضو آخر من الأسرة يؤجل إلى نصف عام، يتعرض الهارب من الخدمة لعقوبة الإعدام التي تنفذ أمام المقاتلين.

أول فصيل للجنود الرماة الحجارة مكون من خمسمئة شخص، تم تأسيسها احتمالاً على يد المغولي أموخاي، حسب سيرته الذاتية الواردة في «يوان شي» قام جنكيز بسؤال أموخاي عن المخططات الممكنة لاحتلال المدن، رد أموخاي قائلاً: «عند الهجوم على مدينة من المفترض، وقبل كل شيء، أن يستعمل المنجنيق، عندما تتجمع قوة كافية منه يمكننا التقدم إلى الأمام». اغتبط الإمبراطور، وفي الحال أمر بأن يتولى قيادة فصيل رماة الحجارة (المنجنيقيين) قام بجمع خمسمائة شخص ودرّبهم» [يوان شي، الفصل ١٢٢، ص ٦٦، أ٧].

لقد كتبنا أن المبدأ المغولي في التعامل مع الجيران يتطلب منهم بخضوع دون تحفظات عند أول طلب «عند أول رفض من قبل العدو للأوامر أطلق ولو سهماً واحداً أو اقدف بحجر، وحسب نظام الدولة المعمول به فإن الجميع يقتلون بلا رحمة في الأحوال كافة» [المصدر الصيني، ص ٧٦]. فضل المغول بداية الحرب في الخريف عندما تكون الخيول قد اكتنزت شحماً، أما خطط الحرب المقبلة وأهدافها فتكون قد نوقشت وحددت في الربيع وفي أول الصيف.

يتم تناقل الأوامر عن استعدادات الجيش لبداية الغزو وبسرعة ووضوح وغالباً عن طريق الساعة، شفهاً دون أي أوامر مكتوبة.

لا يقل التقسيم أهمية عن المناورات والخطط الحربية في إدارة المعارك عند المغول، ومن ضمن ذلك ما كتبه الأوروبيون، كتب الراهب المجري الأخ يوليان معلومات تتحدث عن ١٢٣٥-١٢٣٧ ما معناه «أنبئكم في الحقيقة عن الحرب الآتي يقال إنهم يصيرون أهدافاً بعيدة أكثر من أي شعب آخر، عند أول اصطدام في القتال السهام، كما يقولون عندهم، لا تطير وإنما تنهمر كالطر، أما السيوف والحرايب - حسب الأقاويل - فإنهم يضربون بها بمهارة أقل، صفوفهم ينظمونها كالآتي: يتأس كل عشرة أشخاص واحد من التتار، وعلى كل مائة ما يسمى برأس المائة، إن هذا الترتيب وضع بذلك الدهاء بحيث إن الجواسيس الذين يتسللون لم يتمكنوا من الاختباء وسطهم . . . والأشخاص الذين جمعوا من الممالك كافة التي هزموها بالسن مختلفة وشعوب لا يتمكنون من ارتكاب أي خيانة. إنهم بلا تباطؤ يقتلون الأمراء والسادة الذين يوحون بالخطر لاحتمال أن يُبدوا أي مقاومة، المحاربون والسكان الذين يصلحون للقتال يسلحونهم ويرسلونهم قسراً في المقدمة، بقية السكان الذين هم أقل صلاحية للقتال يتركونهم لعزق الأرض، أما الزوجات والبنات وقريبات أولئك الأشخاص الذين أرسلوا للقتال أو قُتلوا فيقسمونهن على أولئك الذين أبقوهم لعزق الأرض، ويلزمون هؤلاء الناس من تلك الآونة فصاعداً بأن يتعمموا بالتتار، أما المحاربون الذين دفعوهم إلى القتال، حتى إن حاربوا بشكل جيد وانتصروا، فالمكافأة ليست بالجزيلة، فإذا ماتوا في القتال فليس هناك اهتمام كبير بهم، ولكن إن تراجعوا في أثناء القتال فلهم الموت تحت سيوف التتار، ويقاتلون بشجاعة أكثر حتى لا يعيشوا طويلاً ويموتوا بأسرع ما يمكن»، إنهم لا يهجمون في البداية على الحصون المنيعة، بل يجتاحون البلاد وينهبون الشعب، وبعد أن يجمعوا شعب تلك البلاد ويدفعونهم إلى ميدان القتال، ويحاصرون بهم قلاعهم، ومن الدول المهزومة كافة يدفعون إلى القتال أمامهم المقاتلين الذين لديهم القدرة على القتال» [أبناء الرهبان المجريين، ص ٨٧-٨٨].

جمع الأخ يولييان معلومات مؤكدة عن طريق إدارة المعارك والتخطيط للاستيلاء على الحصون والمدن، وفي ذلك كان جيش المغول عظيماً؛ لأنه تكون من عدة ألسن وشعوب، وقسم منه سار إلى القتال قسراً، لقد أوردنا سابقاً أن كل ما ذكر سابقاً، وبالتقريب الكلمة بالكلمة، تتكرر الأحداث عند تشجاو خون وجويني «من حدود تركستان حتى أقاصي سوريا . . . وبكل مكان حيثما وجد قيصر أو والي مدينة، قابله بغير ترحاب، أبادهم جميعاً مع أسرهم وورثتهم وأقاربهم وحتى الأعراب، وهكذا حيثما كان الشعب مائة ألف، وبدون مبالغة، لم يتبق منهم حتى المائة» [عن مكونات ياسا العظيمة، ص ٤١] في عام ١٢٣٣ وعند الاستيلاء على كايفينا، أعلن سويتاي «لقد قاومت هذه المدينة مدة طويلة وقد جرح عدد كبير من المحاربين أو قتل، ولذلك أود أن أبيدها عن آخرها» [المصدر الصيني، ص ٧٦] وهذه أصبحت قاعدة.



إن كان جنكيز خان مختار السماء ليفتح العالم وينقذ هذه الرسالة المخصصة من أعلى، أما الذي أوقع عليهم قوة جيوشه فعده عقاباً إلهياً ومخلوقاً مرسلًا إليهم كعقوبة من قبل هذه القوى السماوية، الاعتقاد بالخضوع لإرادة القوى العليا^(١) أو فيما يمكن أن تسميه «الحرفة الإلهية» التي أعطت البعض الثقة في النصر وحرمت الآخرين من إرادة المقاومة.

(١) يرى الباحث الصيني سون تسزيتشجين أن غزو جنكيز خان لشعوب شمال الصين يعد عقاباً بإرادة السماء، «إن بداية ازدهار الدولة يرجع في الأساس إلى جهة الشمال التي نال فيها ناي تسزو أي جنكيز خان أمراً عظيماً من السماء بالجلوس على العرش لحكمته وخير أفعاله، وتبجيل قام بمعاينة الشعوب بإرادة السماء، وأينما حل رأس فرسه لم تكن هناك دولة كان بمقدورها الوقوف أمامه» [المصدر الصيني، ص ٦٨].

حطم الإرهاب الجماعي معنويات الخصوم ، حكى لنا ابن الأثير بكل امتعاض عن حوادث عديدة وغير عادية عن تغلب الخوف عند ملاقاتة التتار المغول «على سبيل المثال يحكى أن أحداً منهم (أي التتار) عرج على قرية أو شارع حيث كان جمع كبير من الناس ، وقام بقتلهم جميعاً الواحد تلو الآخر بلا انقطاع ، ولم يجرؤ أحد أن يتعرض لهذا الفارس ، نقل إلي أن أحدهم قبض على شخص ما ، ولما لم يكن لديه ما يقتله به فقد أمره قائلاً: " ضع رأسك على الأرض " وذهب التتري وأحضر سيفاً وقتله به ، وحكى لي شخص أيضاً الآتي: " كنت مع سبعة عشر شخصاً آخرين في الطريق ، اقترب منا فارس من التتار ، وطلب منا أن يوثق كل منا الآخر ، قام رفاقي بالبده بما أمرهم بذلك ، عندها قلت لهم إنه وحده ، فلم لا تقتله ونهرب ، فردوا علي: إننا خائفون ، حينها قلت : إنه يود قتلكم الآن ، فمن الأفضل أن نقتله ، فمن المحتمل أن الله أراد لنا النجاة ، أقسم بالله لم يجرؤ أحد على القيام بذلك ، عندها أخذت السكين وقتلته وهربنا وكتبنا لنا النجاة " ، مثل هذه الأمثلة كثيرة» [ابن الأثير ، ص ٤٢].

سبق أن تحدثنا أن القسوة أصبحت سياسية ، عن هذا «في خلال وقت الحروب إنهم يقتلون الجميع ، حتى الذين يقعون في الأسر ، ما عدا أولئك الذين يودون الإبقاء عليهم كأرقاء» [الرحلات ، ص ٥٤] ، القرى هُجرت وفلاحو الأرض خرجوا عراة ، «إنهم يعملون سيوفهم في الجميع بغض النظر عن العمر أو الوضع أو النوع» ، «إن الأبحاث الأثرية وحدها التي تستطيع بحق وبشكل منقطع النظير أن تعطي تصوراً عن حجم المذبحة التي ارتكبت ضد الروس : عواصم الإمارات التي أقفرت ، آلاف المنازل التي حرقت ، هياكل النساء والأطفال الذين قطعت أوصالهم السيوف» [موقعة كوليكوف ، ص ٩]. سافر اسمبات اسبارايت في عام ١٢٤٧ إلى قاره كوروم ، وفي منطقة سمرقند سجل في التقرير عن السفر الآتي : «لقد شاهدت

عدة مدن خربها التتار، ولقد شاهدت بعضاً منها خلال ثلاثة أيام، الطريق وعرة جبال مدهشة، مكونة من أكوام عظام أولئك الذين قتلوهم» [المصادر الأرمنية، ص ٦٥]. كتب مؤلف أرمني آخر: «لقد كانوا بتلك الدرجة من القسوة، حتى لو أنني امتلكت تلك البراعة في البلاغة الجيدة لما استطعت أن أصف تلك المعاناة والمأساة التي أذاقوها للبشر في وادي المقاومة أو قمعت لوقت طويل مما أدى لظهور ذلك الخضوع العبودي، الذي كتب عنه ابن الأثير بكل تلك البلاغة الأدبية، أليس من الجلي والواضح أن الصورة كانت متشابهة في كل مكان في الصين وآسيا الوسطى وإيران والقوقاز وروسيا وشرق أوروبا.

ما عاد هناك نبع أو نهر
الذي لم تقض به دموعنا
ما عاد هناك سهل أو جبل
الذي لم تطأه أقدام التتار
أنفاسنا فقط تكاد لا تتصاعد
أما عقولنا وأحاسيسنا في دواخلنا قد مات
(فريك، الأعوام ١٢١٠-١٢٩٠)
[المصادر الأرمنية، ص ١٠-١١].

إن هذا بالضبط ما كان يرغب فيه الغزاة: أن تكون العقول والأحاسيس عند المقهورين ميتة، لقد سعوا إلى ذلك وحققوه، الشيء الذي ساعد في انتصاراتهم، كل هذا ساعد في صنع أسطورة أنه لا يوجد في هذا العالم جيش يمكن أن يقارن بجيش التتار.

أصبحت الخيانة الجماعية واحدة من نتائج الإرهاب بجانب الأسباب الأخرى حيث تحول الناس إلى الجانب الأقوى، وتقديم الخدمة المخلصة لصالح الذي كان

قبل مدة من الزمان عدواً، فأصبح ذلك جزءاً من التركيبة النفسية والأخلاقية لذلك العهد، فساعد حفنة غير ذات عدد كبير من المغول أن يقودوا خلفهم جيوشاً كاملة تتحرك في إطار مصالحهم، ويخضعوها ويرغموها على ذلك، هذه الجيوش التي تتكون من ممثلي الشعوب التي أخضعت واستسلمت، أولئك «الألسن والشعوب المختلفة» الذين خدموا بغير تفان أقل من أولئك النوكير المخلصين لجنكيز خان، الذين عبدوا له الطريق إلى النصر، نحن نرى سيلي تسيانبو التانغوتي على أسوار مدينته الأم، التي حوصرت من قبل المغول، وتمضي عشر سنوات وهو بكل اجتهاد يقبل على اقتحام مدن ريزان وكوزيلسك، وهذه وقائع من «يوان شي» [الفصل ١٢٢] وليست من تخيلنا المحض. بالنسبة لحاكم ريزان يفتاتي كولوفرات فإنه كان «تربياً محضاً» أما لدينا فلا، لقد كان من ضمن الجي التتري، صنع له النصر، منقذاً بذلك شخصه فقط، ومهملاً مصير شعبه ومعاناته الشيء الذي لم يعرفه آنذاك أن هذا الشعب محتوم عليه بالقضاء المبرم والاختفاء بشكل كامل كسلالة منفصلة.

يؤكد مؤلف السير الذاتية لسوبيتاي [«يوان شي» الفصل ١٢٠، ص ١٢-١٣] على المغول بعد أن وحدوا منغولياً أسسوا ألقبيات من الميركيت والنايمان والكيريت وجيرانهم الترك، والكانغال والكييتشاك، تنكر تسييسيلي الكيريتي لفان خان، وانتقل إلى خدمة جنكيز خان، كذلك أذعن ماتشا النايمني لإرادته، وعمل تحت إمرة جنكيز خان، الذي تقلد فيما بعد قيادة الجيش المغولي والصيني، خدم تحت إمرة جنكيز خان تشاوسي النايمني أيضاً الذي لم يكن من العامة، وإنما ابن حفيد تايان خان وحفيد كوتشلوك، استسلم كانغل خاشيبول (خاسبولات) للمغول وفيما بعد صار يرعى الماشية في حاشية إحدى الإمبراطورات.

انضم المسلم جعفر خوجه في عام ١٢٠٣، وانضم إلى جنكيز خان المسلم الآخر التاجر حسن، وقد شرب الماء من بحيرة بالتشجون، وأصبح أول

داروغاتشي من المغول، كما أصبح داروغاتشي الأويغوري تسيوبلي، الذي استسلم طواعية للمغول من قبل، خدم الأويغوريان المتعلمان مانسوسي وبولوخاي تحت إمرة جنكيز خان.

تخبرنا السيرة الذاتية لموخالي في مؤلف [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص ١-١٢] أن القادة الكيدانيين والصينيين والتشجور تشجينيين استسلموا في وقت الحرب مع تسزين، وأعطوهم جيشاً ومساحات لإدارتهم وأرسلوهم إلى الحرب ضد حكاهم السابقين، أصبح المغول منذ عام ١٢١٦ يأخذون أبناء قادة الجيوش وعظماء دولة تسزين. الذين يستسلمون في الحرس، وباختصار أصبح استنفار المهزومين لمواصلة الفتوحات قاعدة، في عام ١٢٣٥ وبعد وفاة جنكيز خان نوقش مشروع استخدام المسلمين لغزو جنوب الصين، والصينيين لغزو شرق أوروبا، قام يلوي تشوتساي - الذي يتمتع بنفوذ كبير في البلاط الإمبراطوري - بإقناع الخان بالعدول عن هذه الفكرة، محتجاً على ذلك باختلاف الطقس، ولكن قدم اقتراح يقضي بأن «من الأفضل لو أن هؤلاء والآخرين اشتركوا في الحملات التأديبية في بلادهم» [المصدر الصيني، ص ٧٨].

يشكل الصينيون جزءاً أساسياً من سكان إمبراطورية تسزين، ومنهم كذلك التشجور تشجينيون والكيدانيون والبرخايتسيون، كان الكيدانيون يحلمون ببعث دولتهم، الصينيون في أغلبيتهم العامة يميلون بالطبع إلى جانب سون الجنوبية، وكانوا يفكرون بإخلاء الغزاة التشجور تشجينيين، ولعل البوخاتسيون لم ينسوا أنه منذ مئتي عام مضت قد كانت لديهم دولتهم، التي أبادها الكيدانيون، ولذلك كان الوضع ملائماً جداً للمغول في غزوهم، كثيرون بل الكثيرون جداً في إمبراطورية تسزين كانوا لا مبالين بمصير الأسرة الحاكمة، لم يكن جنكيز خان يعاني من قلة المستظلمين، حتى قبل توحيدهم لمنغوليا انتقل إلى الخدمة تحت إمرته كل من الإخوة

يلوي وأخاي ويلوي توخا أبناء حاكم الدولة الكيدانية، لقد كانوا مبعوثين من قبل إمبراطور تسزين إلى فان خان الكيريتي، ولكنهم انتقلوا إلى الخدمة تحت إمرة جنكيز خان، وشربوا معه الماء من بحيرة بالتشجون، إنهم كانوا يعرفون جيداً الوضع في تسزين، وبخاصة المناطق الحدودية، في عام ١٢٠٨ قام أربعة من كبار الموظفين الصينيين التسزينيين مع عائلاتهم بالهرب إلى صف جنكيز خان، وأصبحوا مستشارين له، كان أحدهم لي تساو ذكياً، وهو الذي حرض جنكيز خان بشدة على الحرب ضد تسزين، والآخرون كانوا باي لون وأوفانتشان وتيان غوانمين، شغل كل من لي تساو وباي لون في عام ١٢٢١ منصبين عاليين في الإدارة المغولية، ليست الأسباب التي أرغمت هؤلاء الأشخاص على الانتقال واضحة (عدا رغبتهم في تأجيج المغول على تسزين). يفترض إيغور دي راخيفيلتس أن ثلاثة منهم أعدوا العدة لغزو المغول، ولكن الإمبراطور تشجان تسزون حسب أنهم يودون الالتحاق بالمغول، وحتى ينجوا من التحقيق والعقوبة لجأوا بالفعل إلى المغول [راخيفيلتس، الخاصة والشخصيات، ص ٩٦-٩٨].

شارك يلوي أخاي في الحملة الغربية، تقلد منصب مأمور مغولي في سمرقند، ومات وهو في ذلك المنصب، قبل بداية الحرب مع تسزين انتقل إلى جانب المغول يلوي نيار الكيداني، وإليه يؤول الفضل في رسم خطة الهجوم على تسزين المكونة من عشر نقاط، شغل يلوي نيار وظيفة الكاتب، الذي كان يعد منصباً مهماً، ينتمي الكاتب إلى الحراس، ولم يكن كاتباً فحسب، إنما كان سكرتيراً مستشاراً متخصصاً، يعادل موقع الكاتب حسب مقترح إيغور دي راخيفيلتس منصب الوزير [المصدر نفسه، ص ١٠٠-١٠٣].

جلبت الحرب معها موجة جديدة من المجموعات المتقلبة من جانب إلى آخر، وبعد عام ١٢١١ وتحديداً بفضل هؤلاء المتقلبين تمكن المغول من تعليم استعمال

آليات الحصار والاستيلاء على المدن ، حسب تقديرات إيغور دي راخيلفيتس ،
 الذي درس هذا الموضوع بشكل خاص ، وفي الإفادات التي بقيت عن خمسة
 وثلاثين من رجال دولة تسزين المبرزين ، الذين انتقلوا لخدمة المغول [المصدر نفسه ،
 ص ١٠٥] كان من بينهم اثنان وعشرون من الصينيين ، وتسعة من الكيدانيين ،
 وأربعة من التشجور تشجيينين ، وفي عام ١٢١٣ أمكن إنشاء أول جيش من السكان
 المحليين لدولة تسزين ، الذين حاربوا في صفوف المغول ، سمي هذا بالجيش
 الأسود ، وصار الصيني شي خوايدا أول قائده ، وبعد موته ناب عنه شي
 تيانسيان ، خدمت أسرة شي بكل إخلاص تحت إمرة جنكيز خان ورأسها شي
 بيتشجي انتقل إلى صف المغول في عام ١٢١٣ ، أما ابنه شي تيانبي فأصبح تيمنيكاً
 في عام ١٢١٤ ، ومنح الوشاح الذهبي من يد جنكيز خان ، وفي عام ١٢١٥ منح
 الوشاح الذهبي النمري ، ومنصب القائد العام للجيش غير المغولية في غرب
 خاباي ، أما شي تيانسيان نفسه فقد خدم حتى رتبة يوانشواي ، التي تعادل رتبة
 المشير ، ومنذ عام ١٢٢٠ أصبح الساعد الأيسر للقائد العام موخالي ، كان من ضمن
 عداد الصينيين في الجيش المغولي ، الذين حاربوا في تسزين ، ثلاثة تيمنيك هم
 جالار ولو خايما وشي تيانسزا ، بقيت سيرة فان تسزي حتى أيامنا من سيرة حياة
 الصينيين الملتحقين بالخدمة العسكرية لدى المغول ، وكان مستشار موخالي الصيني
 خاشي .

يذكر إيغور دي راخيلفيتس أربعة أسباب لانتقال مواطني دولة تسزين إلى
 جانب المغول ، هي : الإحساس بقرب نهاية دولة تسزين ، ونهوض أسرة حاكمة
 جديدة ، واستخدام المغول في الصراع ضد العدو القديم ؛ أي التشجور تشجيينين ،
 والسعي للحفاظ على حياتهم وحياة ذويهم ، وأخيراً الرغبة في اللحاق بأقاربهم ،
 الذين سقطوا في أيدي المغول [المصدر نفسه ، ص ١٠٦] . سأل شيمو يسيان

الكيداني والده أكثر من مرة عن أسباب انهيار دولة لياو، فأجابه والده قائلاً: «باستطاعتك أن تبعثها من جديد!» خضع شيمو إيسيان للمغول ونصحهم بالهجوم على العاصمة الشرقية التي تعدّ الأراضي الأصلية لتسزين في متشجوريا، قام موخالي بالاستيلاء على العاصمة الشرقية لتسزين بمساعدة الكيدانيين، حصل المغول نتيجة لذلك على مساحة من عدة آلاف لي، وجيش من مئات الآلاف، والكميات التي تم الاستيلاء عليها من العلف والعتاد والآليات الحربية حسب أقوال المصدر «تكومت جبالاً»، وفي الختام «ناح أهالي تسزين على أراضيهم الأصلية» [يوان شي، الفصل ١٥٠، ص ١ب].

في عام ١٢١٦ وقع في يد المغول يلوي تشوتساي المستشار الشهير والشخص الواسع العلم، الذي شجع على مواصلة التعليم خلال الخدمة، ذلك لأن النهار مكرس للخدمة والليل له، استقبل جنكيز يلوي تشوتساي وأجرى معه الحديث الآتي:

- إن لياو وتسزن أعداء أزليين، وقد أخذت بثأري من التشجور تشجينين نيابة عنك.

لكن يلوي تشوتساي لم يتفق مع جنكيز خان فقال:

- إن جدي ووالدي قد خدما بلاط تسزين كالمواطنين الأصليين، فهل يعقل أن أجرؤ على أن أكون مزدوج الشخصية، وأصبح عدواً للحاكم والأب؟ [المصدر الصيني، ص ٧٠].

فنتيجة لهذه المحادثة التقليدية - كما رأينا أنها كانت تقليدية أكثر من مرة -، قام جنكيز خان بتقليد يلوي تشوتساي مستشاراً في معيته، إذا تخير يلوي تشوتساي خدمة المغول أو موته الحتمي، فإن ذلك من روح أخلاق ذلك العصر فخدم جنكيز خان بتفان «كالأب والحاكم» الجديد، وكما ذكر هو لاحقاً خلال ثلاثين عام من

الخدمة «لم يدر ظهره للحاكم»، قدر جنكيز مستشاره حق تقدير، قال يوماً ما لأوغاداي: «لقد تفضلت السماء على ديارنا بهذا الرجل»، الفضل يرجع إلى يلوي تشوتساي، أو هكذا على الأقل تؤكد المصادر، في أن يمنع التصفية الجسدية الكاملة للصين الشمالية، كثير من المغول عدوا الصينيين عديمي الفائدة «لا ترجى منهم البتة أي فائدة، من الأفضل إبادتهم جميعاً»، قام يلوي تشونساي بإقناع الإمبراطور أنه من الأفضل إبقاء سكان شمال الصين على قيد الحياة، وعدم تحويل البلاد إلى مرعى، من الأنفع فرض ضرائب على السكان، والحصول على كثير من الفضة والمنسوجات الحريرية والغلال، وهو نفسه الذي أوحى للمغول بأن ما تحت السماء (الصين) يمكن الفوز بها من على ظهر الحصان، ولكن إدارتها من على ظهره غير ممكنة (انظر [المصدر الصيني، ص ٦٨-٨٠، ١٨٧]). إن المنحازين والأشخاص الذين أضحوا في خدمة المغول من التسزين وسي سيا جلبوا معهم الخبرة الفنية لإدارة الدولة، التي امتدت عدة قرون.

عرف من التانغوت الذين خدموا تحت إمرة المغول أيضاً فاتشجاتسزا، الذي عمل في إدارة تسجيل التاريخ في دولة سي سيا، وقد استسلم عند حصار سيليانا مع الشيوخ ورجال المدينة البارزين، بعد انهيار دولة سي سيا أصبح حاكماً لعاصمتها السابقة مدينة تشجونسين، وصار يعمل في إمدادات الجيش المغولي بالعلف والمواد الغذائية [يوان شي، الفصل ١٣٣، ص ١]. أصبح سياو نيو التانغوتي الصانع الماهر في صناعة الأقواس قائداً لمائة من صناع الأقواس في قاره قروم [المصدر نفسه، الفصل ١٣٤، ص ١٢].

برز في خلال الحرب في شمال الصين جيش تانماتش (خليط من القبائل) مكون من فصائل الكيدانيين والصينيين والتشجور تشجينيين، ومن ثم برز جيش من الصينيين، ابتداءً من عام ١٢١٩، ومنذ غزو جنكيز خان للغرب تم احتلال شمال

الصين بشكل أساسي وواسع أكثر فأكثر على أيدي الأجانب، وأساساً على أيدي الصينيين، من الممكن الاتفاق مع إيغور دي راخيفيلتس من أنه من المستبعد أن يقوم المغول وحدهم باحتلال المحافظات الشمالية لدولة تسزين والسيطرة عليها، بقي عدد المنحازين من الصينيين ثابتاً بشكل متصاعد من ثلاثة وعشرين من المرموقين منهم، بعد عام ١٢١٦ كان واحد منهم فقط كيدانياً واثنان وعشرون صينياً، وسط رؤساء ما يسمى بالإدارات المحلية المتنقلة التي تأسست، بعد عام ١٢١٦ كان مغولي واحد فقط وأيضاً أوغوري وتشجور تشجيني واحد، وواحد منحدر من آسيا الوسطى، وأربعة من الكيدانيين وتسعة من الصينيين، وإجمالاً شكل الصينيون ثمانين بالمائة في أجهزة إدارة المناطق المحتلة من دولة تسزين [راخيفيلتس، والخصوصية والشخصيات، ص ١١٨، ١١٩-١٢٠]. أصبحت سلطتهم وبشكل أساسي وراثية، وتساوت حقوقهم مع حقوق المغول، والأشخاص الذين كانوا تحت سيطرتهم عدواً أرقاء، احتفظ المغول للصينيين والكيدانيين الذين انحازوا إلى جانبهم بألقابهم التسنزنية، التي كانت غير ذات معنى للمغول، ولكنها تحمل معنى في أعين المواطنين المحليين، كان المنحازون البارزون حسب وضعهم الاجتماعي يتساوون مع النوكير.

كان للمنحازين وجود خلال الاستيلاء على آسيا الوسطى وإيران، بعد سقوط بخارى انحاز لجانب جنكيز خان كل من حاكم كوندوز علاء الدين وحاكم بلخ ماخ روي، كان بدر الدين من أبرز هؤلاء، وقد أعلن لجنكيز خان: «فليعلم الخان أن السلطان من أبغض خلق الله إلى نفسي، وذلك لأنه قتل الكثير من أقاربي»، يرجع الفضل إلى بدر الدين شخصياً باقتراحه على جنكيز خان بزرع المذابح بين الترك وغير الترك في دولة خوارزمشاه، قام بتعليم كتابة الرسائل المزورة بأسماء أقرباء تيركين خاتون والدة خوارزمشاه إلى جنكيز خان، التي ورد فيها: «نحن مع قبائلنا

وكل من لجأ إلينا، حضرنا من بلاد الترك إلى خوارزمشاه بغرض الخدمة لدى والدته، وقد ساعدنا ضد حكام الأرض كافة إلى أن استولى عليها، وإلى أن أخضعنا حكامها واستسلم مواطنوها، الآن تغيرت نواياه تجاه حقوق والدته، ويتصرف حيالها بشكل متعجرف من غير تقدير، ولهذا أمرت بتركة دون معونة، أما نحن ففي حالة انتظار حضورك حتى نتمثل لإرادتك ونذعن لرغباتك» [بونياتوف، ص ١٤١]، مثل هذه الرسائل أصبحت مبعثاً لعدم الثقة عند خوارزمشاه تجاه الترك من المحيطين بوالدته، وأرغمته على اتخاذ تدابير الخطة اللازمة لتبديد القوى التي كانت بيد الغزاة.

يؤكد الباحث الشاب ف. ف. تريافلوف من مدينة اسفيردولوفسك نظرة جنكيز خان الخاصة إلى الترك، إنه يفترض وجود خطط «التوحيد» و«الدعوة إلى الوحدة التركية المغولية»، كان ضم القييرغيزيين والألتايين والكيماكيين والأويغور والكارلوك من شرق تركستان إلى الإمبراطورية من ضمن خطط «التوحيد» التي أعدها بعد هزيمة كوتشوك، ومن ضمن الخطة «الإعلامية لتوحيد الترك والمغول» أدخل في عام ١٢١٨-١٢٢٣ الكانغليين والتركمانيين والكيبيتشاكين الذين هزمهم المغول، وانفصلوا عن خوارزمشاه إلى جيوش تحت إمرة المغول، وتساعدتهم في مواصلة الفتوحات [تريافلوف، ص ١٠-١١]. على الرغم من أن وجود «الخطط الخاصة» بإعادة بناء للأحداث من قبل ف. ف. تريافلوف إلا أنه كان صادقاً في الشيء الأساسي أن المغول بالفعل قد أبرزوا الترك وقاموا بتحويلهم إلى حلفاء لهم، كان للترك لاحقاً وخلال حكم أسرة يوان في الصين دور كبير في إدارة البلاد.

حسب إفادات النسوي ساعد خاباش من كاسيج المغول بصورة فعالة في خراسان، «عانى منه الناس مساوئ فظيعة»، لقد أرغم السكان المحليين والحكام على محاصرة المدن والاستيلاء عليها، والذين لم ينصاعوا «فقد أعمل فيهم السيف وأرسلهم في درب الموت» [النسوي، ص ٩٨].

ومن ثم كان على حق كل من أكد أن نجاحات الأسلحة المغولية ترجع إلى أولئك الذين انحازوا إلى جانبهم وخدموهم بإخلاص مهما كانت دوافعهم، الخيانة والاستسلام، عنوة أو طواعية، الخدمة بعد الوقوع في الأسر، أو بكل بساطة الانتقال طواعية لخدمة المغول، وبوعي كامل أملت عليهم الرغبة في انتزاع نصيبهم من الغنيمة والمجد، كان مثل هؤلاء الأشخاص كثيرين، وخلفهم قوة كبيرة، وقد عاضدوا بشكل نشط جنكيز خان في إحراز انتصاراته وهزيمة كل من قام جنكيز خان بغزوة.



الشخصية والحقبة التاريخية:

ليس دور الشخصية في التاريخ بالمسألة البسيطة، عندما تنتقل من المناقشات العامة إلى حقائق محددة خاصة، أين تكمن سنة التطور وبأي شكل، هل هي المصادفة كما حدث في تسلسل الأحداث، التي دفعت إلى مسرحها الكبير شخصية مثل جنكيز خان؟ على مدى ألف عام ونصف عام سادت ثم بادت الدول المترحلة في منطقة آسيا الوسطى مثل الغون والسيانبي والجوانجوان والترك والأويغور والقيرغيزيين والكيدانيين، حتى إن مغول جنكيز خان أنفسهم لا يغلقون هذه السلسلة، ذلك لأنه حدث بعث لدولة المغول بعد سقوط أسرة يوان الحاكمة على يد الأوريات، على خلفية الأحداث التاريخية التي حدثت في وسط آسيا كان ظهور الدولة المغولية، اتحاد المغول تسلسل طبيعي، كما هو بديهي ومنطقي الانهيار اللاحق والانحطاط، ذلك لأن كل هذا حدث أكثر من مرة قبل ذلك وبعده. بما أن اتحاد المغول في بداية القرن الثالث عشر شيء طبيعي فإنه من منطلق هذا التسلسل الطبيعي غير ذي بال من الذي يقوم بذلك جنكيز خان أو تشجاموخا أو فان خان.

لكننا نعلم أن الشعوب والأعراق تقوى وتضعف لذلك قيام المغول بتوحيد منغوليا ومن ثم آسيا، إلى حد ما يسوغه أن السلالة المغولية عند خروجهما إلى السهوب الفسيحة لخاكتي ومكتسحة من هناك الترك ومسؤولة على كل ما هو دون فائدة، كانت في حالة صعود، وليس من قبيل المصادفة أن المغول أنفسهم، الذين ذاقوا في بادئ الأمر الهزيمة، التي نتج عنها انهيار الأولوس خاماغ مغول، وحدوا البلاد التي تسمى حالياً منغوليا.

لكن لماذا تم هذا على يد جنكيز خان وبالأحرى تيموتشجين؟ إن تيموتشجين حسب انحداره من أسرة خان كان لديه الحق الكامن في السلطة، ولكن هذه الفعالية الكامنة كان من الممكن ألا تستغل، كما لدى الكثيرين من ممثلي سلالته الآخرين، عانى في مستقبل العمر من المطاردة والفقر، على الرغم من أن هذا لم يكن طبيعياً بالنسبة لأسرته، لعب دور تسلسل الأحداث غير الملائم، الذي ارتبط بالموت المفاجئ لإيسوغاي باتور، وكان من المحتمل أن يموت جنكيز خان أو يقضي بقية حياته في الأسر أو العبودية، كان من الممكن أن يكون في مكانه أي شخص آخر، لو لم تكن شخصيته وتأثيرها في أحداث تلك الحقبة، مقتل تيموتشجين أو بلوغه سن الرجولة هذا عامل مصادفة، إنما كون الزمن تطلب حيث عاش وترعرع ظهور شخصية مثله أو مشابهة له نداء الضرورة، لا يبدو لنا مطابقة تشاموخا كحامل قديم للكيدونة الأسرية القبلية مع جنكيز خان، الذي يمثل حملة التركيبة الجديدة غير مؤسس بشكل عميق، إنما نجد في المصادر تأكيد عدم تشابههم في الصفات الشخصية أكثر مما هو اختلاف في «برنامجهم»، كانت طموحاتهم متشابهة وتمثلت في القضاء على خصومهم وتوحيد المغول والأولوسات المجاورة تحت سلطتهم، وجدير بالذكر أنه من الخطأ القول إن المغول في القرن الثاني عشر عاشوا في مجتمع قبلي عشائري حتى وإن لم تكن على ذلك المستوى، الذي سبق أن أبرز تحت اسم الديمقراطية الحربية، هذه المشكلة يجب أن يواصل البحث فيها.

لقد تخطى تيموتشجين خصومه الحكام الحقيقيين لمنغوليا كافة في تلك الأعوام تشجاموخا وفان خان وتايان خان وتورغو تاي وكيريلتوخا، بفضل صفاته الشخصية، التي جعلها تروق لكل من شكل قوة حقيقية، ومن ثم أخضعهم لإرادته، وانتقلوا للخدمة تحت إمرته وتحقيق مشيئته، في هذه الحالة لعبت شخصية جنكيز خان الدور الفعال بغض النظر عن تقييمنا لها من منظور أيامنا الحالية.

من المحتمل أن الشيء الأساسي لم يكمن في أن تيموتشجين بكل صدق ومسؤولية أمن في الرسالة كمختار من قبل السماء، بل في أنه تمكن من الإيحاء بهذا الإيمان للآخرين، وهذا يعني أيضاً قناعتهم بضرورة (إن لم يكن في أحقية) أفعاله، لقد تمكن من تحقيق أول نجاح كبير، وذلك بالقضاء على الحروب الداخلية والخلافات ووحدة البلاد، ووجد من يجذب جيشه إلى خارج حدود البلاد، ويبدو أنه حدث في هذه الحالة تلك النادرة في توحد التاريخ والشخصية لأحد صناعه، التي شكلت جوهر الأحداث التاريخية كافة، يعد المثل الأفضل لحياة المحارب المترحل أن يجندل عدوه وينهيه، والاستيلاء على الغنائم وتقسيمها، وحيث يمكن الاستيلاء عليها من غير خطر التعرض للرد الحاسم أو الموت.

كان من الموضوعي والمنطقي أن الجيران الصينيين (يجب ألا يفهم معنى الصين في المعنى الحديث لحدودها الحالية المحددة تاريخياً لكل حقبة معينة) بالانتظام نفسه، كما أن الجيران من العالم المترحل عانوا من عهود الاتحاد والنشأة والقوة والضعف، من جانب وعلى الأراضي المجاورة للصين نفسها، وفي الحقبة السابقة مباشرة لظهور جنكيز خان سارت بلا انقطاع عملية ازدياد قدرة السلالات وظهور نظام دولتهم الأصيل، سواء أكانت هذه التبت أو الكاغانات الترك أو النانتشجاو على أراضي محافظة يونينان الحديثة، أو دولة الكيدانيين أو التانغوت أو التشنجوتشجينيين، ومن جانب آخر عانت الصين في نفسها من التوحد والتشتت

بشكل منتظم : حقبة القياصرة المحاربين في القرن الرابع والخامس قبل الميلاد؛
الانهيار من القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية القرن السادس الميلادي ، التوحد من
القرن السابع حتى بداية القرن العاشر الميلادي ، والانهيار حتى الاستيلاء المغولي
الكامل على الصين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، إن توحيد العالم
المتنقل لم يكن البتة مصاحباً لنشئت الصين ، ولكن بروز دويلات مترحلة قوية أدت
إلى انضمام بعض أجزاء البلاد إلى تكوينها .

نحن نملك كل الأسس التي يمكن من خلالها القول إن تفتت الصين وتوحيدها
قانون طبيعي ، قام جنكيز خان بتوحيد منغوليا ، وامتلك القوة في تلك اللحظة
عندما كانت الصين مجزأة إلى نصفين : شمالي وجنوبي ، الجزء الشمالي دخل قوام
دولة تسزين ، قسم من الصين خضع لدولة سي سيا التي أسسها التانغوت ، الموقف
في البلاد كان مهيباً تماماً لاحتلال جزء من البلاد (أو كلها) .

إن انعدام التوحد في البلاد والتدهور حسب رأي المؤلفين الصينيين كان سببه
الموقف السياسي ، الذي قاد جنكيز خان إلى انتصاراته [يوان شي ، ص ٢-٣] . لم
تكن تسزين أو سون الجنوبية في واقع الأمر في حالة تدهور ، كما هي الحال أيضاً في
دولة التانغوت ، وعملت دولة خوارزمشاه على الرغم من ضعفها على استعادة
قواها ، لم تخرج المصاعب التي برزت في هذه الدول عن الإطار الطبيعي أو حتى
اليومي ، ولم تصبح مصيرية بعد أن تعرضت هذه الدول لهجمات المغول ، من
المعلوم أن هذه الدول مأهولة بسلاسل عرقية مختلفة ، وبالأخص أن إحدى هذه
السلاسل كانت تحكم الأخرى الأضعف منها ، تفاقمت الخلافات العرقية في دولة
تسزين خلال الغزو المغولي وأدت إلى نتائج مأساوية .

من غير المستبعد (بكل بساطة نحن لا نملك إفادات المصادر) تفاقم الصدمات
العرقية في دولة سي سيا ، عاش في هذه الدولة خلال سيطرة التانغوت على أقل

تقدير ثلاث سلالات، هم الصينيون والأويغوريون والتبتيون، الأويغور وجزء من الصينيين والتبتين تم ضمهم إلى قوام دولة التانغوت عن طريق قوة السلاح، كانت دولة سي سيا، أو الصينيون السود أيضاً، متعددة الأعراق، تفاقمت في عهد سيطرة الغزاة الكيدانيين التناحرات الداخلية في هذه البلاد بفضل العداء على ضوء الخلافات الدينية (معظم الرعايا مسلمون، أما سائر الشعب والأسرة الحاكمة فبوذيون)، كانت التناحرات في دولة خوارزمشاه موجودة، حتى في البيت الحاكم فيما بين السلالات حملة اللغة الإيرانية واللغات التركية.

يجب مراعاة التركيبة النفسية لشعوب تلك الحقبة من الزمان، أكثرهم خدموا حكامهم أو الأسر الحاكمة بإخلاص وتفان، ولكن ليس شعوبهم أو أوطانهم، ليست الوطنية كما نستوعبها في الوقت الحالي المفهوم الأخلاقي الوحيد أو السائد على الإطلاق، وتعدّ خدمته مقبولة أخلاقياً كما في السابق، فبرغم ذلك لم تخامره فكرة إعادة بعث الدولة الكيدانية، من خطل القول نفي قوة العلاقات العرقية على الرغم من أن علاقات المحكوم والحاكم كانت أقوى بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية في أحوال ليست بالقليلة.

يرى العلم الصيني الحديث أن الصين كانت تمثل وحدة ثقافية جغرافياً سرمدية منذ القدم وبحدودها الحالية، وعند إعلان عدد من الدول بصورة أو أخرى داخل حدود دولة الصين الحالية ما هي إلا سلطات سياسية؛ أي دويلات كانت تتجزأ إليها أحياناً دولة الصين عند انهيارها، لذلك كتب المرحوم خان جولين في مقدمة مؤلف «تاريخ أسرة يوان»: «عند ازدهار المغول كانت الصين تنقسم إلى سبع أو ثمانية وحدات سياسية هي: سون الجنوبية وتسزين وسي سيا وسي لياو ودالي والتبت» [يوان تشاوشي، ص ٢]. لقد تم ذكر ست وحدات سياسية ويبقى اثنتان، وما لم يتم ذكرها يبدو أنها كوريا وفيتنام، ولكن ليس العبرة في ذلك.

لذلك لدى الصين في وقتنا الحاضر مفهوم الصين كوحدة ثقافية جغرافية متعددة الأعراق في إطار الهيمنة الثقافية الصينية (للوقت الماضي ليس سياسياً بالضرورة) وعند سيادة دولتهم لا تشكل له أي عقبة استيعاب احتلال بلاده من قبل المغول في القرن الثالث عشر، ليس كقيام «النير التتري المغولي»، وإنما «كتوحيد للبلاد»، لم استطاع المغول توحيد الصين قاضين بذلك على تناحر الخمسةة عام؟» يقدم هذا السؤال جان جولين، الذي لا يمكن أن يمر بخلدنا، ويقوم بنفسه بالإجابة عنه: «قوة الخيول» و «المهارة الصينية» أي «التقنية» والموهبة الشخصية لجنكيز خان، النمو غير المتوازن للقوميات (أي القوميات الصينية)، حيث إن المغول كانوا في حالة نهوض، أما سون وتسين فكانا في مرحلة انحطاط «المغول وحدوا الصين، وكان هذا في ذلك الظرف الموضوعي شيئاً طبيعياً» [المصدر نفسه، ص ٤]. لم يكن الاحتلال (الدموي) لتسين وسييا وسون الجنوبي وسي لياو ودالي إخضاع التبت، وإنما «توحيد البلاد».

هل فكر المعاصرون على ذلك النحو؟ من الواضح في الغرب لم يفكروا، لقد عدوا ظهور جنكيز خان عقاباً لهم بسبب ذنوبهم، وليس موحداً لهم إطلاقاً، في شرق آسيا، وبمفهومهم عن «أويكومون»: كما تحت السماء مع أفكار قديمة في توحيد ما تحت السماء تحت إمرة إمبراطور واحد، وهذه المزاجات كان من الممكن أن توجد، من الخطأ التفكير بأن هذا الاتجاه كان سائداً، وحمل ذلك الشكل النهائي الذي منحه المؤرخون الصينيون المعاصرون، خلال عشرين السنة الماضية مهتدين في ذلك بمزاج سياسي معين، ولكنه كان كامناً في شرق آسيا، وبشكل موضوعي ساعد جنكيز خان في «توحيد» ما تحت السماء، كتب خان جولين: «إمبراطور أسرة يوان كان من المغول، يقول بعض الذين لم يألوا جهداً في البحث عن الزمن، الذي جلس فيه على العرش الإمبراطوري الغالي للسهول الوسطى، إمبراطور من

الأقليات الوطنية، إنه كان زماناً مظلماً، إن هذا ليس بمدخل علمي، إن التوحيد تحت سلطة يوان أكمل حقبة خمسمئة عام من التناحر الوطني والحروب الداخلية، وسمح لكل من الوطنيات في البلاد بالعمل وتطوير ثرواتهم المادية والروحية في ظروف هادئة نسبياً، وهذا بلا شك يعدّ تقدماً تاريخياً» [المصدر نفسه، ص ٤].
أصبح التبت منذ حقبة يوان «جزءاً لا يتجزأ من الوطن» و«المغول كانوا قلة» ولذلك «فمن غير العلمي عدّ حكم أسرة يوان نقطة سوداء» [المصدر نفسه، ص ٥].

يصعب علينا استيعاب مثل هذا «التطور التاريخي» ما يعدّه البعض «توحيداً»، كان الآخرون وما زالوا يعدونه «النير التتري المغولي». تظهر خلاصة معظم التقييمات الصينية لنشاطات جنكيز خان في تحولاتهم، التي عبر عنها لوسين جيداً في زمانه: «في العشرين من العمر سمعت بأنه عندما قام "قيصرنا" جنكيز خان باحتلال أوروبا كان "عصرنا" الذهبي، وعندما صار عمري خمسة وعشرين عاماً أدركت أنه في الحقيقة في "عصرنا" الذهبي هذا سيطر المغول على الصين، وأصبحنا عبيداً» (انظر [تشولون دالاي، ص ٤]).

حاول علم التاريخ إعادة بناء الجذور الاقتصادية والاجتماعية لظاهرة جنكيز خان مرتكزين على أن ظهوره مرتبط بتطور المجتمع المغولي، ومن انتقاله إلى الإقطاع، أول من كتب بشكل أكثر وضوحاً الأكاديمي ب. ي. فلاديمير تسوف عن الإقطاع في المجتمع البدوي المغولي، كتب المؤرخون المغول والسوفييت لأعوام مديدة أن المغول قد انتقلوا إلى إقطاع متخطين الشكل العبودي في المجتمع، نقرأ في الكتيب المشهور «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية» - الذي يعدّ بمنزلة المقياس الدراسي للسوفييت والمغول - الآتي: «إن تأسيس الدولة المغولية قد رافقه تغيير النظام الاجتماعي القبلي بنظام اجتماعي جديد هو الإقطاعي» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص ١٣٣]. إن الإقطاعيين المغول امتلكوا قاعدة استغلالية

محدودة متمثلة في رمعي الماشية من جانب، و «الاحتياجات المتعاطمة» من جانب آخر، دفعوا الفلاحين إلى الغزوات، وقد عبر جنكيز خان عن «احتياجات النبلاء الإقطاعيين الرحل» [المصدر نفسه، ص ١٣٦-١٣٧]. كتب تشولون دالاي وناشره السوفيتي ب. ب. غوريفيتش عن جنكيز خان «كمعبر وقبل كل شيء عن احتياجات الإقطاعيين المغول» [تشولون دالاي، ص ٣]. يتحاشى المؤرخ الفرنسي المختص بشؤون المغول جاك ليغران تعبير «الإقطاع»، إنه يفضل استعمال مصطلح «الأرستقراطية»، إن الأرستقراطية رغبت في تثبيت سلطتها المستقرة والتوسيع العاجل لقاعدتها الاقتصادية الاجتماعية «وذلك للطبقة المتدنية ولقوى الإنتاج غير كاملة النمو للمجتمع المغولي في حد ذاته واقتصاده»، «وتحديداً على هذه الأرضية، التي تمثلت في الخصوصية السياسية لظهور المجتمع الطبقي عند المغول والحاجة الملحة للأرستقراطية الجديدة البروز بالشروع في تنفيذ سياستها التوسعية، هنا برز جوهر الشخصية الجنكيز خانية كنوع تاريخي جديد للتفرد» [ليغران، ص ١٦٥].

كتب بعض العلماء من غرب أوروبا عن تحول المجتمع المغولي إلى الإقطاع في أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر. منهم رالف فوكس الذي افترض أن اتحاد المغول «مرحلة لا مفر منها خلال عملية المجتمع الإقطاعي عند هذا الشعب الرعوي المحارب» [فوكس، ص ٢٤٩].

كان المجتمع المغولي في القرن الثاني عشر طبقياً، وبلا شك أنشأ جنكيز خان تدرجاً اجتماعياً للترقى (العسكري الإداري)، وثبت المنتجين في أماكن الإنتاج، من الجائز أنه لم يكن في ذلك أي شيء أساسي جديد بالنسبة لآسيا الوسطى وتاريخها الذي يربو على ألف عام، لكن يبدو أن هذا شيء مستجد للمجتمع والدولة المغولية. إن إطلاق تسمية الإقطاعيين أو نبلاء السهول على أتباع جنكيز خان من النويون المغول، النوكير وقادة الجيش، إلى حد معلوم عرفياً يعد شيئاً في

محاولة لإعطاء هذه الطبقة من المجتمع تصنيفاً أوروبياً، إن هذا مدعاة بروز أسئلة جمّة، ومن ضمنها عادة يؤدي النظام الإقطاعي في المجتمع إلى تميزه وبرز ظاهرة «التناثر الإقطاعي» لكن لماذا بالنسبة لمنغوليا حيث قام بتوحيدها؟ لا نود التكهن عما إذا كان في واقع الأمر إعطاء تقييم محدد مقنع وعلمي صعباً.

من المعروف جيداً لا توجد تقييمات موحدة في العلوم العالمية عن جنكيز خان ودوره في التاريخ، الاهتمام بشخصيته وتقييمها مرتبط في الغالب بالحالة السياسية لتلك الأيام والسنين، وعندما يقوم الكتاب فجأة بالكتابة فإنهم مجدداً يبعثون من العدم شكل ذلك الغازي الرهيب، لحقبة زمنية طويلة كان جنكيز خان يستوعب كحاكم، تغلبت عليه الروح الشريرة، يوجه وحوشه الناهبة نحو جيرانه من الشعوب، كتب روبروك: «وبالطبع لو سمحوا لي لقت، وبقدر ما سمحت لي قواي في كل أنحاء العالم، بالتبشير بالحرب ضدهم» [الرحلات، ص ١٣٧]. أكد المؤرخ الفرنسي الشهير في القرن الثامن عشر ج. دي غين أن المغول لا يمكن أن يكونوا شعباً متحضراً، ولم يسعوا إلى نشر الحكمة الكافية في قوانينهم، لقد كان هؤلاء متوحشين، توجهوا إلى الدول المجاورة من أجل الاستيلاء على ثرواتها وتحويل الشعوب المقهورة إلى أرقاء وإعادة المتهورين منهم إلى الهمجية، وأصبح ذكر اسمهم كافياً لبث الذعر في قلوب الجميع، فسر داوسون المؤرخ المشهور بشؤون المغول كل هذه الأحداث بحب الرفعة لدى زعماء المغول والإرادة الشريرة لجنكيز خان، والرغبة المتعطشة وغير المنضبطة لدى «الجماعات الرحل المشحونين بالفظاظة والقسوة» للنهب والاحتلال (انظر [غولمان، ص ٤٠-٤٢]). من الممكن ملاحظة أنه في هذه الحقبة من الزمن انصب اهتمام خاص، ليس على شخصية جنكيز خان في ذاته، إنما على الفتوحات المغولية وطابعها المعن في السلب والنهب.

بدأ المؤلفون منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر في إبداء اهتمام أكثر بشكل مباشر بجنكيز خان «عندما ورث جنكيز خان في الثالثة عشرة من عمره عرش أبيه فقد ورث قطعة فقط من مساحة غير مضافة على نهر أونون لشخص يملك تلك الطبيعة الحربية، لم يكن من السهل عليه الاقتناع بهذه الإمبراطورية الصغيرة إلى ذلك الحد، وأخذ بطاقة بلا حدود في توسيع مملكته حتى بلغت ذلك الحد. حينما وصلت تلك اللحظة، حيث لم ير جيشه المنتصر من شواطئ بحر سين حتى ضفاف نهر دنيبر» [دوغلاس، ص ٥]، «لقد وضع هدفاً أمام الناس الذين كانوا تحت إمرته . . . وهب كل حياته لهذا الهدف . . . جنكيز خان العظيم جعل ذويه العديدين وأتباعه قادرين على الهيمنة ليس على الإمبراطورية السهوية فحسب، ولكن على الدول المتحضرة التي تم احتلالها من شرق وغرب آسيا» [كراوزي، ص ٣-٤] كتب لامب: «منذ سبعمئة عام اغتصب هذا الشخص الكرة الأرضية، لقد أصبح مالكا نصف العالم المعروف آنذاك، وبث في البشرية الإحساس بالخوف، الذي دام فيهم أجيالاً»، «لقد كان جنكيز خان فاتحاً في حجم أكبر من رجال الدولة الأوروبيين المعروفين». يكمن سر جنكيز خان في «بدائية بساطة الروح المغولية»، «لقد أخذ من العالم ما كان يريد لأبنائه وشعبه، لقد حقق ذلك عن طريق الحرب؛ لأنه لم يعرف وسائل سواها، فإذا كان قد دمر فإنه لم يرغب في ذلك، ولكنه لم يدر ماذا سيفعل بذلك»، لكن من المحتمل أن يبرز في كلمات لامب فكرة مثل هذه: «إن جنكيز خان مدمر كسر حواجز قرون الظلام، لقد فتح الطرق، دخلت أوروبا في اتصال مع الصين» [لامب، ص ١٣، ١٦، ٢١٠، ٢١١] عن الفكرة الأخيرة يجدر الحديث عنها بشكل خاص فيما يأتي:

تساهم ألمانيا الهتلرية في إلقاء بعض الضوء على تقييم جنكيز خان، كتب جورج مونتادون مترجماً كتاب إ. بار كهاوزن إلى اللغة الفرنسية «إمبراطورية

جنگیز خان الفتية، قائلاً في المقدمة: «يلعب المغول للجنس المغولي العظيم الدور نفسه الذي يقوم به الشقر للجنس الأوروبي»، جنگیز خان «حمل في داخله عوامل التشقر» على الرغم من أنه «لا يمكن القول إن هذه العوامل هي التي أصبحت عوامل قوته الشخصية». يصف بار كهاوزن نفسه جنگیز خان بأنه «شخصية خارقة تجسد السلالة والرعي المتنقل»، «اتحدت في داخله - وتحديداً لآخر مرة في التاريخ - كل طاقة صفاء بدواة الوسط الآسيوية، التي بلغت فائق حدود العظمة وغيرت وجه العالم» [بار كهاون، ص ۸-۱۶].

يتحدث ر. فوكس بشكل مفصل جداً لتحليل شخصية جنگیز خان ونتائج غزواته: «التاريخ لا يعرف موازياً لهذه الأعوام العشرين لاحتلال العالم من قبل البدو الرحل الأميين»، توحيدهم لمنغولياً «كمرحلة لا بد منها في عملية تطور الإقطاع». الاتصال مع الحضارات الآسيوية العظيمة «حاجة الحياة الاقتصادية»، لكن «هب أن الصين دولة قوية ومتحدة وذات اقتصاد ثابت لم يستطع أي جنگیز خان كائناً ما كان أن يستولي عليها، حتى ولو بفضل موهبته العسكرية الفذة التي تضاهي الآلهة»، الشيء نفسه ينطبق على آسيا الوسطى وإيران، يقصد ر. فوكس بمفهوم آسيا الوسطى، وسط آسيا، «لو لم يكن هذان المجتمعان العظيمان: الصيني من جانب، والترك الإيرانية من جانب آخر، منهارين انهياراً كاملاً، لبقى تيموتشجين تيموتشجين الذي لا يدري عن العالم ما خلف سهول وطنه».

يقف ر. فوكس ضد تقييم جنگیز خان كمغتصب دموي فقط، فإذا نظرنا إلى الأمر كذلك فإن «... النصب التذكري الحقيقي للشعب المغولي هو البرج المشهور من الجماجم من لوحة الفنان فيريشاغين، نعم... برج من الجماجم لا يمكن تجاهله، البرج أساس طبيعي، إنما هذا ليس الحقيقة كاملة»، النتيجة لم تكن «سلبية بالكامل» كانت مسوغات ر. فوكس هكذا: قام جنگیز خان بإبطاء الانهيار في

المجتمعات الآسيوية ، حدث بعد الفتوحات نهضة للحضارة في يوان الصينية وبلاد فارس ؛ أثبت المغول جدارتهم في الواقع العملي ، ذلك أنهم كانوا أيضاً منظمين بارعين كما هم ، كمحاربين (البريد ، النظام في الجيش ، تشجيع التجارة ، تهدئة الحدود) . وأخيراً أدخلت فتوحات جنكيز خان «تغييرات كبيرة في العلاقات ما بين آسيا وأوروبا» ، «الشرق والغرب دخلا في اتصال مباشر» ، «تم تأسيس العوامل الحقيقية للسوق والتجارة العالميتين» ، «فتح تيموتشجين ثروات آسيا أمام العالم الغربي» ، «وبذلك جعل الأمر ممكناً لولادة الإنسان الجديد» ، وأخيراً فإنه «جدد وحدة الصين» ، (يبدو أن هذا هو المصدر الذي جاءت منه أفكار خان جولين وغيره من المؤرخين الصينيين ، الذين شاطروا رأي ر . فوكس) . يختمهم ر . فوكس استنتاجاته قائلاً إن «اسم جنكيز خان من أكثر الأسماء المعروفة لعامة الناس الذين يؤكدون أنهم يمتلكون أحكاماً أفضل من أحكام معظم المؤرخين» (انظر [فوكس ، ص ٢٤٤-٢٦١]) .

إن رينيه غروسيه الذي جمع في أعماله أكثر المواد اكتمالاً ، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه تحاشى الأحكام ، جنكيز خان في رأيه «هو أكبر العظماء وأشهر فاتحي الشرق» ، إنه الشخص الذي «في حدود إطار حياته . . . أبرز ميلاً فطرياً للنظام والإدارة الجيدة» [غروسيه ، ص ٤ ، ٣١١] «القتل قد ينسى . . . أما الحفاظ على النظام من قبل رجال الخان والنظام المكتبي الأويغوري فقد بقيا ، هذا العمل بعد الهدم الذي حدث في البداية أثبتت فعاليته في نهاية الأمر للحضارة . . . وبتوحيده للشعوب التركية والمغولية كافة في إمبراطورية واحدة ، ومرسياً نظاماً حديدياً من بكين إلى بحر قزوين ، إن جنكيز خان قد أخدم الحروب الخالدة لبعض القبائل ضد الأخريات ، وأعطى أماناً لم يسبق له نظير للقوافل» [غروسيه ، ص ٣١٦] .

يفترض ب . راتشيفسكي أن النقاش حول ما إذا كانت «أفعال جنكيز إيجابية أم سلبية» غير ذات جدوى ، حيث إنه لم يكن أول من أطلق العنان لتطلعات البدو

التوسعية»، «ولم يكن مبتكر فكرة الحاكمية الملكية الشاملة»، لقد كان نموذجاً فقط مناسباً هذه القوى، «لم تكن انتصارات جنكيز خان المحاولات الأولى ولا الأخيرة لرحل آسيا الوسطى؛ لتثبيت سيادتهم على الشعوب المتحضرة» [راتشنيفسكي، ص ١٨٤].

لقد أوردنا كثيراً من الأحكام التي تزدان بها الكتابات عن جنكيز خان، تسترعي انتباه القارئ إلى نقطتين، وقبل كل شيء على التوسع «الفطري» عند الرحل، هذه حجة مهمة، تأكيداً لها يرى في طريقة الإنتاج البدوي ذاتها في الحاجة الاقتصادية انعدام التجارة العادية، التي تدفع بالرعاة الرحل إلى التبادل عن طريق القوة بنهب الجيران المستقرين، و «الزعة الحربية» المتزايدة لدى الرعاة الرحل المتولدة نتيجة غمط عيشتهم، حول هذا السؤال لا يزال العلم لا يملك وضوحاً كاملاً، لكن لو ألقينا نظرة على الطريق الذي سلكته البشرية لا يمكن أن نؤكد أن الرعاة الرحل كانوا أكثر وحشية دائماً وفتاحين أقل مهارة من الشعوب المتحضرة، إذا ما ألقينا نظرة مثلاً على علاقة الحضارات المستقرة للصين الحديثة مع الرعاة الرحل لآسيا الوسطى، فمن الممكن ملاحظة أن الصينيين أخذوا في التضييق تدريجياً على الرحل وإزاحتهم إلى داخل آسيا ببطء، ولكن باطراد دافعين بحدودهم وأماكن هيمنة سلالتهم إلى الشمال، ليس من المصادفة بتاتاً أن يرى المؤرخون المعاصرون الوجه الإيجابي في أفعال جنكيز خان في أنه سدّد ضربة «للسياسة الاستيلائية للأباطرة الصينيين ورجالات دولتهم، الذين سعوا بصورة مستمرة لاضطهاد الشعوب الرحل، و المغول» [تشولونون دالاي، ص ٣].

وأخيراً نذكر مرة أخرى شيئاً مهماً جداً، لم يكن ر. غروسية على حق عندما قال: إن القتل قد ينسى والأبراج من الجماجم لا تنسى، إن البشرية تذكر جنكيز خان ليس كحاكم وفر تجارة مأمونة بالكامل بين الشرق والغرب (بالمناسبة إن هذه

هذه الفرضية لم يقدّم العلم على تأكيدها عن طريق أبحاث محددة)، ولكن قبل كل شيء كفاتح دموي، مهما كان المجد وضيعاً فإن هؤلاء «العظماء» وبكل أسف لا يخسرون؛ لأنهم يظلون في الذاكرة، إن البشرية لا تستطيع أن تتجاهل الثمن الذي دفعته مقابل الطريق، من آسيا إلى أوروبا والعكس، الذي عبده المغول، إن لدى المؤرخين دائماً الحق في القول: «ماذا لو أن . . .» لو أن منغولياتم توحيدها ليس على يد تيموتشجين بل على يد تشجاموخا أو فان خان أو تايان خان أو شخص آخر من «الخانات المغول بالفطرة»؟ هل كان هذا الاتحاد انتهى بالتوسع الخارجي أم لا؟ هل كان ولع جنكيز خان وتعطشه للغزو من متطلبات العصر أم من ملامح شخصيته؟ هب أن بعض صفات شخصية جنكيز خان كانت انعكاساً لخصائص ذلك المجتمع الذي عاش فيه، إن معيار قسوته يرجع لصفاته الشخصية لا غير، وإن كان في مكانه شخص آخر فحجم الدم المهرق يقل، ودفعت البشرية ثمناً أقل لهذا «النعيم»، الذي يربطونه باسم الغاصب، لا يمكن أن تفكر البشرية بشمن تلك الأحداث التاريخية، ولذلك فإنها بشكل أو بآخر قدمت وما زالت تقدم كشف الحساب للجنكيز خانات كافة، مهما وضعوا أمامهم من أهداف.

أما جنكيز خان فلم يبحث لنفسه عن مسوغات، إن أ. بورشاغوفسكي، الذي كتب التعقيب لإحدى طبعات كتاب ي. كالاشنيكوف «القرن القاسي» وعلى هدى الراحل المغولي الأكاديمي رينتشين، الذي جرت بينهم محادثة عن جنكيز خان، يفترض أمام هذا الأخير أنه «قد انفتحت بشاعة عدم جدوى حياته الشخصية وعدم حيلته في الانتصار على الموت، الذي هو أمامه أكثر بؤساً من راع فقير وقنوع»، إنه يفترض أن الهدم لم يلحق بممتلكات الشعوب المجاورة، إنما قبل كل ذلك قد تحطمت شخصية جنكيز خان في ذاته [كالاشنيكوف، ص ٧٤٦-٧٦٧] «الإعدام الأخلاقي» الذي أصدره أ. بورشاغوفسكي بحق جنكيز خان، الذي من الصعب

ملاحظته في رواية ي . كالاشنيكوف ، وفي موعظة ريبتشين ، اللذين على هديهما سار أ . بورشاغوفسكي فإننا نجد اختلافاً تاريخياً لا نجد له أدنى تأكيد في كل ما نعرفه عن جنكيز خان ، لم يكن لدى جنكيز خان أدنى إحساس بالندم عما ارتكبه من أفعال ، إنما كان واثقاً من أن كل ما آمن به كان مبعثه السماء ، ولم يتراجع في أفعاله حتى الساعة الأخيرة من حياته .

لكن لا يجوز أن نفترض - كما فعل ف . تشيفيلين - أن تيموتشجين جنكيز خان «إنسان بلا أخلاق» [تشيفيلين ، ص ١٧٥] ، لقد كان ملتزماً بأخلاقيات مجتمعه الذي عاش فيه ، أخلاقيات «الحنانات الفرطيين» ، الذين انتمى إليهم ، وجدت طريقها وسط هذه المبادئ (على سبيل المثال الإخلاص للواجب) التي لا تبعث على الانتقاد حتى الآن .

ينطلق علم التاريخ المغولي والسوفيتي الحديث من أن «الدور التاريخي لجنكيز خان لا يجوز أن نقيمه بشكل أحادي المعنى ، لقد كان تقدماً في ذلك المضمون ، الذي يواكب التاريخ الموضوعي لعملية تكتل القومية المغولية ، وتكوين الدولة المغولية الإقطاعية الموحدة ، عندما بدأ جنكيز خان السير بالفعل في طريق غزواته الحربية المسيطرة اكتسب نشاطه طابعاً رجعياً» . أضحت هذه الحروب قائمة حتى لمنغوليا في ذاتها «لقد ساعدت على تفرقة القومية المغولية في ذاتها ، أنهكت المصادر البشرية لمنغوليا ، وتسببت في الانهيار الطويل لها اقتصادياً وسياسياً وثقافياً في القرون المقبلة» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية ، ص ١٣٦-١٣٧] كتب ب . راتشيفسكي : ضاعت «مجهودات جنكيز خان هباء ، وأصبحت منغوليا منذ بداية عهده مغولية ، ولكن المغول أنفسهم لم يصيروا مغولاً كالسابق في عهد جنكيز خان» [راتشيفسكي ، ص ١٨٤-١٨٥] .

نعم، وجد جنكيز خان بالفعل القبائل التتارية المغولية التي كانت ممزقة ويعادي بعضها بعضاً، مكوناً منهم دولة مغولية موحدة، لكن لا يتوجب في هذه الحالة أن ننسى أي ثمن تم دفعه مقابل بلوغ هذه الوحدة، خير مثال لذلك مصير التتار، إن دولة جنكيز خان التي كبرت على الحروب الدامية توسعت نتيجة ذلك حتى صار حجمها كبيراً عملاقة، لم تعد إلا بالقليل من النفع على الدولة المغولية في ذاتها، في كتاب مغولي ينسبه بعض الباحثين إلى القرن الثامن عشر «أسطورة عن أرغاسون خوروتشي» فإن الرسول الذي أتى من منغوليا إلى جنكيز خان، الذي كان يحارب في الأراضي الشرقية البعيدة، أجاب عن سؤال هذا الأخير «كيف حال زوجتي وأبنائي وشعبي؟» منشداً:

زوجتك وأبناؤك في تمام الصحة!

لكنك لا تعلم كيف يعيش شعبك!

زوجتك وأبناؤك في تمام الصحة

لكنك لا تدري كيف حال شعبك العظيم

يأكلون الجلود ولحاء الأشجار قدر ما يحصلون

بأفواههم الممزقة

لا تدري ما حال شعبك العظيم!

يعبون الماء والجليد بأفواههم العطشى

حال مغولك وعاداتهم ما عدت تدري

[شاستينا، شخصية جنكيز خان، ص ٤٤١]

لم تجلب الحروب الغنائم فقط، ولكن جلبت مصائب ليست بالقليلة للمغول، تنبئنا المصادر عن تمزق الأسر، الرعاية الرحل بلا خيول، وعن بيع المغول كرقيق، البؤس الذي حل بالفلاحين الرعاة، تؤكد «تلك الحقيقة أن الغزاة المضطهدين

للشعوب الغربية لم يكونوا مغولاً بناتاً، إنما من النويون فقط» [مونكوييف، ص ٣٨٥] كان دفع ضريبة الدم قاسياً، أرسلت أفضل القوى البشرية إلى خارج حدود البلاد إلى الحروب وبقيت هناك، إما أنهم سقطوا في ساحات الوغى، وإما أنهم استقروا في الأراضي المغتصبة، ملأت حروب جنكيز خان منغوليا بطوفان من متطلبات الرفاهية المنهوبة والحرفيين الأسرى، الذين كانوا ينتجون الأسلحة بشكل أساسي، متطلبات الرفاهية هذه نفسها، ولكنهم لم يقدموا (ولا ينبغي لهم أن يقدموا!) أي قدر من التغيير الملموس في أساس اقتصاد المغول، وهو الرعي، ليس من المستغرب، وبالتقريب عبر مائة عام بعد نهاية الحروب، أن الشعوب المضطهدة تحررت من نير التتار المغول، ووجد الفلاحون الرعاة المغول أنفسهم يعيشون في تلك الظروف نفسها، التي كانت في نهاية القرن الثالث عشر، تراثهم من جنكيز خان ذكرى غزواته فقط، ومجده المبني على الدماء، رغباً عن ذلك لم لا ينعث المغول جنكيز خان برجل دولتهم المبرز الفذ؟ أما سكان آسيا الوسطى وإيران والقوقاز وروسيا لم لا يعدونه مغتصباً دمويّاً؟ وحتى الصينيون لم لا يكتبون عنه «كموحد للصين» ورجل دولة بارز المخلد اسمه في تاريخهم الصيني؟

كما علمتنا الحياة من غير الممكن رسم شخصية رجل دولة في مثل حجم جنكيز خان بشكل قاتم فقط، أو رسمه بألوان فاقعة، إن فظائعه التي ارتكبها كانت جسيمة وعبقرية، مثله في ذلك مثل اسكندر الأكبر (المقدوني) قائد حربي عبقرى استراتيجياً وتكتيكياً، ومنظم بارز للانتصارات، وهو الذي وأد الحرية والديمقراطية الإغريقية، شجاع ومحارب لا يقهر، فارس لا يعرف الخوف وبلا نقائص، وفي الوقت نفسه إنسان متهم بقتل أبيه، سفاح دموي، لا يتوانى عن التعذيب والاعتداء والقصاص القاسي في حق شعوب وبلاد ومدن بأكلمها (انظر [شيفمان]).

هكذا كان جنكيز خان . إن عدداً ليس بالقليل من الكتب ستكتب عنه سواء
أكانت علمية أم علمية اجتماعية أم روايات ، كما سيتم عمل أفلام سينمائية ، وفي
كل مرة سيقف العلماء والأدباء وكتاب الحوارات أمام معضلة كيفية تقييم
تيموتشجين جنكيز خان ، وسيقومون بجلها انطلاقاً من انتماءاتهم القومية وحبهم
التاريخية وطبائعهم وتعاطفهم معه وكرهيتهم له . قد يكون ليو تولستوي محقاً في
أنه لا توجد هناك عظمة حيث لا يوجد الخير أو الحق ، ويا لبعد الناس ليس عن
الفهم الواحد لمعنى الخير فقط بل الحق . غالباً عند الاصطدام بهذه الأحداث نفسها
يعظم البعض صانعها والآخرين يشكلون ضحاياها ، لكن كليهما محق في ذلك .



- ابن الأثير : مجموعة المؤلفات المكرسة لدراسة تاريخ المعية الذهبية، المجلد الأول، سان بطرسبورغ، ١٩٨٤ .
- التاريخ السري، انظر «السيرة المكنونة» .
- ألتان تويتشي، أي «السيرة المكنونة» ترجمة ن. ب. شاستينا، موسكو، ١٩٧٣ .
- السيرة المكنونة، التسلسل التاريخي المغولي في عام ١٢٤٠، المجلد الأول، موسكو، لينينغراد، ١٩٤١ .
- السيرة المغولية القديمة عن جنكيز خان، ترجمة وتعليق وملاحظات أرخممانديت، مؤلفات المبشرين الروس في بكين، المجلد الرابع، سان بطرسبورغ، ١٨٦٦ .
- المدونة التاريخية المغولية في القرن الثامن عشر، أولان أودا، ١٩٧٠ .
- الرحلات في الدول الشرقية، بلانو كاريني وروبروك، موسكو، ١٩٥٧ .
- المصادر الأرمنية عن المغول، موسكو، ١٩٦٢ .
- المصادر الصينية عن أوائل خانات المغول، ب. س. مونكوف، موسكو، ١٩٦٥ .
- الون لي : تاريخ الدولة الكيدانية، ترجمة وملاحظات ف. س. تاكسين، نقوش الخطوط الشرقية، موسكو، ١٩٧٩ .
- إلتشيجين : قوميات شمال الصين وأصول المغول، فصلة مستقلة .
- النسوي شهاب الدين محمد : وصف حياة السلطان جلال الدين مانكبورني، ترجمة وتعليق وملاحظات د. م. بونياتوف، باكو، ١٩٧٣ .

- أنباء المبشرين المجريين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر عن التتار في شرق أوروبا، أرشيف التاريخ، موسكو، لينينغراد، ١٩٤٠.
- THE HUNCE GHAZI TRUST
FOR QURANIC THOUGHT
- الوصف العام للتتار المغول، ترجمة مونكوف، مجلة نقوش الخطوط الشرقية، العدد ٢٦، موسكو، ١٩٧٥.
- ف. ف. بارتولد: جنكيز خان ١٩٢٢، عرض نقدي ب. ب. ي. فلاديمير تسوف، المؤلفات، المجلد الخامس، موسكو، ١٩٦٨.
- ف. ف. بارتولد: نشأة إمبراطورية جنكيز خان، المؤلفات، المجلد الخامس، موسكو، ١٩٦٨.
- بارتولد: تركستان في عهد الغزو المغولي، المؤلفات، المجلد الأول، موسكو، ١٩٦٣.
- بانزاروف: مجموعة المؤلفات، إعداد وملاحظات غ. أ. روميانتسوف، موسكو، ١٩٥٩.
- ز. م. بونياتفوف: دولة خوارزمشاه في الأعوام ١٠٩٧-١٢٣١، موسكو، ١٩٦٨.
- أ. ب. بيتروفسكي: حملات الجيوش المغولية في آسيا الوسطى في الأعوام ١٢١٩-١٢٢٤ ونتائجه، موسكو، ١٩٧٠.
- بين دايا: معلومات قليلة عن التتار السود، مجلة قضايا الاستشراق، ١٩٦٠، العدد ٥.
- تاريخ أول أربعة خانات من بيت أسرة جنكيز خان، سان بطرسبورغ، ١٨٢٩.
- تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، الإصدار الثالث، موسكو، ١٩٨٣.
- تشجان دي خوي: مذكرات رحال صيني في أيام تجواله في منغوليا في النصف الأول من القرن الثالث عشر، إيركوتسك، ١٨٦٧.
- تسزوتان شو: التاريخ القديم لأسرة تان، شنغهاي، ١٩٣٥.

- تشولوني دالاي : منغوليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، موسكو،

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURĀNIC THOUGHT

. ١٩٨٣

- خان جولين : جنكيز خان، بكين، ١٩٨٢ .

- دورونا تيب : الترجمة الجديدة مع تعليق مختصر «للتاريخ السري للمغول»
خوت خوت، ١٩٧٩ .

- رشيد الدين : مجموعة المدونات التاريخية، المجلد الأول، الكتاب الأول،
ترجمة ل. أ. خيتاغوروف، موسكو - لينينغراد، ١٩٨٣ .

- سانداغ : نشأة الدولة المغولية وجنكيز خان، التتار المغول في آسيا وأوروبا،
موسكو، ١٩٧٠ .

- ت. د. سكريتيكوف : المصطلحات النورانية المغولية للحاكم، المؤتمر الخامس
للباحثين في منغوليا، أولان باتور، ١٩٨٧ .

- ب. سومياباتور : النقش الأول المغولي للتشريع في القرن الثالث عشر، أولان
باتور، ١٩٨٤ .

- سوي شو : تاريخ أسرة سوي، شنغهاي، ١٩٣٥ .

- سين تان شو : التاريخ الجديد لأسرة تان، شنغهاي، ١٩٣٥ .

- سي يوي تسزي : وصف الرحلة إلى الغرب، ترجمة ب. كافاروف، أعمال
أعضاء البعثة التبشيرية الروسية في بكين، المجلد الرابع، سان بطرسبورغ،
١٨٦٦ .

- شاراتوجي : المدونة التاريخية المغولية في القرن السابع عشر، ترجمة شاستينا،
موسكو - لينينغراد، ١٩٥٧ .

- ن. ب. شاستينا : شخصية جنكيز خان في أدب القرون الوسطى المغولي، التتار
والمغول في أوروبا وآسيا، موسكو، ١٩٨٥ .

- إ. ش. شيفمان : اسكندر المقدوني، لينينغراد، ١٩٨٨ .

- غاو فيندي: العبودية عند المغول، فصلة مستقلة.
- م. ف. غوريليك: الأسلحة الدفاعية عند التتار المغول في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، معركة كوليكوف في تاريخ وثقافة روسيا، موسكو، ١٩٨٣.
- ل. ن. غوميلوف: البحث عن المملكة المختلفة، موسكو، ١٩٧٠.
- ل. ن. غوميلوف: روسيا القديمة والسهوب العظيمة، موسكو، ١٩٨٩.
- ف. ب. فاسيليف: تاريخ وقدم الجزء الشرقي لآسيا الوسطى من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر؛ مع ملحق لترجمات المعلومات الصينية عن الكيدانيين والتشجور تشجيين والمغول والتتار، سان بطرسبورغ، ١٨٥٧.
- ب. ي. فلاديمير تسوف: العصر الاجتماعي المغولي، الإقطاع المغولي المتنقل، لينينغراد، ١٩٣٤.
- م. ف. فورويوف: التشجور تشجيون ودولة تسزين، موسكو، ١٩٧٥.
- ر. ف. فياتكين وس. ل. تيخفينسكي: حول بعض الأسئلة عن علم التاريخ في جمهورية الصين الشعبية، «القضايا التاريخية»، ١٩٦٣، العدد ١٠.
- ل. ل. فيكتوروفا: المغول، أصل الشعب ومناخ الثقافة، موسكو، ١٩٨٠.
- م. س. كابيتسا: ولمرة أخرى حول دور جنكيز خان في التاريخ، «القضايا التاريخية»، ١٩٨٨، العدد ٧.
- إ. كالاشنيكوف: القرن القاسي، أولان أودا، ١٩٨٥.
- كوماي يويسياكي: مدخل في تاريخ المغول، كيوتو، ١٩٦١.
- ي. إ. كيتشانوف: سيرة تاريخ دولة التانغوت، موسكو، ١٩٦٨.
- ي. إ. كيتشانوف: مذكرة مساعد القائد العام لخارخوتو، مارس ١٢٢٥، «الدراسات التاريخية الفلسفية» مجلة سنوية ١٩٧٢، موسكو، ١٩٧٧.
- ماركو بولو: كتاب ماركو بولو، موسكو، ١٩٥٦.

- مذكرات رحال صيني في النصف الأول من القرن الثالث عشر، ترجمة

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURĀNIC THOUGHT

١٨٦٧، إركوتسك، كافاروف،

- ن. ت. موكتوف: مواد جديدة عن وضع الرعاة المغول في القرنين الثالث عشر

والرابع عشر، التتار المغول في آسيا الوسطى وأوروبا، موسكو، ١٩٧٠.

- غ. أ. ميخايلوف: الموروث الأدبي للمغول، موسكو، ١٩٦٩.

- نامويون: عن طبيعة المجتمع المغولي في الفترة بين القرنين الحادي عشر والثالث

عشر، فصلة مستقلة.

- ف. غ. يان: جنكيز خان، نوكوس، ١٩٧٢.

- يوان تشاوشي: تاريخ أسرة يوان، المجلد الأول، بكين، ١٩٦٨، تحرير خان

جولين.

- يوان شي: تاريخ أسرة يوان، شنغهاي، ١٩٣٥.

Ata-Malik-Juvaini. The History of the World Conqueror. Trans.

A. Boyle. L., 1958 Barckhausen I. L'Empire jeune de Genghis-Khan. P., 1935.

Ch'i-ch'ing. The Military Establishment of the Yuan Dynasty.

Cambridge-Mass and London, 1978.

Cleaves F.W. The Historicity of the Baljuna Covenant. Harvard Journal of Asiatic Studies. Vol. 18, 1955.

Douglas R.K. The Life of Jenghiz Khan. L., 1877.

Edeni-yin Tobci. Geschichte der Ost-Mongolen und Ihres Furstenhaus. St. Petersburg, 1829.

Franke H. From Tribal Chieftain to Universal Emperor and God.

The Legitimation of the Yuan Dynasty. - Bayerische Akademie der Wissenschaften. Philosophisch-Historische Klasse. Sit-

zungsberichte. Jahrgang. 1978. Hf. 2.

Franke H. Fremdeherrschaften in China und ihr Einfluss auf die staatlichen Institutionen. (10-14 Jahrhundert). - Osterreichischen Akademik der Wissenschaften, 122. Philosophische-Historische Klasse. 1985, no. 3.

Grousset r. l'Empire du Monde. P., 1941.

Hambis L. L'Histoire des Mongols avant Gengis-Khan d'apres les sources chinoises et mongoles et la documentation conserve par Rashidu-d-Din. - Central Asiatic Journal. Vol. 19. 1970, No. 1-3.

Krause E.A. CingisHan. Die Greschichte seines Leben nach den Chinesischen Reichs Annalen. Heidelberg, 1922.

Lamb H. Genghis Khan. Empetor of all Men. L., 1928.

O sostave velikii G. V. O sostane velikoi Iasy Chingis-khana. - Studies of Russian and Oriental History. Bruxelles, 1939.

Pelliot P. Notes on Marco Polo. I. Ouvrage posthume. P., 1959.

Pelliot P. Mongols et la papaute. P., 1923.

Rachewiltz I. de. Personal and Personalities in North China in the Early Mongol Period. Journal of the Economic and Social History of the Orient. Vol. 9. 1966.

Rachewiltz Ig. de. Some Remarks on the Ideological Foundation of Chingis Khans Empire. Paper on F Ar Eastern History. Vol. 7, 1973.

The Secret. History of the Mongol. Transl by Igor de Rachewiltz - Papers of Far Eastern History. 1971. No. 4; 1972, No. 5; 1974,

No. 10; 1976, n. 13; 1977, No. 16; 1978, No. 18; 1980, No. 21; 1981, No. 23; 1982, No. 26; 1984, No. 30; 1985, No. 31.

Ratschnevsky P. Cinggis-Khan. Sein Leben und Wirken. Munchener Ostasiatische Studien. Bd. 32. Wiesbaden, 1983.

Raverty. Tabakat-k-nasiri. A General History of Muhammadan Dynasty. Vol. 1-II. L., 1881.

Tamura Jitsuzo. The Legend of the Origin of the Mongol and Problem Concerning Their Migration. - Acta Asiatica, 1973, 24..

- ٥ ويلون وإيسوغاي باتور
- ٩ الهجرة غرباً
- ٢٣ الدولة المغولية الأولى
- ٣١ والد تيموتشجين
- ٣٩ «شعب مجهول وغريب»
- ٧٥ «غاصت ينابيع المياه وتصدع أبيض الصوان»
- ٩٩ «فليكونوا أفتاناً عند عتباتكم»
- ١١١ لقد عثرت على ما بحثت
- ١١٩ أولوسي الخاص
- ١٣٩ الأخوة الأعداء
- ١٤٩ غزو التتار
- ١٦٤ الثأر للآب
- ١٧٧ من سيكون حاكم السهوب؟
- ٢٠٥ كوريلتاي العظيم
- ٢٢٧ ثروة دولة التانغوت
- ٢٤٣ الساحر كوكوتشو
- ٢٥٣ تحقيق وصية أمباغاي خاغان
- ٢٧٣ الكارثة الأوتراية
- ٣١٣ موت جنكيز خان

٣٣٧	شخصية جنكيز خان
٣٥٩	سمة العصر
٣٩٧	المصادر
٤٠٥	الفهرس

وقف الأمير غازي آل سفيان
وقف الأمير غازي آل سفيان

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT



Juma Al majid Center
for Culture and Heritage



0100000613324

1250104-

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ص.ب ٥٥١٥٦ - دبي - الإمارات العربية المتحدة

هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١ + - فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١ +



E-mail: info@almajidcenter.org - www.almajidcenter.org